تهذيب التفسير وتجريد التأويل

مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل

عبد القادر شيبة الحمد
عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية سابقاً
والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

الجزء الرابع

ح عبد القادر شيبة الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنيّة أثناء النشر
شيبة الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل وردىء الأقاويل./عبد القادر شيبة الحمد-ط2..- الرياض،1432هـ
٦مج.

ردمك٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٠-٧٧٥٤-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٤)

١-القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي٦/٢٢٧ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٠-٧٧٥٤-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٤)

الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

دمشق هاتف: ٢٢٢٤٩٩٠ فاكس: ٢٢٣٨٤٩٠ ص.ب ١٣٢٧٧ موبايل: ٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٦٣٩٩ بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٢٨٣٢
E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

قال تعالى : ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ فِى يَتَامَى النِّسَاءِ الَّـٰتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً .﴾

قد ذكرت في مطلع تفسير هذه السورة الكريمة أنها سميت سورة النساء لأن الله تعالى شرع فيها قواعد صيانة حقوق النساء ، وأخرجهن من رق الجاهلية إلى حرية الإسلام ورفعهن من أعماق المهانة والاستكانة إلى حيث استنشقن عبير العزة والكرامة ، وجعل لهن نصيبا من الميراث بعد أن كن نصيبا من الميراث ، وفرض الله لهن على الأزواج مهراً جعله حقا خالصا للمرأة تتصرف فيه كيف تشاء ، وحرَّم على الرجال عضلهن في أحكام كثيرة تميزت بها المرأة في الإسلام ، وقد صدَّر الله تبارك وتعالى هذه السورة الكريمة بأمر جميع المكلفين بتقوى الله عز وجل الذي خلقهم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء وأشار إلى تأكيد حق الأرحام ووجوب الإحسان إليهم ، وبعد أن ساق في تقرير حقوق النساء نحو خمس وثلاثين آية من صدر هذه السورة المباركة ، ونبه أثناء ذلك إلى وجوب رعاية حقوق اليتامى عامة وحقوق يتامى النساء بخاصة ، ثم أمر عز وجل بعبادته وحده لا شريك له وبوجوب الإحسان للوالدين ولذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ، وما ملكت يمين الإنسان ، ونهى عن الاختيال والفخر والبخل والرياء والكفر بالله واليوم الآخر ، وحض على وجوب طاعة رسول الله ﷺ وضرورة الاحتكام إلى شريعته ، وأشار إلى منزلته ﷺ عند ربه ، وبيَّن ما تفضل الله به على عباده من تيسير التشريع ، وندَّد بمن يعادي رسول الله ﷺ من المنافقين واليهود وسائر

الكفرة، وفضح مواقفهم المخزيـة لهم في الدنيا والآخرة وحرَّض المسلمين على قتـال أعـداء الله حتى تكـون كلمة الله هي العليـا، وشرع لهم صـلاة السفـر وصـلاة الخوف ثم شرح لهم خطـوات الشيطـان التي يضل بها من ينقـاد لـه حتى يحذرهـا المسلمون وختم ذلك ببيـان الدين الحق الـذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، ولما كان بعض المسلمين من شدة حرصهم على صيانة حقوق النساء واليتـامى وخوفهم من الله عز وجل أن يقصروا في هذه الحقـوق صاروا يسألون رسول الله ﷺ مـزيداً من البيان عن حقوق النسـاء واليتامى فأنزل الله عـز وجل هنا قـوله تبـارك وتعـالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ في النسـاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عليكم في الكتـاب في يتَامى النساء اللاتي لاَ تُؤْتـونَهُنَّ مَا كُتِبَ لهن وَتَـرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُـوهنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الـوِلْدَانِ وأَنْ تَقُـومُوا لليتـامَى بِالْقِسْطِ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله كَانَ به عَلِيماً.﴾ وقد أخرج البخاري في الشركـة في بـاب شركـة اليتيم وأهل الميراث ومسلمٌ واللفظ لمسلم من طـريق يونس عن ابن شهـاب أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عـائشة عن قول الله: ﴿وإنْ خِفْتُمْ أن لا تُقْسِطُوا في اليتامى فَانْكِحُوا ما طاب لكم من النساء مَثْنَى وثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾ قالت يا ابن أختي هي اليتيمـة تكون في حجر وليها تشاركه في مـالـه فيعجبـه مـالها وجمالها فيريـد وليهـا أن يتـزوجهـا بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغـوا بهن أعلى سنتهن من الصـداق وأمـروا أن ينكحوا مـا طـاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هـذه الآية فيهن، فأنـزل الله عز وجل: ﴿ويَسْتَفْتُـونَكَ في النساء قل اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وما يُتْلَى عليكم في الكتاب في يتامى النساء الَّلاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ وَتَـرْغَبُـونَ أن تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قـالت: والـذي ذكـر الله تعالى أنـه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿وإنْ خِفْتُمْ ألا تُقْسِطُوا في

اليتامى فَانْكِحُوا ما طاب لكم من النسـاء﴾ قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى ﴿وَتَـرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ رغبـة أحدكم عن اليتيمـة التي تكون في حجـره حين تكون قليلـة المال والجمال، فنهـوا أن ينكحـوا ما رغبـوا في مـالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن. ثم ساق مسلم من طريق أبي صـالح عن ابن شهاب أخبرني عـروة أنه سأل عائشـة عن قول الله: ﴿و إن خفتم ألاَّ تُقْسِطُوا في اليتامى﴾ قال مسلم: وساق الحديث بمثل حـديث يـونس عن الـزهـري وزاد في آخـره: من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال، ثم ساق مسلم من طريق أبي أسامة حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة في قوله: ﴿وإن خِفْتُم ألاَّ تُقْسِطُوا في اليتامَى﴾ قالت: أنزلت في الرجل تكون له اليتيمة وهـو وليها ووارثها ولها مال، وليس لها أحد يخاصم دونها، فلا ينكحها لما لها فيضُـرُّ بها ويسيء صحبتها، فقال: إن خفتم ألا تقسطوا في اليتـامى فانكحـوا ما طـاب لكم من النساء، يقـول: ما أحللت لكم، ودع هـذه التي تضرُّ بها. ثم ساق مسلـم من طريق عبـدة بن سليمان عن هشـام عن أبيه عن عـائشـة في قولـه: ﴿وَمَا يُتْلَى عليكم في الكتـاب في يتامى النساء الَّلاتي لا تُؤْتُونَهُنَّ مـا كُتِبَ لهن وتَرْغَبُونَ أن تنكحوهن﴾ قالت: أنزلت في اليتيمـة تكون عند الرجل فتشركـه في ماله فيرغب عنها أن يتـزوجها ويكره أن يزوجها غيره فيشركـه في ماله، فيعضلها، فلا يتزوجهـا ولا يزوجها غيره. حدثنا أبو كريب حدثنا أبو أسـامة أخبرنا هشام عن أبيه عن عائشة في قـوله: ﴿ويستفتـونك في النساء قـل الله يفتيكم فيهن﴾ الآية، قـالت: هي اليتيمـة التي تكون عنـد الرجل لعلهـا أن تكـون قد شركتـه في مالـه حتى في العـذق، فيرغب عن أن يَنكحها ويكـره أن يُنكحهـا رجلاً فيشركـه في مالـه فيعضلها اهـ وقد قال البخاري في كتـاب التفسير من صحيحه: باب قوله: ﴿ويستفتونك في النسـاء قل الله يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ومـا يتلى عليكم في الكتاب في

يَتَامَى النساء﴾ حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكُمْ فِيهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها فتشركه في ماله حتى في العذق فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوِّجها رجلاً فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها، فنزلت هذه الآية اهـ وأصل الاستفتاء في اللغة هو السؤال عن أمر أو عن حكم مسألة وهذا السائل يسمى المستفتي والمسئول الذي يجيب: هو المفتى وقيامه بالجواب هو الإفتاء وما يجيب به يسمى الفتوى بفتح الفاء والفتيا بضم الفاء وفي إسناد الإفتاء في هذه الآية الكريمة إلى الله تبارك وتعالى إشعار بخطورة منصب الإفتاء وجلالته ولذلك قيل في الفتوى إنها توقيع عن الله تبارك وتعالى، والمعلوم عند أهل العلم أنه لا يحل لمسلم أن يُسمى الله تبارك وتعالى باسم أو يصفه بصفة إلا بما سمى الله عز وجل به نفسه أو وصف به ذاته المقدسة من الأسماء والصفات أو أخبر بذلك عنه رسوله ﷺ، فأسماء الله عز وجل وصفاته إنما تطلق إذا ثبتت عن الله عز وجل أو عن رسوله ﷺ، ولله الأسماء الحسنى؛ ومعنى قوله عز وجل: ﴿قل الله يُفْتيكم فيهن﴾ أي قل يامحمد للمستفتين في النساء: الله عز وجل يبيِّن لكم ما تسألون عنه من أحكام النساء، وقوله عز وجل: ﴿وما يُتْلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونَهُنَّ ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الوِلْدَانِ﴾ إحالة إلى الآية الثالثة من هذه السورة الكريمة وهي قوله عز وجل: ﴿وإن خفتُمْ ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثُلاَث ورباع﴾ وما بعدها مما بيَّن الله عز وجل فيه حقوق يتامى الإناث ويتامى الذكور في هذه السورة وفي غيرها مما نزل من القرآن الكريم قبل هذه الآية، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿والمستضعفين من الوِلْدان﴾ تنفير من ظلم

اليتامى وحضٌّ على الإحسان إليهم بسبب ضعفهم وعجزهم عن مقاومة من يريد ظلمهم، وقد شدد الله تبارك وتعالى النكير على من ظلمهم وتوعد ظالميهم بعذاب النار حيث قال تبارك وتعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ تأكيدٌ لوجوب المحافظة على حقوق اليتامى والعدل في معاملتهم سواء كانوا ذكوراً أو إناثا، كما قال عز وجل: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خيرٌ وإن تخالطوهم فإخوانكم، والله يعلم المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ﴾ ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿وما تَفْعَلُوا مِن خير فإنَّ الله كان به عليما.﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ومهما يكن منكم أيها المؤمنون من عدل في أموال اليتامى، التي أمركم الله أن تقوموا فيهم بالقسط والانتهاء إلى أمر الله في ذلك وفي غيره وإلى طاعته ﴿فإنَّ الله كان به عليما.﴾ لم يزل عالما بما هو كائنٌ منكم، وهو مُحْصٍ ذلك كله عليكم، حافظٌ له، حتى يجازيكم به جزاءكم يوم القيامة اهـ ولاشك أن تذييل هذه الآية الكريمة بهذا التذييل هو تهييج وحضٌّ على المسارعة والمبادرة إلى فعل الخيرات والمبرات لليتامى وغيرهم للفوز في الجنان بأعلى الدرجات.

قال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ من بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ، وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كان بما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ، وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ غَفُورًا رَحِيمًا.﴾

بعد أن أجاب الله تبارك وتعالى المستفتين رسول الله ﷺ في شئون النساء عما سألوا عنه وفوق ما سألوا عنه حيث زادهم وصيةً بحقوق يتامى النساء خاصة واليتامى عامةً شرع هنا يبين لهم مزيدًا من الأحكام التي تُربّي في نفوسهم حسن العشرة الزوجية، ووجوب الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان حيث يقول عز وجل: ﴿وإن امرأةٌ خافت من بَعْلِهَا نشوزا أو إعراضا فلا جُنَاح عليهما أن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ الآيات إلى قوله: ﴿وكان اللهُ وَاسِعًا حكيما.﴾ وظاهر هذا السياق الكريم يشعر أن المرأة في هذا المقام حريصة على بقاء الحياة الزوجية راغبةٌ في زوجها لكنها تخشى أن يفارقها إما لكبر سنها أو لغير ذلك، كما حدث لسودة بنت زمعة أم المؤمنين رضي الله عنها حين تقدم بها السنُّ وخافت أن يفارقها رسول الله ﷺ وهي حريصةٌ على أن تموت وهي في عصمة رسول الله ﷺ رجاء أن تبعث في نسائه يوم القيامة لتكون مع رسول ﷺ في منزله في الجنة وقد عرفت حبَّ رسول الله ﷺ لعائشة، فطلبت منه ﷺ أن تتنازل عن ليلتها لعائشة رضي الله عنهما، فقد روى البخاري في الهبة والشهادات من طريق يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها، غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي ﷺ تبتغي بذلك رضا

رسول الله ﷺ، وقال البخاري في كتاب الصلح من صحيحه: باب قول الله تعالى: ﴿أَنْ يَصَّالَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا والصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: ﴿وإن امرأةٌ خَافَتْ من بعلها نشوزاً أو إعراضا﴾ قالت: هو الرجل يرى من امرأته مالا يعجبه: كبَرًا أو غيره، فيريد فراقها، فتقول: أمسكني واقسم لي ما شئت، قالت: فلا بأس إذا تراضيا. وقال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه: حدثنا محمد بن مقاتل أخبرنا عبد الله أخبرنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: ﴿وإنِ امرأةٌ خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حلٍّ، فنزلت هذه الآية في ذلك. وقال البخاري في كتاب النكاح من صحيحه: باب ﴿وإن امرأةٌ خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا﴾ حدثني محمد بن سلام أخبرنا أبو معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ﴿وإنِ امرأةٌ خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا﴾ قالت: هي المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها، فيريد طلاقها ويتزوج غيرها، تقول له: أمسكني ولا تطلقني، ثم تزوج غيري فأنت في حلٍّ من النفقة علي والقسمة لي، فذلك قوله تعالى: ﴿فلا جُنَاحَ عليهما أن يَصَّالَحَا بينهما صُلْحًا، والصُّلْحُ خير﴾ وقال البخاري في كتاب النكاح أيضاً: باب المرأة تهب يومها من زوجها لضرتها، وكيف يقسم ذلك؟ حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا زهير عن هشام عن أبيه عن عائشة أن سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، وكان النبي ﷺ يقسم لعائشة بيومها ويوم سودة اهـ وقال مسلم في كتاب الرضاع من صحيحه: حدثنا زهير بن حرب حدثنا جرير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: ما رأيت امرأة أحب إليَّ أن أكون في مسلاخها من سودة بنت زمعة من امرأة فيها حدةٌ، قالت: فلما

كبرت جعلت يـومها من رسـول الله ﷺ لعائشـة، قالت: يـارسول الله: قـد جعلت يومي منك لعائشة، فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين، يومها ويـوم سودة، ومعنى قـولـه تعالى: ﴿وإن امـرأةٌ خـافت من بعلها نشـوزاً أو إعراضـا فلا جُنَاحَ عليهما أن يُصْلِحَـا بينهما صُلْحًا﴾ أي وإن تـوقعت زوجة من زوجها ﴿نشـوزا﴾ أي ترفعاً عليها بترك مضـاجعتها أو التقصير في نفقتها لبغضه لها وطمـوح عينه عنهـا ﴿أو إعراضا﴾ بـأن لا يكلمها ولا يأنس بها، وهي حريصـة على البقاء في عصمته فلهـا أن تسقط عنه حقهـا أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه، وله أن يقبل منها ذلك فلا حرج عليهـا في بذلها ذلك له، ولا حرج عليـه في قبوله منها، مـاداما قد تصـالحا على ذلك، وقـد قـرأ عـاصمٌ وحمزة والكسـائي ﴿أن يُصْلِحَـا بينهما صلحـا﴾ وقرأ البـاقـون: ﴿أنْ يَصَّالَحَا بينهما صُلْحًـا﴾ بفتح اليـاء وتشديـد الصاد وفتح الـلام، فعلى القراءة الأولى يكون المعنى: فلا حـرج على الزوجة والزوج أن يوقعـا بين نفسيهما صلحاً، وعلى القراءة الثانيـة يكون المعنى: فلا حـرج على الزوجـة والـزوج أن يتصالحا بينهما صلحـاً حيث تتنـازل المرأة عن حقها أو بعضه ويقبـل الرجل منها ذلك على أن يمسكها في عصمتـه. وقوله تبـارك وتعـالى: ﴿والصُّلْحُ خير﴾ أي والصلح بترك بعض الحق استـدامـة للرابطـة الزوجية وتماسكـا بعقد النكاح خير من الفـرقة والطلاق لأن الـوفاق أحب إلى الله من الفراق. قـال القرطبي: قولـه تعالى: ﴿والصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ لفظ عام مطلق يقتضي أن الصلح الحقيقي الـذي تسكن إليه النفوس، ويـزول به الخلاف خير على الإطلاق، ويدخل في هذا المعنى جميع ما يقع عليه الصلح بين الرجل وامرأته في مـال أو وطءٍ أو غير ذلك ﴿خير﴾ أي خير من الفرقة، فإن التمادي على الخلاف والشحناء والمبـاغضة هي قـواعد الشر، وقـال عليه السلام في البغضة: إنها الحالقـة يعني حالقة الدين لا حالقة الشعـر اهـ وقد

روى أبو داود والترمذي وقال: هذا حديث صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة؟ قال: قلنا: بلى. قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة. ومعنى قوله ﷺ: هي الحالقة أي هي الماحية المزيلة للمثوبات والخيرات. هذا ولا ينبغي للزوجة أن تعتبر الزوج معرضاً عنها بمجرد الصدود عنها فإن مطلق الإعراض والصدود قد يحدث للإنسان مع من يحب كما قال الشاعر:

إني لأَمْنَحُكِ الصُّدُودَ وإنني ... قَسَماً إليكِ مع الصدود لأَمْيَلُ

بل المراد: الإدبار عنها بالكلية. ومعنى قوله تعالى: ﴿وأحضرت الأنفسُ الشُّحَّ﴾ أي وقد جبلت أنفس النساء على شدة الحرص على أنصبائهن من أنفس أزواجهنَّ وأموالهم، فشح المرأة بنصيبها من زوجها في المبيت والنفقة ملازمٌ لها كأنه حاضرها لا يغيب عنها ولا تكاد تنساه. قال ابن جرير رحمه الله: والشح: الإفراط في الحرص على الشيء، وهو في هذا الموضع: إفراط حرص المرأة على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقته اهـ وفي قوله عز وجل هنا: ﴿وأحضرت الأنفس الشحَّ﴾ تنبيه للزوجين بأن يحذرا من اتباع الهوى، وتحريضٌ لهما على الصلح، فإن من حارب شح نفسه أفلح، كما قال عز وجل: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولٓئك هم المفلحون.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا.﴾ حضٌّ للزوجين على أن يحسن كل واحد منهما صحبة الآخر ما استطاع إلى ذلك سبيلا وأن يخاف الله عز وجل فيه بعد أن شرع لهما جواز تنازل أحدهما للآخر عن بعض حقه قِبَلَه في مقابلة بقاء عقدة النكاح لما في ذلك من المصالح كرغبة سودة بنت زمعة في أن ترافق رسول الله ﷺ في الجنة وتحشر في نسائه ﷺ ورضى الله عنهن جميعا، وقد يكون للمرأة أولاد من هذا الزوج وترضى بالبقاء في عصمته لتكون

بالقرب منهم لترعاهم وتحسن إليهم، وفي سبيل ذلك تتنازل للزوج عن حقها عليه أو عن بعض حقها. وفي قوله عز وجل: ﴿فإنَّ الله كان بما تعملون خبيرا.﴾ وعد بحسن المثوبة للمحسنين المتقين ووعيد بالعقوبة للمسيئين الذين لا يخافون الله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُواْ أن تَعْدِلُوا بين النساء ولو حَرَصْتُمْ فلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي ولن تقدروا أيها الأزواج عند تعدد زوجاتكم أن تقيموا العدل على أكمل وجه بين الضرائر مهما حاولتم أن تقيموا العدل بينهن، لأنكم بحكم جبلتكم وطبيعتكم لن تستطيعوا أن تساووا بين الضرائر من جميع الوجوه لتفاوت النفوس في الميول والشهوات والغرائز الجنسية، والله تبارك وتعالى إنما يكلفكم من العمل ما تطيقون، ولا يحملكم مالا تستطيعون، وميل نفس الزوج إلى إحدى زوجاته أكثر من غيرها مما لا يدخل تحت طاقة الإنسان وقدرته، غير أنه لا يجوز للزوج إذا أحب إحدى زوجاته أكثر من الأخرى أن يندفع وراء هذا الحب فيجور على من كان ميله لها أقل ويتركها كأنها معلقة بين السماء والأرض فهي محرومة من الصعود أو الاستقرار والمراد تركها كأنها ليست متزوجة وليست مطلقة، وقد كان بعض أهل الجاهلية إذا كرهوا المرأة أهملوها بالكلية وصارت كالشيء المعلق الذي لا يستفاد منه، ومنه ما جاء في حديث أم زرع: قالت الثالثة: زوجي العشنق، إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق. والأصل وجوب العدل في المبيت والنفقة وهذا شيء في مقدور الإنسان بخلاف الحب والميل الغريزي، ولذلك روى أحمد وأبو داود واللفظ له والترمذي والنسائي وابن ماجه بسند صحيح من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك. يعني القلب، وقد توعد الإسلام من يجور من الأزواج في هذا القسم المقدور عليه، فقد روى أبو داود والترمذي

والنسائي وابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إذا كانت عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط . فإذا تصالح الزوج والزوجة على إمساكها مع ترك حقها في القسم وكان الزوج على خوف من الله عز وجل وتقوى فلاحرج عليه كما تقدم ولذلك قال عز وجل هنا : ﴿وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما﴾ .

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلا مِنْ سَعَتِه، وكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيما. ولله ما في السموات وما في الأرض، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكتابَ من قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لله ما في السَّمٰواتِ وَمَا في الْأَرْضِ، وكانَ اللهُ غَنِيًّا حَمِيدًا. ولله ما في السموات وما في الأرض، وَكَفَى باللهِ وَكِيلا. إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بآخَرِينَ، وَكَانَ اللهُ عَلَى ذٰلِكَ قَدِيرًا. مَنْ كان يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا والْآخِرَةِ، وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. ﴾

بعد أن أرشد الله تبارك وتعالى الزوجة إذا أحست من زوجها نشوزا أو إعراضا أنه لا حرج عليها ولا على زوجها إذا تصالحا على أن تتنازل الزوجة لزوجها عن حقها أو بعض حقها قِبَله مقابل بقائها في عصمته مادام الزوج يوافقها على ذلك، وحضهما تبارك وتعالى على الصلح، وبيَّن لهما أن الصلح خير، مع تنفير الزوجة والزوج من الشح الذي قد يحول بين الزوجين وبين التصالح الذي قد يثمر بقاء عقدة النكاح وجمع الشمل بين الزوجين. وحذر الزوج أشد التحذير من الجور على الزوجة و إهمالها حتى تصير كالمعلقة التي لا هي أيمٌ ولا هي متزوجة، أشار عز وجل هنا إلى الحالة التي يبلغ فيها النفور بين الزوجين إلى حدٍّ لا يتمكن فيه الزوجان من إقامة حدود الله التي رسمها لكل واحد منهما، وأن بقاء عقدة النكاح في هذه الحالة لن تزيدهما إلا نفورا وتقصيرا في حق بعضهما وارتكاب بعض المآثم والمعاصي مما يجعل الطلاق خيرا من بقاء الحياة الزوجية لأن بقاء الحياة الزوجية حينئذ لا يجلب لهما إلا نكد العيش ومرارة الحياة كما قال الشاعر:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدوا له ما من صداقته بد

لذلك طمأن الله تبارك وتعالى الزوجين هنا بأنه لن يضيعهما، وأنه سيجود

على كل واحـد منهما من واسع عطائه بما يغنيـه عن صاحبه الـذي لم يتمكن معه من إقـامة حـدود الله التي رسمها للحياة الـزوجية السعيـدة حيث يقول تبـارك وتعالى هنـا : ﴿وإن يَتَفَرَّقَـا يُغْنِ الله كلا من سعتـه ، وكان الله واسعـا حكيما . ﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية : قال أبو جعفر: يعني بـذلك جل ثناؤه : فإن أبت المرأة التي قـد نشز عليهـا زوجها — إذ أعـرض عنها بـالميل منه إلى ضرتها لجمالها أو شبابها ، أو غير ذلك مما تميل النفـوس له إليها — الصلح بصفحها لزوجها عن يـومها وليلتها ، وطلبت حقها منه من القسم والنفقـة وما أوجب الله لها عليـه وأبى الـزوج الأخذ عليهـا بالإحسـان الـذي ندبـه الله إليـه بقولـه : ﴿وإنْ تُحْسِنُـوا وتتقـوا فإنَّ الله كان بما تعملـون خبيرا . ﴾ وإلحاقها في القسم لها والنفقة والعشرة بالتي هـو إليها مائلٌ ، فتفرقا بطلاق الـزوج إياها ﴿يُغْنِ اللهُ كُـلا من سَعَتِهِ﴾ يقـول : يغن الله الزوج والمرأة المطلقة من سعة فضله ، أما هذه ، فبزوج هو أصلح لها من المطلق الأول ، أو بـرزق أوسع وعصمـة ، وأمـا هـذا ، فبرزق واسع وزوجـة هي أصلح لـه من المطلقة ، أو عفـة ، ﴿وكان الله واسعـا﴾ يعني : وكان الله واسعـاً لهما في رزقه إيـاهما وغيرهما من خلقـه ﴿حكيما﴾ فيما قضى بينـه وبينهـا من الفـرقـة والطـلاق ، وسـائر المعـاني التي عـرفنـاهـا من الحكم بينهما في هـذه الآيـات وغيرها ، وفي غير ذلك من أحكامه وتدبيره وقضايـاه في خلقه اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولله ما في السمٰوات وما في الأرض﴾ أي وجميع ما في السموات وما في الأرض لله تبـارك وتعـالى ملكاً ومُلكـاً ، فهـو المالك الحاكم في السمـوات وجميع العالم العلـوي وهو المالك الحاكم في الأرض وجميع العـالم السفلي ، فلا يـوجد شيء في السمـوات أو في الأرض إلا وهـو في ملك الله وتحت سلطانـه يتصرف فيه كيف يشـاء ويحكم فيه بما يريد لا راد لقضـائه ولا معقب لحكمه وفي هـذا طمأنـة لقلب الـزوجين المتفـارقين بأن مـالك السمـوات والأرض

وملكهما الـذي يعلم السر والنجـوى لن يضيـع أحـدا من الـزوجين اللـذين تفارقـا خوفا من تضييع حـدود الله التي رسمها للحياة الزوجيـة السعيدة وأن التفارق لم يكن بطراً ولا اتباعـاً للشهوات الجامحة والطيش والتهور، والملاحظ أن الله تبـارك وتعالى ذكـر مالكيتـه للسمٰوات والأرض في هـذا «الثُّمْن» أربع مرات حيث قال: ﴿ولله ما في السمٰوات وما في الأرض، وكان الله بكل شيء محيطـا﴾ في الآية الســادسـة والعشرين بعـد المائة، وقـال هنا: ﴿ولله مـا في السمٰوات وما في الأرض، ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله، وإن تكفـروا فإن لله مـا في السمٰوات ومـا في الأرض، وكان الله غنيـا حميدًا. ولله مـا في السمٰـوات ومـا في الأرض، وكفى بالله وكيـلا.﴾ في الآيتين الواحدة والثـلاثين بعد المائة والثانية والثـلاثين بعد المائة. ولاشك أن ذكـره لمالكيتـه للسمٰوات والأرض في هـذه المواضع يقتضي تقـريـره وتأكيـده لمضمون مـا يقع هذا الذكر في حيـزه، وقد أشار إلى ذلك ابن جـرير رحمه الله حيث قال: يعني بذلك جل ثناؤه: ولله جميع ملك ما حوته السمٰوات السبع والأرضون السبع من الأشيـاء كلها، وإنما ذكـر جل ثناؤه ذلك بعقب قـوله: ﴿وإن يتفرقا يُغْنِ اللهُ كُلا من سَعَتِهِ﴾ تنبيهًا منه خَلْقَهُ على موضع الرغبة عند فراق أحـدهم زوجته، ليفزعـوا إليه عند الجزع من الحاجـة والفاقة والـوحشة بفراق سكنه وزوجته، وتذكيراً منه له أنـه الذي له الأشياء كلها، وأن من كان له ملك جميـع الأشياء، فغير متعذر عليـه أن يغنيه وكل ذي فـاقة وحـاجة، ويؤنس كل ذي وحشة اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَـدْ وَصَّيْنَا الذين أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ أي ولقد أمرنا جميع أهل الكتب السماوية التي نزلـت قبل القرآن العظيم كما أمرناكم في القـرآن الكريم بتقوى الله تبارك وتعالى، وإخلاص العبـادة لله وحده لا شريك له، والخوف منه في السر والعلن، والحذر من معـاصيـه وتعـدى حـدوده، وإسـلام الـوجـه لله

وحده، واتباع رسلـه، وذلك هو الدين الحق الذي بعث الله بـه جميع الرسل وأنزل بـه جميع الكتب، وهو ملة إبـراهيم الحنيفية السمحـة، فإن تطيعوا الله ورسوله محمدا ﷺ تهتدوا وتفلحوا وتفوزوا بسعادة الدارين، وإن تكفروا فلن تضروا إلا أنفسكم ولن تضروا الله شيئـا لأنـه غنـي حميـد، لا تنفعـه طـاعـة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، ولذلـك قال هنا: ﴿وإن تكفروا فإنَّ لله ما في السمٰوات ومـا في الأرض، وكان الله غنيًّا حميدًا. ﴾ أي وإن تعـرضوا عن وحي الـرحمن، وتنقادوا إلى وسـوسـة الشيطان، فلن تضروا من لـه ملك السموات والأرض، الذي يـؤتي ملكه من يشاء وينزع الملك ممـن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا راد لقضـائه، ولا معقب لحكمه، لأن الخلق خلقه، هم الفقراء إليـه، وهو الغني عنهم، وهو المحمـود لذاتـه، وصفاته، وأفعـاله، المستحق للحمد في السراء والضراء، وقد أكد الله تبـارك وتعالى هذا المعنى في غير موضع من كتابه الكريـم حيث يقول: ﴿ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغَنِيُّ الحَمِيدُ. إن يَشَأْ يُـذْهِبْكُمْ ويأت بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وما ذٰلك على الله بعزيز﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومَن في الأرض جميعـاً فإنَّ الله لَغَنِيٌّ حميد. ﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿ومَنْ يَتَوَلَّ فإنَّ اللهَ هـو الْغَنِيُّ الحَمِيـدُ. ﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿ذلك بـأنـه كـانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فكفروا وتَوَلَّوْا، واستغنى اللهُ، والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ. ﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿له ما في السمٰـوات وما في الأرض، وإنَّ الله لهو الغَنِيُّ الحميدُ. ﴾ وقوله تبارك وتعـالى: ﴿ولله ما في السمٰوات وما في الأض، وكفى بـالله وكيـلا. ﴾ هـذا تأكيـد لمالكيته عـز وجل لجميع مـا حـوت السمـوات والأرض وبيان لحفظه عز وجل لخلقه ولتدبيره إياهم على ما يريد، وأنه القائم على كل نفس بما كسبت، الـرقيب الحفيـظ الشهيـد على كل شيء، وقـولـه

تبارك وتعالى: ﴿إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيها النـاسُ وَيأت بآخَـرِينَ، وكانَ الله على ذٰلك قديرا. ﴾ تقرير وتأكيد لتمام قدرته، وكمال مشيئته، وتهديدٌ لأعدائه بأنه لو أراد استئصـالهم لاستأصلهم، فما شاء الله كان، ومـالم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قـديرٌ، ولا يمتنع عليـه شيء، ولا يعجزه إذهـاب الكافـرين وإفناؤهم وتبديلهم بناس صالحين يؤيـدون رسله، ويؤمنون بكتبه، كما قال عـز وجل: ﴿إنْ يَشَـأْ يُـذْهِبْكُمْ ويأتِ بخلقٍ جـدِيـدٍ. ومـا ذٰلك على الله بِعَزِيز. ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإنْ تَتَوَلَّـوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكمْ. ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كان يُـرِيدُ ثوابَ الدنيا فَعِنْدَ الله ثوابُ الدنيا والآخرة. ﴾ هذا ترغيب للمنحرفين عن الصراط المستقيم بالرجوع إليه، وتوجيههم إلى الإقبال على الله عز وجل، وتأنيب لمن كان لا هم له إلا حطام الحياة الدنيا بأنه لو أراد الخير لنفسه لم يقتصر على ثواب الدنيا الذي لا بقاء له ولا دوام، بل جعل همته متعلقة بنعيم الآخرة الذي لا يفنى ولا يزول، على أن كل نعيم في الـدنيا والآخـرة إنما هو بيـد الله وحده الـذي له ملك السمـوات والأرض، وله الـدنيا والآخرة، كما قـال عز وجل: ﴿مَنْ كـان يريد العـاجلة عجَّلْنَا له فيها ما نشاء لِمَنْ نُرِيدُ ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مَدْحُورًا. وَمَنْ أراد الآخرة وسَعَى لها سَعْيَهَـا وهو مؤمنٌ فأولٰئك كـان سَعْيُهُمْ مشكورا. كُلا نُمِدُّ هٰـؤلاء وهٰؤلاء من عطاء ربك، وما كـان عطاء ربك محظورا. ﴾ على أن طلاب الدنيا وحدها لا يحصل لهم كُلُّ ما يريدون، بخلاف طلاب الآخرة فإنه يحصل لهم كل ما يريدون، وفـوق ما يريدون، كما قال عز وجل: ﴿من كان يريد حـرثَ الآخرة نَزِدْ له في حرثه ومـن كان يريد حرث الدنيـا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب. ﴾ وقوله عز وجل: ﴿وكان الله سميعا بصيرا. ﴾ تذييل لتوبيخ المرائين، وتنبيههم إلى أن أعمالهم لا تخفى على السميع البصير.

قال تعالى: ﴿يَـاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِـالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُـوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَـابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ والْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ، وَمَن يكْفُرْ باللهِ وَمَلائِكَتِـهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا.﴾

لما كان القرآن العظيم إنما أنزل على رسول الله ﷺ لدلالة الخلق على الحق، وإقامـة العدل، كما قال عـز وجل: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ وقـد ساق الله تبارك وتعـالى في هذه السـورة المباركـة صوراً مشرقـة رسم فيها حقـوق النساء واليتامى وبخاصة يتامى النساء والوالدين وذي القربى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصـاحب بالجنب وابن السبيل، والمماليك، وأوجب على جميع المكلفين تقوى الله عـز وجل وضرورة الاحتكام إلى شريعتـه والكفر بالطاغوت، ونبه عبـاده إلى أنه وصى جميع الأمم بتقوى الله عز وجل، الذي له مـا في السموات ومـا في الأرض الغني الحميد، المهيمن على جميـع خلقه، القادر على كل شيء الـذي بيده وحده ثـواب الدنيا والآخرة، وجّـه الخطاب هنا للمؤمنين حيث أمرهم بأن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله، وأن يلتزموا بـذلك في جميع أحـوالهم وأقـوالهم مهما كـانت، وأن الله تبـارك وتعـالى أولى بجميع العبـاد من أنفسهم، وأنـه لا يجوز أن يحول الهوى دون إقـامـة الحق والعدل، وفي ذلك يقول: ﴿يـاأيها الذين آمنُوا كونوا قـوامين بالقِسْطِ شهداءَ لله ولو على أنفسكـم أو الوالديـن والأقربين، إن يكن غنيـا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أن تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلْوُوا أو تُعْرِضُوا فإنَّ الله كان بما تعملون خبيرا.﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامين بالقِسْطِ

شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فـلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أن تعـدلوا﴾ أي يـامعشر المستجيبين لله ولـرسولـه ﷺ، المصدقين بالله وملائكته وكتبـه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، احرصوا أشـد الحرص، وابذلوا كل ما في وسعكم لإقامـة العدل وإزالة الجور والظلم، ولا تعدلـوا عن العدل يمينا أو شمالا، ولا تأخـذكم في إقامته لـومة لائم، ولا يصرفكم عنه صارفٌ مهما كان، وأقيموه حتى على أنفسكم أو على الوالدين والأقربين، ولا تنحرفـوا عنه من أجل غِنى غنيٍّ، أو فقر فقير، فالله عز وجل أولى بكل إنسـان من نفسه، إذ هو رب الجميع وسيـدهم ومالكهم ورازقهم والمهيمن عليهم، واجتهدوا غاية الاجتهـاد أن تكون إقامتكم للعدل ابتغـاء وجـه الله ورغبـة فيما عنـده من جميـل المثـوبـة وعظيم الأجـر، وطلبـا لمرضاته، وهو وحده الذي بيده ثواب الدنيا والآخرة، وقولوا الحق ولو كان مرًّا فإنه أحلى عـاقبة ومـآلاً، إذ بالعـدل قامت السمـوات والأرض، والمراد بكون الإنسان قـوامًا بالقسط شهيـدا لله على نفسه أو والـديه والأقربين هـو أن يقر الإنسان بما عليه مـن حق لغيره، أو أن يقر بما على والده أو والدتـه أو أقاربه من حق للغير تحقيقـاً للعدالـة وإقامـة للقسط، ولا نزاع عنـد أهل العلم في جواز شهادة الإنسان على والديه أو أقـاربه بما يعرفه من الحقوق عليهم، ولا تعتبر الشهادة على الوالدين والأقربين من باب قطيعة الرحم بل هو من باب صلـة الرحم بتخليصهم من أسبـاب سخط الله، وعقـوبته لمن أكل الحقـوق وضيعها، فهي إعـانة لهم وليست إعانة عليهم، وهـذا بخلاف الشهادة لهم فإنها لا تقبل من الإنسان لنفسه أو لوالديه أو أقاربه دفعاً للتهمة، وكما يجب ويتحتم على المؤمن أن يكون قواماً بالقسط شاهداً لله عز وجل ولو على نفسه أو والديه أو أقاربه فإنه يجب ويتحتم عليـه أن يكون قواماً بالقسط شاهداً لله عـز وجل ولـو على عـدوه، وأن يلتزم بـالعـدل في الـرضـا والغضب والحب

والبغض وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، ولا يجْرِمَنكُمْ شَنَآنُ قومٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى واتقوا اللهَ، إن الله خبير بما تعملون.﴾ وقد وعد الله تبارك وتعالى القائمين بالقسط بأن يجعل لهم منابر من نور يوم القيامة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا. كما توعد تبارك وتعالى القاسطين الجائرين بأنهم يكونون حطب جهنم يوم القيامة حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وأما القاسطون فكانوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا.﴾ وحذر عز وجل من اتباع الهوى وبيَّن أنه يضل عن سبيل الله حيث يقول عز وجل: ﴿ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عن سبيل الله، إن الذين يَضِلُّونَ عن سبيل الله لهم عذابٌ شديد بما نَسُوا يوم الحساب.﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿فلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أن تَعْدِلُوا﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية وحب من تحبون أو بغض من تبغضون على ترك العدل في أموركم وشئونكم بل الزموا العدل وقوموا بالقسط في جميع أحوالكم وقضاياكم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ تَلْوُوا أو تُعْرِضُوا فإنَّ الله كان بما تعملون خبيرًا.﴾ قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وإن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾ قال مجاهد وغير واحدٍ من السلف: تلووا أي تحرِّفوا الشهادة وتغيروها، واللَّيُّ هو التحريف وتعمد الكذب، قال تعالى: ﴿وإنَّ منهم لفريقًا يَلْوُون ألسنتَهم بالكتاب﴾ الآية، والإعراضُ هو كتمان الشهادة وتركها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فإنه آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ وقال النبي ﷺ: خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يُسألها، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿فإنَّ الله كانَ بما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا.﴾ أي وسيجازيكم بذلك اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمَنُوا آمِنُوا بالله ورسولِهِ والكتابِ الذي نَزَّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبلُ، وَمَنْ

يَكْفُر بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسِلِهِ واليوم الآخرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا . ﴾ هذا الخطاب الكريم يشمل المؤمنين حقا ، وليس المقصود منه تحصيل الحاصل ، بل المراد حضُّ المؤمنين على الثبات على الإيمان وأركانه والإعلام بأن من ضيع منها ركنا فقد كفر وضل ضلالا بعيدا ، كما يشمل من آمن من المنافقين ثم مرض قلبه ونافق كما أشار إلى ذلك المثل الذي ضربه الله عز وجل للمنافقين في أوائل سورة البقرة حيث قال عز وجل : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ . ﴾ وكما أشار إلى ذلك عز وجل هنا في الآية التي تلي هذه الآية حيث يقول : ﴿إِنَّ الذين آمَنُوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كَفَرُوا ثم ازْدَادُوا كُفْرًا . ﴾ الآية . ثم قال بعدها مباشرة : ﴿بَشِّرِ المنافقينَ بأنَّ لَهُمْ عذابا أَلِيمًا . ﴾ والمراد من توجيه الخطاب لهم في هذا المقام هو ترغيبهم في الإيمان الدائم ودعوتهم إلى الثبات على الحق واجتناب التذبذب وتعريفهم بأركان الإيمان ، كما يشمل الخطاب الكريم هنا أهل الكتاب الذين يصدقون في الجملة ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض ، والمقصود من مخاطبتهم حضهم على الإيمان المطلق وتعريفهم بالإيمان النافع ، وإرشادهم إلى أركان الإيمان ، وأن من ضيَّع ركنا منها فقد ضل ضلالا بعيدا . والمقصود بالكتاب الذي نزَّل الله على رسوله هو القرآن العظيم المنزَّل على محمد ﷺ ، والمقصود بالكتاب الذي أنزل الله من قبل هو جميع الكتب المنزلة على المرسلين قبل نزول القرآن ، فالمراد بالكتاب هو جنس الكتاب المنتظم لجميع الكتب السماوية السابقة ، فهو وإن كان لفظه مفردًا فالمقصود منه العموم كلفظ الطفل في قوله تبارك وتعالى : ﴿أَوِ الطِّفْلِ الذين لم يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ إذ المقصود بالطفل هنا هم الأطفال وقد ذكرت هذه الآية الكريمة خمسة من أركان الإيمان الستة التي بيَّنها رسول الله ﷺ في حديث جبريل عندما سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان

وعلم الساعة، حيث أجابه عن سؤاله: ما الإيمان؟ فقال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره كما جاء في لفظ مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بيْنا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحدٌ، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يامحمد أخبرني عن الإسلام. قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. قال: ثم انطلق، فلبثت مليًّا، ثم قال لي: ياعمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم. ففي هذا الحديث الصحيح ذكر أركان الإيمان الستة بزيادة ركن الإيمان بالقدر خيره وشره عما ذكرته الآية الكريمة، ومن المسَلَّمات أن من وظيفة رسول الله ﷺ أن يبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم كما قال عز وجل: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لِتُبَيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانْتَهُوا﴾

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّـذِينَ آمنوا ثم كَفَرُوا ثم آمَنُوا ثـم كَفَرُوا ثم ازْدَادُوا كُفْرًا لم يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِـرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيـلا. بَشِّرِ المنافقين بِـأَنَّ لَهُمْ عَذَابًـا أَلِيما. الذين يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ المؤمنين، أَيَبْتَغُونَ عندهم الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعًا. وَقَدْ نَـزَّلَ عَلَيْكُمْ فى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكفَرُ بها وَيُسْتَهْـزَأُ بها فَـلا تَقْعُـدُوا معَهُمْ حتى يَخُوضُـوا فِي حَـدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ، إِنَّ اللهَ جَامِعُ المنافقين وَالكَافِرِينَ في جَهَنم جَمِيعًا.﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بـالثبات على الإيمان وأركانه وأعلمهم بأن من ضيَّع ركناً من هـذه الأركان فقـد كفـر وضل ضلالا بعيـدا، ورغب المنافقين الذين لاحت لهم أنوار الإيمان ثم مرضت قلوبهم وعميت بأن يرجعوا عن ضـلالهم ويستمـروا على الإيمان الدائم، ودعـاهم إلى الثبـات على الحق واجتناب التذبذب بين الإيمان والكفـر، وعرَّفهم بأركان الإيمان، وحض أهل الكتاب الـذين يصدقون في الجملة ببعض الأنبيـاء وببعض الكتب السماوية ويكفـرون ببعض الأنبيـاء وببعض الكتـب السماويـة ودعـاهم إلى الإيمان المطلق، وعرفهم بالإيمان النافع، وأرشدهم إلى أركان الإيمان، حذر هنا أشد التحذير من التذبذب بين الإيمان والكفر، وتوعد من فعل ذلك واستمر عليه ولم يثبت على الإيمان إلى الموت بأن الله لن يغفـر لـه ولن يهديـه سبيـلا حيث يقول عز وجل: ﴿إِنَّ الـذين آمنُوا ثم كفروا ثم آمنوا ثـم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ولا لِيَهْدِيَهُمْ سبيلا.﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنـه، ثم عـاد فيـه ثـم رجع، واستمـر على ضلاله، وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجًا ولا مخرجًا، ولا طريقًا إلى الهدى، ولهذا قال: ﴿لم يكن الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا.﴾ اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

وهو سبحانه في آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم، ثم ذكر من لا تُقبل توبته ومن مات كافرا، فقال: ﴿إنَّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازْدَادُوا كفرًا لن تُقْبَلَ تَوبَتُهُمْ وأولَئك هم الضَّالُّونَ. إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ من أحدهم مِلْءُ الأرضِ ذَهَبًا ولو افتدى به، أولَئك لهم عذابٌ أَلِيم وَمَالَهُمْ مِن ناصِرِين.﴾ وهؤلاء الذين لا تُقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالا: قيل لنفاقهم، وقيل لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه، وقيل لن تقبل توبتهم بعد الموت، وقال الأكثرون كالحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي: لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت، فيكون هذا كقوله: ﴿ولَيْسَتِ التوبةُ للذين يَعْمَلُونَ السيئاتِ حتى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموتُ قال إني تُبْتُ الآنَ وَلا الذين يَمُوتُونَ وهم كُفَّارٌ﴾ وكذلك قوله: ﴿إنَّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازْدَادُوا كُفْرًا لم يكن اللهُ ليغفر هم ولا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا.﴾ قال مجاهد وغيره من المفسرين: ﴿ازْدَادُوا كفرا﴾ ثبتوا عليه حتى ماتوا، قلت: وذلك لأن التائب راجعٌ عن الكفر، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفرا بعد كفر، فقوله: ﴿ثم ازْدَادُوا﴾ بمنزلة قول القائل: ثم أصروا على الكفر، واستمروا على الكفر وداموا على الكفر، فهم كفروا بعد إسلامهم، ثم زاد كفرهم ما نقص، فهؤلاء لا تقبل توبتهم، وهي التوبة عند حضور الموت، لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب ورجع عن كفره، فلم يَزْدَدْ بل نقص، بخلاف المصرِّ إلى حين المعاينة، فما بقي له زمانٌ يقع لنقص كفره فضلا عن هدمه، وفي الآية الأخرى قال: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ وذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا، قيل لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره، فإذا كفر بعد ذلك ومات كافرا حبط إيمانه، فعوقب بالكفر الأول والثاني، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قيل: يارسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: من أحسن في الإسلام لم

يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر. فلو قال: إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم، كان هؤلاء الذين ذكرهم في آل عمران فقال: ﴿إنَّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم﴾ بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا بعد ذلك، وهو المرتد التائب، فهذا إذا كفر وازداد كفرا لم يُغفر له كفره السابق أيضا فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد ازدادوا كفرا، فلا يدخلون في الآية اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَشِّر المنافقين بأنَّ لهم عذابا أَلِيمًا.﴾ هذا وعيد شديد لمن استمر على نفاقه ولم يرتدع بالتحذير والإنذار الذي ذكره الله عز وجل في الآية السابقة تخويفا للمذبذبين بين الإيمان والكفر، ومعنى: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما.﴾ أي وأخبر أيها الرسول العظيم الذين يكتمون الكفر ويظهرون الإسلام خبراً مؤلماً موجعًا يظهر أثره على بشرة وجوههم حتى تنكمش حزنا وألما بما أعد الله عز وجل لهم من العذاب في نار جهنم. وأصل البشارة الخبر بما يسر أو يسوء مما يظهر أثره على البشرة حيث تنطلق الأسارير عند سماع الخبر السار، وتنكمش وتتجعد عند سماع الخبر المحزن المفجع المؤلم، والبشرة هي ظاهر الجلد. وأكثر ما تستعمل البشارة في الخبر السار، فإذا استعملت في الخبر المسيء المحزن قُيدت بما يدل عليه كقوله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بعذابٍ أليم.﴾ وكقوله عز وجل هنا: ﴿بَشِّرِ المنافقين بأنَّ لهم عذابا أليما.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿الذين يتخذون الكافرين أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا.﴾ بيان لصفة من صفات المنافقين الذين أمر رسول الله ﷺ أن يبشرهم بأن لهم عذابا أليما، وإبراز للعلة التي دعت هؤلاء المنافقين إلى أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين حيث ظن هؤلاء المنكوسون المركوسون أن موالاتهم لليهود تجلب العزة والقوة والمنعة لهؤلاء الرعاديد

المنافقين، وهم في هذا كالغريق يتعلق بالغريق، فإن الله تبارك وتعالى كتب الذلة والمسكنة على اليهود وضربها عليهم أينما ثقفوا، والعزة لله وحده، فهو الذي يعزّ من يشاء ويذل من يشاء، وقد أعلن أن العزة والغلبة والمنعة والقوة قد كتبها عز وجل لأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أنا ورسلي، إنَّ الله قَوِيٌّ عزيز.﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿هم الذين يقولونَ لا تُنْفِقُوا على مَنْ عند رسول الله حتى يَنْفَضُّوا، ولله خزائن السمٰوات والأرض ولٰكنَّ المنافقين لا يفقهون. يقولون لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ، ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين ولٰكنَّ المنافقين لا يعلمون.﴾ فمن أراد العزة فليطلبها من الله، وليعتصم بحبله، كما قال عز وجل: ﴿مَنْ كان يريد العِزَّةَ فللَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّل عليكم في الكتاب أَنْ إذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بها وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إنَّكُمْ إذًا مِثْلُهُمْ، إنَّ الله جَامِعُ المنافقين والكافرين في جَهَنمَ جَمِيعًا.﴾ تحذير للمسلمين من مجالسة من يظهر الكفر بآيات الله أو من يستهزئ بها، وأنه لا يحل لمسلم أن يقعد معهم إلا إذا كفوا ألسنتهم عن إظهار الكفر بآيات الله وعن الاستهزاء بها، وأن من جالس هؤلاء الكافرين والمستهزئين بآيات الله راضيا بعملهم مقرًّا لهم فهو كافر مثلهم مشارك لهم في المآثم والمعاصي مركوس معهم في نار جهنم حيث يجمع الله فيها المنافقين والكافرين جميعا. والذي نَزَّل الله في الكتاب للتحذير من مجالسة الذين يظهرون الكفر بآيات الله أو الاستهزاء بها هو قوله عز وجل في سورة الأنعام: ﴿وإذا رأَيْتَ الذين يخوضُونَ في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غَيْرِهِ، وإما يُنْسِيَنَّكَ الشيطانُ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين.﴾ والمراد بآيات الله في هذا المقام هو القرآن العظيم والذكر الحكيم، أي وإذا سمعتم الكفر بآيات الله أو سمعتم الاستهزاء بها في مجلس

فلا تجلسوا مع الكافرين بآيات الله أو المستهزئين بها حتى يتركوا هذا الكفر وهذا الاستهزاء، وقد أوقع السماع على الآيات والمراد سماع الكفر والاستهزاء، كما تقول: سمعت عبد الله يلام أي سمعت اللوم في عبد الله. وهذه الآية الكريمة وإن كانت مسوقة للتحذير من مجالسة من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها في مجلسه فقد حملها كثير من الأئمة على النهي كذلك عن مجالسة أهل الباطل الذين يُظهرون باطلهم في مجلسهم ويتبجحون به. قال القرطبي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي غير الكفر ﴿إنكم إذًا مِثْلُهُمْ﴾ فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر، قال الله عز وجل: ﴿إنكم إذًا مِثْلُهُمْ﴾ فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم، وبنحو ذلك كان جماعة من الأئمة الماضين يقولون تأوُّلا منهم هذه الآية أنه مرادٌ بها النهي عن مشاهدة كل باطل عند خوض أهله فيه، ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى قال: حدثنا إسحاق قال: حدثنا يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي عن أبي وائل قال: إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس من الكذب ليضحك بها جلساءه فيسخط الله عليهم، قال: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال: صدق أبو وائل، أو ليس ذلك في كتاب الله؟: ﴿أَنْ إذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بها وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إنكم إذًا مِثْلُهُمْ﴾ حدثني المثنى قال حدثنا إسحاق

قال: حـدثنا عبـد الله بن إدريس عن العلاء بـن المنهال عن هشام بـن عروة قال: أخـذ عمر بن عبـد العزيـز قومـا على شراب فضربهم، وفيهم صائم، فقالوا: إن هـذا صائم، فتلا: ﴿فلا تقعـدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذًا مثلهم﴾ اهـ.

قال تعالى: ﴿الَّذِين يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لكم فَتْحٌ من الله قالوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَـانَ للكـافِرِينَ نَصِيبٌ قَـالُـوا أَلَمْ نَسْتَحْـوِذْ عَلَيْكُمْ ونمنعكـم مِنَ الْمُؤْمِنِين، فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُم يَوْمَ القيامَةِ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ للكافِرِينَ على المؤمنين سبيلا. إنَّ المنـافقين يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُـمْ وَإذَا قَامُوا إلى الصلاة قـاموا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُون اللهَ إلا قَلِيلا. مُذَبذَبِينَ بَيْنَ ذٰلك لا إلى هَؤلاء ولا إلى هَؤلاء، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ له سَبِيلا.﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمدا ﷺ بأن يبشر المنافقين بما أعد الله لهم من العذاب الأليم، وذكر بعض صفـاتهم القبيحة، وحذر المسلمين من مجالسة من يكفر بـآيات الله ويستهزئ بها في مجلسه شرع يبيِّن هنـا مزيدًا من صفات المنـافقين البشعة فقـال عز وجل: ﴿الَّـذِين يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَـإِنْ كَانَ لكم فَتْحٌ من الله قـالوا أَلَمْ نَكُـن مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ للكـافِـرِينَ نَصِيبٌ قَالُـوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ونمنعكم مِنَ الْمُؤْمِنِين﴾ أي الذيـن ينتظرون ما يحل بكم من نصر أو هـزيمة فإن فتح الله لكم ونصركـم على أعدائكم وجعل لكم الظفـر والغلبـة وغنمتم تظاهـروا بأنهم معكم وتوددوا إليكم بألسنتهم، وإن كـانت الجولـة للكافـرين على المؤمنين وأصـابتكم هـزيمة ابتـلاء وامتحـانا تـوددوا للكافرين وازدلفـوا إليهم، وادعوا لهم أنهم إنما انتصروا على المسلمين بسببهم حيث أحاطوهم وصاروا كأنهم حصنٌ لهم ولم يمكنوا المسلمين منهم، فهؤلاء المنافقون جبناء رعاديد، لا هَمَّ لهم إلا أن يصـانعوا من تكون الجولة له، فهم كالنبـات المعروف باسم «عباد الشمس» الـذي يوجه وجهه إلى جهـة الدفء والشمس، وقـد فضح الله عـز وجـل خبيئتهم، ونبـه المسلمين إلى أن يبيِّنـوا للمنـافقين أن المسلمين على خير عظيم سـواء كـانت الجولـة لهم أو كـانت عليهم، فهم على إحدى الحسنيين: إما النصر على أعـداء الله وإما الشهادة

في سبيل الله ، والعاقبة للمتقين ، حيث يقول عز وجل : ﴿قل هل تَرَبَّصُون بنا إلا إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ ونحن نتربَّصُ بكم أن يُصِيبَكُمُ اللهُ بعذابٍ من عِنْدِهِ أو بأيدينا فَتَرَبَّصُوا إنا معكم مُتَرَبِّصُونَ .﴾ وقوله عز وجل : ﴿فاللهُ يَحْكُمُ بينكم يومَ القيامة﴾ أي فاللهُ تبارك وتعالى يقضي بين عباده يوم القيامة وهو عز وجل لا تخفى عليه خافيةٌ ، فلا تغتروا أيها المنافقون ولا تظنوا أن حقن الإسلام لدمائكم ورفع السيف عنكم في الحياة الدنيا ومعاملتكم معاملة المسلمين ينجيكم من عقاب الله يوم القيامة الذي تبلى فيه السرائر وينكشف ما في الضمائر، وإنما أجرى الإسلام عليكم أحكام المسلمين في الحياة الدنيا ظاهرا لإظهاركم الإسلام . ولله الحكمة البالغة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَنْ يجعل اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلا .﴾ قال ابن جرير رحمه الله : وأما قوله : ﴿فَالله يَحْكُمُ بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلا .﴾ فلا خلاف بينهم في أن معناه : ولن يجعل الله للكافرين يومئذ على المؤمنين سبيلا ، ذكر الخبر عمن قال ذلك : حدثنا ابن وكيع قال : حدثنا جرير عن الأعمش عن ذرٍّ عن يُسَيع الحضرمي قال : كنت عند علي ابن أبي طالب رضوان الله عليه فقال رجل : ياأمير المؤمنين أرأيت قول الله : ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون؟ قال له عليٌّ : ادنه ادنه ثم قال : ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ يوم القيامة ، حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا الثوري عن الأعمش عن ذَرٍّ عن يسيع الكندي في قوله : ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .﴾ قال : جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال : كيف هذه الآية : ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .﴾؟ فقال علي : ادنه : ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل الله﴾ يوم القيامة : ﴿للكافرين على المؤمنين سبيلا .﴾

اهـ وفي هذا ردع للمنافقين وترهيب لهم من موالاة الكافرين ببيان أن ما قد يحدث من جولة للكافرين على المؤمنين في بعض الأحيان فلا دوام له ولا بقاء، لأنه إنما يحدث للابتلاء وتكون العاقبة للمؤمنين، إذ العز الأبدي والنصر السرمدي فإنه للمؤمنين وحدهم يوم القيامة، ولن يكون للكافرين فيه جولة أبداً على المؤمنين، فلا توالوا الكافرين أيها المنافقون لأن دولتهم لا دوام لها، ووالوا المؤمنين أصحاب العز الأبدي والنعيم السرمدي. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ المنافقين يخادعون اللهَ وهو خَادِعُهُمْ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إلاَّ قَلِيلا. مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إلى هٰؤلاء وَلا إلى هٰؤلاء، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ له سبيلا.﴾ هذا بيانٌ لطرف آخر من قبائح أعمال المنافقين وكشفٌ لما هم عليه من الجهل ونقص العقل وقلة العلم، وقد تقدم في تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة في وصف المنافقين: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون.﴾ أن هذا بيان جليٌّ لما عليه المنافقون من جهلهم بالله عز وجل وعدم معرفتهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى إذ يظنون بالله ظن السوء ويحسبون أنه تجوز عليه حِيَلهم وأنه تخفى عليه سرائرهم فهم لذلك يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ويظنون أن الله لا يعلم ذلك، وأنهم ينجون من عذابه إذا نطقوا بالشهادتين وإن خالف ذلك سريرتهم وطويتهم وأنهم يحسبون أنه يروج على الله كما قد يروج على بعض المؤمنين، والواقع أن خداعهم إنما يرجع وباله عليهم وحدهم، وأن الله تعالى يدفع عن المؤمنين مكرهم ويدرأُ في نحورهم ولذلك قال عز وجل في سورة النساء: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ وقد أشار الله عز وجل إلى أن المنافقين يظنون يوم القيامة أنهم يخدعون الله عز وجل بالأيمان الكاذبة الفاجرة كما كانوا يفعلون ذلك مع المؤمنين في الدنيا حيث كانوا يجيئون إلى رسول الله ﷺ ويحلفون أنهم مصدقون بالإسلام وأنهم

يشهـدون أن محمـدا رسـول الله واتخذوا أيمانهم جُنَّـةً وفي ذلك يقـول الله عـز وجل : ﴿يَـوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جميعا فيحلفـون لـه كما يحلفون لكم ويحسبـون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكـاذبـون . ﴾ والخِداع أن يـوهم الإنسـان صـاحبـه خـلاف ما يـريـد بـه من المكروه ليـوقعـه فيه مـن حيث لا يشعر، أو يـوهمه المساعدة على ما يريد هو به ليغتر بذلك . اهـ قال ابن كثير رحمه الله : وقوله : ﴿وهو خـادعهم﴾ أي هو الـذي يستدرجهم في طغيـانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق والوصـول إليه في الدنيـا وكذلك يوم القيـامة كما قال تعـالى : ﴿يوم يقول المنـافقون والمنافقـات للذين آمنوا انظـرونا نَقْتَبِسْ من نوركم﴾ إلى قـوله ﴿وبئس المصير. ﴾ وقـد ورد في الحديث : من سمَّع سَمَّعَ الله بـه ، ومن رايـا رايا الله به . اهـ وقوله عز وجل : ﴿وإذا قـاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى﴾ بيانٌ لتبـاطؤهم وتثـاقلهم وتكـاسلهم إذا قـاموا إلى أفضـل الأعمال وأشرفها بعـد الشهـادتين وهي الصـلاة، لا ينشطـون لها ولا يفـرحـون بها بـل هي ثقيلـة عليهم ، وهذه الصفـة من أخص صفاتهم الظاهرة كما قـال عز وجل : ﴿ولا يأتـون الصلاة إلا وهم كُسَـالَى﴾ وقد روى البخـاري في صحيحه من طـريق الأعمش قال : حدثني أبو صالح عـن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : ليس صلاة أثقل على المنـافقين من الفجر والعشـاء ، ولو يعلمون مـا فيهما لأتوهما ولو حبوًا ، لقد هممت أن آمر المؤذن فيقيم ، ثم آمر رجلا يؤم الناس ، ثم آخذ شُعلاً من نـار فأحرق على من لا يخرج إلى الصـلاة بعد . وأخـرجه مسلم من طـريق الأعمش عن أبي صـالح عن أبي هريـرة قـال قال رسـول الله ﷺ : إنَّ أثقل صلاة على المنافقين صـلاة العشاء وصلاة الفجر، ولـو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبـوًا ، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقـام ، ثم آمر رجلا فيصلي بالنـاس ، ثم أنطلق معي برجـال معهم حزم من حطب إلى قـوم لا يشهدون الصـلاة فأحرق عليهم بيـوتهم بـالنار. وقـد أشـار الله تبارك وتعـالى إلى ثقل

الصلاة على غير المنيبين إلى الله حيث يقول: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين.﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلا. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَاسَ ولا يَذكُرُونَ الله إلا قليلا. مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذٰلك لا إلى هـٰؤلاء ولا إلى هٰؤلاء﴾ كشفٌ لخبث بواطنهم وفساد سرائرهم وانحراف طوياتهم وكفرهم بالله واليوم الآخر وحيرتهم في سلوكهم، وانغماسهم في الشك والتردد والتذبذب. فهم إن حضروا الصلاة أو عملوا شيئا من المعروف فعلوا ذلك رياءً وسمعة لا رغبة فيما عند الله، ولا يكاد يخطر على بالهم ذكر الله وهم ليسوا مع المؤمنين ظاهرا وباطنا، ولا مع الكفار ظاهرا وباطنا، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين وهم أشبه شيء بالشاة العائرة بين الغنمين أي المتحيرة المترددة لا تدري أي الغنمين تتبع فهي تكر في هذه مرة وفي هذه مرة لا تستقر على حال كما وصفهم بذلك أفصح الخلق الذي أوتي جوامع الكلم محمد رسول الله ﷺ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة. وفي لفظ: تكر في هذه مرة وفي هذه مرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فلن تجد له سبيلا.﴾ تذييل لبيان أسباب حيرتهم وذبذبتهم إذ حرمهم الله عز وجل من توفيقه، وخذلهم فلم يسددهم، ومن يضلل الله فلا هادي له.

قـال تعـالى: ﴿ياأيها الـذين آمنـوا لا تَتَّخِـذُوا الكَافِـرِينَ أَوْلِيَـاءَ من دُونِ المؤمنين، أَتُرِيدُون أن تجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـانًا مُبينًا. إنَّ المنافقين في الدَّرْكِ الأسفل من النار وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا. إلا الَّذينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا باللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فأولَئك مع المؤمنين وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا. ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ، وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا.﴾

بعد أن أمر الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ بأن يبشر المنافقين بأن لهم عذابا أليمًا الذين يتخـذون الكافرين أوليـاء من دون المؤمنين وأوضح بعض صفات المنافقين التي فضحتهم، وجـه الخطاب هنـا للمؤمنين وحـذرهم أن يتخذوا الكـافرين أوليـاء من دون المؤمنين فقـال عـز وجل: ﴿ياأيها الـذين آمنـوا لا تتخـذوا الكـافـرين أوليـاء من دون المؤمنين﴾ أي يـامعشر من استجـاب لله ولرسوله ﷺ وأقر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره: لا تجعلـوا أعـداء الله ورسلِـه بطـانتكم وخـاصتكم، ولا تصـاحبـوهم ولا تصادقوهم ولا تسروا إليهم بالمودة، ولا تفشوا إليهم أسرار المؤمنين، لأنهم لا يألونكم خبالا، ودُّوا ما عنتـم، وقد أعقب الله تبارك وتعالى نهي المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين بتحذيرين شديدين رادعين أشد الردع عن اتخاذ الكـافـرين أوليـاء مـن دون المؤمنين الأول منهما قـولُـه عـز وجل: ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينـا﴾ والثاني منهما قوله عز وجل: ﴿إنَّ المنـافقين في الـدَّرْكِ الأَسْفَلِ من النـار ولن تجد لهم نصيرا.﴾ وقـد أفـاد التحـذيـر الأول مـن هـذين التحـذيـرين أن من ادعـى الإيمان وهـو مـوال للكافرين فهـو كاذب في دعواه سالك سبيل المنافقين سـاع في تعريض نفسه لعقـوبـة الله وعـذابـه الـذي يسلطـه عـز وجل على أعـدائه من المنـافقين والكافـرين، وأفاد التحـذير الثاني أن عقـوبة المنافقين يـوم القيامـة هي أشد

العقوبات التي لن يستطيع أحد دفعها عنهم، وهم وإن جمعهم الله في جهنم مع الكافرين لكنهم يكونون في الدرك الأسفل من النار، ومعنى: ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا.﴾ أي أتحبون أن تعرضوا أنفسكم لغضب الله وعذابه بإيجابكم الحجة الظاهرة على أنفسكم بأنكم مستحقون لسخط الله وأليم عقابه حيث واليتم أعداءه، وقد علمتم أن من والى أعداء الله فليس من الله في شىء كما قال عز وجل: ﴿لا يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين ومَنْ يَفْعَلْ ذٰلك فليس من الله في شيءٍ إلا أن تَتَّقُوا منهم تُقَاةً، ويُحَذِّرُكم اللهُ نَفْسَهُ، وإلى الله المصير.﴾ والمراد بالدرك الأسفل من النار هو الطبق الأسفل من أطباق جهنم وقعرها السحيق، قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿إن المنافقين في الدَّرْكِ الأسفل من النار﴾ إن المنافقين في الطَّبَق الأسفل من أطباق جهنم وكل طبقٍ من أطباق جهنم «درك» وفيه لغتان: دَرَك بفتح الراء ودَرْك بتسكينها اهـ وظاهر القرآن الكريم يشعر أن المنافقين وآل فرعون يكونون في قعر جهنم وفي أشد العذاب كما قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ الساعةُ أَدْخِلُوا آلَ فرعونَ أَشَدَّ العذابِ.﴾ وبعد هذا الترهيب من سلوك طريق المنافقين رغب الله عز وجل المنافقين ومن نحا نحوهم وسلك منهجهم في التوبة إلى الله عز وجل والرجوع إليه وإصلاح أعمالهم، والاعتصام بالله عز وجل، وإخلاص الدين لله، وبشرهم بأن من أقلع عن النفاق وتاب إلى الله عز وجل وأصلح أعماله واعتصم بالله وأخلص دينه لله فسيحشره الله عز وجل مع المؤمنين الذين يمنحهم من فضله الأجر الجزيل والثواب الجميل يوم القيامة، ويسعى نورهم على الصراط بين أيديهم وبأيمانهم، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إلا الذين تابوا وأَصْلَحُوا واعْتَصَمُوا بالله وأخلصوا دينَهُم لله فأولَٰئك مع المؤمنين وسوف يُؤْتِ اللهُ المؤمنين أجرا عظيما.﴾ وقد روى البخاري في صحيحه من طريق

الأعمش قال: حدثني إبراهيم عن الأسود قال: كنا في حلقة عبد الله فجاء حذيفة حتى قام علينا، فسلَّم ثم قال: لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم، قال الأسود: سبحان الله، إن الله يقول: ﴿إنَّ المنافقين في الدرك الأسفلِ من النار﴾ فتبسم عبد الله، وجلس حذيفة في ناحية المسجد، فقام عبد الله، فتفرَّق أصحابه، فرماني بالحصا، فأتيته، فقال حذيفة: عجبت من ضحكه، وقد عرف ما قلت، لقد أُنزل النفاق على قومٍ، كانوا خيرا منكم ثم تابوا، فتاب الله عليهم والمراد بعبد الله في هذا الحديث: هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وإنما تبسم رضي الله عنه عند سماع كلام حذيفة رضي الله عنه لأنه عرف مراد حذيفة وصدق مقالته وأن مقصوده ألا يغتر الإنسان بما هو عليه من الاستقامة والصلاح لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء فلا ينبغي للعبد أن يأمن مكر الله قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح هذا الحديث: قوله «لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم» أي ابتلوا به لأنهم كانوا من طبقة الصحابة، فهم خير من طبقة التابعين لكن الله ابتلاهم فارتدوا، ونافقوا فذهبت الخيرية منهم، ومنهم من تاب فعادت له الخيرية، فكأن حذيفة حذر الذين خاطبهم وأشار لهم ألا يغتروا، فإن القلوب تتقلب، فحذرهم من الخروج من الإيمان، لأن الأعمال بالخاتمة، وبيَّن لهم أنهم وإن كانوا في غاية الوثوق بإيمانهم، فلا ينبغي لهم أن يأمنوا مكر الله، فإن الطبقة الذين من قبلهم وهم الصحابة كانوا خيرا منهم، ومع ذلك وجد بينهم من ارتد ونافق، فالطبقة التي هي من بعدهم أمكن من الوقوع في مثل ذلك، وقوله «فتبسم عبد الله» كأنه تبسم تعجبًا من صدق مقالته اهـ والاستثناء في قوله عز وجل: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأَخْلَصُوا دينَهُم لله فأولَئك مع المؤمنين﴾ الآية يدل على أن من ارتكب ذنبا مهما كان ثم تاب إلى الله عز وجل توبة نصوحا وأصلح واعتصم بالله

وأخلص دينه لله فإن الله عـز وجل يتوب عليه، كما قال تبـارك وتعالى: ﴿قل يـاعبـادي الـذين أسرفـوا على أنفسهم لا تقنطـوا من رحمة الله، إن الله يغفـر الذنوب جميعا، إنه هو الغفـور الرحيم.﴾ قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قولـه: ﴿إلا الذين تابـوا وأصلحوا واعتصموا بـالله وأخلصوا دينهم لله فأولَئك مع المؤمنين وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ المؤمنين أجـرا عظيما.﴾ قال أبو جعفر: وهذا استثنـاءٌ من الله جل ثناؤه، استثنـى التائبين من نفاقهـم إذا أصلحوا، وأخلصوا الـدين لله وحده، وتبرأوا من الآلهة والأنـداد، وصدقوا رسـوله، أن يكـونوا مع المصرِّين على نفـاقهم حتى توافيهم منـاياهم — في الآخـرة، وأن يـدخلوا مـداخلهم من جهنم، بل وعدهم جل ثنـاؤه أن يحلهم مع المؤمنين محل الكرامة، ويسكنهم معهم مسـاكنهم في الجنة، ووعدهم من الجزاء على توبتهم الجزيل من العطاء فقـال: ﴿وسوف يؤتِ اللهُ المؤمنين أجرا عظيما.﴾ قال أبو جعفر: فتأويل الآية: ﴿إلا الـذين تابوا﴾ أي راجعوا الحق، وآبوا إلى الإقرار بوحدانيـة الله، وتصديق رسوله وما جاء بـه من عند ربه من نفاقهم، ﴿وأصلحـوا﴾ يعني: وأصلحـوا أعمالهم فعملـوا بما أمـرهم الله بـه، وأدوا فرائضه، وانتهوا عما نهاهم عنه، وانزجـروا عن معاصيه، ﴿واعْتَصَمُوا بالله﴾ يقـول: وتمسكـوا بعهـد الله، وقـد دللنـا فيما مضـى قبل على أن الاعتصـام التمسك والتعلق فـالاعتصام بـالله: التمسك بعهده وميثـاقه الـذي عهد في كتابـه إلى خلقه من طـاعته وتـرك معصيته، ﴿وأَخْلَصُـوا دِينَهُم لله﴾ يقول: وأخلصـوا طـاعتهم وأعمالهم التي يعملونها لله فأرادوه بها، ولم يعملـوهـا رئاء الناس، ولا على شكٍّ منهم في دينهـم وامتراءٍ منهم في أن الله محص عليهم ما عملوا، فمجـازي المحسن بإحسانه والمسـيءِ بإساءته ولكنهم عملـوها على يقين منهم في ثـواب المحسن على إحسانـه، وجزاء المسيء على إسـاءته، أو يتفضل عليه فيعفو، متقربين بها إلى الله، مريدين بها وجه الله، فذلك معنى

إخلاصهم لله دينهم. ثم قال جل ثناؤه: ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ يقول: فهؤلاء الذين وصف صفتهم من المنافقين بعد توبتهم، وإصلاحهم، واعتصامهم بالله، وإخلاصهم دينهم، أي: مع المؤمنين في الجنة، لا مع المنافقين الذين ماتوا على نفاقهم، الذين أوعدهم الدرك الأسفل من النار. ثم قال: ﴿وسوف يُؤْتِ اللهُ المؤمنين أجرا عظيما.﴾ يقول: وسوف يعطي الله هؤلاء الذين هذه صفتهم على توبتهم وإصلاحهم واعتصامهم بالله وإخلاصهم دينهم له، وعلى إيمانهم ثوابا عظيما، وذلك درجات في الجنة، كما أعطى الذين ماتوا على النفاق منازل في النار وهي السفلى منها، لأن الله جل ثناؤه وعد عباده المؤمنين أن يؤتيهم على إيمانهم ذلك، كما أوعد المنافقين على نفاقهم ما ذكر في كتابه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ما يَفْعَلُ اللهُ بعذابكم إنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ، وكان الله شاكرا عليما.﴾ هذا تقريرٌ لما تقدم في الآية السابقة من إثابته عز وجل التائبين وتأكيد على أنه لا حاجة لله عز وجل في تعذيب من يعذب من العصاة وإثابة من يثيب من الطائعين لأنه عز وجل لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين فهو الغني عن العالمين، وإنما مدار تعذيبهم وجودًا وعدمًا إنما هو كفرهم بالله ورسله وجحودهم لآلاء الله ونعمه فمن شكر وآمن فله الجزاء الجميل ومن كفر وجحد فله العذاب الوبيل، وما في قوله عز وجل: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ استفهامية مفيدة للنفي على أكمل وجه وآكده كأنه قيل: أي شيء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم؟ أيتشفى به من الغيظ؟ أم يدرك به الثأر؟ أم يستجلب به نفعا وهو الغني الحميد، أم يستدفع به ضرًّا وهو الفعال لما يريد، إنما يعذبكم بذنوبكم، ويثيبكم بشكركم وإيمانكم، فمن فعل خيرا فليحمد الله ومن فعل شرا فلا يلومن إلا نفسه، والله شاكر للطائعين طاعتهم فيثيبهم على العمل الصالح القليل الأجر الجميل الجزيل، وهو العليم الخبير ولا يظلم ربك أحدا.

قال تعالى: ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ، وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا. إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا. إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا. أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا.﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى أنه لا يعذب الشاكرين المؤمنين الذين أحسنوا سريرتهم بالإيمان وعلانيتهم بالشكران، وأومأ إلى حبه لهم ولسلوكهم لأنه لا يعذب من يحب، ولذلك رد على اليهود والنصارى لما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه فقال لنبيه ﷺ: ﴿قل فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أشار هنا تبارك وتعالى إلى حبه للقسط بين عباده وأنه لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، وأنه يكره من العبد أن يجهر بالسوء من القول لأحد من الناس إلا أن يكون مضطرا إلى ذلك ببيان ظلم من ظلمه حيث لا سبيل إلى دفع ظلمه عنه إلا بذلك فإن له حينئذ أن يخبر عنه من يدفع ظلامته عنه سواء كان قد ظلمه في نفسه أو ماله حيث يقول عز وجل: ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الجَهَرَ بالسُّوءِ من القول إلا مَنْ ظُلِمَ﴾ وهو عز وجل يشير بذلك إلى أن الظالم مستحق لعذاب الله لأن الله لا يحب الظالمين، فمن جهر لأحد بالسوء من القول بلا حق كان ظالما يشمله هذا الوعيد، ويندرج عمله ضمن الأعمال التي يبغضها الله ولا يحبها، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن مطل الغنى ظلم يحل عرضه وعقوبته فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول

الله ﷺ قال: مطل الغنى ظلم، وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع. وقال البخاري في كتاب الاستقراض من صحيحه: باب لصاحب الحق مقال، ويذكر عن النبي ﷺ: لَيُّ الواجد يحل عرضه وعقوبته. قال سفيان: عرضه: يقول: مطلتني وعقوبته: الحبس اهـ وقال أبو داود: حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي حدثنا عبد الله بن المبارك عن وبر بن أبي دليلة عن محمد بن ميمون عن عمرو بن الشريد عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته. قال ابن المبارك: يحل عرضه: يغلظ له، وعقوبته: يحبس له. وقال النسائي: أخبرني محمد بن آدم قال: حدثنا ابن المبارك عن وبر بن أبي دليلة عن محمد بن ميمون عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته. أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: حدثنا وكيع، قال حدثنا وبر بن أبي دليلة الطائفي عن محمد بن ميمون بن مسيكة وأثنى عليه خيرا، عن عمرو بن الشريد عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح قول البخاري: ويذكر عن النبي ﷺ: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته: والحديث المذكور وصله أحمد وإسحاق في مسنديهما وأبو داود والنسائي من حديث عمرو بن الشريد بن أوس الثقفي عن أبيه بلفظه، وإسناده حسن اهـ ومعنى: لي الواجد أي مطل الغنى. وقال ابن ماجه في الصدقات من سننه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالا: ثنا وكيع ثنا وبر بن أبي دليلة الطائفي حدثني محمد بن ميمون بن مسيكة «قال وكيع: وأثنى عليه خيرا» عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته. والتنصيص على التحذير من الجهر بالسوء أي من رفع الصوت بالطعن في عرض المستور لغير المظلوم هو لبيان الواقع، فالجهر ليس قيدا بل مثله الإسرار كذلك إلا أن الجهر أشد أذى من

الإسرار، وكما يحرم الجهر بالسوء من القول فإنه يحرم الجهر بالسوء من الفعل كذلك، فقيد القول لا مفهوم له كذلك، والتنصيص عليه لأنه الغالب. ولاشك عند أهل العلم في جواز جرح الشهود والرواة بما يعرفه الجارح فيهم من شر وسوء إقامةً للقسط وحفظا للحق، ولا يحل لمسلم أن يجرح مسلما بما ليس فيه، فقد روى البخاري في صحيحه في كتاب الشهادات في باب الشهداء العدول، وقول الله تعالى: ﴿وأَشهدوا ذَوَيْ عَدْلٍ منكم﴾ و﴿ممن ترضَوْنَ من الشهداء﴾ من طريق حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن عبد الله بن عتبة قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن أناسا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرا أمنَّاه وقرَّبناه، وليس إلينا من سريرته شيء، والله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه، ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكان الله سميعا بصيرا.﴾ تذييل متضمن لوعد الوقافين عند حدود الله، ولوعيد المنتهكين لحرمات الله ومقرر لمضمون ما قبله وأن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية فهو سبحانه يسمع دبيب النملة ويرى حركاتها في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ولا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، قال الفخر الرازي رحمه الله في قوله تعالى هنا: ﴿وكان الله سميعا بصيرا.﴾ وهو تحذير من التعدي في الجهر المأذون فيه، يعني: فليتق الله، ولا يقل إلا الحق، ولا يقذف مستورا بسوءٍ، فإنه يصير عاصيا لله بذلك، وهو تعالى سميع لما يقوله، عليم بما يضمره اهـ وقوله تباك وتعالى: ﴿إنْ تُبْدُوا شيئا أو تُخْفُوهُ أو تَعْفُوا عن سُوءٍ فإنَّ الله كان عَفُوًّا قديرا.﴾ قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية الكريمة: اعلم أن معاقد الخيرات على كثرتها محصورة في أمرين: صدقٍ مع الحق وخُلُقٍ مع الخلق، والذي يتعلق بالخلق محصور

في قسمين: إيصال نفع إليهم ودفع ضرر عنهم، فقوله: ﴿إن تبدوا خيرا أو تخفوه﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم، وقوله: ﴿أو تَعْفُوا﴾ إشارة إلى دفع الضر عنهم، فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر اهـ ومجيء كان في مثل قوله عز وجل: ﴿وكان الله سميعا بصيرا﴾ ومثل قوله عز وجل: ﴿وكان الله عَفُوًّا قديرا.﴾ لتنبيه العباد بأن هذه الصفات ثابتة لله عز وجل وهو متصف بها أزلا ولا يزال متصفا بها، فهي صفات ذات لله تبارك وتعالى، قال الطحاوي رحمه الله في عقيدته المشهورة: مازال بصفاته قديما قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليا، كذلك لا يزال عليها أبديا، ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم الباري، له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخلق ولا مخلوق، وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم، ذلك بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير اهـ قال ابن أبي العز في شرح قول الطحاوي: مازال بصفاته قديما قبل خلقه إلخ: أي أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل ولا يجوز أن يعتقد أن الله وُصِف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده، ولا يرد على هذه صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصوير، والإماتة والإحياء، والقبض والبسط والطي والاستواء والإتيان والمجيء والنزول والغضب والرضى، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا،

ولكن أصل معناه معلوم لنا، كما قال الإمام مالك رضي الله عنه لما سئل عن قوله تعالى ﴿ثم استوى على العرش﴾ وغيرها: كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذٰلك سبيلا. أولٓئك هم الكافرون حقا، وأعتدنا للكافرين عذابا مُهِينًا. والذين آمنوا بالله ورسله ولم يُفَرِّقُوا بين أحدٍ منهم أولٓئك سوف يؤتيهم أجورهم، وكان الله غفورا رحيما.﴾ بعد أن حذَّر الله تبارك وتعالى المؤمنين من سلوك سبيل المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وأن هؤلاء المنافقين إن استمروا على نفاقهم إلى الموت صاروا في الدرك الأسفل من النار، وبيَّن عز وجل عدله مع عباده وفضله عليهم، وأنه يكره أن يجهر أحد بالسوء من القول إلى أحد إلا من كان مظلوما فله أن يجهر ببيان ظلم من ظلمه وحض عباده على بذل الخير سرًّا وعلنا، والعفو عن المسيئين رجاء ما عند الله وترغيبا للمسيئين في الرجوع إلى الله شرع هنا يوضح السبيل المعوج الذي يسلكه أهل الكتاب ويبين عز وجل حكمه فيهم حتى يرتدع المنافقون عن موالاتهم وتقليدهم، ويبين السبيل القويم والصراط المستقيم الذي يسلكه المؤمنون ترغيبا لمن يريد الخير لنفسه في سلوك سبيلهم حيث ذكر عز وجل هنا أن أهل الكتاب يكفرون بالله ورسله ويرغبون في التفريق بين الله ورسله حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله ويكفرون ببعض الأنبياء ككفر اليهود بعيسى ومحمد عليهما السلام وكفر النصارى بسيد المرسلين محمد ﷺ ويزعمون أن هذا السبيل المعوج هو سبيل الله، وجهلوا أن الكفر برسول واحد أو بنبي واحد هو كفر بجميع أركان الإيمان، ولذلك أخبر عز وجل أن هؤلاء هم الكافرون حقا وأنه هيأ لهم عقابا مذلاً لهم في نار جهنم، وأوضح أن العبد لا يكون مؤمنا حتى يؤمن بجميع أركان الإيمان وأن

من سلك سبيل المؤمنين مبشر بعظيم الدرجات وتكفير السيئات . وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في مواضع من كتابه حيث يقول : ﴿قولوا آمنا بالله وما أُنْزِل إلينا وما أُنْزل إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿قل آمنا بالله وما أُنزل علينا وما أنزل على إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا و إليك المصير. ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿كذبت قوم نوح المرسلين . ﴾ مع أنه لم يجئهم إلا نوح عليه السلام ولكن الله عز وجل جعل تكذيب نوح تكذيبا لجميع المرسلين ، وكذلك قوله عز وجل : ﴿كذبت عاد المرسلين . ﴾ وقوله : ﴿كذبت ثمود المرسلين . ﴾ وكذلك قوله ﴿كذبت قوم لوط المرسلين . ﴾ وقوله : ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين . ﴾ وكما قال في سورة القمر : ﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ وقال : ﴿كذبت قوم لوط بالنذر﴾ .

قال تعالى: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابا مِنَ السَّمَاءِ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ، ثم اتَّخَذُوا العِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَات فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ، وآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا. وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لهم لا تَعْدُوا في السَّبْتِ وأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا. فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ الله وقَتْلِهِم الأنْبِيَاءَ بغير حق وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهم فَلا يُؤْمِنُونَ إلا قَلِيلاً. وبِكُفْرِهِمْ وقولهم على مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوه ولَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، وإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ، مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ويومَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا. فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ الله كَثِيرًا. وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وأَعْتَدْنَا لِلكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.﴾

بعد الترهيب من سلوك سبيل أهل الكتاب المعوج والترغيب في سلوك طريق المؤمنين المستقيم شرع عز وجل هنا يذكر فضائح اليهود وتناقضاتهم وتعنتهم مع أنبياء الله ورسله وانتهاكهم لحرمات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق وغير ذلك من المخازي التي يندى لها الجبين مما يُنفِّر من له مسكة من عقل أن يسلك سبيلهم أو أن ينقاد لهم ويواليهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابا من السماء﴾ إلى آخر هذه الآيات، وقد ذكر الله عز وجل في هذا المقام من فضائح اليهود وقواصم

ظهورهم وكبريات جرائمهم خمس عشرة جريمة قاصمة، الأولى: تعنتهم مع شيخ المرسلين وخاتم النبيين وأفضل خلق الله أجمعين محمد ﷺ حيث طلبوا منه ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء يبصرون نزوله بأعينهم، يكون موجهاً إليهم بأشخاصهم يخبرهم أن محمدا هو رسول الله، وتعامى إخوان القردة والخنازير والجبت والطاغوت عن الكتاب الكريم والذكر الحكيم والقرآن العظيم الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سمعنا قرآنا عَجَبًا. يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فآمنا به ولن نُشْرِكَ بربنا أحدا.﴾ وقد شارك اليهود لعنهم الله إخوانهم أهل الجاهلية من مشركي قريش حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنَّةٌ من نخيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السماءَ كما زَعَمْتَ علينا كِسَفًا أو تأتي باللهِ والملائكة قَبِيلاً. أَوْ يكُونَ لَكَ بيتٌ من زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى في السماء ولن نُؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كتابا نقرؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إلا بَشَرًا رَسُولاً.﴾ أما القاصمة الثانية من القواصم والجرائم التي ارتكبها أهل الكتاب فقد وجهوها لكليم الله موسى عليه السلام الذي خلصهم الله به من العذاب المهين من فرعون، وبعد أن أمره الله فضرب لهم طريقا في البحر يبسًا، وأغرق الله عدوهم فرعون وهم ينظرون، مع ما شاهدوه من المعجزات الأخرى التي أجراها الله عز وجل على يد موسى عليه السلام ومع هذه الآيات الكبرى قالوا لموسى عليه السلام: أرنا الله جهرة، ونسبة السؤال لمعاصري رسول الله ﷺ من اليهود وإن كان السائلون هذا السؤال القبيح أباءهم الأقدمين لكن هؤلاء الموبخين راضون بما فعل آباؤهم ماشون على منهجهم، وقد وصف الله عز وجل هذه القاصمة بأنها أكبر من القاصمة الأولى حيث قال مواسياً لرسوله وحبيبه محمد ﷺ: ﴿فقد سألُوا مُوسَى أكبرَ من ذلك فقالوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ وقد

تقدم تفسير ذلك في قوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون.﴾ أما القاصمة الثالثة فهي ما ذكرها الله عز وجل بقوله: ﴿ثم اتخذوا العِجْلَ من بعد مَا جَاءَتْهم البيناتُ﴾ وقد تقدم بيان ذلك في تفسير قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿وإذْ وَاعَدْنَا موسى أربعين ليلةً ثم اتخذتُمُ العجل من بعده وأنتم ظالمون. ثم عفونا عنكم من بعد ذُلك لعلكم تشكرون.﴾ وفي تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾، ومعنى قوله عز وجل هنا: ﴿وآتينا موسى سلطانا مُبِينًا.﴾ أي وقد ارتكبوا هذه الجريمة الشنيعة مع مشاهدتهم لما أيد الله عز وجل به موسى عليه السلام من الحجة الظاهرة القاهرة التي تُعرِّف عباد الله بجلال الله وعظمته، وأنه لا إله إلا الله، أما القاصمة الرابعة فهي عدم امتثالهم لأمر الله عز وجل لما أمرهم أن يدخلوا الباب سجدا، وقد تقدم بيان ذلك في تفسير الآية الثامنة والخمسين من سورة البقرة، أما القاصمة الخامسة من قواصم وجرائم اليهود فهي اعتداؤهم في السبت، وقد تقدم بيان ذلك في تفسير قوله عز وجل: ﴿ولقد علمتم الذين اعْتَدَوْا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين. فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خَلْفَهَا وموعظة للمتقين.﴾ أما القاصمة السادسة فهي دأبهم على نقض العهود والمواثيق الغليظة، والقاصمة السابعة: كفرهم بآيات الله، والقاصمة الثامنة: قتلهم الأنبياء بغير حق، وقد تقدم بيان ذلك في سورتي البقرة وآل عمران. أما القاصمة التاسعة فهي قولهم: قلوبنا غلف. وقد تقدم تفسير ذلك في قوله عز وجل: ﴿وقالوا قُلُوبُنا غُلْفٌ، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون.﴾ وقال عز وجل هنا: ﴿بل طَبَعَ الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا.﴾ والطبع الرين والختم، وقد شابه اليهودَ إخوانهم مشركو العرب كما ذكر الله عز

وجل عنهم حيث يقول : ﴿وقالوا قُلُوبُنَا في أَكِنَّةٍ مما تَدْعُونَا إليه وفي آذَانِنَا وَقْرٌ ومن بَيْنِنَا وبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إننا عَامِلُون .﴾ وقد طبع الله عز وجل على قلوب جميع الكافرين كما قال : ﴿خَتَمَ الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غِشَاوَةٌ ولهم عذابٌ عظيم .﴾ أما القاصمة العاشرة فهي قولهم على مريم بهتانا عظيما ، حيث نسبوها إلى الزني وهي الطيبة الطاهرة العذراء البتول ، وقد جعل الله عز وجل رمي مريم بهذا البهتان كفرا كما توعد من رمى الصديقة بنت الصديق الحصان الرزان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بأنهم لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، أما القاصمة الحادية عشرة فهي دعواهم أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم وتباهيهم بذلك وافتخارهم به ، ولفظ : ﴿رسول الله﴾ إن اعتبر من تتمة قول اليهود فهو من تهكمهم به على حد قول مشركي قريش في حق محمد ﷺ : ﴿وقالوا ياأيها الذي نُزِّلَ عليه الذكر إنك لمجنون .﴾ وعلى حد قول فرعون في حق موسى عليه السلام : ﴿إنَّ رسولكم الذي أُرْسِلَ إليكم لمجنون .﴾ كأنهم قالوا : قتلنا المسيح عيسى ابن مريم هذا الذي يدعي أنه رسول الله ، ويمكن أن يكون منصوبا بأعنى مقدرة ، تفظيعا لعظم ما تباهوا به ، وقد أَكَّدَ الله تبارك وتعالى عدم تمكنهم من قتله وأنهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما ألقى الله عز وجل شبهه على أحد الماكرين بعيسى عليه السلام فقتلوا هذا الماكر، وأشار الله عز وجل إلى أنهم في شك من القتيل ، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿ومكروا ومَكَرَ اللهُ والله خير الماكرين .﴾ إلى قوله : ﴿واللهُ لا يحب الظالمين .﴾ أن إنجيل متى وإنجيل مرقص يقرران أن الذين أرادوا قتل المسيح وصلبه لم يكونوا يعرفونه ، وسقت نص الفقرة السابعة والأربعين والثامنة والأربعين من الفصل (الإصحاح) السادس والعشرين من إنجيل متَّى ونص الفقرة الثالثة والأربعين والرابعة والأربعين من الإصحاح الرابع عشر من إنجيل مرقص ما

يجزم بأنهم في شك واختلاف فيمن قُتل، وذكرت أنه قد جاء في أناجيل النصارى المعتمدة عندهم أن الله أوقع الشك حتى في قلوب الحواريين فصاروا يترددون: هل هذا هو يسوع الذي أخذ ليقتل ويصلب أو غيره. وقلت هناك: وإن تعجب فعجب أن يصدق النصارى اليهود في أنهم قتلوا المسيح، وصلبوه وبخاصة من انحرف عن الحق وزعم أن عيسى إله أو ابن إله، كيف يخطر على بال من له أدنى مسكة من عقل أن يعتقد أن الإله يصلب أو يقتل. ونقلت هناك ما ذكره «جورج سايل» الإنجليزي في ترجمته للقرآن أن فرقة من أقدم فرق النصارى أنكرت صلب المسيح وصرحوا بأن الذي صلب هو يهوذا الإسخريوطي الذي كان يشبهه شبهاً تاماً. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإنْ مِنْ أهل الكتاب إلا لَيُؤْمِنَنَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا.﴾ هذا تأكيد من الله تبارك وتعالى على أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب ولم يمت، وفيه إشارة إلى أنه ينزل إلى الأرض آخر الزمان ليقتل المسيح الدجال ويقيم شريعة محمد ﷺ ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويريق الخمر ويضع الجزية ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، وأن جميع اليهود والنصارى يتيقنون يومئذ أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها، ثم يقول أبو هريرة، واقرأوا إن شئتم: ﴿وإنْ مِنْ أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ به قبل موته ويَوْمَ القيامة يكون عليهم شهيدا.﴾ والأحاديث الصحيحة الثابتة في نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة وقتله الدجال قد بلغت حد التواتر، وهو من عقائد أهل

السنة والجماعة، وقد حكى غير واحد من الأئمة كفر من أنكر نزول المسيح قبل يوم القيامة، أما القاصمة الثانية عشرة فهي انغماسهم في الظلم الذي عجل الله بعض عقوبتهم بسببه حيث حرم عليهم بعض الطيبات التي كانت أحلت لهم، والقاصمة الثالثة عشرة هي صدهم عن سبيل الله والمبالغة في صرف الناس عن الدين الحق، والقاصمة الرابعة عشرة هي تعاطيهم الربا مع تحذير أنبياء بني إسرائيل لهم عن تعاطيه، وفي قوله عز وجل: ﴿وقد نُهُوا عنه﴾ رد على واضعي التلمود الذين زعموا لليهود أن الربا غير الفاحش جائز مع اليهودي وأن هذا شرع موسى وصموائيل افتراء على الله ورسوله، وأن الربا الفاحش جائز مع غير بني إسرائيل. أما القاصمة الخامسة عشرة فهي أكلهم أموال الناس بالباطل، وفي قوله عز وجل: ﴿وَأَعْتَدْنَا للكافرين منهم عذابا أَليمًا.﴾ ترهيب لمن استمر على كفره وارتكابه هذه القواصم من اليهود وترغيب في الرجوع إلى الدين الحق والاستجابة إلى إمام المرسلين وشيخ النبيين محمد ﷺ.

قال تعـالى : ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْـمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُـونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنـزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، والْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ ، وَالْمُؤْتُـونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُـونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا . إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كما أَوْحَيْنَا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْـدِهِ ، وَأَوْحَيْنَـا إِلَى إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَـاقَ وَيَعْقُـوبَ والأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنا دَاوُدَ زَبُورًا . وَرُسُلا قَدْ قَصَصْنَـاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلا لم نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وكَلَّـمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا . رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكان اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . ﴾

بعد أن ندد الله تبـارك وتعالى بالسلوك اليهـودي الشائن وذكر خمس عشرة قاصمة من كُبريات جرائم اليهود أوضح عز وجل هنا أن أهل الكتاب ليسوا سـواء ، وبين أن منهم طائفـة راسخة في العلم صـاروا في جملة المؤمنين ، قـد استجابـوا للحق الذي بعث الله بـه رسوله محمـدا ﷺ وآمنوا بـالقرآن العظيم وبالحق الـذي أنزله الله على جميع رسله وأنهم يقيمـون الصلاة ويؤتون الـزكاة ويؤمنون بـالله واليوم الآخر إيمانا صحيحا صادقـا ، وأن الله عز وجل أعد لهم أجـرا عظيما حيث يقـول عـز وجل هنـا : ﴿لَكِنِ الـراسخـون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنْزِلَ إليك وما أُنْـزِلَ من قَبْلِكَ﴾ الآية . وهذا شبيه بقوله تبارك وتعـالى : ﴿ضُرِبت عليهم الذِّلَّـةُ أَيْنَ ما ثُقِفُـوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءُوا بِغَضَبٍ من الله وضُرِبَتْ عليهم المَسْكَنَـةُ ، ذٰلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياءَ بغير حق ، ذٰلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون . ليسـوا سواء ، من أهل الكتـاب أمـة قائمـة يتلـون آيات الله آنـاء الليل وهم يسجدون . يـؤمنون بالله واليـوم الآخر ويأمـرون بالمعروف ويَنْهَـوْنَ عن المنكر ويسـارعـون في الخيرات وأولٰئك من الصـالحين . ومـا يفعلـوا من خير فلن

يُكْفَرُوهُ، واللهُ عليمٌ بـالمتقين . ﴾ والراسخـون في العلم منهم أي المتعمقون في العلم من أهل الكتـاب ذوو القدم الثـابتـة على الحق، المستقرون على اتبـاع الهدى، ونصب المقيمين في قـولـه تعالى: ﴿والمقيمين الصـلاة﴾ على المدح، أي وأمدح المقيمين الصلاة، ونظيره قـوله تبارك وتعالى: ﴿والموفـون بعهدهم إذا عاهدوا والصابـرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ بنصب الصابرين على المدح والتعظيم، ومن عـادة العرب أنهم إذا أرادوا لفت الانتبـاه إلى شيء يمدحونه أو يـذمونه غيروا إعرابه ولم يجعلوه على نسق مـا قبله أو بعده. ومنه قولـه تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والـذين هادوا والصابئون والنصـارى﴾ الآية. ومن ذلك قـول الخِرنق بنت هفـان إحـدى نساء بني سعـد بن ضبيعـة رهط الأعشى في رثاء زوجها بشر بن عمرو بن مـرثد وابنها علقمة بن بشر وأخويها حسان وشرحبيل، ومن قتل معهم من قومها:

لا يبعـــدن قومي الذين هموا ... ســـم العداة وآفـــة الجـــزر
النـــازلين بكـــل معتـــرك ... والطيبـــون معـــاقد الأزر

فقد نصبت النـازلين على المدح مع أن ما قبلـه مرفوع، ومـا بعده مـرفوع، لكنها لما أرادت لفت الانتبـاه إلى شجاعتهم نصبته قبل تمام كلامهـا وفي هذا ردٌّ على من زعم أن النصب على المدح لا يأتي إلا بعد تمام الخبر، وهو مذهب لا دليل عليه، وقد كثـر النصب على المدح قبل تمام الخبر، كما تقدم وكما قال الشاعر:

إلى الملك القـــرم وابـــن الهمـــام ... وليثَ الكتيبـــة في المزدحـــم
وذا الرأي حـين تغـــم الأمـــور ... بذات الصليل وذات اللجم

فقـد نصـب «ليث الكتيبـة» و«ذا الـرأي» على المدح مع أن الاسم قبلهما مخفوض، وكما قال الشاعر:

فليت التي فيها النجوم تواضـــعت ... على كـل غث منهمـــوا وســـمين

غيـوثَ الورى في كـل محـل وأزمـة　　　أسـودَ الشـرى يحميـن كل عرين

فقد نصب غيـوث الورى وأسـود الشرى على المدح وكما قال الشـاعر ابن خياط :

وكـل قـوم أطـاعوا أمـر مرشـدهم　　　إلا نمـيرا أطـاعت أمـر غاويهـا

الظـاعنين ولما يُظعنـوا أحـداً　　　والقائلـون لمـن دار نُخليهـا

وفي قوله عـز وجل : ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخـر﴾ لفت انتباه إلى بطلان دعوى عامة اليهود والنصارى بأنهم يـؤمنون بالله واليوم الآخر حيث زعموا أن العزير ابن الله وكما زعمت النصارى أن المسيح ابن الله فمن ادعى أن لله ولداً لم يكن إيمانـه بالله إيماناً صحيحـاً ، وكذلك من زعـم أن البعث يوم القيـامة بعث أرواح لا بعث أجسام وأن أجسـام البشر لا تحيا بعـد الموت فإن إيمانـه باليوم الآخـر إيمان غير صحيح ، ولذلك يقول عز وجل : ﴿قـاتلوا الذين لا يؤمنون بـالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمـون ما حرم الله ورسولـه ولا يدينون دين الحق من الـذين أُوتُـوا الكتاب حتى يُعْطُـوا الجزيـة عن يـدٍ وهم صاغـرون . وقـالت اليهـودُ عزَيـرٌ ابنُ الله وقـالت النصـارى المسيحُ ابنُ اللهِ ذٰلك قـولهم بأفـواههم يُضَاهِئُـونَ قول الـذين كفروا من قبلُ ، قـاتلهم الله أنَّى يُؤْفَكُـونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم ورُهْبَـانَهُم أربابـا من دون الله والمسيحَ ابنَ مَرْيَمَ ومـا أُمروا إلا لِيَعْبُدُوا إلَٰهًا وَاحِدًا لا إلَٰه إلا هو، سبحانه عما يُشرِكونَ . ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿أولٰئك سنـؤتيهم أجرا عظيما . ﴾ إشـارة إلى علو مـرتبة الـذين استجابـوا لله وآمنوا بـرسولـه محمد ﷺ من أهل الكتـاب كعبد الله بن سـلام رضي الله عنه وجماعة القسيسين والرهبـان الذين بكوا عند سماع القـرآن وسارعوا إلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وسـائر أركان الإيمان الذين أشار الله عز وجل إليهم في قوله تعالى : ﴿ذٰلك بأن منهم قسيسين ورُهْبَانًا ، وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أُنْـزِلَ إلى الرسولِ ترى أعينهم تَفِيضُ من الدمع ممـا عَرَفُوا من الحق

يقولـون ربنا آمنا فاكتبنـا مع الشاهدين . ومالنـا لا نؤمنُ بالله وما جـاءنا من الحق ونطمع أن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مع القوم الصـالحين . فَأَثَابَهُم اللهُ بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيهـا ، وذٰلك جَزَاءُ المحسنين . ﴾ ففي الإشارة بقـولـه عز وجـل : ﴿أولَئك﴾ المتضمنة لمعنى البعـد إشعـارٌ بعلـو درجتهم وارتفاع منـزلتهم في الفضل ، وقولـه عز وجل : ﴿سنـؤتيهم أجرا عظيما﴾ أي سنعطيهم جـزاءً حسنا كبيرا في جنـات الخلـد حيث يمتعون فيهـا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشر من النعيـم المقيم ، وقـد ثبت بالكتاب والسنة أن من آمن من أهل الكتاب بنبيه ثم آمن بمحمد ﷺ أن الله عز وجل يعطيه أجـره مرتين حيث يقول عز وجل : ﴿الـذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يُتْلى عليهم قالـوا آمنا به إنه الحقُّ من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولَئك يُؤتَـوْنَ أجرهم مرتين بما صبروا﴾ الآيتين . كما روى البخـاري ومسلم من حديث أبي مـوسى الأشعري رضي الله عنـه قال : قـال رسـول الله ﷺ : ثـلاثة لهم أجـران : رجل من أهل الكتـاب آمن بنبيـه وآمن بمحمد ، والعبـد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كـانت عنده أمـة يطؤهـا فأدبها فأحسن تأديبهـا ، وعلمهـا فأحسن تعليمها ، ثم أعتقهـا فتزوجها ، وفي تذييل هذه الآية الكريمـة بقوله تعالى : ﴿أولَئك سنؤتيهم أجرا عظيما . ﴾ مع تذييل الآية السـابقة بقوله عز وجل بعد تعـداد قصائم وجرائم اليهـود : ﴿وأعتـدنـا للكافـرين منهـم عذابـا أليما . ﴾ ضرب في الفصـاحـة والبـلاغـة والإعجـاز القـرآني رفيع ، وتنـاسـب وتنـاسق بلغ الـذروة في بـاب الترهيب والترغيب ، لا جـرم أنه كتـاب أحكمت آيـاته ثم فصلت من لـدن حكيم خبير. وقـولـه تبارك وتعـالى : ﴿إنـا أوحينا إليـك كما أوحينا إلى نـوح والنبيين من بعـــده ، وأوحينـا إلى إبـــراهيم وإسماعيل وإسحـاق ويعقـــوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمانَ ، وآتينا داودَ زَبُوراً . ورسلا

قد قَصَصْنَاهُمْ عليك من قَبْلُ ورسلا لم نَقْصُصْهُمْ عليك وكلَّمَ اللهُ مُوسَى تكْلِيما * رسلا مُبَشِّرين ومنذرين لئلا يكونَ للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرُّسُلِ، وكان الله عزيزا حكيما﴾ تقرير وتأكيد على أنَّ محمدا رسول الله ﷺ ليس بدعًا من الرسل، ولم يسلك غير درب المرسلين، وأن علماءَ أهل الكتاب يعلمون ذلك، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، لكنَّ أشقياءهم يكتمونه والراسخين في العلم منهم طُلَّاب الهدى يؤمنون به ويستجيبون له، وليس على الرسل إلا البلاغ، ولا يُعْجِزُ الله شيءٌ. وفي هاتين الآيتين تنديد وتهديد لليهود الذين حملهم بُغْضُهُمْ للحق الذي جاء به محمد ﷺ على أن يدَّعُوا أنَّ الله تعالى ما أنزل على بشر من شيء كما حكى الله تبارك وتعالى ذلك عنهم حيث يقول: ﴿وما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِه إذ قالوا ما أنزل الله على بَشَر من شيءٍ قل مَنْ أنزل الكتابَ الذي جاء به موسى نُورًا وهُدًى للناس تَجعَلُونَهُ قراطيسَ تُبْدُونَها وتُخْفُونَ كثيرًا وَعُلِّمْتُمْ ما لم تَعْلَمُوا أنتم ولا آباؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثم ذَرْهُم في خَوْضِهِم يَلْعَبُون﴾ وقد تَضَمَّنَ قولُه تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويُونُسَ وهارون وسليمان، وآتينا داود زبورا. ورسلا قد قصصناهم عليك من قبلُ ورسلا لم نَقْصُصْهُمْ عليك﴾. الآيتين، تضمن مماثلة رسول الله ﷺ لسائر رسل الله صلى الله عليهم وسلم في الوحي والرسالة وإيتاء الكتاب، وهو شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وَصَّى به نوحا والذي أوْحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ ولا تقتضي هذه المماثلة أنْ تكون شرائع الأنبياء واحدة، بل لكل نبي شرعته ومنهاجه الملائم لأمته كما قال عز وجل: ﴿لكل جعلنا منكم شِرْعةً ومِنْهَاجًا﴾ فأصولُ الدين لجميع الأنبياء والمرسلين واحدة، وفروعُ الدين متفاوتةٌ بحسب

الأمم وما يلائمها من الأحكام، وإلى ذلك أشار رسول الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليما.﴾ رد على من نفى صفة الكلام عن الله عز وجل، فإن التأكيد بالمصدر ينفي المجاز والتأويل، قال النحاس: أجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا. اهـ ومعنى قوله عز وجل ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل، وكان الله عزيزا حكيما.﴾ أي أرسلت رسلا يبشرون المؤمنين بالجنة وكريم ثوابها وينذرون العاصين بالنار وأليم عقابها حتى لا يحتج الجاحدون الضالون فيقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءهم البشير النذير عليه وعلى إخوانه النبيين من ربهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إليك أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ والملائكة يَشْهَدُونَ، وَكَفَى باللهِ شَهِيدًا. إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيدًا. إنَّ الذين كفروا وظلموا لم يكن الله لِيَغْفِرَ لهم ولا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقا. إلا طَرِيقَ جَهنَّمَ خَالِدِينَ فيها أَبَدًا، وكان ذٰلك على الله يَسِيرًا.﴾

بعد التنديد باليهود وسياق صور من جرائمهم مع أنبياء الله ورسله، والثناء على المؤمنين من أهل الكتاب الذين سارعوا إلى تصديق محمد رسول الله ﷺ واستقاموا على شرائع الإسلام، وبيان ما أعد الله لهم من الأجر العظيم والثواب الجليل، وبعد إعلان أن محمدا رسول الله ﷺ ليس بدعا من الرسل وأن صفة الوحي الذي أنزل عليه ﷺ كصفة الوحي الذي أنزله الله على نوح وسائر النبيين، وخص بالذكر منهم من يعلن أهل الكتاب أنهم يؤمنون بهم من النبيين، نبه تبارك وتعالى هنا إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس في حاجة إلى شهادة اليهود له بأنه رسول الله بل تكفيه شهادة الله له وشهادة الملائكة المكرمين، وكفى بالله شهيدا. وفي هذا مواساة كافية شافية لرسول الله ﷺ مما يلقاه من تعنت اليهود وسفاهتهم وسؤالهم كتابا ينزل عليهم من السماء موجها لأشخاصهم ليعترفوا ويشهدوا بأن محمدا رسول الله ﷺ، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿أنزله بعلمه﴾ أي أنزل عليك القرآن العظيم الذي يعلم السر في السموات والأرض ويعلم من يستحق أن ينال هذا الشرف العظيم ومن هو أهل أن ينزل عليه الكتاب من السماء، والله وحده هو الذي يعلم حيث يجعل رسالته، كما قال عز وجل ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نُؤتَى مِثلَ ما أُوتِيَ رسلُ الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أَمْ يقولون افتراه قل فأتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لكم

فاعلموا أنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ الله وأن لا إلَه إلا هُوَ فهل أنتم مسلمون﴾ ولا شك أن قوله تبارك وتعالى: ﴿أَنْـزَلَهُ بعلمه﴾ يتضمن الثناء العظيم على رسول الله ﷺ وأنه خيرة الله من خلقه، وصفيه من عباده، المتأهل لأن ينزل الله عليه هذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم، كما يتضمن أن القرآن فيه علم الله الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويبغضه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والحاضر والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته العلي وأسمائه الحسنى التي لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا أن يعلمه الله عز وجل بها. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تفسير قوله عز وجل: ﴿شَهِدَ اللهُ أنه لا إلَه إلا هُوَ والملائكة وَأُولُوا العِلْمِ قائما بِالْقِسْطِ، لا إلَه إلا هو العزيزُ الحكيمُ. إن الدين عندَ اللهِ الإسلام.﴾ فصلٌ: وكذلك قوله: ﴿لَكِنِ اللهُ يشهد بما أَنْزَلَ إليك أنزله بعلمه والملائكةُ يشهدون، وكفى بالله شَهِيدًا.﴾ فإن شهادته بما أنزله إليه هي شهادته بأن الله أنزله منه، وأنه أنزله بعلمه، فما فيه من الخبر هو خبرٌ عن علم الله ليس خبراً عمن دونه، وهذا كقوله: ﴿فإن لم يَسْتَجِيبُوا لكم فاعلموا أنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾ وليس معنى مجرد كونه أنزله أنه هو معلوم له، فإنَّ جميع الأشياء معلومةٌ له، وليس في ذلك ما يدل على أنها حق، لكن المعنى: أنزله فيه علمه، كما يقال: فلان يتكلم بعلم، ويقول بعلم، فهو سبحانه أنزله بعلمه، كما قال: ﴿قل أنزله الذي يعلم السِّرَّ في السمٰوات والأرض﴾ ولم يقل تكلم به بعلمه، لأن ذلك لا يتضمن نزوله إلى الأرض، فإذا قال: «أنزله بعلمه» تضمن أن القرآن المنزل إلى الأرض فيه علم الله، كما قال: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فيه من بَعْد ما جاءك من العلم﴾ وذلك يتضمن أنه كلام الله نفسه، منه نزل، ولم ينزل من عند غيره، لأن غير الله لا يعلم ما في نفس الله من العلم — ونفسه هي ذاته المقدسة — إلا أن يعلمه الله بذلك، كما قال

المسيح عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ ما في نفسي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ إنك أنت عَلاَّمُ الْغُيُوبِ.﴾ وقالت الملائكة: ﴿لا عِلْمَ لنا إلا ما عَلَّمْتَنَا﴾ وقال: ﴿ولا يُحيطُونَ بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ وقال: ﴿فلا يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أحَدًا. إلاَّ مَنِ ارْتَضَى من رسول﴾ فغيبه الذي اختص به لا يظهر عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول، والملائكة لا يعلمون غيب الرب الذي اختص به، وأما ما أظهره لعباده فإنه يعلمه من شاء، وما تتحدث به الملائكة فقد تسترق الشياطين بعضه، لكن هذا ليس من غيبه وعلم نفسه الذي يختص به، بل هذا قد أظهر عليه من شاء من خلقه، وهو سبحانه قال: ﴿لّكن اللهُ يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾ فشهد أنه أنزله بعلمه بالآيات والبراهين التي تدل على أنه كلامه وأن الرسول صادق، وكذلك قال في هود: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وادْعُوا مَن استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين.﴾ لما تحداهم بالإتيان بمثله في قوله: ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فعجزوا عن ذا وذاك، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا، فإن الخلائق لا يمكنهم أن يأتوا بمثله ولا بسورة مثله، وإذا كان الخلق كلهم عاجزين عن الإتيان بسورة مثله، ومحمد منهم علم أنه منزل من الله، نزَّله بعلمه، لم ينزله بعلم مخلوق، فما فيه من الخبر فهو خبر عن علم الله، وقوله: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض﴾ لأن فيه من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله ما يدل على أن الله أنزله، فذكره ذلك يستدل به تارةً على أنه حق منزل من الله لّكن تضمن من الأخبار عن أسرار السموات والأرض والدنيا والأولين والآخرين وسر الغيب ما لا يعلمه إلا الله، فمن هنا نستدل بصدق أخباره أنه من الله، وإذا ثبت أنه أنزله بعلمه تعالى استدللنا بذلك على أن خبره حق، وإذا كان خبراً بعلم الله فما فيه من الخبر يستدل به عن الأنبياء وأممهم، وتارة عن يوم القيامة وما فيها، والخبر الذي يستدل به

لابد أن نعلم صحته من غير جهته، وذلك كإخباره بالمستقبلات فوقعت كما أخبر، وكإخباره بالأمم الماضية بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم منهم، وإخباره بأمور هي سرٌّ عند أصحابها، كما قال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النبيُّ إلى بعض أَزْوَاجِهِ حديثا﴾ إلى قوله: ﴿نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الخَبِيرُ﴾ فقوله: ﴿أنزله الذي يعلم السِّرَّ في السمٰوات والأرض﴾ استدلال بأخباره، ولهذا ذكره تكذيبا لمن قال هو ﴿إِفْكٌ افتراه وَأَعَانَهُ عليه قوم آخَرُون﴾. وقوله: ﴿أَنْزَلَهُ﴾ استدلال على أنه حق وأن الخبر الذي فيه عن الله حق، ولهذا ذكر ذلك بعد ثبوت التحدي وظهور عجز الخلق عن الإتيان بمثله اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الذين كفروا وصَدُّوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا﴾ زيادة تقرير وتأكيد لسلوك اليهود الشنيع حيث يكفرون بالله ويصدون غيرهم عن سبيل الله ووسمهم بأنهم قد جاروا عن قصد الطريق جوراً شديداً، لا يلتفتون إلى داعي الهدى، ولا يستجيبون للنداء الحق، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الذين كفروا وصَدُّوا عن سبيل الله قد ضَلُّوا ضلالا بعيدا.﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن الذين جحدوا يامحمد نبوتك بعد علمهم بها، من أهل الكتاب الذين اقتصصت عليك قصتهم، وأنكروا أن يكون الله جل ثناؤه أوحى إليك كتابه ﴿وصَدُّوا عن سبيل الله﴾ يعني عن الدين الذي بعثك الله به إلى خلقه، وهو الإسلام، وكان صدهم عنه: قيلهم للناس الذين يسألونهم عن محمد من أهل الشرك: ما نجد صفة محمد في كتابنا وادعاؤهم أنهم عُهِد إليهم أن النبوة لا تكون إلا في ولد هارون ومن ذرية داود، وما أشبه ذلك من الأمور التي كانوا يثبطون الناس بها عن اتباع رسول الله ﷺ والتصديق به وبما جاء به من عند الله، وقوله: ﴿قد ضَلُّوا ضلالا بعيدا﴾ يعني: قد جاروا عن قصد الطريق جوراً شديدا، وزالوا عن المحجة، وإنما يعني جل ثناؤه بِجَوْرِهِمْ عن المحجة وضلالهم عنها

إِخْطَاءَهُمْ دِينَ الله الذي ارتضاه لعباده، وابتعث به رسله، يقول: من جحدَ رسالـة محمد ﷺ وصد عما بعث بـه من الملة من قَبِل منه، فقـد ضل فذهب عن الـدين الذي هـو دين الله الذي ابتعث بـه أنبياءه. ضـلالا بعيدا. اهـ
وقـوله تبـارك وتعـالى: ﴿إن الـذين كفروا وظلمـوا لم يكن الله ليغفـر لهم ولا ليهديهم طـريقا. إلا طـريق جهنم خالـدين فيها أبـدا، وكان ذُلك على الله يَسِيرًا. ﴾ هـو إخبار منـه عز وجل عن حكمـه في الكـافرين بـآياتـه وكتابـه ورسوله محمد ﷺ الظالمين لأنفسهم بجحودهم دين الله وبصدهم عن سبيل الله وقد أجرموا في حق أنفسهم حيث سلكـوا بها طريق الضلال، وأجرموا في حق عبـاد الله حيث صدوهم عن دين الله حسـداً للعرب، وبغيـاً على رسول الله محمد ﷺ وقد علم الله عز وجل أن هـؤلاء مستمرون على كفرهم وظلمهم إلى أن يموتـوا، فقضى الله تبارك وتعـالى لذلك بأنه لم يكـن ليعفو عنهم، بل لابد من عقوبتهم بنار جهنم وفضحهم على رءوس الخلائق يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يخذلهم فلا يـوفقهم ولا يسددهم ولا يعينهم ولا يؤيدهم بل يكلهم إلى أنفسهم فـلا يسلكون إلا الطريـق الذي يوصلهم إلى نـار جهنم، حيث يكبهم فيهـا أبـدا، لا يتحـولـون منهـا، ولا يمـوتـون فيهـا، بل كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها ليذوقوا العذاب، وذلك سهل على الله يسير.

قال تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قد جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ للهِ مَا فى السمٰوات والْأَرْضِ ، وَكَانَ اللهُ عليمًا حَكِيمًا . يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فى دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلا الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ رسولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ ، انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ، إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ مَافِي السمٰوات وما فى الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلا . ﴾

بعد أن نبه الله تبارك وتعالى إلى أن محمدا ﷺ ليس في حاجة إلى شهادة اليهود له بأنه رسول الله بل تكفيه شهادة الله له بذلك وكفى بالله شهيدا ، وقد شهدت الملائكة لمحمد ﷺ بأنه رسول الله ، وفي إعلان ذلك مواساة لرسول الله ﷺ مما يلقاه من تعنت اليهود وسفاهتهم وسؤالهم كتابا ينزل عليهم من السماء موجهًا لأشخاصهم ليعترفوا ويشهدوا بأن محمدا هو رسول من عند الله ، وجه الخطاب هنا إلى جميع المكلفين على طريقة تلوين الخطاب فأمرهم بأن يؤمنوا بأن محمدًا هو رسول من الله وشفع هذا الأمر بتنبيه المكلفين إلى أن إيمانهم بالله وبرسوله محمد ﷺ يجلب لأنفسهم خير الدنيا والآخرة ، وأن من كفر فلا يضر إلا نفسه ، تنبيها على أن الحجة قد لزمت وأن البرهان قد سطع ولم يبق لأحد بعد ذلك عذرٌ في عدم القبول حيث يقول عز وجل هنا : ﴿ياأيها النَّاسُ قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمِنُوا خيراً لكم ، وإن تَكْفُرُوا فإنَّ لله ما في السمٰوات والأرض ، وكان الله عليما حكيما . ﴾ قال أبو السعود العمادي : وقوله عز وجل : ﴿قد جاءكم الرسولُ بالحق من ربكم﴾ تكريرٌ للشهادة وتقريرٌ لحقية المشهود به وتمهيدٌ لما يعقبه من الأمر بالإيمان ، وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته ، والمراد بالحق هو القرآن الكريم اهـ ومعنى : ﴿فآمِنُوا خَيْرًا لكم﴾ أي فصدقوا بالله

وبالرسـول الذي قد جاءكم بـالحق من ربكم يكن ذلك خيرا لكم، وفي هذا ترغيب، وقـوله عز وجل: ﴿وإنْ تَكْفُرُوا فـان لله ما في السمٰوات والأرض﴾ هو ترهيب من الكفـر بالله وبالرسـول ﷺ، ومعنى: ﴿وإن تكفروا فإنَّ لله ما في السمٰوات والأرض، وكان الله عليما حكيما.﴾ أي وإن تجحـدوا وتكذبـوا محمـدا ﷺ فيما جاءكم بـه من الحق من ربكم فإنكم لن تضروا الله شيئـا ولن تضروا إلا أنفسكم لأن الله غني عنكم فـوبـال معصيتكم وجحـودكم عـائد عليكم، وذلك أن لله ما في السمٰـوات والأرض ملكا وخلقـا وتصرفا لا يخرج من ملكوته وقهـره شيء من السمٰوات والأرض ومن كان هذا شأنـه فهو قادرٌ على تعذيبكم بسبب كفركم وجحودكم لا محالـة، وهو عز وجل عالم بأحوال جميع خلقـه، يقضي بالحكمـة في جميع أفعالـه وأقوالـه وشرعه وقـدره، وبعد التنـديـد بقواصـم وكبريات جـرائم اليهـود في حق رسل الله عليهم الصـلاة والسـلام، من التعنت معهم وقتل بعضهـم، وبعـد تـوجيـه النصح لجميع المكلفين وتعريفهـم بأن محمدا ﷺ قـد جاء بالحق مـن ربه وأن من أطـاعه سعد ومن عصـاه خاب وخسر ولا يضر إلا نفسه، وجه الخطـاب هنا بعنوان أهل الكتـاب الذي يشمـل في الأصل اليهود والنصـارى ونهاهم عن أمـرين خطيرين هما الغلـو في الـدين والقول على الله بغير الحق، حيث قـال تبـارك وتعالى: ﴿ياأهل الكتاب لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ، ولا تقولوا على الله إلا الحَقَّ، إنما المسيحُ عيسى ابن مَرْيَمَ رسـولُ اللهِ وكَلِمتُهُ أَلْقَاهَـا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه فـآمِنُوا بالله ورُسُلِهِ ولا تقـولوا ثلاثةٌ، انْتَهُوا خيرا لكم، إنما الله إلَٰه واحـدٌ سبحانه أن يكون لـه ولدٌ، له مـا في السمٰوات وما في الأرض، وكَفَى بـالله وكيلا.﴾ ولا شك أن قولـه عز وجل في هذه الآية الكـريمة بعد النهي عن الغلـو في الدين والنهي عن القـول على الله بغير الحق: ﴿إنما المسيح عيسى ابنُ مَرْيَمَ رسـولُ الله وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه فآمنوا بالله ورُسُلِهِ ولا تقولوا ثلاثةٌ﴾ يدل

على أن المخاطب بهذا الخطاب أولا وبالذات هم النصارى الذين غلوا في المسيح وجعلوه إلها وابن إله وقالوا : الله ثالث ثلاثة ، وإنما جاء الخطاب عاما لليهود والنصارى لأن اليهود لعنهم الله قالوا على الله غير الحق فزعموا أن العزيْر هو ابن الله ، سبحانه أن يكون له ولد ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه ، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقا أو باطلاً ، أو ضلالاً أو رشاداً ، أو صحيحاً أو كذباً ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الآية ، وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم قال : زعم الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس عن عمر أن رسول الله ﷺ قال : لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله . ثم رواه هو وعلي بن المديني عن سفيان بن عيينة عن الزهري كذلك ، ولفظه : إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسولُه . وقال علي بنُ المديني : هذا حديث صحيح مُسْنَد ، وهكذا رواه البخاري عن الحميدي عن سفيانَ بن عيينة عن الزهريِّ به ، ولَفْظُهُ : فإنما أنا عبد فقولوا : عَبْدُالله ورسولُه اهـ والغلو هو مجاوزة الحد ، والإطراء هو الغلو في المدح والكذب فيه ، ومن المقرر عند أهل العلم أن سبب كفر بني آدم وخروجهم من الدين الحق هو الغلو في الصالحين ، ولذلك حذر رسول الله ﷺ من الغلو فيه صلوات الله وسلامه عليه حماية لجناب التوحيد وسدًّا لذريعة الشرك ، كما نهى عن التنطع في الدين ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : هلك المتنطعون . قالها ثلاثا .

كما روى أحمد والترمذي وابن ماجه واللفظ له قال: حدثنا علي بن محمد حدثنا أبو أسامة عن عوف عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: القط لي حصى. فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخَذْف فجعل ينفضهن في كفه ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين، والغلو والإطراء هو الطغيان الذي ذكر الله تبارك وتعالى أنه يجلب لمرتكبه غضب الله وقد حذر الله تبارك وتعالى عنه أشد التحذير حيث يقول: ﴿ولا تَطْغَوْا فيه فَيَحِلَّ عليكم غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عليه غَضَبِي فَقَدْ هَوَى.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فَاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ معك ولا تَطْغَوْا، إنه بما تعملون بَصِيرٌ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنما المسيح عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ رسولُ الله وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مريمَ وَرُوحٌ منه﴾ هذا تعريفٌ بحقيقة المسيح، وبيانٌ للقول الحق فيه، وردعٌ للنصارى الذي غلوا فيه وأفرطوا واتخذوه إلها من دون الله وقالوا: هو ابن الله، وردعٌ لليهود الذين فرَّطوا فيه فجعلوه ولد زنى وقالوا على أمه بهتانًا عظيماً وجحدوا رسالته وكذبوه، وقد قصر الله تبارك وتعالى المسيح على الرسالة فمن جاوز به هذه المنزلة فقد غلا وأفرط وقال على الله غير الحق وافترى إفكا كبيراً. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مريم﴾ أي خلقه الله تعالى بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم فنشأ عن الكلمة التي قال الله له بها كن فكان وقد قلت في تفسير قوله تبارك وتعالى في الآية الخامسة والأربعين من سورة آل عمران: ﴿إذ قالت الملائكة يامريم إنَّ الله يبشرك بِكَلِمة منه﴾ أي بولد عظيم له شأنٌ كبير، وسمى الولد كلمة لأنه وجد بكلمة من الله حيث قال له: كن فكان، وصار يطلق على عيسى عليه السلام كلمة الله على سبيل التغليب أعني صار علما بالغلبة، وإن كان لا يتم شيء إلا إذا قال الله له كن

فيكون اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وروحٌ منه﴾ أي هو روحٌ من الأرواح التي خلقها الله عز وجل وأرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام، ولهذا كان يسمى كلمة الله وروح الله والإضافة فيهما للإشعار بعلو مرتبة عيسى عليه السلام وطهارته. وقد قال البخاري في صحيحه: قوله: «يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيرا لكم، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلا» قال أبو عبيد: كلمته: كن فكان، وقال غيره: وروح منه: أحياه فجعله روحا، ولا تقولوا ثلاثة، حدثنا صدقة بن الفضل حدثنا الوليد عن الأوزاعي قال حدثني عمير بن هانئ قال حدثني جنادة بن أبي أمية عن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل، قال الوليد: حدثني ابن جابر عن عمير عن جنادة وزاد: من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء اهـ وقال مسلم: حدثنا دواد بن رشيد حدثنا الوليد يعني ابن مسلم، عن ابن جابر قال حدثني عمير بن هانئ قال حدثني جنادة بن أبي أمية حدثنا عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: من قال: أشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء اهـ ومعنى قوله تعالى: ﴿فآمِنُوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيرا لكم، إنما اللهُ إلَه واحدٌ سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السمٰوات وما في الأرض، وكفى بالله

وكيلا . ﴾ أي فصـدقوا وأيقنـوا بأن الله واحد أحـد ليس لـه ولد ولا صـاحبة واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبـد الله رسوله ، فآمنوا بـه كإيمانكم بسائر الرسل ولا تجعلوه إلها ولا ابن إله ، ولا تدَّعـوا أن عيسى وأمه إلهين مع الله ، واحذروا ذلك أشد الحذر لتسعدوا وتفلحوا ، فإنـه لا إله إلا الله تنزه وتقدس أن يكون له ولـد أو صاحبـة ، لأنه مـالك السموات والأرض ، فجميع مـا فيهما ملكه وخلقه وعبيده وهـم تحت تدبيره ومشيئته وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء فكيف يكـون لـه صاحبـةٌ أو ولـد ، كما قـال عز وجل : ﴿بـديع السمٰوات والأرض أنَّى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وخَلَقَ كلَّ شيء وهو بكل شيء عليم . ﴾

قال تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكون عبدًا للهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عن عِبَادَتِهِ ويَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إليه جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ من فَضْلِهِ وأَمَّا الذين اسْتَنْكَفُوا واسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ولا يَجِدُونَ لهم من دُونِ الله وَلِيًّا ولا نَصِيرًا . ياأَيُّها الناسُ قد جاءكم بُرْهَانٌ من ربكم وأنزلنا إليكم نورًا مبينا . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فَسَيُدْخِلُهُمْ فى رحمة منه وفضلٍ ويهديهم إليه صراطا مستقيما .﴾

بعد أن بين الله عز وجل أن عيسى ابن مريم مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى صفة فوقها وأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وأنه ليس لأحد أن يرفعه فوق منزلته فيدعي له الألوهية أو أنه ابن الله أو شريكه كما ادعت النصارى عليهم لعائن الله أو أن يجحد رسالته أو يحط من قدره كما فعلت اليهود ، لعنهم الله ، وساق في ذلك البرهان القاطع والحجة الساطعة الشافية الكافية على أن جميع ما في السموات وما في الأرض مملوكون لله عز وجل وتحت قهره وهيمنته وسلطانه مما ينفي أن يكون له ولد أو شريك أو صاحبة أوضح عز وجل هنا أن عيسى عليه السلام خاضع لله عز وجل يبذل لربه أقصى غاية الذل مع أقصى غاية الحب ، وأن الملائكة المقربين خاضعون لله عز وجل يبذلون له أقصى غاية الذل مع أقصى غاية الحب ، وأن من استنكف عن عبادة ربه واستكبر فله العذاب الأليم الذي لا يستطيع أحد أن يدفعه عنه وأن عباد الله الذين يبذلون له أقصى غاية الحب مع أقصى غاية الذل المستمسكين بشريعة المرسلين سيجدون عند الله عز وجل الأجر العظيم والثواب الجزيل مع ما يتفضل الله عز وجل عليهم به من النظر إلى وجهه الكريم ، حيث يقول عز وجل هنا : ﴿لن يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكون

عبـدًا لله ولا الملائكـة المقـربـون﴾ الآيتين، وأصل الاستنكـاف هـو الأنفـة والامتنـاع، فمعنى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكـون عبـدا لله ولا الملائكـةُ المُقَـرَّبُونَ﴾ أي لن يأنف ولن يمتنـع ولن ينقبض المسيح عيسى عليه السـلام ولا الملائكة المقربون من كونهم عبيـداً لله بل بذْلُهم أقصى غاية الحب وأقصى غاية الذل لله وحده هو قرة أعينهم وراحة نفوسهم، ولا يرضون أبداً لأحد أن يشرك بالله شيئاً ولـذلك ذكر الله عز وجل عن عيسى عليه السـلام أنه يقول: ﴿ما قلتُ لهم إلا ما أمَرْتَنِي به أنِ اعْبُدُوا اللهَ ربي وربَّكم﴾ وقال عز وجل عن الملائكة: ﴿وَمَنْ عنـده لا يَسْتَكْبِرُونَ عن عبادتـه ولا يَسْتَحْسِرُون. يُسَبِّحُونَ الليلَ والنهار لا يَفْتُرُونَ.﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿وقالوا اتخذ الـرحمن ولدا، سبحانه، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لا يَسْبِقُونَـهُ بالقول وهم بأمره يعملون. يعلم ما بين أيـديهم ومــا خَلْفَهُمْ ولا يَشْفَعُــونَ إلا لمن ارتضى وهم مـن خَشْيَتِــهِ مُشْفِقُـونَ.﴾ وقـولــه عـز وجل: ﴿وَمَنْ يسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَـادِتِـهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيحْشُرُهُمْ إلَيْهِ جَمِيعًا.﴾ وعيد شديد لكل من استنكف واستكبر عن عبادة الله، والاستكبار التعاظم والتعالي، والنسبـة بين الاستنكاف والاستكبار هي العموم والخصوص المطلق والاستكبار أعـم مطلقا، فكل استنكاف استكبار وليس كل استكبـار استنكـافـا، فمن تعـالى عن الشـيء أنفـةً يقـال لـه مستنكف، ومن تعـالى ولو بـدون أنفة يقـال له: مستكبر ومتكبر. وجـواب الشرط محذوف تقديره: فلـه عذاب أليم في نار الجحيم، وقـد حذف جواب الشرط لدلالة ما بعده عليه، وهـو قوله عز وجل: ﴿فَسَيحْشُرُهُمْ إلَيْه جَمِيعًا. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ويَزِيدُهُمْ من فَضْلِهِ وأما الـذين استنكفـوا واستكبروا فَيُعَذِّبُهُمْ عـذابـا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وَلِيًّا ولا نَصِيرًا.﴾ ومعنـى قوله عـز وجل: ﴿فَسَيحْشُرُهم إليـه جَمِيعًا.﴾ أي فسيبعث الله عز وجل الخلائق ويجمعهم ليوم الجمع لا ريب فيه ويجازي كل

عامل بما عمل فمن استنكف واستكبر عن عبادة ربه عـذبه يوم الجزاء عذابا أليما ولا يجد له من دون الله وليـا ولا نصيرا. ومن آمن وعمل الصـالحات وفاه أجره الجميل وأثابه جنات النعيم وتفضل عليه بالنظر إلى وجهه الكريم، قال أبـو السعـود العمادي في قـولـه عـز وجل: ﴿فسيحشرهم إليـه جميعـا﴾ أي المستنكفين ومقابليهم المدلـول عليهم بذكر عدم استنكـاف المسيح والملائكة عليهم السـلام، وقد تـرك ذكر أحـد الفريقين في المفصل تعـويلا على إنبـاء التفصيل عنـه وثقة بظهـور اقتضاء حشر أحـدهما لحشر الآخر ضرورة عمـوم الحشر للخلائق كافة كما ترك ذكر أحد الفريقين في التفصيل عند قوله تعالى: ﴿فأمـا الـذين آمنوا بـالله﴾ الآيـة مع عمـوم الخطاب لهما اعتمادًا على ظهـور اقتضاء إثابـة أحدهما لعقاب الآخر ضرورة شمـول الجزاء للكل اهـ وقال ابن جرير: القول في تأويل قوله: ﴿فأمـا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورَهم ويزيدهم من فضله وأمـا الذين استنكفوا واستكبروا فَيُعَذِّبُهُمْ عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليًّـا ولا نصيرا.﴾ قال أبو جعفـر: يعني جل ثناؤه بـذلك: فأما المؤمنون المقـرون بوحدانية الله، الخاضعـون له بالطـاعة، المتذللون له بالعبوديـة، والعاملون الصالحات من الأعمال، وذلك: أن يَرِدوا على ربهم قد آمنـوا به وبـرسله وعملوا بما أتـاهم به رسلـه مِن عند ربهم، من فعل ما أمرهم به، واجتناب ما أمرهـم باجتنابه ﴿فَيُوَفيهِمْ أُجورَهُمْ﴾ يقول: فيؤتيهم جـزاء أعمالهم الصاحلـة وافيا تامـا، ﴿ويَزِيدُهـم من فضله﴾ يعني جل ثناؤه: ويزيدهم على ما وعدهم من الجزاء على أعمالهم الصالحة والثواب عليها، من الفضل والـزيادة مالم يعرفهم مبلغـه، ولم يَحُدَّ لهم منتهاه، وذلك أن الله وعـد من جـاء من عباده المؤمنين بـالحسنـة الواحـدة عشر أمثـالها من الثواب والجزاء، فذلك هو أجر كل عامل على عمله الصالح من أهل الإيمان المحـدودُ مبلغـه، والـزيـادة على ذلك تفضل من الله عليهم، وإن كـان كل

ذلك من فضله على عبـاده غير أن الذي وعـد عباده المؤمنين أن يـوفيهم فلا ينقصهم من الثـواب على أعمالهم الصـالحة هـو مـا حـد مبلغـه من العشر، والـزيادة على ذلك غير محدود مبلغهـا ، فيزيـد من شاء من خلقـه على ذلك قدر مـا يشاء ، لا حد لقدره يـوقف عليه ، ثم قال رحمه الله : وقولـه : ﴿وأما الذين استنكفـوا واستكبروا﴾ فإنه يعني : وأمـا الذين تعظمـوا عن الإقرار لله بالعبودة ، والإذعـان له بالطاعـة ، واستكبروا عن التذلل لألوهتـه وعبادته ، وتسليم الربوبية والوحدانية له ، ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عذابا أليما﴾ يعني : عذابا موجعًا ﴿ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيرا﴾ يقـول : ولا يجد المستنكفون من عبادته والمستكبرون عنها إذا عـذبهم الله الأليم من عذابه سوى الله لأنفسهم ﴿وَلِيًّا﴾ ينجيهم من عـذابه وينقذهم منـه ، ﴿ولا نَصِيرًا﴾ يعني : ولا ناصرًا ينصرهم فيستنقذهم من ربهم ، ويـدفع عنهم بقوته مـا أحل بهم من نقمته ، كالذي كانوا يفعلون بهم إذا أرادهم غيرهم مـن أهل الدنيا في الدنيا بسوء من نصرتهم والمدافعة عنهم اهـ هذا وبعـد أن أورد الله تبارك وتعـالى الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار الوثنيين واليهود والنصارى وأجاب عن جميع شبهـاتهم ، وألزمهم بـالبراهين القـاطعة التـي تخر لها صم الجبال بما يقـرر أن محمدا هـو رسول رب العالمين عمم الخطـاب ووجهه إلى جميع المكلفين فـدعا جميع الناس وسائر الفرق والطوائف إلى الاعتراف بـالنور والبرهان الذي بعث به إليهم أفضل خلقه وخـاتم أنبيائه ورسله محمدًا ﷺ فقـال : ﴿ياأيها النَّاسُ قد جـاءكم بُرْهَـانٌ من ربكم وأنزلنا إليكـم نُورًا مُبينًا . فأمـا الذين آمنـوا بالله واعتصموا به فَسَيُدْخِلُهُمْ في رحمة منه وَفَضْلٍ ويهديهم إليه صراطا مستقيما .﴾ والبرهـان هو الـدليل القـاطع والحجة المزيلـة للشبهـات ، والنور المبين هـو الضياء الواضح الذي يبين للسـالكين المحجة الواضحة ، ويكشف لهم سبل السلام حتى ينهجوها ، ويحذرهم مـن مخاطر الطريق التي يحاول الشيطان أن

يوقعهم فيها، فمن آمن بالله واعتصم به هداه الصراط المستقيم ومن انقاد للشيطان أوصله إلى نار الجحيم، والعاقل من سلك سبل السلام والمخذول من سلك السبيل المعوج كما قال الشاعر:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

وقد وصف الله تبارك وتعالى رسوله محمدا ﷺ والقرآن العظيم الذي أنزله عليه بأنه برهان ونور وسراج منير كما قال هنا: ﴿قد جاءكم برهانٌ من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا.﴾ وقال في سورة المائدة: ﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين. يَهْدِي به اللهُ من اتَّبَعَ رضوانه سُبُلَ السلام ويُخْرِجُهُم من الظلمات إلى النور بإذنه ويَهْديهم إلى صراط مستقيم.﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿أَوَ مَنْ كان مَيْتًا فأحييناه وجعلنا له نورا يَمْشي به في الناس كمن مَثَلُهُ في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملون.﴾ وقال في سورة الأعراف: ﴿فالذين آمنوا به وعزَّرُوه ونصروه واتَّبَعُوا النُّورَ الذي أُنْزِلَ معه أولئك هم المفلحون.﴾ وقال في سورة الأحزاب: ﴿يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا مُنيرًا.﴾ وقال في سورة الشورى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كُنْتَ تَدْرِي ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جعلناه نورا نَهْدِي به من نشاء من عبادنا، وإنك لَتَهْدِي إلى صراط مستقيم. صراطِ الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، أَلا إلى الله تصير الأمورُ.﴾ وقال في سورة الجاثية: ﴿هذا بَصَائِرُ للناس وَهُدًى ورحمةٌ لقوم يوقنون.﴾ وقال في سورة التغابن: ﴿فَآمِنُوا بالله ورسوله والنُّور الذي أنزلنا، والله بما تعملون خبير.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فأما الذينَ آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمةٍ منه وفَضْلٍ ويَهْدِيهِمْ إليه صراطا مستقيما.﴾ أي فأما الذين صدقوا بالله جل جلاله ورضوا به ربا وأقروا بوعده ووعيده وصدقوا كتبه ورسله واستمسكوا بالعروة

الوثقى مدة حيـاتهم الدنيوية فسيدخلهم ربهم في جنته ويـزيدهم من فضله ويسددهم لسلوك منهج من أنعم عليهم من أهل طاعته، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السـلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيـم المفضي إلى روضات الجنات اهـ.

قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفتِيكُمْ في الْكَلَالَةِ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ له وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ، وَهُوَ يَرِثُهَا إن لم يكُن لها وَلَدٌ، فإن كَانتا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ، وإن كانوا إِخْوَةً رجَالا ونِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْل حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ، يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أن تَضِلُّوا، واللهُ بكل شيْءٍ عَلِيمٌ.﴾

هذه الآية الكريمة هي ختام المسك من هذه السورة العظيمة، واختتام السورة بها للفت الانتباه إلى عظمة شأن المواريث ووجوب العناية بها، والوقوف عند حدودها كما نبه إلى ذلك عز وجل بعد ذكر أكثر أحكام المواريث في الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة من هذه السورة عقب ذكر آية الشتاء في الكلالة حيث قال: ﴿تلك حُدُود الله، ومَنْ يطع اللهَ ورسولَه يدخلْه جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها، وذلك الْفَوْزُ العظيمُ. ومن يَعْصِ اللهَ ورسوله ويتَعَدَّ حدودَهُ يُدْخلهُ نارًا خالدا فيها وله عذابٌ مُهِينٌ.﴾ وهذه آية الكلالة التي ختم بها سورة النساء تسمى آية الصيف لأن آية الكلالة التي في أوائل السورة نزلت في الشتاء وآية الكلالة هذه نزلت في الصيف. وقد تقدم في تفسير الآية الثانية عشرة من هذه السورة أن الكلالة في أصل اللغة تطلق على معان كثيرة منها الإعياء ومنه قول الأعشى:

فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من حفى حتى تلاقي محمدا

وقيل هي من قولهم: تكلله الشيء إذا أحاط به ومنه الإكليل وهو التاج والعصابة المحيطة بالرأس كما قال امرؤ القيس:

أصاح ترى برقا أريك وميضه ... كلمع اليدين في حبي مكلل

وقد ذكر الله تبارك وتعالى الكلالة في موضعين في هذه السورة الكريمة حيث قال عز وجل: ﴿وإن كان رجل يُورَثُ كَلَالَةً أو امرأةٌ وله أَخٌ أو أختٌ فلِكُلِّ واحد منهما السُّدُسُ، فإن كانوا أكثَرَ من ذلك فهم شركاءُ في الثلث﴾

وحيث قال هنـا : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قل الله يُفْتِيكُمْ في الكَلاَلَةِ﴾ الآيـة ، وقد أجمع العلماء على أن الإخوة في الموضع الأول هم الإخوة لـلأم ، وأن المراد بالإخوة في هـذا الموضع الذي ذكـرته آيـة الصيف هم الإخـوة الأشقاء أو الإخـوة لأب . واتضح من الآيتين الكريمتين أن الكلالة هو مـن مات وليس له والد ولا ولد ودلت الآيتان على أن الإخوة كلهـم كلالة . وهذه الآية الكـريمة التي ختمت سورة النسـاء هي آخر آية نزلت مـن القرآن الكريم ، قال البخـاري في كتاب التفسير من صحيحه : باب ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قـل اللهُ يفتيكم في الكَلاَلَةِ إنِ امرؤٌ هَلَكَ ليس له ولدٌ وله أخت فلها نِصْفُ ما تَرَكَ وهو يرثها إن لم يكن لها ولدٌ﴾ والكلالة مَنْ لم يرثه أب أو ابن وهو مصدر من تكلله النسب ، حدثنا سليمان ابن حرب حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمعت البراء رضي الله عنه قال : آخر سورة نزلت براءة ، وآخر آية نزلت : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ في الكَلاَلَةِ﴾ وقـال في كتـاب الفرائض مـن صحيحه : حـدثنـا عبيـد الله بن مـوسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عـن البراء رضي الله عنه قال : آخـر آية نـزلت خاتمة سـورة النسـاء : ﴿يَسْتَفْتُـونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ في الكَـلاَلَـةِ﴾ وقـال مسلم في صحيحـه : حـدثنـا علي بن خشرم أخبرنـا وكيع عن ابن أبي خـالـد عن أبي إسحـاق عن البراء قال : آخـر آيـةٍ أنزلت مـن القرآن : ﴿يَسْتَفْتُـونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ في الكَلاَلَةِ﴾ حـدثنا محمد بن المثنى وابن بشار قالا: حـدثنا محمد بن جعفر حـدثنا شعبـة عن أبي إسحاق قـال : سمعت البراء بن عـازب يقول : آخـر آية أنـزلت آية الكـلالة وآخـر سورة أنـزلت براءة ، حـدثنا إسحـاق بن إبراهيم الحنظلي أخبرنا عيسى (وهو ابن يونس) حدثنا زكرياء عن أبي إسحاق عن البراء أن آخـر سورة أنـزلت تامـة سورة التـوبة ، وأن آخر آيـة أنزلـت آية الكلالة ، وقـد أخرج الشيخان رحمهما الله أن سبب نزول آية الكلالـة هذه هو جـابر بن عبـد الله رضي الله عنهما فقد قـال البخاري في كتـاب الوضـوء من

صحيحه: باب صب النبي ﷺ وضوءه على المغمى عليه، حدثنا أبو الوليد قال حدثنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال سمعت جابرا يقول: جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ، وصب عليَّ من وضوئه، فعقلت، فقلت: يارسول الله لمن الميراث، إنما يرثني كلالة، فنزلت آية الفرائض، وقال البخاري في كتاب الطب من صحيحه: باب وضوء العائد للمريض، حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر غُنْدَرٌ حدثنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: دخل عليَّ النبي ﷺ وأنا مريض، فتوضأ، فصب عليَّ أو قال: صبوا عليه، فعقلت، فقلت: لا يرثني إلا كلالة، فكيف الميراث؟ فنزلت آية الفرائض.
وقال مسلم في صحيحه: حدثنا عمرو بن محمد بن بكير الناقد حدثنا سفيان ابن عيينة عن محمد بن المنكدر سمع جابر بن عبد الله قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين، فأغمى عليَّ، فتوضأ ثم صب عليَّ من وضوئه فأفقت، قلت: يارسول الله كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد عليَّ شيئا حتى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ﴾ وقال أبو داود في سننه: باب في الكلالة، حدثنا أحمد بن حنبل ثنا سفيان سمعت ابن المنكدر أنه سمع جابرا يقول مرضت فأتاني النبي ﷺ يعودني هو وأبو بكر ماشيين، وقد أغمى عليَّ فلم أكلمه، فتوضأ وصبه عليَّ، فأفقت، فقلت: يارسول الله كيف أصنع في مالي ولي أخوات؟ قال: فنزلت آية المواريث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ﴾ باب من كان ليس له ولد وله أخوات، حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا كثير بن هشام ثنا هشام — يعني الدستوائي — عن أبي الزبير عن جابر قال: اشتكيت وعندي سبع أخوات فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فنفخ في وجهي، فأفقت، فقلت: يارسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلث؟ قال: أحْسِنْ قلت: الشطر؟ قال: أحسِنْ، ثم خرج

وتركني، فقال: ياجابر، لا أُراك ميتا من وجعك هذا، وإن الله قد أنزل فبين الذي لأخواتك، فجعل لهن الثلثين، قال: فكان جابر يقول: أنزلت هذه الآية فيَّ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ في الكَلالَةِ﴾ كما روى مسلم في صحيحه من طريق سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة أن عمر بن الخطاب خطب يوم جمعة فذكر نبي الله ﷺ وذكر أبا بكر ثم قال: إني لا أدع بعدي شيئا أهم عندي من الكلالة، ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه حتى طعن بإصبعه في صدري وقال: ياعمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يستفتونك﴾ يعني في الكلالة ولم يذكرها في السؤال اكتفاء بورودها في الجواب في قوله: ﴿قل الله يُفتيكم في الكلالة﴾ والمستفتي هو جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وإنما أورده بصيغة ضمير الجماعة لإفادة تعميم هذا الحكم لجابر وغيره، والسائل قد يكون واحداً لكنه لم يرد بسؤاله حكماً خاصًّا به، ولذلك اعتبر السؤال عاماً منه ومن غيره، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنِ امْرُؤٌ هلك﴾ أي إن مات إنسان، فامرؤ فاعل لفعل محذفٍ يفسره المذكور بعده. وقوله عز وجل: ﴿ليس له ولَدٌ وله أخت فلها نصف ما ترك﴾ أي مات هذا الميت غير ذي ولد وقد ترك أختاً من أبيه وأمه أو من أبيه فقط فلهذه الأخت نصف تركة أخيها هذا، وقوله عز وجل: ﴿ليس له ولد﴾ يعني ولا والدٌ، وإنما ترك ذكر الوالد لأنه معلوم، إذ لو كان الوالد موجودا لم ترث الأخت من أخيها شيئا بالإجماع، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وهو يَرِثُهَا إن لم يَكُنْ لها ولد﴾ أي وإذا كانت الأخت هي الميتة ولم يكن لها ولد ولا والد فإن أخاها سواء كان شقيقا لها أو كان من أبيها فقط فإنه يرث جميع تركة أخته هذه. وهذا كله إذا لم يكن مع هذا الأخ وارث آخر من ذوي الفرض كزوج أو أخ لأم فإن قدر أن معه من له فرض كزوج أو أخ من أم فإن صاحب الفرض

يأخذ فرضه ويصرف الباقي للأخ لما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ كانتا اثْنَتَيْنِ فلهما الثُّلُثَانِ مما ترك﴾ أي وإن كان الميت الموروث كلالة قد ترك أختين فإنهما يستحقان ثلثي التركة بينهما مناصفة، وقوله عز وجل: ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ بعد قوله تبارك وتعالى: ﴿كانتا﴾ الدال على اثنتين تنبيه على أن المعتبر في اختلاف الحكم هو العدد دون أي وصف آخر من صغر أو كبر أو صالح أو طالح أو غير ذلك من الصفات. وقد سئل الأخفش: ما فائدة قوله ﴿اثنتين﴾ و﴿كانتا﴾ لا يفسر إلا باثنتين؟ فقال: أفادت العدد العاري عن الصفة لأنه يجوز في ﴿كانتا﴾ صغيرتين أو حرتين أو صالحتين أو طالحتين، فلما قال: ﴿اثنتين﴾ أفاد إطلاق العدد على أي وصف كانتا عليه اهـ وقوله تعالى: ﴿وإن كانوا إخوةً رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أي وإن كان الورثة كلالة إخوة مختلطة ذكورا وإناثا فللذكر مثل حظ الأنثيين مهما كان العدد، وهذا بخلاف الإخوة من الأم فقط المذكورين في آية الكلالة الشتوية فإن نصيب الذكر منهم كنصيب الأنثى على حد سواء كما تقدم في تفسير الآية الثانية عشرة من هذه السورة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم.﴾ أي يوضح الله عز وجل لكم منهاج السعادة ويعطي كل ذي حق حقه كراهية أن تضلوا أولئلا تضلوا أي تنحرفوا عن قصد السبيل والله وحده هو المحيط بجميع خلقه الخبير بما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون.





تفسير سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُـودِ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إلا ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ، إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.﴾

هذه سورة المائدة، وإنما سميت سورة المائدة لأن الله تبارك وتعالى قد ذكر قصة المائدة في هذه السورة في الآية الثانية عشرة بعد المائة وفي الآية الثالثة عشرة بعد المائة وفي الآية الرابعة عشرة بعد المائة وفي الآية الخامسة عشرة بعد المائة حيث قال تبارك وتعالى ﴿إذ قال الحواريون ياعيسى ابنَ مريمَ هل يستطيع ربُّكَ أن يُنَزِّلَ علينا مائدةً من السماء قال اتَّقُوا اللهَ إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتَطْمَئِنَّ قلوبُنَا ونَعْلَمَ أنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ونكونَ عليها من الشاهدين. قال عيسى ابنُ مَرْيَمَ اللهم ربَّنَا أَنْزِلْ علينا مائدةً من السماء تكونُ لنا عِيدًا لأَوَّلِنَا وآخِرِنا وآيَةً منكَ وارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرازقين. قال الله إني مُنَزِّلُهَا عليكم فمن يكْفُرْ بعدُ منكم فإني أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا من العالمين.﴾ ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه عز وجل لما ذكر في ختام سورة النساء أنه يبين الأحكام والشرائع ويضع أكمل المناهج لعباده المؤمنين حتى لا يضلوا، شرع في هذه السورة الكريمة يبين لعباده جملة عظيمة من الأحكام الشرعية والقواعد الدينية والمناهج الربانية قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: سورة المائدة أجمع سورة في القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم والأمر والنهي اهـ وقد افتتح الله تبارك وتعالى هذه السورة الكريمة بقوله عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ ولم يفتتح بهذه الافتتاحية سوى هذه السورة وسورة الحجرات وسورة الممتحنة، وقد لوحظ أن الله تبارك وتعالى خاطب المؤمنين

في سورة المائدة هذه بقوله عز وجل: ﴿يـاأيها الـذين آمنوا﴾ في ستة عشر موضعا، ومن المعلوم بالاستقراء أن الله تبارك وتعالى إذا خاطب المؤمنين بهذا الخطاب أعقبه بأمرهم بخير أو بنهيهم عن شر، ولذلك أُثِر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يـاأيها الذين آمنوا﴾ فـارعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه فقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا مسعر حدثني معن وعوف أو أحدهما أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إليَّ، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ فـارعها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه، ولاشك أن نداء المؤمنين بهذا الوصف من أعظم أسباب الحض على سرعة الامتثال والانقياد لما يأمرهم الله عز وجل به أو ينهاهم عنه عقب هذا النداء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَوْفُوا بـالعقود﴾ أي أدوا لكل ذي حق عليكم حقه الذي تعاهدتم على أدائه والوفاء به سواء كان حقا لله عز وجل عليكم مما يقتضيه إيمانكم وانقيادكم لأوامره عز وجل وأوامر رسوله ﷺ أو كان حقا لبعضكم على بعض تعاهدتم على الوفاء به من الأمانات والبيوع والأنكحة والشركات والأيمان وسائر المعاهدات مما لا يتناقض مع كتاب الله ولا مع سنة رسول الله ﷺ، وسواء كان إيجابه عليكم من الله عز وجل ابتداءً أو أن تكونوا قد أوجبتموه على أنفسكم والتزمتم به من نذر أو يمين أو نحو ذلك مما حض الشرع على الوفاء به، وهذه الجملة الموجزة قد وضعت قاعدة كلية يندرج تحتها من الجزئيات ما لا يحيط به إلا الله عز وجل مما يجلب للناس سعادة الدنيا والآخرة في كل عصر ومصر وجيل وقبيل ولو لم يكن للناس إلا هذه الجملة لكفتهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه الكريم وصف المؤمنين بأنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، ووصف الكافرين والمنافقين بأنهم ينقضون العهود والمواثيق حيث يقول تبارك

وتعالى: ﴿وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك هم الخاسرون.﴾ وقال عز وجل: ﴿أَفَمَن يعلم أنما أُنْزِلَ إليك من ربك الحقُّ كمن هو أعمى، إنما يتذكر أوْلُواْ الألباب، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. والذين يَصِلُونَ ما أمر الله به أن يوصل ويَخْشَوْنَ ربهم ويخافون سُوءَ الحساب. والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وَأَنْفَقُوا مما رزقناهم سرًّا وعلانيةً ويَدْرَءُون بالحسنة السَّيِّئَةَ أولئك لهم عقبى الدار. جناتُ عدن يدخلونها ومَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وَذُرِّيَّاتِهِمْ والملائكةُ يدخلون عليهم من كل باب. سلامٌ عليكم بما صبرتم، فَنِعْمَ عُقْبَى الدارِ. والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر اللهُ به أن يُوصَلَ ويُفْسِدُون في الأرضِ أولئك لهم اللعنة ولهم سُوءُ الدارِ.﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿ومِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ الله لئن آتانا من فضله لَنَصَّدَّقَنَّ ولنكُونَنَّ من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بَخِلُوا به وتَوَلَّوْا وهم معرضون. فأعقبهم نِفَاقا في قلوبهم إلى يوم يَلْقَوْنَهُ بما أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وبما كانوا يَكْذِبُونَ.﴾ وقال تعالى في المؤمنين: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم رَاعُونَ.﴾ وقال في الكافرين: ﴿لا يَرْقُبُونَ في مؤمنٍ إلا ولا ذمةً وأولئك هم المعتدون.﴾ كما وصف رسول الله ﷺ المنافقين بالغدر ونقض العهد فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان. زاد مسلم في رواية له: وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم. وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدث

كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر. وأنذر رسول الله ﷺ الغادر بأنه سترفع له راية غدره أمام الأولين والآخرين يوم القيامة، فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواءٌ، فقيل: هذه غدرة فلان ابن فلان. وفي رواية لمسلم: لكل غادر لواءٌ يوم القيامة يعرف به، يقال: هذه غدرة فلان. كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه العمل ولم يوفه أجره. وقد جعل الله تبارك وتعالى في قمة أعمال الأبرار الوفاء بالنذر حيث يقول عز وجل: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا. عَيْنًا يَشْرَبُ بها عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا. يُوفُونَ بالنذر ويخافون يوما كان شَرُّهُ مستطيرا. ويُطْعِمُونَ الطعامَ على حُبِّهِ مسكينا ويتيما وأسيرا.﴾ الآيات. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أُحِلَّتْ لكم بَهِيمَةُ الأنعام إلا ما يُتْلَى عَلَيكُمْ غَيْرَ محلي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ، إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.﴾ شروع في تفصيل وبيان ما عهد به إلى أمة محمد ﷺ الذين انقادوا إلى أمر الله الذي أمرهم وطالبهم أن يوفوا به، وتذكير لهم بما تفضل به عليهم حيث أحل لهم أكل ما ذكروا اسم الله عليه من لحوم ذبيحة بهيمة الأنعام وهي الأزواج الثمانية المذكورة في قوله عز وجل: ﴿ومن الأنعام حمولةً وفَرْشًا، كلوا مما رزقكم اللهُ ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشيطان، إنه لكم عَدُوٌّ مُبِينٌ. ثمانيةَ أزواجٍ من الضأن اثْنَيْنِ وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ، قل ءالذكرين حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشتملت عليه أرحامُ الأنثيين نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إن كنتم صادقين. ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنينِ، قل ءالذكرينِ حرَّمَ أم الأنثيين أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداءَ إذ وصاكم الله بهٰذا، فمن أظلم ممن افترى على الله كَذِبًا لِيُضِلَّ

الناسَ بغير علم، إنَّ الله لا يهدي القومَ الظالمين. ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أنـا خلقنا لهم مما عَمِلَتْ أيـدينا أنعامـا فهم لها مالكون. وَذَلَّلْنَـاهَا لهم فمنها رَكُـوبُهُمْ ومنها يأكلـون. ولهم فيها منـافعُ ومشاربُ أفـلا يَشْكُرُون. ﴾ وإضافة البهيمة إلى الأنعام للبيان كثوب الخز، وإفرادها لإرادة الجنس، وقد ألحق الله تبارك وتعالى بقوله عـز وجل: ﴿أُحِلَّتْ لكم بهيمة الأنعام﴾ نوعين من الاستثناء، الأول: قـوله: ﴿إلا مـا يُتْلى عليكم﴾ والثاني: قـوله: ﴿غير مُحِلِّي الصَّيْدِ وأنتم حُرُمٌ﴾ وقد بَيَّنَ عز وجل بالاستثناء الأول ما حَرَّمه من بهيمة الأنعام تحريما مؤبدا، وبَيَّنَ بالاستثناء الثـاني ما حرمه من بهيمة الأنعام تحريما مـؤقتًا، إذ المراد بقـولـه عـز وجل: ﴿إلا ما يتلى عليكـم﴾ أي إلا ما يقـرأ في كتاب الله تعـالى تحريمه عليكم وهـو ما ذكره في قـوله عـز وجل: ﴿إنما حَرَّمَ عليكم الميتة والدَّمَ ولحم الخِنْزِير ومـا أُهِلَّ به لغير الله فمن اضْطُرَّ غير باغ ولا عـادٍ فلا إِثْمَ عليـه، إنَّ الله غفور رحيم. ﴾ وفي قـولـه عز وجل: ﴿حُـرِّمَتْ عليكـم المَيْتَـةُ والـدَّمُ ولحمُ الخنزيـرِ ومـا أُهِلَّ لغير الله بـه والمنخنقة والموقـوذةُ والمتردِّيَـةُ والنطيحةُ ومـا أَكَلَ السَّبُعُ إلا مَا ذَكَّيْتُمْ ومـا ذُبِحَ على النُّصُبِ﴾ وفي قوله: ﴿قل لا أَجدُ في ما أُوحِيَ إليَّ محرما على طاعم يَطْعَمُه إلا أن يكون مَيْتَةً أو دما مسفـوحا أو لحم خِنْـزِيرٍ فإنـه رِجسٌ أو فِسْقًا أُهِلَّ لغير الله بـه، فمن اضطر غيرَ بـاغ ولا عادٍ فإنَّ ربك غفـورٌ رحيم. ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، كما بين عز وجل بـالاستثناء الثاني أن ما كـان من بهيمة الأنعام صيدًا كـالبقر الوحشيـة والتيوس البريـة فإنه يحرم عليهم صيده في حـالة الإحـرام بالحج أو بالعمرة فإذا تحلل المحـرم من إحرامه جاز لـه صيد البر مالم يكن في الحرم كما قـال عز وجل: ﴿لا تقتلـوا الصيد وأنتم حُـرُمٌ﴾ وكما قال: ﴿وحُـرِّم عليكم صَيْـدُ البَرِّ مادمتم حُـرُمًا﴾ وكما قـال: ﴿وإذا حَلَلْتُمْ فاصْطَـادُوا﴾ ومعنى: ﴿وأنتم حُرُمٌ﴾ أي وأنتم محرمون، وواحد الحُرُم حرام يقال: رجل حرام، وقوم

حرم قال المضرَّب بن كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني :

فقلت لها فيئي إليكِ فإنني حرام وإني بعد ذاكِ لبيب

فمعنى قوله : حرام أي محرم ومعنى قوله : لبيب أي ملبٌّ ، وقد استعمل الشاعر هنا «بعد» بمعنى مع كما في قوله تعالى : «والملائكة بعد ذٰلك ظهير» وكما في قوله تعالى : ﴿عُتُلٍ بعد ذٰلك زنيم .﴾ وكما في قوله تعالى : ﴿والأرضَ بعد ذٰلك دحاها﴾ أي مع ذلك وقد ذيل الله تبارك وتعالى هذه الآية بقوله : ﴿إن اللهَ يَحْكُمُ ما يُريدُ .﴾ للتنبيه على أنه عز وجل يقضي في خلقه بما يشاء من التحليل والتحريم ، ولا يُحِل الحكيم العليم إلا الطيبات التي تُصلح أبدان العباد وأرواحهم ، ولا يحرم إلا الخبائث التي تضر أبدان العباد أو أرواحهم وأخلاقهم كما قال عز وجل في وصف حبيبه محمد ﷺ : ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحِلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾

قال تعـالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَـائِرَ اللهِ ولا الشَّهْرَ الحرامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَـلاَئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْـلا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًـا ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَـاصْطَادُوا ، ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـآنُ قَـوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِـد الحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا ، وتَعَاوَنوا على الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ولا تَعَاوَنُوا على الْإِثْمِ والعُدْوَانِ ، واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . ﴾

بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين أن يوفوا بالعقود وامتن عليهم بما أباح لهم من بهيمة الأنعام ونبههم إلى وجوب اجتناب ما حرمه عليهم من هذه البهائم تحريما مؤبدا ومـا حرمه عليهم منها تحريما مؤقتـا بوقت كونهم محرمين ، ولفت انتباههم إلى جليل حكمته وحُكمـه فيما يحرم ويحلل ، شرع عز وجل يعهد إلى عبـاده المؤمنين ويوصيهم بـالمحافظـة على شعـائر الله وينهاهـم عن التعـدي عليهـا ويحذرهم من انتهـاكهـا ويطلب منهم أن يحترمـوا الشهـر الحرام فـلا يقاتلوا فيـه وأن يحترموا الهدى والقلائد وقاصـدي بيت الله الحرام ، وأباح لهم الصيد بعد التحلل مـن الإحرام وحضهم على أن يعدلوا في معاملـة أعدائهم وألا يحملهم صـد مشركي قـريـش لهم عن المسجـد الحرام يـوم الحديبيـة أن يعتدوا عليهم ، وأمـرهم بالبر والتقوى وأن يتعاونـوا على ذلك ، وحذرهم من التعـاون على الإثم والعـدوان ، وأكـد عليهم بمـلازمـة تقـوى الله عـز وجل والخوف من أليم عقابه حيث يقول عز وجل هنا : ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تُحِلُّوا شعـائرَ الله ولا الشهـرَ الحرامَ ولا الْهَدْيَ ولا القـلائدَ ولا آمِّينَ البيتَ الحرامَ﴾ الآية . وشعـائر الله تطلق على حـرمات الله وحدوده ومـراسيم شريعتـه وأمره ونهيه وفرائضه وسائر معالم دينه كما تطلق على مناسك الحج ومشاعره والهدي والبدن المهداة قـال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية : قـال أبو جعفر: وأولى التأويلات بقولـه : ﴿لا تُحِلُّوا شعائر الله﴾ قول عطاء الـذي ذكرناه من

تـوجيهه معنى ذلك إلى : لا تحلـوا حـرمات الله ، ولا تضيعـوا فرائضـه ، لأن الشعـائر جمع «شعيرة» والشعيرة فعيلة من قـول القائل : قـد شعر فـلان بهذا الأمر إذا علم به ، فـالشعائر: المعالم من ذلك ، وإذا كان ذلـك كذلك ، كان معنى الكلام : لا تستحلـوا أيها الذين آمنوا معالم الله ، فيـدخل في ذلك معالم الله كلها في منـاسك الحج : من تحريم ما حـرم الله إصابته فيهـا على المحرم ، وتضييع ما نهى عن تضييعه فيهـا ، وفيما حرم من استحلال حرمـات حرمه ، وغير ذلك من حدوده وفرائضه ، وحلاله وحرامه ، لأن كل ذلك من معالمه ، وشعائره ، التي جعلها أماراتٍ بين الحق والباطـل ، يعلم بها حلاله وحرامه ، وأمره ونهيه ، وإنما قلنا : ذلك القول أولى بتأويل قوله تعالى : ﴿لا تُحِلُّوا شعائر الله﴾ لأن الله نهى عن استحلال شعائره ومعالم حدوده وإحلالها نهيًا عامًّا من غير اختصـاص شيءٍ من ذلك دون شيء ، فلم يجز لأحـدٍ أن يـوجـه معنى ذلك إلى الخصوص إلا بحجة يجب التسليم لها ، ولا حجة بـذلك كذلك اهـ

ومعنى قـولـه تبـارك وتعالى : ﴿ولا الشهـر الحرام﴾ أي ولا تستحلـوا الشهـر الحرام فتستبيحوا قتـال أعدائكم من المشركين فيـه ، والمراد بالشهـر الحرام هنا الجنس أي الأشهـر الحرم وهي ذو القعـدة وذو الحجة والمحـرم ورجب مضر الـذي بين جمادى وشعبان ، وقـد نص الله تبـارك وتعـالى على أنـه حرَّم هـذه الأشهر الأربعة منذ خلق السموات والأرض حيث يقول عز وجل : ﴿إنَّ عِدَّةَ الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خَلَقَ السمٰوٰتِ والأرَض منها أربعةٌ حُرُمٌ ، ذٰلك الدِّين القيم ، فـلا تظلموا فيهن أنفسكم ، وقاتلوا المشركين كافَّةً كما يقاتلونكم كافـةً ، واعلموا أَنَّ الله مع المتقين . ﴾ وقد نـدد عز وجل بتـلاعب المشركين بهذه الأشهر الحرم حيث كـانـوا إذا أرادوا الغارة فيهـا على أعدائهم غيروا اسم الشهر الحرام وأجلوه إلى الشهـر الذي بعده وأطلقوا اسم الشهر الحرام على الشهر الـذي يليه وهذا العمل الذي كانـوا يعملونه يسمى

النسيء، فبين الله عز وجل أن عملهم هذا زيادةٌ في الكفر حيث يقول: ﴿إنما النسيء زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حرَّمَ الله فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ، زُيِّنَ لهم سُوءُ أعمالهم، والله لا يَهْدِي القومَ الكافرين.﴾ وقد شدد رسول الله ﷺ التأكيد على حرمة الأشهر الحرم في خطبته يوم النحر في حجة الوداع فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، وقال: أي شهرٍ هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى، قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس البلدة؟ قلنا: بلى، قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع. وقوله عز وجل: ﴿وَلا الْهَدْيَ﴾ أي ولا تتعرضوا للهدي بسوء ولا تحبسوه عن بلوغ محله، وقد كان المشركون من قريش قد صدوا رسول الله ﷺ ومنعوه من الوصول إلى المسجد الحرام عام الحديبية ومنعوا الهدي أن يبلغ محله يعني بيت الله الحرام كما قال عز وجل: ﴿هُمُ الذين كفروا وصَدُّوكم عن المسجد الحرام وَالْهَدْيَ معكوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ والهدي هو ما يهدى إلى بيت

الله الحرام من ناقة أو بقرة أو شاة تقربا إلى الله تبارك وتعالى. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله عز وجل: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الكعبةِ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿والقلائد﴾ أي ولا تستحلوا القلائد ولا تنتهكوا حرمتها، والقلائد جمع قلادة وهي في الأصل ما يجعل حول العنق للزينة أو لغيرها والمراد بالقلائد هنا ما كان العرب يفعلونه بأنفسهم أو بهداياهم المهداة إلى البيت الحرام ليعلم من يرى ذلك بأن صاحبه مسالم لا يرغب في قتال أحد، وأن بهيمة الأنعام التي وضعت عليها القلادة هي هدى لله عز وجل وقد أقر الإسلام تقليد الهدي، فقد روى البخاري ومسلم من حديث الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: أهدى النبي ﷺ مرة إلى البيت غنماً فقلدها. وفي رواية لهما عنها قالت: فَتَلْتُ قلائدها من عهنٍ كان عندي، ثم بعث بها مع أبي. وفي رواية لهما أيضا من حديثها رضي الله عنها قالت: فتلت قلائد بدن النبي ﷺ بيدَيَّ، ثم قلدها وأشعرها، وأهداها، فما حرم عليه شيء كان أحل له. كما روى مسلم من حديث حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: صلى رسول الله ﷺ الظهر بذي الحليفة، ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن وسَلَتَ الدم عنها، وقلدها نعلين، ثم ركب راحلته، فلما استوت به على البيداء أهل بالحج. وقد كان من عادة العرب أنهم يتخذون قلائدهم التي يعلنون بها مسالمتهم من لحاء الشجر أي من قشره ويضفرونه ويُحكمون جدله وفتله ثم يجعلونه قلادة، ويعيبون أشد العيب من اعتدى على أصحاب هذه القلائد كما قال الشاعر حذيفة بن أنس الهذلي:

ألا أبلغا جُل السواري وجابرا — وأبلغ بني ذي السهم عني ويعمَرا

وقولا لهم عني مقالة شاعر — ألمَّ بقول لم يحاول ليفخرا

لعلكموا لما قتَلتم ذُكِرتموا — ولن تتركوا أن تقتلوا من تعمرا

ألم تقتلوا الحِرجَين إذ أعرضا لكم   يمران بالأيدي اللحاء المضفرا

قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط في مادة «حرج»: إنما عني بالحرجين رجلين أبيضين كالودعة، فإما أن يكون البياض لونهما، وإما أن يكون كنى بذلك عن شرفهما، وكان هذان الرجلان قد قشرا لحاء شجر الكعبة ليتخفرا بذلك، والمضفَّر: المفتول كالضفيرة اهـ أما ما ثبت عن رسول الله ﷺ من الأمر بقطع الأوتار والقلائد من أعناق الإبل فإن المراد منه ما كان أهل الجاهلية يفعلونه حيث كانوا يقلدون الإبل أوتار القسي لئلا تصيبها العين بزعمهم فنهى النبي ﷺ عن ذلك كما نهى عن كل تميمة وهي ما يعلق خشية العين فمن تعلق تميمة فلا أتم الله له، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن عباد بن تميم أن أبا بشير الأنصاري أخبره أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره قال: فأرسل رسول الله ﷺ رسولا قال عبد الله بن أبي بكر: حسبت أنه قال: والناس في مبيتهم: لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت، قال مالك: أُرى ذلك من العين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا آمِّينَ البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا﴾ أي ولا تتعرضوا بأذى لقاصدي البيت الحرام وزوار الكعبة المشرفة الذين يعتمرون أو يحجون طلبا لفضل الله ومرضاته، وهذا وإن كان الخطاب فيه للمؤمنين ففيه تنديد بكفار قريش الذين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية فهو على حد قول الشاعر: إياك أعني واسمعي ياجارة، وهو مع ذلك نصيحة للمؤمنين إلى يوم القيامة حتى لا يصد أحد من المسلمين المعروفين بالاستقامة وعدم الإفساد في الأرض عن الحج أو العمرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ أي وإذا حللتم من إحرامكم وكنتم في غير الحرم جاز لكم صيد البر الذي كان محرما عليكم بسبب الإحرام المستفاد من قوله تبارك وتعالى في الآية السابقة:

﴿غير مُحِلِّي الصيد وأنتم حُرُمٌ﴾ وقوله عز وجل: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قومٍ أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم منعوكم من زيارة المسجد الحرام يوم الحديبية أن تظلموهم، ثم أمر عز وجل المؤمنين بقواعد الخير وأصول التكافل الاجتماعي حيث قال: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُم الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ به وَالْمُنْخَنِقَةُ والْمَوْقُوذَةُ والْمُتَرَدِّيَةُ والنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلا ما ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأَزْلامِ، ذٰلِكُمْ فِسْقٌ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا، فَمَنِ اضْطُرَّ فى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.﴾

هذا شروع في بيان المحرمات من المطاعم، وتفصيل لما أجمله الله عز وجل من محرمات بهيمة الأنعام في قوله تبارك وتعالى في الآية الأولى: ﴿إلا ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة من محرمات المطاعم أحد عشر نوعا، تقدم تفسير الأنواع الأربعة الأول منها وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به في تفسير الآية الثالثة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة، أما النوع الخامس من هذه الأنواع فهو المنخنقة أي الحيوان الذي فارق الحياة بسبب الخنق سواء كان بعصر حلقه والضغط على عنقه حتى يموت كما كان أهل الجاهلية يفعلون حيث كانوا يخنقون البهيمة فإذا ماتت أكلوها، أو كان هذا الخنق لها بغير قصد كأن تتخبل في وثاقها فتموت أو أن تخنق بحبل الصائد أو أن تدخل رأسها بين عودين في شجرة عند الرعي أو غيره فتموت من ذلك فبأي وجه اختنقت فهي حرام لا يحل أكلها، والنوع السادس هو الموقوذة وهي التي تضرب أو ترمى بشيء ثقيل غير محدد كخشب أو حجر أو غيرهما حتى تفارق الحياة، وقد كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصي حتى إذا ماتت أكلوها، فقد روى البخاري ومسلم من طريق الشعبي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن المعراض فقال: إذا أصبت بحده فكل، فإذا أصاب

بعرضه فقتل فإنه وقيذ فـلا تأكل. وفي لفظ للبخاري من حديث عدي رضي الله عنه قال: قلت: وإنـا نرمي بالمعراض؟ قال: كُلْ ما خـزق، وما أصاب بعرضـه فلا تأكل. وفي لفظ مسلم: قلت لـه: فإني أرمي بالمعـراض الصيد فأصيب؟ فقال: إذا رميت بـالمعراض فخزق فكلـه، وإن أصابه بعرضـه فلا تأكلـه. قال ابن التين: المعـراض عصا في طـرفها حديـدة يرمـى الصائد بها الصيد فما أصـاب بحده فهو ذكي فيؤكـل، وما أصاب بغير حده فهـو وقيذ اهـ ومعنى خـزق أي نفذ فيه السهم وجـرحه. والنوع السـابع: المتردية وهي البهيمـة التي تقع من مكان مـرتفع كجبل أو نحـوه أو تسقط في بئر فتمـوت بذلك. والنوع الثامن: النطيحـة وهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها فهي حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الـدم ولو من مذبحها لأن القرن ليس آلة تـذكيـة. واعلم أن دخـــول الهاء في هـذه الكلمات الأربع، أعني: المنخنقـة والموقوذة والمتردية والنطيحة إنما كان لأنها صفات لموصوف مؤنث وهو البهيمة كأنه قيل: حـرمت عليكم البهيمة المنخنقة والموقوذة والمترديـة والنطيحة قال الفخر الـرازي: فإن قيل: لم أثبت الهاء في النطيحة مع أنها كـانت في الأصل منطـوحة فعـدل بها إلى النطيحـة، وفي مثل هـذا الموضع تكون الهاء محذوفـة كقـولهم: كف خضيب، ولحية دهين، وعين كحيل؟ قلنـا: إنما تحذف الهاء من الفعيلة إذا كانت صفة لموصوف يتقـدمها، فإذا لم يذكر الموصوف وذكرت الصفة وضعْتَها مـوضع الموصوف، تقول: رأيت قتيلة بني فـلان بالهاء لأنك إن لم تدخل الهاء لم يعـرف أرجل هو أو امرأة اهـــ والنوع التـاسع من محرمات المطاعم مـا أكل السبع وهي البهيمة التي عـدا عليها أسد أو فهـد أو نمر أو ذئب أو كلب ونحو ذلك من كل حيوان له ناب يفترس به ويعدو على الناس والـدواب، ومعنى قولـه عز وجـل: ﴿وما أكل السَّبُعُ﴾ أي ومـا أكل السبع بعضه وأفضل بعضـه وماتت البهيمة من ذلك، ففي الكلام محذوف تقـديره

وما أكل منه السبع ، لأن ما أكله السبع فقد نفد ولا حكم له لأنه قد صار معدوما لا وجود له بين أيدي الناس ، وقد أجمع علماء المسلمين على تحريم ما أكل السبع منه وماتت البهيمة من ذلك حتى لو كان السبع قد جرحها وسال منها الدم ولو من مذبحها ، وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة أو نحو ذلك فحرم الله ذلك على المؤمنين . فإن قال قائل : أليست المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع في معنى الميتة وقد نص على تحريم الميتة في أول هذه الآية فلماذا هذا التنصيص على هذه الخمس؟ فالجواب أن العرب كانوا يفرقون بين الميتة التي ماتت حتف أنفها وبين هذه الخمس ولا يطلقون على هذه الخمس اسم الميتة كما يسمون من مات من الناس حتف أنفه ميتاً ويسمون من فارق الحياة بضربه بالسيف ونحوه قتيلا كما كانوايفرقون بين الميتة وبين هذه الخمس في الاستعمال حيث كان الكثير من أهل الجاهلية لا يأكلون الميتة ويأكلون المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿إلا ما ذكيتم﴾ أي إلا ما أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموها أي فريتم أوداجها وأنهرتم دمها بمحدد قاطع من حديد أو قصب أو زجاج أو حجر أو غيره مما يقطع المريء والحلقوم والودجين مع ذكر اسم الله ، ولا يجوز الذبح بالسن والظفر فقد روى البخاري ومسلم من حديث رافع بن خديج قال : قلت : يارسول الله إنا لاقوا العدو غدا وليست معنا مدى؟ فقال : اعجل أو أرن ، ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل ، ليس السن والظفر ، وسأحدثك أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة . الحديث . والعرب يطلقون التذكية على الذبح وعلى النحر والنحر هو الطعن في اللبة والمنحر . والنوع العاشر من محرمات المطاعم ما ذبح على النصب قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : قال مجاهد وابن جريج : كانت النصب حجارة حول الكعبة قال

ابن جريج : وهي ثلثمائة وستون نصبا كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب ، وكذا ذكره غير واحد ، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله ؛ فالذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ، وينبغي أن يحمل هذا على هذا لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله اهـ والنوع الحادي عشر من محرمات المطاعم ما كان يذبحه أهل الجاهلية على طريق القمار والميسر حيث كانوا يضربون بقداح الميسر ويستقسمون بها لهوا ولعبا وكان عقلاؤهم يقصدون بها إطعام المساكين والمعدمين وأصل الاستقسام طلب القسم والنصيب ، والأزلام جمع زلم بفتح الزاي وضمها وهو القِدْح قال في القاموس : القدح بالكسر السهم قبل أن يراش وينصل اهـ وقال في باب الميم فصل الزاي : الزلم محركة وكصرد الظلف أو الذي خلفه ، وقِدْح لا ريش عليه ، وسهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية اهـ وكان للعرب ثلاثة أنواع من الأزلام ، النوع الأول ثلاثة قداح يتخذها كل إنسان منهم لنفسه ، مكتوب على أحدها : افعل وعلى الثاني : لا تفعل ، ويترك الثالث مهملا بدون كتابة ويضع هذه الثلاثة في خريطة وهي وعاء من جلد ، فإذا رغب في عمل شيء أدخل يده في الخريطة وأخرج واحدا منها فإن كان الآمر أقدم على الفعل ، وإن كان الناهي انزجر عنه ، وإن كان المهمل أعاد الضرب . وهذه هي التي استقسم بها سراقة بن مالك حين هم بالنبي ﷺ يوم الهجرة ، والنوع الثاني من أزلام العرب سبعة قداح كانت عند هبل وكانت كذلك عند الكهان وقد كتب فيها ما يدور بين الناس من النوازل كالديات ، ومنكم ، ومن غيركم ، وملصق ، ونحو ذلك ، وكانوا يضربون بها ويحتكمون بحكمها . والنوع الثالث قداح الميسر التي كانوا يضربون بها

مقامرة ولهوا ليلتزم ما يقع عليه السهم بتقـديم الذبائح، وهذه هي المرادة هنا والعلم عند الله عـز وجل، ولما كان الاستقسام بالأزلام لا خير فيـه سواء كان لطلب الخيرة في الأمور أو كان للتقامر فقد أرشد الله تبارك وتعالى المسلمين إلى الاستخـارة المبنية على التـوكل على الله وطلب الخيرة من العليم الخبير القديـر فقد روى البخاري في صحيحه من حـديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسـول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلهـا كما يعلمنا السورة من القرآن يقـول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفـريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقـدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلـم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري — أو قال — عاجل أمري وآجله فـاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري — أو قال — في عاجل أمري وآجله فـاصرفه عني واصرفني عنـه واقدر لي الخير حيث كـان ثم أرضني به، قال: ويسمي حاجته. والإشارة في قوله تعالى: ﴿ذٰلكم فسق﴾ للمحرمات من المطـاعم المذكورات في هـذه الآية أي تنـاول هذه المحـرمات خـروج على طاعـة الله وتمرد على شرع الله، وعدم وفاء بـالعقود التي أخذهـا الله عز وجل على عباده وأمرهم بالوفاء بها في قوله عز وجل: ﴿أَوْفُوا بالعقود﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿اليومَ يَئِسَ الذين كفـروا من دينكم فلا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِ﴾ أي الآن قـد انقطع طمع الكفار في القضـاء على الإسـلام وحصل لهم اليأس من قهركم وتغيير دينكم، فقد ارتفعت رايتـه وأشرقت أنوار تعاليمه، فليكن أكبر همكم العض عليـه بالنـواجذ، وتطبيق تشريعـاته وانـزعوا من قلـوبكم الخوف من أن يقضي المشركـون على دينكم، وليكن خـوفكم من الله وحـده، فعليه تـوكلوا، فقد تمت لكم النعمة، ولـذلك قال بعدهـا: ﴿اليومَ أكملتُ

لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينا﴾ قال ابن كثير رحمه الله: هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلْف كما قال تعالى: ﴿وتمت كلمةُ ربك صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ أي صدقا في الإخبار وعدلا في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينا.﴾ أي فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه اهـ وقد روى البخاري ومسلم من طريق سفيان عن قيس أن طارق بن شهاب قال: قالت اليهود لعمر: إنكم تقرأون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدا، فقال عمر: إني لأعلم حيث أنزلت وأي يوم أنزلت وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت، أنزلت بعرفة ورسول الله ﷺ واقف بعرفة. قال سفيان: أشك كان يوم جمعة أم لا يعني ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ قال ابن كثير رحمه الله: وشك سفيان رحمه الله إن كان في الرواية فهو تورع حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا؟ وإن كان شكا في كون الوقوف في حجة الوداع كان يوم جمعة فهذا ما إخاله يصدر عن الثوري رحمه الله فإن هذا أمر معلوم مقطوع به لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازي والسير ولا من الفقهاء وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها والله أعلم اهـ وقوله عز وجل: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾ أي فمن ألجأته الضرورة بسبب المجاعة إلى أكل شيء من هذه المطاعم المحرمة ليسلم من الموت فمادام لم يمل إلى المعصية فإن الله لا يؤاخذه بما أكله من هذه المحرمات حالة كونه مضطرا.

قال تعـالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لكم الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم من الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تعَلِّمُـونَهُنَّ مِمَّـا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُـوا مِمَّـا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُم واذْكُـرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْـهِ واتَّقُوا اللهَ، إنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَـابِ. الْيَـوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَـاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتمُـوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ، وَمَن يكفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وهو فى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ.﴾

بعد أن فصَّل عـز وجل ما حرمـه من المطاعم على المؤمنين إلا مـا اضطروا إليه شرع عز وجل يُفصِّـل لهم ما أحله وأباحه لهم من المطـاعم والطيبات من الـرزق التي كـان أهل الجاهليـة يحرمـون بعضهـا على غير بصيرة كـالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، ويعلمهم عز وجل حكم الزواج من الكتابيات حيث يقـول تبـارك وتعـالى: ﴿يَسْـأَلُـونَـكَ مَـاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُـلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطيباتُ﴾ الآيتين. ومعنى قـوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُـونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أي يستفتـونك ويطلبـون منك تفصيل وبيان مـا أبيح لهم من المطـاعم بعـد أن عرفوا ما حرم عليهم منها ويقولون لك أيها النبي الكريم: ماذا أحل لنا؟ وقد أجابهم الله عز وجل بأكثر مما سألـوا عنه حيث بيَّن لهم أنه أباح لهم الطيبات وكذلك ما صـادته لهم الجوارح المعلَّمة التي أرسلوهـا لتصيد لهم وذكروا اسم الله عليها عند إرسالها، وأنه أحل لهم المستلذات التي لا ضرر فيها ولا خبث، وأنـه أبـاح لهم ذبـائح أهل الكتـاب، وأذن لهم في إطعـام أهل الكتـاب من ذبائحهم، كما أبـاح لهم نكاح الحرائر العفيفات من المؤمنـات ونكاح الحرائر العفيفات من الكتابيات، ولا شك عنـد أهل العلم أن جواب السائل بأكثر ممـا سأل عنـه مما يحتـاجـه أمـر تقتضيـه الحكمة وهـو داخل تحت أسلـوب

الحكيم، ولذلك لما سئل رسول الله ﷺ عن الوضوء بماء البحر أجاب بطهارة ماء البحر وحل ميتته فقد روى أصحاب السنن وصححه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: هو الطهور ماؤه الحل ميتته.

والمراد بالطيبات في قوله عز وجل: ﴿قل أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيباتُ﴾ المستساغات من الأطعمة والأشربة التي طيبها الله عز وجل، ولا تضر من طعمها، ولم يرد نص عن الله أو عن رسوله ﷺ يقتضي تحريمها والمنع من تناولها، وقد خلت من الخبث. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم من الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تَعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ واتَّقُوا اللهَ﴾ أي وأحل لكم صيد المعلمة من السباع والكلاب والطير الكواسب التي ترسلونها على الصيد وتؤدبونها بما ألهمكم الله عز وجل فتعرف أداب الصيد فلا تصيد لنفسها بل تصيد لكم ولا تأكل من الصيد بسبب تدريبكم لها على ذلك إلا ما أطعمتموها أنتم منه بعد أن توصله لكم، فكلوا من الصيد الذي أمسكته لكم هذه الجوارح المعلمة، واذكروا اسم الله عند إرسالها للصيد، وخافوا ربكم. والجوارح جمع جارحة، وهي الكواسب من السباع والكلاب والطير التي تقبل التعليم، وأصل الاجتراح: الاكتساب يقال: فلان جارحة أهله أي كاسبهم ومنه قوله تعالى: ﴿اجترحوا السيئات﴾ أي اكتسبوا المعاصي والذنوب ومعنى: ﴿مكلبين﴾ أي مرسلين هذه الجوارح على الصيد لتصيده لكم بعد تعليمها وتدريبها على ذلك قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط: ومُكَلِّبٌ: مضرٍّ للكلاب على الصيد، معلِّمٌ لها، وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير، وفي التنزيل العزيز: ﴿وما عَلَّمْتُمْ من الجوارح مُكَلِّبِينَ﴾ فقد دخل في هذا الفهد، والبازي،

والصقر، والشاهين، وجميع أنواع الجوارح، والكلَّاب صاحب الكلاب، والمكلِّب الذي يعلم الكلاب أخذ الصيد، وفي حديث الصيد: إن لي كلابًا مكلبة فأفتني في صيدها، المكلبة: المسلطة على الصيد، المعودة بالاصطياد التي قد ضَرِيتَ به، والمكلِّب بالكسر: صاحبها والذي يصطاد بها اهـ والعرب قد يطلقون اسم الكلب على سائر السباع كما تطلق على النابح سواء كان ضارياً أو غير ضار. قال الجوهري في الصحاح: وقد ضرى الكلب بالصيد يضرى ضراوة أي تعود، وكلب ضار وكلبة ضارية، وأضراه صاحبه أي دربه وعوده، وأضراه به أيضاً أي أغراه اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مما عَلَّمَكُمُ الله﴾ أي تدربونهن وترشدونهن إلى طرق الاصطياد التي هداكم الله إليها وعرفكموها وتؤدبونهن حتى لا يأكلن من الصيد لتعلموا أنها صادت لكم لا لأنفسها، وحتى إذا أرسلتموها استرسلت وإذا زجرتموها انزجرت، وإذا دعوتموها استجابت، وإذا أردتموها لم تفر منكم، وصار ذلك معلوما منها، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فكلوا مما أَمْسَكْنَ عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ أي فمتى كان الجارح معلَّماً وخرج إلى الصيد بإرسال صاحبه الذي ذكر اسم الله عليه عند إرساله وأمسك الصيد على صاحبه حل صيده لكم وإن قتله، وقد أجمع على ذلك أهل العلم، وقد روى البخاري من طريق زكرياء عن عامر عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن صيد المعراض قال: ما أصاب بحده فكله وما أصاب بعرضه فهو وقيذ، وسألته عن صيد الكلب، فقال: ما أمسك عليك فكل، فإن أخْذ الكلب ذكاة، وإن وجدت مع كلبك أو كلابك كلباً غيره فخشيت أن يكون أخذه معه وقد قتله فلا تأكل، فإنما ذكرت اسم الله على كلبك ولم تذكره على غيره، ثم ساقه من طريق عبد الله بن أبي السفر عن الشعبي، وفيه: فقلت: أرسل كلبي؟ قال: إذا أرسلت كلبك، وسميت فكل، قلت: فإن

أكل؟ قال: فلا تأكل، فإنه لم يمسك عليك، إنما أمسك على نفسه، قلت أرسل كلبي فأجد معه كلبا آخر؟ قال: لا تأكل، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على آخر، ثم ساقه البخاري من طريق همام بن الحارث عن عدي رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله إنا نرسل الكلاب المعلمة؟ قال: كل ما أمسكن عليك، قلت: وإن قتلن؟ قال: وإن قتلن. الحديث. وقد ساقه مسلم من طريق عاصم عن الشعبي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله عليه، فإن أمسك عليك فأدركته حيًّا فاذبحه وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله، وإن وجدت مع كلبك كلباً غيره وقد قتل فلا تأكل فإنك لا تدري أيهما قتله. الحديث. وأخرجه من طريق همام بن الحارث عن عدي بن حاتم قال: قلت: يارسول الله إني أرسل الكلاب المعلمة فيمسكن عليَّ وأذكر اسم الله عليه فقال: إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل. قلت: وإن قتلن؟ قال: وإن قتلن مالم يشركها كلب ليس معها. الحديث، ثم ساقه من طريق بيان عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ قال: إنا قوم نصيدُ بهذه الكلاب؟ فقال: إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله عليها فكل مما أمسكن عليك وإن قتلن إلا أن يأكل الكلب، فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه، وإن خالطها كلاب من غيرها فلا تأكل. وساقه من طريق عبد الله ابن أبي السفر عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: وسألت رسول الله ﷺ عن الكلب فقال: إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل، فإن أكل منه فلا تأكل فإنه إنما أمسك على نفسه، قلت: فإن وجدت مع كلبي كلبًا آخر فلا أدري أيهما أخذه؟ قال: فلا تأكل فإنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره. وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله، إن الله سريع الحساب﴾ أي وراقبوا الله

عز وجل في جميع شئونكم ولا تعتدوا بتحليل ما حرم أو تحريم ما أحل فإنه عز وجل حافظ لجميع أعمالكم لا يثقله محاسبتكم جميعا في مثل طرفة عين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لكم الطيباتُ﴾ المراد باليوم الزمن الحاضر بمعنى الآن كما ذكر ذلك الزجاج وابن الأنباري ونظيره قولك: كنت بالأمس شابا واليوم قد صرت شيخا، ولا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك ولا باليوم يومك الذي أنت فيه، وتقول: قد كنت في غفلة واليوم استيقظت أي الآن استيقظت، وتقول: كان فلان يزورنا واليوم يجفونا أي والآن ومنه قول الشاعر النمر بن تولب:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساءُ ويوم نُسر

أي فزمان لنا وزمان علينا ولم يقصد يوما لا ينضم إليه غيره. وقد كرر الله تبارك وتعالى تحليل الطيبات تأكيدا على جزيل فضله وواسع عطائه وتنديدا بمن يتجاوز الحلال الطيب إلى الحرام الخبيث. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وطعام الذين أُوتُوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم﴾ أي وذبائح أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى حلال لكم وذبائحكم حلال لهم قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال ابن عباس وأبو أمامة ومجاهد وسعيد ابن جبير وعكرمة وعطاء والحسن ومكحول وإبراهيم النخعي والسدي ومقاتل بن حيان يعني ذبائحهم، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن ذبائحهم حلال للمسلمين اهـ والمقصود من قوله عز وجل: ﴿وطعامكم حِلٌّ لهم﴾ كما قال الزجاج: معناه حلال لكم أن تطعموهم اهـ قال أبو محمد البغوي الملقب بمحيي السنة في تفسيره: فيكون خطاب الحِلِّ مع المسلمين، وقيل لأنه ذكر عقيبه حكم النساء ولم يذكر حل المسلمات لهم فكأنه قال: حلال لكم أن تطعموهم حرام عليكم أن تزوجوهم اهـ وإطلاق الطعام هنا على الذبائح من إطلاق العام الذي أريد به الخصوص لأن ما سوى الذبائح

محللـة قبل أن تكــون لأهل الكتـاب وبعـد أن صــارت لهم، فـلا يحرم من طعـامهم إلا مـا نص الشرع على تحريمـه على المسلمين. وقـولـه عـز وجل: ﴿والمحصَنَاتُ من المؤمنـات والمحصناتُ من الذين أُوتُـوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتمـوهن أجـورهن محصنين غير مسـافحين ولا متخـذي أخـدان﴾ أي وأحل لكم التزوج من الحرائر العفيفـات المؤمنات وأحل لكم كـذلك التزوج من الحرائر العفيفـات من النصرانيات واليهوديـات إذا فرضتم لهن مهـورهن حالـة كونكم أعفَّـاء عن الزنـا جهرا وسرًّا، وقد تقـدم في تفسير الآية الـرابعة والعشرين والخامسة والعشرين من سورة النساء بيان معاني الأجور والإحصان والسفاح والأخدان. ومعنى قوله عـز وجل: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهـو في الآخرة من الخاسرين﴾ تحذيـر من الله عز وجل لمن تشكك في تحريم مـا حرم الله أو تحليل مـا أحل، وتنبيه لمن تـزوج يهودية أو نصرانيـة أن يكون على حذر من أن يعجبه جمالها فيتأثر بدينها، بل عليه أن يبذل الوسائل لنقلها إلى دين الإسلام، فإن تأثـر هو بدينها فقـد حبط عمله وبطل ما فعل من الخير وإن مـات على ذلك كـان في الآخـرة من الخاسرين، كما قـال عـز وجل: ﴿ومن يَرْتَدِدْ منكم عن دينه فَيَمُتْ وهو كافر فأولَئك حَبِطتْ أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

قال تعـالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذا قُمْتُمْ إِلى الصَّلاةِ فاغْسِلُـوا وُجُوهكُمْ وَأَيْـدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُـوا بِـرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلى الكَعْبَيْنِ، وإن كُنْتُمْ جُنُبًا فاطَّهَّـرُوا، وإن كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفرٍ أَوْ جَاءَ أَحَـدٌ منكم من الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَـاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًـا فَامْسَحُوا بِـوُجُوهِكُمْ وَأَيْـدِيكم مِنْهُ، مَـا يُرِيـدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ولَكن يـريدُ لِيُطَهِّـرَكُمْ ولِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. ﴾

بعد أن بيَّن الله عز وجل ما أحله لعباده من المطاعم والمناكح التي لا غنى لهم عن التزود بها في الحياة الدنيا وقد ذيل الآية السابقة بما يلفت الانتباه إلى أن تحليل مـا أحل الله وتحريم مـا حرم هـو من شرائع الإيمان حيث قـال ﴿ومن يكفر بـالإيمان فقط حبط عمله﴾ الآية. شرع هنا يبين لهم مـا لا غنى لهم عنه من زاد الآخرة وبدأ بأهم ما يجب الوفاء به من العهود بعد الإيمان وهو الصلاة التي هي عماد الديـن والتي قد سماها الله عـز وجل إيمانا حيث قـال: ﴿وما كان الله ليُضيعَ إيمانكم﴾ يعني صلاتكم عنـد البيت ولما كانت الصلاة لابد لها من الوضوء ولا يقبلها الله من أحد إلا إذا كـان متطهرا لها، لا جرم بدأ عز وجل بذكـر شرائط الوضوء فقـال: ﴿ياأيها الذين آمنـوا إذا قمتم إلى الصلاة فـاغسلـوا وجـوهكم وأيـديكم إلى المرافق وامسحـوا بـرءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ ومعنى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾أي إذا أردتم القيـام إلى الصلاة، وهذا أسلوب مشهور في اللسان العربي كما تقول: إذا آخيت فآخ الصالحين، وكـذلك قـال عـز وجل: ﴿فإذا قـرأت القـرآن فاستعـذ بـالله من الشيطـان الرجيم. ﴾ والاستعـاذة إنما تطلب قبل الشروع في قراءة القرآن ولا يخطـر ببال عاقل أن المقصود من قوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ إلخ أن يتوضئوا أثناء قيامهم إلى الصلاة وعند تلبسهم بفعلها إذ لا يجوز تأدية

أي جزء من الصلاة بـدون الطهارة فقد روى البخاري من حـديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: لا يقبل الله صـلاة أحدكـم إذا أحدث حتى يتوضأ. كما روى مسلم من طريق مصعب بن سعد قال: دخل عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما على ابن عـامر يعوده وهـو مريض فقال: ألا تـدعو الله لي يـا ابن عمر؟ قـال: إني سمعت رسـول الله ﷺ يقول: لا تقبل صـلاة بغير طهـور ولا صـدقـة من غلـول، وكنتَ على البصرة، وفي لفظ لمسلم من طريق همام بن منبـه قال: هذا ما حـدثنا أبو هريرة عـن محمد رسول الله ﷺ فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله ﷺ: لا تقبل صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتـوضأ. وقـد وصف رســول الله ﷺ الـوضـوء بأنـه شطـر الإيمان أي الصـلاة، فقـد روى مسلم في صحيحـه من حـديث أبي مـالك الحارث بن عـاصم الأشعـري رضي الله عنه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: الطهور شطـر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحـان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقـة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها. وهذه الآية حرية أن تسمى آية الوضوء، إذ قـد بدأ الله عز وجل الأحكام فيها ببيان أعضاء الوضـوء ما يغسل منها وما يمسح، وهي أربعـة أعضاء، أمر بغسل ثلاثة منها وهي الوجـه واليدان إلى المرفقين والرجلان إلى الكعبين وأمر بمسح الرأس، وهذه هي الطهارة الصغرى التي تفرض على من أراد الصلاة إذا كان محدثا حدثًا أصغر، أما الحدث الأكبر وهو الجنابة الموجبة لغسل جميع الجسم فقـد بينها عـز وجل بقـوله تعـالى: ﴿وإن كنتم جُنُبًـا فـاطَّهَّرُوا﴾ والمقصـود الطهارة الكبرى بغسل جميع البـدن، والوجـه في اللغة مأخـوذ من المواجهة، وهو عضو مشتمل على أعضاء، وحـدُّه في الطول من مبتدأ سطح الجبهة إلى أسفل الذقن ومنتهى اللحيين، وحده عرضا ما بين الأذنين. ومعنى قوله عز

وجل : ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ أي واغسلوا أيديكم إلى المرافق، فالمرافق هي نهاية ما يجب غسله في اليدين، والغاية هنا داخلة في المُغَيَّا، والمرافق جمع مرفق وهو موصل الذراع بالعضد، ولما كانت اليد تطلق عند العرب من أطراف الأصابع إلى الكتف حدد الله عز وجل ما يجب غسله منها بحد المرافق، كما أن الرِّجْل تطلق من أطراف الأصابع إلى الحد الأعلى من الفخذ ولذلك حدد الله تبارك وتعالى ما يجب غسله منها بحد الكعبين، والكعبان هما العظمان الناشزان عند ملتقى الساق والقدم في جانب القدم، ولكل قدم كعبان عن يمنتها ويسرتها، وقد قرأ ابن عامر والكسائي ونافع ويعقوب وحفص عن عاصم بنصب اللام من قول عز وجل : ﴿وأرجلكم﴾ وقرأ ابن كثير وحمزة وأبوعمرو وأبوبكر عن عاصم بالجر، وقد بينت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ أن فرض الرِّجلين في الوضوء هو الغسل لا المسح فتكون قراءة الجر جاءت للمجاورة، وقد أفرد النحاة للجر على المجاروة بابا خاصا، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية عن الجر على المجاورة : وهذا سائغ ذائع في لغة العرب شائع. وقال الإمام الحسين بن مسعود الفراء محيي السنة البغوي في تفسير هذه الآية : خفض اللام في الأرجل على مجاورة اللفظ لا على موافقة الحكم كما قال تبارك وتعالى : ﴿عذابَ يوم أليمٍ﴾ فالأليم صفة العذاب ولكنه أخذ إعراب اليوم للمجاورة، وكقولهم : جحرُ ضبٍّ خربٍ فالخرب نعت الجحر وأخذ إعراب الضب للمجاورة اهـ وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه كان يغسل رجليه في الوضوء ولم يثبت قط أنه مسح عليهما إلا أن يكون لابساً للخفين، وتوعد من ترك شيئا من القدمين دون غسل في الوضوء بالويل وعذاب النار فقد قال البخاري في كتاب العلم من صحيحه : باب من رفع صوته بالعلم، حدثنا أبو النعمان عارم بن الفضل قال : حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن

عمرو قـال: تخلف عنا النبي ﷺ في سفـرة سافـرناهـا، فأدركَنا وقـد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: ويل للأعقـاب من النار مرتين أو ثـلاثا، ثم قـال البخاري في كتاب الـوضوء من صحيحه: باب غسـل الرجلين ولا يمسح على القدمين، حدثنا مـوسى قال حدثنـا أبو عـوانة عن أبي بشر عن يـوسف بن ماهك عن عبـد الله بن عمرو قال: تخلف النبي ﷺ عنـا في سفرة سافـرناها، فأدركنا وقـد أرهقتنا العصر، فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا، فنادى بـأعلى صوته: ويل للأعقاب من النار، مرتين أو ثلاثا. وقد أخرج مسلم في صحيحه من طريق مخرمة بن بكير عن أبيـه عن سالم مـولى شداد قال: دخلـت على عائشة زوج النبـي ﷺ يوم تـوفي سعـد بن أبي وقاص فـدخل عبـد الـرحمن بن أبي بكـر فتوضأ عنـدهـا فقالت: ياعبد الرحمن أسبغ الـوضوء فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ويل للأعقـاب من النار ثم ساق مسلم من طريق هـلال بن يساف عن أبي يحيى عن عبد الله بن عمرو قال: رجعنا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة حتى إذا كنا بماء بـالطريق تعجل قـوم عند العصر فتوضئـوا وهم عِجال، فـانتهينا إليهم وأعقابهم تلوح لم يمسها الماء، فقال رسول الله ﷺ: ويل للأعقاب من النار أسبغوا الـوضوء. ثم ساق من طريق أبي عـوانة عن أبي بشر عن يوسف ابن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال: تخلف عنا النبي ﷺ في سفر سافرناه، فأدركنا وقد حضرت صلاة العصر فجعلنـا نمسح على أرجلنا، فنادى: ويل للأعقـاب من النار. ثم ساق مسلـم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً لم يغسل عقبيه فقال: ويـل للأعقاب من النار كما روى البخاري من طريق محمد بن زياد قال سمعت أبا هريرة وكان يمر بنا والناس يتوضئـون من المطهرة قـال: أسبغوا الوضـوء فإن أبا القـاسم ﷺ قال: ويل للأعقاب من النار. وقد أخـرجه مسلم رحمه الله في صحيحه من طريق محمد

ابن زياد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه رأى قوماً يتوضئون من المطهرة فقال: أسبغوا الوضوء فإني سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: ويل للعراقيب من النار، وفي رواية لمسلم من طريق أبي الزبير عن جابر أخبرني عمر بن الخطاب أن رجلا توضأ فترك موضع ظفر على قدمه، فأبصره النبي ﷺ فقال: ارجع فأحسن وضوءك فرجع ثم صلى. وقد فسر رسول الله ﷺ قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ بقوله وفعله ﷺ أوضح تفسير وبين ذلك أعظم تبيين، ونبه إلى وجوب غسل الكفين قبل إدخالهما في المطهرة لمن استيقظ من النوم فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإنه لا يدري أين باتت يده. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إذا استيقظ أحدكم من منامه فليستنثر ثلاثا فإن الشيطان يبيت على خيشومه. كما روى البخاري ومسلم عن حمران بن أبان مولى عثمان ابن عفان رضي الله عنه أن عثمان دعا بوضوء فغسل كفيه ثم تمضمض واستنشق واستنثر ثم غسل وجهه ثلاث مرات ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاث مرات ثم اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجله اليمنى إلى الكعبين ثلاث مرات ثم اليسرى مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا. الحديث. كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنهما في صفة وضوء النبي ﷺ قال: ومسح رسول الله ﷺ برأسه فأقبل بيديه وأدبر. كما أخرج أبو داود من حديث المقدام أنه ﷺ لما بلغ مسح رأسه وضع كفيه على مقدم رأسه فأمرّهما حتى بلغ القفا ثم ردهما إلى المكان الذي بدأ منه، كما أخرج أبو داود والنسائي

وصححه ابن خزيمة من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ـ في صفة الوضوء ـ قال : ثم مسح برأسه وأدخل إصبعيه السباحتين في أذنيه ، ومسح بإبهاميه ظاهر أذنيه . كما أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله ابن زيد رضي الله عنهما ـ في صفة الوضوء : ثم أدخل ﷺ يده فمضمض واستنشق من كف واحدة . هذا ومع كون الطهارة شرطا في صحة الصلاة ومع حب الله تبارك وتعالى للمتطهرين فقد بشر رسول الله ﷺ من يحسن وضوءه بدرجات عالية فقد روى مسلم من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وإن كنتم جُنُبًا فاطَّهَّرُوا﴾ أي وإن أصابتكم جنابة فلا تقربوا الصلاة حتى تغتسلوا وتفيضوا الماء على جميع بدنكم . وقد تقدم بيان معنى قوله عز وجل : ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتَيَمَّمُوا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ في تفسير الآية الثالثة والأربعين من سورة النساء . والإرادة في قوله عز وجل : ﴿ما يريدُ اللهُ ليجعلَ عليكم من حَرَجٍ ولكن يريد لِيُطَهِّرَكُم ولِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليكم لعلكم تشكرون﴾ هي الإرادة الشرعية لا الإرادة الكونية القدرية ، أي ما يحب الله عز وجل أن يجعل عليكم فيما يشرعه لكم من الدين وما ألزمكم به من الوضوء إذا قمتم إلى الصلاة حرجاً وضيقاً وعنتا ومشقة و إنما يريد الله عز وجل نظافة بواطنكم وظواهركم وطهارة نفوسكم وأبدانكم ومغفرة ذنوبكم وتكفير سيئاتكم ، وأن يُذهب الرجس عنكم وأن يُكْمِلَ لكم أكمل المناهج بما اشتملت عليه من الشمول والكمال والدوام والصلاحية لكل زمان ومكان لكي تشكروا لله عز وجل على ما خصكم به من هذه النعم العالية والتشريعات السامية .

قال تعالى: ﴿واذكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللهَ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَلا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى واتَّقُوا اللهَ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عَظِيمٌ. والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيم. يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ واتَّقُوا اللهَ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

بعد أن أمر الله عز وجل في صدر هذه السورة الكريمة المؤمنين بأن يوفوا بالعقود وعهد إليهم بما يجب عليهم أن يلتزموا به من تحليل ما أحل الله لهم وتحريم ما حرم عليهم، وبين لهم أكمل المناهج وأحسنها مما يجلب لهم سعادة الدنيا والآخرة إن استمسكوا بها وساروا على منوالها، وأعلمهم أنه أكمل لهم الدين وأتم عليهم النعمة، وختم الآية السابقة بتأكيد ذلك حيث قال: ﴿وليُتِمَّ نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾ أمر المؤمنين هنا ونبههم إلى أن يجعلوا هذه النعم وتلك العهود والمواثيق التي التزموا بها لله عز وجل بمقتضى عقد الإيمان نُصْب أعينهم، فلا ينسوها ولا يغفلوا عنها حيث يقول عز وجل: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي وَاثَقَكُمْ به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله﴾ والمراد بالنعمة هنا جنسها فتشمل سائر نعمه عز وجل وبخاصة ما لفت انتباههم إليه منها ههنا. والمراد بذكرها شكر الله عز وجل عليها والإقرار بأنه تبارك وتعالى هو مسديها والمتفضل بها، والمراد بذكر الميثاق هو الوقوف عند حدود الله والائتمار بأمره والانزجار عما زجر عنه، وطاعة رسول الله ﷺ في السر والعلن والمنشط والمكره، والوفاء ببيعته كما قال عز

وجل : ﴿إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إنما يُبَـايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيديهِمْ ، فمن نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسـه ومَنْ أَوْفَى بما عَـاهَدَ عَلَيْـهُ اللهَ فَسَيُـؤْتِيهِ أَجْـرًا عَظِيماً﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿واتقوا اللهَ، إنَّ الله عليم بذات الصدور﴾ أي وراقبوا الله تبارك وتعـالى في أعمالكم وأيقنوا أنـه لا يخفى عليه شيء ممـا في صدوركم وخفايا نفوسكم ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شُهَدَاءَ بالقسط ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْـدِلوا﴾ أي كونوا قوامين لله بالحق ، ولا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم بل استعملوا العدل مع كل أحـد عدواً كـان أو صديقـاً . وقولـه عز وجل : ﴿هُـوَ﴾ ضمير راجع إلى العدل المستفاد من قوله عز وجل : ﴿اعـدلوا﴾ ودلالة اعدلوا على العدل هنا من بـاب دلالة التضمن ، وهي دلالـة اللفظ على جزء معناه ، إذ الفعـل يدل على الحدث والـزمـان ، أما المصـدر فإنـه يـدل على الحدث وحـده ، فلفظ : ﴿اعـدلوا﴾ يـدل على الحدث والزمن المستقبل ، والعـدل مصدر يـدل على الحدث فقط بغض النظـر عن زمـانـه . وقد استعمـل القرآن الكـريم دلالـة التضمن في مواضع كثيرة كما هـو هنا وكما في قوله تبـارك وتعالى : ﴿وإن قيل لكم ارْجِعُوا فارْجِعُـوا هو أزكى لكم﴾ فقوله عـز وجل : ﴿هو﴾ ضمير يعود على الرجوع المدلول عليه بقوله : ﴿ارْجِعُوا﴾ وكقوله تعالى : ﴿فَمَن تطوَّع خيرا فهو خير له﴾ . ومعنى قوله عز وجل : ﴿هو أقرب للتقوى﴾ أي عدلكم مع أوليائكم وأعـدائكم أقرب إلى أن تكونـوا من المتقين ، وأن تصانـوا من عذاب النار يوم القيـامة ، وقال ابن كثير رحمه الله : وقوله ﴿هـو أقرب للتقوى﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الـذي ليس في الجانب الآخر منه شيء كما في قوله تعـالى : ﴿أصحابُ الجنة يومئذ خير مُسْتَقَـرًّا وأَحْسَنُ مَقِيلا﴾ اهـ ومعنى قولـه تبارك وتعـالى : ﴿واتقوا الله ، إنَّ الله خبير بما تعملـون﴾ قال ابن جرير رحمه الله : وأما قوله : ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ فإنه يعني :

واحذروا أيها المؤمنون أن تجوروا في عباده فتجاوزوا فيهم حكمه وقضاءه الذي بين لكم، فيحل بكم عقوبته، وتستوجبوا منه أليم نكاله ﴿إنَّ الله خبير بما تعملون﴾ يقول: إن الله ذو خبرة وعلم بما تعملون أيها المؤمنون فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، من عمل به أو خلاف له، محصٍ ذلكم عليكم كله، حتى يجازيكم: المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاتقوا أن تسيئوا، اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لَهُم مغفرةٌ وأجر عظيمٌ* والذين كفروا وكذَّبُوا بآياتنا أولَئك أصحابُ الجحيم﴾ بيان لما اقتضاه قوله عز وجل في تذييل الآية السابقة: ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ من الوعد والوعيد، حيث وعد هنا المستجيبين لله ولرسوله ﷺ بالمغفرة والأجر العظيم وتوعد الكافرين المكذبين بملازمة الجحيم، وقد ساق الله تبارك وتعالى هذا البيان هنا بأسلوب بلاغي حيث قال: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فذكر الوعد ولم يذكر الموعود مما يجعل النفوس تتطلع إليه وتشرئب لمعرفته فجاء به على سبيل الاستئناف البياني كأن السائل يسأل: ماذا وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ فكان الجواب ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ أي لهم تكفير خطاياهم ومنحهم الثواب الجزيل وإسكانهم جنات النعيم، قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: فإن قال قائل: إن الله جل ثناؤه أخبر في هذه الآية أنه وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولم يخبر بما وعدهم فأين الخبر عن الموعود؟ قيل: بلى، إنه قد أخبر عن الموعود، والموعود هو قوله: ﴿لهم مغفرةٌ وأجر عظيم﴾ وقال الفخر الرازي: فإن قيل: لم أخبر عن هذا الوعد مع أنه لو أخبر بالموعود به كان ذلك أقوى؟ قلنا: بل الإخبار عن كون هذا الوعد وعد الله أقوى، وذلك لأنه أضاف هذا الوعد إلى الله تعالى فقال ﴿وَعَدَ اللهُ﴾ والإله هو الذي يكون قادرًا على جميع المقدورات، عالمًا بجميع المعلومات، غنيًّا عن كل

الحاجات، وهـذا يمتنع الخلف في وعـده، لأن دخول الخلف إنما يكـون إما للجهل حيث ينسى وعده، وإمـا للعجز حيث لا يقدر على الوفـاء بوعده، وإما للبخل حيث يمنعه البخل عن الوفاء بالوعد، وإما للحاجة، فإذا كان الإله هو الذي يكـون منزهاً عن كل هذه الوجوه كـان دخول الخلف في وعده محالا، فكان الإخبار عن هذا الوعد أوكد وأقوى من نفس الإخبار عن الموعود به، وأيضا فلأن هذا الوعـد يصل إليه قبل الموت فيفيده السرور عند سكرات الموت فتسهل بسببه تلك الشـدائد، وبعد الموت يسهل عليه بسببـه البقاءُ في ظلمة القبر وفي عـرصة القيـامة عند مشـاهدة تلك الأهوال اهـ وقولـه تبارك وتعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآيـاتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ بيان لوعيد الكفار المكذبين بعد بيان وعـد المؤمنين الصالحين قال أبو السعود العمادي في تفسير هذه الآية: من السنـة السنية القرآنية شفع الوعد بـالوعيد والجمع بين الترغيب والترهيب إيفـاء لحق الـدعوة بـالتبشير والإنـذار اهـ وقولـه تبـارك وتعالى: ﴿يـاأيها الذين آمنـوا اذكروا نِعْمَتَ الله عليكم إذْ هَمَّ قـومٌ أن يَبْسُطُوا إليكم أَيْـدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عنكم واتَّقُـوا الله، وعلى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُـونَ﴾ حض للمؤمنين على أن يوفوا بعقودهم وأن يشكروا نعمت الله عليهم، حيث أعزهم بالإسلام وأعـز الإسلام بهم، وحماهم من كيد أعدائهم، ومكن لهم في الأرض، وألقى الرعب في قلوب من يريد بهم شرا وصانهم من شرهم وأمرهم عز وجل بتقواه والتوكل عليه، لأنـه وحده القادر على كل شيء، وقد وقعت حوادث كثيرة هم فيهـا بعض الكافرين بقتل رسول الله ﷺ أو قتل أصحـابه رضي الله عنهم وكانت للكـافرين في ذلك قـدرة على تنفيذ مـرادهم الشرير، ولكن الله عز وجل حمى رسـوله ﷺ وحمى أصحابه من شرور أعـدائهم وحال بينهم وبين ما يشتهون صيانة لرسوله ﷺ وإعزازاً لدينه فقد روى البخاري في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد،

فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس في العضاه، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلق بها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: إن هذا اخترط سيفي، وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فهاهو ذا جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ، ثم قال البخاري: وقال أبان: حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلةٍ تركناها للنبي ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلق بالشجرة، فاخترطه، فقال: تخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله، فتهدده أصحاب النبي ﷺ. الحديث. وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عفان حدثنا أبان بن يزيد حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بذات الرقاع قال: كنا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، قال: فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بشجرة، فأخذ سيف نبي الله ﷺ فاخترطه، فقال لرسول الله ﷺ: أتخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله، قال: فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ فأغمد السيف، وعلقه. الحديث. قال البخاري رحمه الله بعد سياقه حديث جابر رضي الله عنه من طريق أبان: وقال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر: اسم الرجل غورث بن الحارث اهـ وقد حاول نحو ثمانين رجلا من مشركي قريش يوم الحديبية أن يميلوا على المسلمين يريدون غرة رسول الله ﷺ وأصحابه فكفهم الله عز وجل عنهم، واستسلموا للمسلمين فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على

رسول الله ﷺ مـن جبل التنعيم متسلحين يريـدون غرة النبي ﷺ وأصحـابه فأخـذهم سِلْما فاستحياهـم فأنزل الله عـز وجل: ﴿وَهُوَ الذي كـفَّ أَيْدِيَهُمْ عنكم وأَيْـدِيَكُمْ عنهم ببطن مكة من بعـد أن أَظْفَرَكُمْ عليهم﴾ وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿واتقوا الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنـون﴾ أي واحرصوا أيها المؤمنون على ملازمة تقوى الله وحافظوا على العهود والمواثيق، واعتمدوا على الله وحده وألقوا أزمة أموركم إليه، واستسلمـوا لقضائه، وثقوا بنصره وعونه، إذ أن هذا هو دأب المؤمنين المقرين بالله ورسلـه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُمْ بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَد ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ. فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُم وَاصْفَحْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُم اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بأن يوفوا بالعقود وأن يشكروا نعمة الله عليهم وأكد عليهم ذلك بعدة تأكيدات أشار هنا إلى أن من أبرز صفات اليهود والنصارى أن ينقضوا العهود والمواثيق ولا يوفوا بها، تحذيراً للمسلمين من سلوك سبيل هؤلاء الخائنين وكأنه يقول لهم: لا تكونوا أيها المؤمنون مثل أولئك اليهود والنصارى في هذا الخلق الذميم، لئلا تصيروا مثلهم فيما نزل بهم من اللعن والذلة وقسوة قلوبهم وجرأتهم في الكذب على الله وعلى رسله، وإغراء العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة، حيث يقول عز وجل هنا: ﴿ولقد أخذ اللهُ مِيثَاقَ بني إسرائيل وَبعثْنَا منهم اثْنَىْ عَشَرَ نقيبا وقال اللهُ إني معكم﴾ الآيات الثلاث إلى قوله عز وجل: ﴿وسوف ينبئهم اللهُ بما كانوا يَصْنَعُونَ.﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وبعثنا منهم اثنى عشر نَقيبًا﴾ أي ووصينا وأمرنا موسى عليه السلام أن يجعل على أسباط بني إسرائيل اثنى عشر نقيبا بعدد أسباطهم، على كل سبط منهم نقيب يرعى مصالحهم، ويشرف على شئونهم، وينقب عن أمورهم، إذ النقيب: كبير القوم، المسئول عنهم،

وهو أكبر مكانة من العريف، واختيار النقباء سياسة شرعية رشيدة، ولذلك لما تمت بيعة العقبة الثانية في العقبة الثالثة الأخيرة وقد بايع رسولَ الله ﷺ فيها ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وهما نسيبة بنت كعب أم عمارة وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي أم منيع، فلما تمت البيعة اختار رسولَ الله ﷺ منهم اثنى عشر رجلا وسماهم النقباء اقتداء بموسى عليه السلام كما جاء في الخبر الصحيح من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أخرجوا إليَّ منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وكان من النقباء عبادة ابن الصامت والبراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر وأسعد ابن زرارة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وقال الله إني معكم﴾ أي وأخبر الله عز وجل بني إسرائيل بواسطة موسى عليه السلام أنه تبارك وتعالى عليم بكل ما يذرون وما يفعلون، وأنهم تحت قدرته وعلمه لا تخفى عليه من شئونهم خافية، والمقصود تنبيههم إلى العناية بأوامر الله ونواهيه، وحملهم على الجد والاجتهاد في تطبيق شرع الله عز وجل، كأنه يقول لهم: إني معكم أسمع كلامكم، وأرى أعمالكم، وأعلم ما في ضمائركم، وأنا رقيب على سائر تحركاتكم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ هذه صورة العهد والميثاق الذي أخذه الله عز وجل على بني إسرائيل وحدد فيه ما عليهم، وما لهم إن وفوا به، وقد ألزمهم فيه عز وجل بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بجميع رسل الله وتأييدهم وأن يتعاونوا على الخير ويبذلوا المال ابتغاء وجه الله ويتركوا الربا. قال الفخر الرازي رحمه الله: إن الكلام قد تم عند قوله: ﴿وقال اللهُ إني معكم﴾

والمعنى: إني معكم بالعلم والقدرة فأسمع كلامكم، وأرى أفعالكم، وأعلم ضمائركم، وأقدر على إيصال الجزاء إليكم، فقوله ﴿إني معكم﴾ مقدمة معتبرة جداً في الترغيب والترهيب، ثم لما وضع الله تعالى هذه المقدمة الكلية، ذكر بعدها جملة شرطية، والشرط فيها مركب من أمور خمسة، وهي قوله: ﴿لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا﴾ والجزاء هو قوله: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عنكم سيئاتكم﴾ وذلك إشارة إلى إزالة العقاب، وقوله: ﴿ولأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾ وهو إشارة إلى إيصال الثواب اهـ ومعنى: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي ونصرتموهم وشددتم أزرهم وقويتموهم، وتدور مادة التعزير في اللغة على التقوية والتفخيم والتعظيم والمنع والردع والإجبار على الأمر والضرب الشديد، فتعزير الرسل نصرتهم وتعزير المسيء تأديبه وردعه ليقوى جانب الشرع وتعظم أوامر الدين. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: التعزير: مصدر عزره وهو مأخوذ من العزر وهو الرد والمنع، واستعمل في الدفع عن الشخص كدفع أعدائه عنه ومنعهم من إضراره، ومنه: ﴿وآمنتم برسلي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ وكدفعه عن إتيان القبيح، ومنه: عزره القاضي أي أدبه لئلا يعود إلى القبيح، ويكون بالقول وبالفعل بحسب ما يليق به اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بعد ذلك منكم فقد ضَلَّ سواء السبيل.﴾ أي فمن جحد منكم يا معشر بني إسرائيل شيئا مما ألزمته به وخالف الميثاق من بعد عقده وتوكيده، ونقضه بعد أن أقربه، فقد أخطأ الطريق الواضح وتاه في بيداء الضلالة وعمى عن الصراط المستقيم، ولاشك عند أهل العلم أن من كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل أيضا، وإنما قيد هنا بقوله عز وجل: ﴿فمن كفر بعد ذلك﴾ للتشنيع على هؤلاء اليهود المدعين للعلم، الذين انحرفوا عن منهج الرشد بعد العهد والميثاق، لأن الضلال بعد ذلك أظهر، ومن انحرف بعد العلم

كان أفجر وأكفـر، والمراد بسواء السبيل وسط الطريق، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿فبما نَقْضِهِمْ ميثـاقَهُم لَعَنَّـاهُمْ وجعلنـا قُلُوبَهُمْ قَـاسِيَـةً يُحَرِّفُـونَ الْكَلِمَ عن مواضعـه ونَسُوا حَظًّـا مما ذُكِّـرُوا به ولا تَـزَالُ تَطَّلِعُ على خائنـة مِنْهُمْ إلا قَلِيلا مِنْهُمْ فَـاعْفُ عَنْهُمْ واصْفَحْ، إنَّ الله يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ هـذه صـورة لبعض العقوبـات التي عجلها الله عـز وجل لناقضي العهود مـن اليهود وهي لعنهم وطردهم من رحمة الله، وجعل قلوبهم قاسية لا تتعظ بموعظة ولا تلين لقبول الهدى، ولا تميل لداعي الخير وفسـدت فهومهم وسـاءت تصرفاتهم واجترأوا على الكـذب على الله والافتراء عليه وتبـديل كلامـه وتحريفـه عن مواضعـه، وتركوا العمل بشريعـة الله رغبة عنها، وميلاً إلى باطلهم وما يفترونـه مما يلائم شهواتهم، ويحقق لهم جشعهم وبغيهم، وقد صار الغدر والخيانة من أخص صفـاتهم التي يتوارثهـا منهم أبناؤهـم جيلا بعـد جيل، ومهما حاولـوا كتمان غدرهم و إسرار خيـاناتهم فإن ذوي البصيرة لا يزالون يطلعـون على خياناتهم وغدرهم، وقـد نبه الله عز وجل إلى ذلك حيث يقـول: ﴿ولا تزال تَطَّلِعُ على خائنة منهم﴾ كهمهم بقتل رسول الله ﷺ غدرا بإلقاء حجر عليه في حائطهم وكوضعهم السـم في شاة مصلية لـه لقتله ﷺ، وقـد صانه الله عـز وجل من غدرهم وشرورهم، وقوله تبـارك وتعالى: ﴿إلا قليلا منهم﴾ استثناء لبيان أن بعضهم قد هـدى الله قلبه فلم ينغمس في الغـدر والخيانـة التي انغمس فيها اليهود وانشرح صـدره للإسلام كعبد الله بـن سلام رضي الله عنه وقولـه تبارك وتعالى: ﴿فاعف عنهم واصفح، إن الله يحب المحسنين.﴾ ترغيب في العفو عن المسيء والصفح عنه وأن ذلك إحسان يحبه الله عز وجل ويحب المتصفين بـه، والفرق بين العفـو والصفح أن العفـو هـو ترك المؤاخـذة على الـذنب، والصفح هو الإعـراض عن المسيء وعدم ذكر إساءته، وأصلـه من الإعراض بصفحة الـوجه كأنه أعـرض بوجهه عن ذنبـه. وقوله تبـارك وتعالى: ﴿ومن

الذين قالوا إنَّا نصارى أخذنا ميثاقهم فَنَسُوا حَظًّا مما ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَينهم الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بيان لقبائح النصارى وجناياتهم عقب بيان جرائم اليهود وخياناتهم، وفي قوله عز وجل: ﴿قالوا إنا نصارى﴾ إشارة إلى أن هذا الاسم أطلق عليهم بتسميتهم لأنفسهم لا بتسمية الله تعالى لهم، وقد ذكرت في تفسير الآية الحادية عشرة بعد المائة من سورة البقرة أن النصارى جمع نصراني، والنصرانية في الأصل نسبة إلى نصرانة وهي قرية المسيح عليه السلام من أرض الجليل بفلسطين وتسمى هذه القرية أيضا الناصرة ونصورية، ولا يعرف على التحديد متى أطلقت هذه الكلمة على أهل الإنجيل، ولم توجد هذه الكلمة في كتب النصارى إلا في أوائل القرن الثاني بعد ميلاد المسيح عليه السلام في عهد الإمبراطور «تراجان» الموجود في العام السادس بعد المائة من ميلاد المسيح عليه السلام، وقد يفهم من القرآن الكريم أنهم أحدثوا هذا الاسم إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾ اهـ والواقع أن هذه التسمية لا تقتضي مدحا ولا ذما في الأصل لأنها نسبة إلى وطن المسيح، والمعلوم أن النسبة إلى البلاد لا تقتضي مدحا ولا قدحا لوجود الصالح والطالح فيها وليست من عمل الإنسان الذي يمدح به أو يذم، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فَنَسُوا حظا مما ذُكِّرُوا به﴾ قال أبو جعفر: يقول عز ذكره: وأخذنا من النصارى الميثاق على طاعتي وأداء فرائضي، واتباع رسلي والتصديق بهم، فسلكوا في ميثاقي الذي أخذته عليهم منهاج الأمة الضالة من اليهود، فبدلوا كذلك دينهم، ونقضوه نقضهم وتركوا حظهم من ميثاقي الذي أخذته عليهم بالوفاء بعهدي، وضيعوا أمري اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي فصاروا أحزابا مختلفة متنافرة متناقضة يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا، وقد أغروا

بهذه العداوة والتصقت في قلوبهم وقوله تبارك وتعالى : ﴿وسوف ينبئهم الله بما كـانوا يَصْنَعُـون﴾ وعيد شـديـد لهم على نقضهم الميثاق ، وتـركهم العمل بما أمرهم الله عز وجل به ، وكفرهـم بمحمد ﷺ كما قال عز وجل : ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ .

قال تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لكم كَثِيرًا مما كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عن كَثِيرٍ، قَدْ جَاءَكُم من الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاط مستقيم. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هو الْمَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المَسِيحَ ابنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن في الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، والله على كل شَيْءٍ قَدِيرٌ.﴾

بعد أن حض الله تبارك وتعالى المؤمنين على أن يوفوا بالعقود وحذرهم من مشابهة اليهود والنصارى الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ونبه عباده إلى عقابه الذي عجله لليهود والنصارى ناقضي الميثاق مع ما ادخره لهم من أليم العذاب يوم القيامة شرع هنا يدعو أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الاستجابة لرسول الله ﷺ المبعوث من الله عز وجل بالنور المخرج من الظلمات، المرسل إلى الناس كافة ليبين للناس كل ما يحتاجونه لسعادتهم في المعاش والمعاد وليقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، ويفضح أحبار السوء ورهبان الضلال الذين يكتمون من التوارة والإنجيل ما يتوهمون أن إعلانه يُذهب رئاستهم على غوغائهم ورعاعهم كصفة محمد ﷺ والبشارة به، ويبين ما غيروه من الأحكام كرجم الزاني الذي غيروه إلى الجلد والتحميم وهو جلدهما أربعين جلدة بحبل مطلي بالقار ثم يسود وجههما ثم يحملان على حمارين ووجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما. وفي التعبير بقوله عز وجل: ﴿يا أهل الكتاب﴾ تنديد بهم إذ لم يسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ وقد ذكرت في تفسير الآية السبعين من سورة آل عمران أن قوله عز وجل في مخاطبتهم: ﴿يا أَهْلَ الكتاب﴾ ليس مدحاً لهم بل هو غاية

قصوى في الذم والتوبيخ، إذ المفـروض فيمن كان من أهل الكتاب أن يكون أسرع الناس إلى تصديق رسل الله المؤيدين بالمعجـزات، فإذا لم يذعنوا للآيات التي يؤيد الله بها المرسلين كان وصفهم بأنهم أهل الكتـاب للتوبيخ والتنديد والـذم، كما تقول لمن ينحـرف في سلوكـه وكـان أبوه صـالحا: يا ابن الـرجل الصالح وأنت لا تـريد الثناء على هذا المنحـرف وإنما تريد توبيخـه على عدم سلوكه منهـج أبيه في الصلاح والاستقامة وقـوله تبارك وتعالى: ﴿قـد جَاءَكُمْ رَسُولُنَـا يُبَيِّنُ لكم كثيرا مما كنتم تُخْفُـونَ مِنَ الكتَابِ ويَعْفُـو عَن كثيرٍ﴾ أي قد بعثنا لكم نبينا ورسـولنا محمدا ﷺ المبعوث للنـاس كافة حالـة كونه ﷺ يبيِّن لكم ياأهل الكتاب الكثير مما كتمتموه من الأخبار والأحكام كبشائر المرسلين بمحمد ﷺ ووصف أمتـه ووجوب الإيمان به ونصرتـه وكرجم الـزناة، ويترك كثيرا مما كتمتموه فلا يعلنه لعدم الحاجة إلى إعلانه مع كثرته إنذارًا لكم، وفيما أعلنه لكم دليل كاف شاف في إثبات رسالته ﷺ ومعجـزة ظاهرة باهرة قاهرة على أنـه رسول من رب العـالمين، إذ العرب والعجم الـذين كانـوا في جزيـرة العرب وما حـولها لا يشكون في أنه ﷺ كان أميًّـا لا يقرأ ولا يكتب، ولا علم له بكتـابهم قبل أن يوحى إليه، كما أن مـا عفا عنـه مما كتموه معجـزة أخرى حيث يعرفون أن النبي ﷺ عالم بما يخفونه فيكون ذلك داعياً لهم إلى الإيمان به ﷺ، ففي هذا ترغيب وتـرهيب وإقامة للبرهان على أكمل وجه وقـوله تبارك وتعالى: ﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتـابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رضوانه سُبلَ السـلام ويخرجهم مـن الظلمات إلى النـور بإذنـه ويهديهم إلى صراط مستقيم.﴾ تأكيـد وبيـان لعمـوم رسـالتـه ﷺ وشمـولها لجميع أهل الأرض عربهم وعجمهم من أميين وكتابيين، وأن رسالته ﷺ ليست منحصرة في بيان مـا كان يخفيـه أهل الكتـاب من الحق بل هـو نور منير وسراج وهـاج يضيء السبيل للسالكين، ويـرشد الحائرين، قـد بعثه الله عز وجل بـالكتاب المنير

ليفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، والمراد بالهداية في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَهْدِي به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رضوانَهُ سُبُلَ السلام﴾ هداية الإرشاد والتوفيق والإعانة والتسديد والتأييد، والضمير في قوله: ﴿به﴾ عائد على الكتاب المبين، وهو القرآن العظيم الذي أنزله الله عز وجل على محمد ﷺ، ومعنى: ﴿من اتَّبَعَ رضوانه﴾ أي التمس رضى الله وقصد بعمله وجه الله عز وجل مع امتثال شريعة محمد ﷺ والعمل بها، والانقياد لها، والمراد بسبل السلام: طرق السلامة والنجاة وسعادة الدنيا والآخرة. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ويُخْرِجُهُمْ من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ أي ويخرج المتبعين لرضاه، الملتمسين هداه، المنقادين لشرعه، الذين يتبعون ولا يبتدعون، فيجعلهم على بصيرة في سلوكهم، ونور من ربهم، يمشون به في الناس، بتوفيق الله وهداه. ويرشدهم ويسددهم إلى صراط الله المستقيم ودينه القويم، وينفي عنهم الضلالة، ويحميهم من أن تتسلط عليهم الشياطين، فهم في سلوكهم ينهجون صراط الذين أنعم عليهم، ويجتنبون صراط المغضوب عليهم والضالين. ولاشك عند أهل السنة والجماعة أن الله تبارك وتعالى يرضى عن أوليائه ويسخط على أعدائه، نعوذ برضاه من سخطه وبعفوه من عقوبته ونعوذ به منه لا نحصي ثناءً عليه، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: و﴿إذنه﴾ في هذا الموضع تحبيبه إياه الإيمان برفع طابع الكفر عن قلبه، وخاتم الشرك عنه، وتوفيقه لإبصار سبل السلام اهـ وقوله عز وجل: ﴿لقد كَفَرَ الذين قالوا إنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ﴾ أي أقسم أن من ادعى أن المسيح عيسى ابن مريم هو الله فقد خلع ربقة الإسلام وجحد الدين الحق وانغمس في الضلال والكفر، وفي تأكيد هذا القول بإن وضمير الفصل ودخول الألف واللام على الخبر برهان على أن من ادعى أن المسيح إله

أو ابن إله أو أن الله ثالث ثلاثة فقد نفى ألوهية الإله الحق الذي لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولاشك أن أول من ادعى ألوهية المسيح عليه السلام هو شاول اليهودي الذي سمى نفسه «بولس» وقد ادعت النسطورية من النصارى أن الله حل في المسيح، ويقولون: إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به كحلول الماء في الإناء، ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم، كما ادعت اليعقوبية من النصارى أن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء واتحدا، ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم، فالنسطورية اعتقدوا حلول الله جل وعلا في المسيح ابن مريم، واليعقوبية اعتقدوا اتحاد الله جل وعلا بالمسيح ابن مريم، وفي قوله عز وجل: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ معجزة لرسول الله ﷺ حيث أعلن كفر من ادعى أن المسيح إله، وبيَّن أن الله إله واحد، والمعلوم أنه عند بعثة رسول الله ﷺ كان السائد عند النصارى القول بألوهية المسيح عليه السلام فكما بيَّن رسول الله ﷺ لليهود ما كتموه، بيَّن للنصارى أساس ضلالهم، وسبب انحرافهم، فمن أين للأمي هذا العلم الذي يجابه به اليهود والنصارى ويوجه العالم إلى الصراط المستقيم؟ لكنه رسول رب العالمين ﷺ، وقد أطلعه الله تبارك وتعالى على علوم من الغيب بما أنزل عليه من الكتاب المبين وبما أوحاه إليه من أخبار الأولين والآخرين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وَأُمَّهُ ومن في الأرض جميعا،﴾ هذا برهان قاطع وحجة دامغة على فساد من ادعى أن الله هو المسيح ابن مريم، ببيان أن عيسى مشاكل لمن في الأرض من بني آدم في الصورة والخلقة والتركيب معرض لما يتعرض له سائر بني آدم من الأعراض والصغر والكبر والتغيير، والأكل، والشرب، وغير ذلك والواجب على كل عاقل أن يعتقد أن الله هو القادر على كل شيء الذي لا يفنى ولايزول ولا يعجزه شيء ولا

يفوته شيء ولا يلحقه نقص بحال من الأحوال إذ هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وقد أورد الله تبارك وتعالى هذا الدليل في جملة شرطية قدَّم فيها الجزاء على الشرط والتقدير إن أراد الله أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً فمن الذي يقدر على أن يدفعه عن مراده ومقدوره، ثم أكد ذلك ببيان مالكيته لكل ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وأن جميع ذلك تحت قدرته ومشيئته وملكه وتصرفه حيث قال عز وجل: ﴿ولله مُلْكُ السمٰوات والأرض وما بينهما﴾ وعيسى عليه السلام هو وأمه ملك لله عز وجل داخل تحت قهره وسلطانه فهو وحده عز وجل هو الإله الحق الذي لا تصح الألوهية إلا له ولا يستحقها أحد سواه وتخصيص مريم بالذكر هنا مع اندراجها في ضمن من في الأرض لزيادة تأكيد عجز المسيح. قال أبو السعود العمادي: ولعل نظمها في سلك من فرض إرادة إهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل ذلك لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها أنموذجا لحال بقية من فرض إهلاكه كأنه قيل: قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح وأمه ومن في الأرض وقد أهلك أمه فهل مانعه أحد؟ فكذا حال من عداها من الموجودين اهـ وفي قوله عز وجل: ﴿يَخْلُقُ ما يشاء﴾ زيادة تقرير وتأكيد لربوبية وألوهية الحي القيوم وإزاحة لما قد يعتري النصارى من شبهة كون المسيح عليه السلام ولد من غير أب ببيان أن الله تعالى يخلق ما يشاء فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى كما هو معتاد، وتارة يخلق الإنسان من غير أب ولا أم كما خلق آدم عليه السلام وتارة من غير أم كما في حق حواء عليها السلام، وتارة من غير أب كما في حق عيسى عليه السلام. وقد ذيل الآية الكريمة بقوله عز وجل: ﴿والله على كل شيء قدير﴾ لتحقيق ذلك كله.

قـال تعالى: ﴿وَقَـالَتِ الْيَهُـودُ والنَّصَارَى نَحْـنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّـاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ، ولله مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـابَيْنَهُمَا وإِلَيْـهِ الْمَصِيرُ. يَـاأَهْلَ الْكِتَـابِ قَـدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُـمْ على فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَن تَقُـولُوا ما جَاءَنَا من بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ، واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.﴾

بعد أن بيَّن الله تبـارك وتعالى بعض ما ارتكبه اليهـود والنصارى من نقض العهود والمواثيق، وما اختصت به كل طـائفة منهما على حدة من الكفر، ذكر هنـا ما اتفقت عليـه الطائفتـان من افترائهم على الله ودعواهم أنهم أبنـاء الله وأحبـاؤه، حيث قال عـز وجل: ﴿وقالت اليهـودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَـاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وقـد جاءت نصـوص كثيرة في كتب «العهد القـديم» التي يقر بها اليهـود والنصارى تـدعي أن بني إسرائيل هم أولاد الـرب، وهي ولاشك من افتراءات أحبار السـوء على الله عز وجل، ففي «الإصحـاح» الرابع عشر من سفر التثنية في الفقرة الأولى من هـذا «الإصحاح»: «أنتم أولاد للرب إلهكم» وفي «الإصحاح» الثاني من سفر أيوب في الفقرة الأولى من هذا «الإصحاح»: وكان ذات يـوم أنه جـاء بنو الله ليمثُلـوا أمام الـرب وجاء الشيطـان أيضا في وسطهم ليمثل أمـام الـرب. وفي المزمـور الثـاني من مـزامير داود في الفقـرة السابعة منـه: إني أخبر من جهة قضاء الرب. قـال لي: أنت ابني. أنا اليوم ولدتك ا. هـ والظاهر أن الـذين كذبوا على الله وحرفوا الكلم من بعـد مواضعه هم الذين وضعوا التلمود لليهود ونصوا فيه على أنهم أبناء الله وأحباؤه فقد جاء في التلمود: إن اليهـود أحب إلى الله من الملائكة وأنهم من عنصر الله كالـولد من عنصر أبيـه. وقد اعتقـد هؤلاء الضالـون أن الله منحهم الصـورة البشرية تكريما لهم أما غيرهم ويسمونهم «الأمميين» فهم مخلوقون من طينة شيطانية أو

حيوانيـة نجسة، وأن الله إنما منح «الأمميين» الصورة البشريـة ليسهل التعامل معهم، وقـد وصف إخـوان القـردة والخنـازيـر من عـداهم بأنهم كـلاب وخنازير، وقد بيّن الله عز وجل كذب هؤلاء، ورد افتراءهم بقوله تبارك وتعالى في هذا المقام: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي لو كنتم أبناء الله وأحباءه ما عـاقبكم على معاصيكم، وأنتم مقـرون بأن الله يعذبكم في نـار جهنم حيث قلتم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾ والفطر السليمة موقنة بأن الوالد لا يعذب ولـده ولا يلقيه في نار جهنم، ولـذلك روى مسلم في صحيحه من حـديث عمر بن الخطـاب رضي الله عنـه أنه قـال: قدم على رسـول الله ﷺ بسبي، فإذا امـرأة من السبي تبتغـي، إذا وجـدت صبيًـا في السبي أخـذتـه فألصقته ببطنها وأرضعتـه، فقال لنا رسول الله ﷺ: أترون هـذه المرأة طارحة ولدهـا في النار؟ قلنـا: لا والله وهي تقدر على ألا تطـرحه، فقـال رسول الله ﷺ: الله أرحم بعبـاده من هذه بـولدهـا. وقـد أخرجـه البخاري من روايـة الكشميهني عنه بلفـظ: قُدم على النبي ﷺ بسبي، فإذا امرأة مـن السبي قد تَـحلَّب ثـديهُا بسقي، إذا وجدت صبيـا في السبي أخـذته فألصقتـه ببطنها وأرضعته، فقال لنـا النبي ﷺ: أتُرون هذه طارحة ولدهـا في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه، فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها. ولاشك أن من ادعى أنـه من أبناء الله فـإنه قـد ارتكب جرمـاً عظيماً وأنـه أكبر جرمـاً وأعظم إثماً ممن زعم أن الله قد اتخذ ولـدا، وحصر ذلك في المسيح أو العزير، مع أن الله تبارك وتعالى قد وصف الذين قالوا اتخذ الله ولدا بأنهم جاءوا بشيء منكر فظيع تكـاد السموات تتفطر منـه حيث يقول عز وجل: ﴿وَقَـالُوا اتَّخَذَ الـرحمنُ وَلَدًا * لقَـدْ جِئْتُمْ شَيْئًـا إِدًّا * تكَـادُ السموٰاتُ يَتَفَطَّـرْنَ مِنْـهُ وتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَـدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إن كُلُّ مَنْ في السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إلا آتي الـرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ وقد أبطل الله

تبارك وتعالى دعوى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه بخمسة براهين تدحض شبهتهم، وتفضح مقالتهم، البرهان الأول: هو قوله تبارك وتعالى: ﴿فلم يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ كما تقدم، والبرهان الثاني: هو قوله عز وجل: ﴿بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ أي كذبتم فلستم أبناء الله لأن الله تبارك وتعالى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، ولستم أحباءه إن عصيتموه وكذبتم رسله، وأشركتم به مالم ينزل به سلطانا، بل أنتم خلق من بني آدم خلقكم كما خلق سائر البشر لا مزية لكم عليهم في شيء من التكوين البشري، فأنتم وسائر بني آدم في البشرية سواء، والبرهان الثالث هو قوله عز وجل: ﴿يغفر لمن يشاء ويُعَذِّبُ من يَشَاءُ﴾ أي إن جميع بني آدم تحت مشيئة الله ورحمته وعدله، فمن أطاعه وصدق رسله وآمن بكتبه وملائكته واليوم الآخر وقدره خيره وشره وحلوه ومره، وأقام أركان الإسلام جازاه بمغفرة ذنوبه، وتكفير خطاياه وأدخله جنات النعيم فضلا منه، ومن عصاه وكذب رسله وكتبه ولم يؤمن باليوم الآخر والقدر خيره وشره وحلوه ومره ولم يقم أركان الإسلام عذبه بعدله ولا يظلم ربك أحدًا، والأمر في ذلك كله راجع إلى مشيئته وعدله وفضله. والبرهان الرابع: هو قوله عز وجل: ﴿ولله مُلْكُ السموات وَالْأَرْضِ وما بَيْنَهُمَا﴾ أي إن جميع العوالم العلوية والسفلية وما بينهما وما فيهما من مكلفين وغير مكلفين هي ملك لله عز وجل وحده لا شريك له يتصرف فيها كيف يشاء ويحكم فيها بما يريد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا نسب بينه وبين أحد من خلقه، فالكل تحت مشيئته وقهره، لأنه رب كل شيء وسيده ومليكه، فدعواكم أيها اليهود والنصارى بأنكم أبناء الله وأحباؤه دعوى كاذبة، وفرية قبيحة، وجرأة على فاطر السموات والأرض، فويل لكم عند قيامكم بين يديه يوم القيامة، أما البرهان الخامس فهو قوله عز وجل: ﴿وإليه المصير﴾ أي ومرجع جميع الخلائق إلى الله عز

وجل ليجزي الـذين أساءوا بما عملوا ويجزي الـذين أحسنوا بـالحسنى ، فلو أنكم تدبـرتم الأمر، ورجعتم عن هـذه الأكاذيب وتـركتم القول على الله بغير الحق ، واستجبتم لرسول الله محمد ﷺ وعزرتموه ، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأقرضتم الله قـرضا حسنـا لفزتم عنـد لقاء الله يوم القيـامة ، فعجلـوا المتاب لتسعدوا يـوم الحساب ، وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿يَـاأَهْلَ الكتابِ قَـدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ ولا نَذِيرٍ فَقد جَاءَكُمْ بَشِيرٌ ونذيرٌ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيرٌ﴾ أي يامعشر اليهود والنصارى قد أتـاكم مبعوثنـا يرشـدكم إلى الهدى ، ويوضح لكم معالم الـدين ، ومنهج الرشد ، على انقطاع من الرسل وبعد مـدة متطاولة من بعثة آخر رسول أرسل إليكم ، وبعد فتور من الوحي ومزيد احتياج منكم إلى بيان الشرائع والأحكام التي لا غنى لكم عن معـرفتها وقد بعثـه الله عز وجل إليكم لئـلا تكون لكم حجة وكيلا تقولوا وتعتذروا عن ضلالكم وانحرافكم بأنكم ما جاءكم رسول من ربكم يـرشـدكم إلى الخير ويحذركم من الشر، فقـد أرسلت إليكم أكمل مبشِّر وأعظم منذِر والله عـز وجل قدير على كل شيء ، ما شـاء الله كان ومالم يشأ لم يكن . وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ بأن آخـر رسول أرسله الله عز وجل إلى بني إسرائيل هـو عيسى ابن مريم عليـه السلام فقـد روى البخاري من طريق أبي سلمـة أن أبا هريرة رضي الله عنه قـال : سمعت رسول الله ﷺ يقـول : أنا أولى النـاس بابن مـريم ، والأنبيـاء أولاد عَلاَّت ليس بيني وبينـه نبي . وأخرجه مسلم من طريق أبي سلمة عن أبي هـريرة قال : قال رسول الله ﷺ : أنا أولى الناس بعيسى ، الأنبيـاء أبناء علات ، وليس بيني وبين عيسى نبي وأخرجه من طريق همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ، فذكر أحـاديث منها : وقال رسول الله ﷺ : أنـا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخـرة ، قالوا : كيف يـارسول الله؟ قال : الأنبيـاء إخوة

من عـلات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحـد، فليس بيننـا نبي. ولاشك أن نفي وجـود نبي بين عيسى ومحمـد صلى الله عليهما وسلم ينفي وجود رسـول بينهما، لأن نفي النبـوة يقتضي نفي الرسـالـة بخلاف نفي الـرسـالة فإنـه لا يقتضي نفي النبوة لأن كل رسول نبي وليـس كل نبي رسولا، ومدة الفترة التي كانت بين رسـول الله ﷺ وبين عيسى عليه السلام نحو ستمائة سنـة فقد قال البخاري في صحيحه: حدثني الحسن بن مـدرك حدثنا يحيى بن حماد أخبرنا أبو عـوانة عن عاصم الأحـول عن أبي عثمان عن سلمان قال: فترةٌ بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ستمائة سنة. والمراد أن الله عز وجل بعث محمدا ﷺ على فترة من الـرسل، وانقطـاع من الـــوحي وطمـوس من السبل وتغير الأديان وشيوع الكفر في العالم فكانت النعمـة به أتم، والحاجة إليه قد بلغت الغايـة، إذ أن الفساد كـان قد عم جميع البـلاد، ونظر الله عـز وجل إلى أهل الأرض فمقتهم عـربهم وعجمهم غير بقـايـا من أهل الكتـاب منقطعين في الصوامع والأديـرة، لم يلبثوا أن انقرضوا أيضا، فقـد روى مسلم في صحيحه من حـديث عياض بن حمار المجـاشعي رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم مـا جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشيـاطين فاجتـالتهم عن دينهم، وحـرمت عليهم مـا أحللت لهم، وأمـرتهم أن يشركوا بي مـالم أنـزل بـه سلطانـا، وإن الله نظـر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب. الحديث.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فيكم أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وآتاكُمْ مالم يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ التي كَتَبَ اللهُ لكم ولا تَرْتَدُّوا على أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن ندْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ. قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ، وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ. قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَن ندْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إلا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الفَاسِقِينَ. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فى الْأَرْضِ، فَلَا تَأْسَ على الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ.﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل ما اتفقت عليه طوائف أهل الكتاب من الباطل والافتراء على الله عز وجل حيث قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وأبطل الله مقالتهم بخمسة براهين، وأنَّبهم على عدم إذعانهم لما جاء به البشير النذير محمد ﷺ الذي بعثه الله عز وجل ليرشدهم إلى الهدى ويوضح لهم معالم الدين على فترة من الرسل وانقطاع من الوحي شرع هنا يواسي رسوله محمدا ﷺ على ما يلاقيه من تعنت أهل الكتاب وبخاصة اليهود قبحهم الله ولعنهم، حيث بيَّن أن اليهود قد ورثوا عن آبائهم المتقدمين التمادي في الغي، والبعد عن الحق وشدة المخالفة للأنبياء، مع كثرة نعم الله عليهم، وتتابع أياديه وآلائه لهم، وكأنه يقول لحبيبه محمد ﷺ: لا تأس على ما أصابك منهم، فإن عنادهم للحق من عاداتهم وعادات أسلافهم وأوائلهم، وتعزَّ بما لاقاه أخوك موسى كليم الله من عنادهم ونكوصهم عن الحق، واذكر إذ قال لهم رسول الله موسى ﷺ: ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم وآلاءه التي

تفضل عليكم بها، ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة فأبوا أن يدخلوا، وقالوا لموسى عليه السلام: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. فعاقبهم الله عز وجل بأن يتيهوا في الأرض أربعين سنة. وقوله عز وجل: ﴿إذ جعل فيكم أنبياءَ وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين﴾ تفصيل لبعض نعم الله العظيمة التي أنعم بها على بني إسرائيل، ومعنى قوله عز وجل: ﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾ أي خصكم بمزية عظيمة حيث تفضل عليكم بإكثار الأنبياء حتى لا ينقطع التذكير بالله عز وجل عنكم وذلك أن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما مات نبيٌّ بعث الله عز وجل لهم نبيا آخر يسوسهم ويرشدهم إلى مصالح دنياهم وأخراهم وتعيين ملوكهم.
فقد روى البخاري ومسلم من طريق أبي حازم قال: قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته يحدث عن النبي ﷺ قال: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فُوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم. ومعنى قوله تعالى: ﴿وجَعلكم مُلُوكًا﴾ أي وصيَّركم أحرارا تملكون أمر أنفسكم بعد ما كنتم في أيدي القبط يستعبدونكم، وأورثكم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك الله عز وجل فيها، وتمت كلمته الحسنى عليكم بما صبرتم، وصرتم أعزة يحكمكم ملك منكم مع ما تفضل الله به عليكم من الغنى واتخاذ الخدم بعد أن كنتم بأيدي آل فرعون خدما، وقد روى مسلم في صحيحه من طريق أبي عبد الرحمن الحبلي قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوى إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإن لي خادماً؛ قال: فأنت من الملوك. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وآتاكُم مالم

يُؤْتِ أحدا من العالمين﴾ أي وتفضل عليكم فأنزل عليكم المن والسلوى بعد أن فلق لكم البحـر وصرتم تمشـون بين جـدارين من الماء كأنهما جبـلان عظيمان، وجعل لكم الطريق بين الماءين يبسا، لا بلل فيه ولا وحل، وظلل عليكم الغمام وفجـر لكـم من الحجـر اثنتى عشرة عينـا بعـدد أسبـاطكم، وفضلكم على عالمي زمـانكم، وقوله تبـارك وتعالى: ﴿ياقـومِ ادخلوا الأرض المُقَدَّسَةَ التي كتَبَ الله لكم ولا ترتدوا على أدبـاركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا ياموسى إنَّ فيها قَـوْمًا جَبَّارِينَ وإِنَّا لن نَدْخُلَهَا حتى يَخْرُجُـوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا منها فإنـا داخلون﴾ إلى قـوله عـز وجل: ﴿فلا تأس على القـوم الفاسقين﴾ صـورة جليـة على تمادي بني إسرائيل في الغي، وبُعـدهـم عن الحق وشـدة مخالفتهم لأوامـر المرسلين، ومواسـاة لحبيب الله وسيـد رسلـه وخاتم أنبيـائه محمـد ﷺ ليصبر على مـا يلقاه منهم من تعنـت وأذى بعد بيـان نعم الله عـز وجل عليهم، وأنهم لم يشكروا آلاء الله ونعمتـه الكبرى ببعث محمد ﷺ إليهم وإرساله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. والمراد بالأرض المقدسة: بيت المقدس، والمقدسة المطهرة المباركة. ومعنى ﴿التي كتب الله لكم﴾ أي فرض عليكم دخولها لقتال الكفار المستحوذين عليهـا وتطهيرها من مظاهر كفرهم وشركهم وتخليصها من أيـديهم، ومعنى قوله تبارك وتعـالى: ﴿ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبـوا خاسرين﴾ أي ولا تنكلوا عـن الدخول إليهـا ولا تجبنوا عن مقاتلة أعداء الله ولا تنقلبوا على أعقابكم مخالفين لأمر الله عاصين لرسوله ﷺ فتبوءوا بالخسران وترجعوا بالخيبـة والحسرة والندامة وغضب الله. ومعنى قوله عز وجل: ﴿قالوا ياموسى إنَّ فيها قوما جبارين وإنَّا لَنْ ندخُلَها حتى يخرجوا منها﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فاذهب أنت وربك فَقَـاتِلا إنا هـٰـهُنَا قاعِدُونَ﴾ أي قالـت بنو إسرائيل لموسى عليـه السلام إنـه لا طاقـة لنا بقتال أهـل هذه الأرض التي أمرتنا بدخولها، لأن أهلها أقويـاء أشداء عتاة، ولن ندخلها أبدا

ماداموا فيها، فإن خرجوا من تلقاء أنفسهم دخلناها وسكنا فيها، فإن كنت مصرًّا على قتالهم فاذهب أنت وربك لقتالهم ونحن نجلس هنا حتى تطهرها أنت وربك من هؤلاء الجبارين. ولاشك أن هذا العمل من بني إسرائيل يعتبر الغاية القصوى في السفاهة، والبلادة وتضييع الحق والتخلي عن نصرة دين الله، والجبن عن ملاقاة أعداء الله، ولاشك أن هذا الموقف المخزي الذي وقفه بنو إسرائيل من موسى عليه السلام يذكرنا بالموقف المشرف الكريم الذي وقفه أصحاب رسول الله ﷺ من رسول الله محمد ﷺ يوم بدر عندما التقت الفئة القليلة المؤمنة بالفئة الكثيرة الطاغية الباغية، حيث قال قائلهم لرسول الله ﷺ: والله لن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكنا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون؛ والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره، يعني قوله. كما روى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يارسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا. الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ من الذين يَخَافُونَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا

ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هـٰهنَا قاعدون﴾ أي لما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله عز وجل وعصوا رسوله موسى ﷺ وأبوا أن يدخلوا القرية التي أمرهم موسى عليه السلام بدخولها انبرى لهم رجلان من الموقنين بوعد الله الخائفين من الله الشاكرين لأنعم الله التي تفضل بها عليهما وأخذا يحرضانهم على طاعة الله عز وجل ويحضانهم على اقتحام القرية وولوجها من بابها ، ويؤكدان لهم أنهم إن فعلوا ذلك نصرهم الله عز وجل على الجبارين وجعل لهم الغلبة عليهم إن توكلوا على الله واعتمدوا عليه والتجأوا إليه ماداموا قد أعلنوا أنهم مؤمنون بالله ، فإن من شأن من آمن بالله أن يتوكل عليه ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه يؤيده وينصره مهما كانت قوة عدوه ، لأن الله عز وجل لا يعجزه شيء ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .
وقد وصف الله تبارك وتعالى هذين الرجلين بوصفين أحدهما الخوف والثاني أن الله أنعم عليهما . ومقتضى السياق والمقام يقتضي أنهما إنما يخافان من الله عز وجل مما يحملهما على امتثال أمره والوقوف عند حدوده والمسارعة إلى مرضاته ، كما أن شكر المنعم من أعظم أسباب صيانة النعمة وزيادتها ، فأصرُّوا على عدم الامتثال ، وقوله ﴿قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فَافْرُقْ بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ أي قال موسى عليه السلام : ياسيدي وخالقي ومالك أمري ومصلح نفسي أنا لا أقدر على حمل أحد على ما أحب وأريد من طاعتك والائتمار بأمرك والانتهاء بنهيك إلا على نفسي وعلى أخي ، وهذا كقول القائل : ما أملك من الأمر شيئا إلا كذا وكذا بمعنى لا أقدر على شيء غيره . ومعنى : ﴿فَافْرُقْ بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ أي فافصل بيننا وبين الخارجين على طاعتك ، العاصين لرسلك فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، وقوله عز وجل : ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون

في الأرض﴾ أي فأخبر الله عز وجل موسى عليه السلام بأنه قضى على بني إسرائيل بأنهم لا يدخلون هذه الأرض المقدسة ويتيهون دونها مدة أربعين سنة، وقد مات هارون وموسى عليهما السلام قبل دخولها، ولما حضرت الوفاة موسى عليه السلام سأل ربه أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، فأدناه الله عز وجل منها، ودفن إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر. وقوله تعالى: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ مواساة لمحمد رسول الله ﷺ بسبب ما يلقاه من أذاهم أي فلا تحزن على ما يصيبك من هؤلاء الخارجين على طاعة الله.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ولم يتقبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قال لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ من الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطتَ إلى يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِن أَصْحَابِ النَّارِ، وَذَٰلِكَ جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ له نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ، قَالَ يَاوَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

بعد أن واسى الله تبارك وتعالى نبيه محمدا ﷺ على ما يلقاه من تعنت اليهود، وأن هذا هو شأنهم مع أنبياء الله ورسله عليهم السلام وذكر له أن أخاه موسى كليم الله عليه السلام ذكَّرهم بنعم الله عليهم بين يدي أمره لهم بدخول الأرض المقدسة ليطهروها من الوثنيين وأنهم لم يطيعوا أمره، أردف ذلك هنا بقصة ابني آدم المفيدة أن عداوة أهل الشر والحسد والبغي وأذاهم لأهل الخير قديمة جدًّا، وكيف قتل أحد ابني آدم أخاه حسدا له عندما قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، وفي هذا تنديد باليهود الذين امتلأت قلوبهم بالشر والحسد لرسول الله ﷺ بسبب ما أنعم الله عز وجل عليه من نعمة النبوة والرسالة وما آتاه من العلم والحكمة والخير، وتسلية ومواساة له ﷺ وتذكير بما يؤول إليه حال الحاسد من الحسرة والندامة، وأن العاقبة الحسنى للمتقين، ومعنى قوله عز وجل: ﴿واتْلُ عليهم نَبَأَ ابْنَيْ آدمَ بالحق﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً عليه وحسداً له فيما وهبه الله من النعمة وتقبل

القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين فقال تعالى: ﴿واتل عليهم نبأَ ابْنَيْ آدم بالحق﴾ أي اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف، وقوله: ﴿بالحق﴾ أي على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ولا وهم ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان، كقوله تعالى: ﴿إنَّ هٰذا لَهُوَ الْقَصَصُ الحقُّ﴾ وقوله: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ وقال: ﴿ذلك عيسى ابنُ مريمَ قولَ الحق﴾ اهـ وقوله عز وجل: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ من أَحَدِهِمَا ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر قال لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إنما يَتَقَبَّلُ اللهُ من المتقين﴾ يعني قد قدم كل واحد من الأخوين قربانا إلى الله عز وجل، فتقبل الله عز وجل قربان أحدهما ولم يتقبل قربان الآخر بل رده والظاهر أنهم كانوا يعرفون قبول القربان بعلامة يظهرها الله عز وجل لهم كأن تأتي نار فتأكل القربان المتقبل، أو يعرِّفهم نبيُّهم ذلك بواسطة الوحي، والعلم عند الله عز وجل، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن سبب قبول القربان في هذا الموضع هو تقوى الله عز وجل حيث قال: ﴿إنما يَتَقَبَّلُ الله من المتقين﴾ وظاهر سياق القصة يدل على أن الأخ الذي لم يتقبل قربانه كان مبتلى بداء الحسد وهو الداء الذي كانت أول معصية بسببه حيث حمل إبليس عل الغرور والكبر والامتناع عن السجود لآدم، كما حمل هذا الداء الوبيل الأخ الذي لم يتقبل قربانه على قتل أخيه الذي تقبل قربانه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ﴾ استئناف بياني نشأ عن سؤال مقدر يدل عليه سياق الكلام كأنه قيل؟ فماذا قال من لم يتقبل قربانه؟ قيل: قال لأخيه لحقده عليه وحسده له: والله لأزهقن روحك، وقوله عز وجل: ﴿قال إنما يَتَقَبَّلُ اللهُ من المتَّقِينَ﴾ استئناف بياني أيضا نشأ عن سؤال مقدر يدل عليه

سياق الكلام كأنه قيل : فماذا كان موقف الأخ الصالح الذي تُقبل قربانه من تهديد أخيه له بالقتل؟ قيل : قال لأخيه : إنما أُتيتَ من قبَل نفسك لا من قِبلي ، حيث إنك مبتلى بداء الحسد الذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وقد قضى الله عز وجل أنه لا يتقبل إلا من المتقين ، وقوله عز وجل : ﴿لئن بَسَطتَ إليَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إليك لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ .﴾ أي والله لئن مددت إلي يدك لتزهق روحي ما أنا بماد يدي إليك لأزهق روحك ولأمسكن يدي عنك خوفا من الله عز وجل لأن الله عز وجل حرم على الإنسان قتل أخيه بغير حق ، ومجرد عزمك على قتلي لا يبيح لي أن أقتلك ، وفي هذا تحذير شديد من الأخ الصالح لأخيه الحسود من سوء مغبة قتل النفس وإزهاق روح المسلم بلا حق لعله يرتدع فيمتنع عن الإقدام على قتل أخيه ، وقوله عز وجل : ﴿إني أريد أن تَبُوأَ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين﴾ هذا تحذير آخر من العبد الصالح لأخيه الحسود يخوفه فيه من عقاب الله عز وجل ويوضح له فظاعة وبشاعة قتل المؤمن بغير حق ، كأنه يقول له : أنا أكره أن ألقى الله عز وجل بمعصية وإثم لذلك أكف يدي عنك ولا أقتلك فإن قتلتني لقيت ربك بإثم قتلي مع ما ظهر منك من الآثام الأخرى كالحسد وغيره مما حال بينك وبين قبول قربانك ، إذ من المعلوم شرعا أن من ظلم أحدا قد يحمل من سيئاته يوم القيامة إذا لم توف حسناته بما عليه إن كانت له حسنات ، كما جاء في حديث المفلس ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن سول الله ﷺ قال : أتدرون من المفلس؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت

حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطـاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النـار. وليس قولـه: ﴿إني أُرِيدُ أن تَبُـوأَ بإثمي وإثمك فتكون من أصحـاب النار﴾ من باب تمني الشر للغير قال الفخـر الرازي رحمه الله: هذا الكلام إنما دار بينهما عندما غلب على ظن المقتول أنه يـريد قتله، وكان ذلك قبل إقدام القاتـل على إيقاع القتل بـه، وكأنه لما وعظـه ونصحه قال لـه: وإن كنت لا تنزجر عـن هذه الكبيرة بسبب هذه النصيحة فلابـد وأن تترصد قتلي في وقت أكـون غافـلا عنك وعاجـزاً عن دفعك، فحينئـذ لا يمكنني أن أدفعك عن قتلي إلا إذا قتلتك ابتداء بمجرد الظن والحسبـان، وهذا مني كبيرة ومعصية، وإذا دار الأمر بين أن يكون فـاعل هذه المعصية أنا وبين أن يكـون أنت، فأنا أحب أن تحصل هذه الكبيرة لك لا لي، ومن المعلـوم أن إرادة صدور الذنب من الغير في هذه الحالة وعلى هذا الشرط لا يكون حراما، بل هو عين الطاعة ومحض الإخلاص اهــ وقد صح الخبر عـن رسول الله ﷺ أن هـذا الأخ الذي قتل أخـاه قـد حملـه الله عـز وجل كفـلا من إثم كل قتيل يقتل ظلما إلى يـوم القيامـة فقد روى البخـاري ومسلم من حديث عبـد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأولِ كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل، ومعنى كونه سن القتل أي فتح بابه وجعله سيرة للنـاس وطريقـا فهو متبـوع في هذا الفعل القبيح وقـد سن هذه السنة السيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، وقوله عز وجل: ﴿فَطَوَّعَتْ لـه نَفْسُهُ قَتْلَ أخيـه فَقَتَلَهُ فأصبح من الخاسرين﴾ أي فـزينت له نفسه وطاوعتـه وشجعته على قتل أخيه وسهلت له ذلك فـأقدم على ارتكاب هذه الجريمة البشعة مستسهلا لها غير مكترث بعاقبتها، وأزهق روح أخيه ولم تردعه هذه النصـائح من أخيه الصالح، فأصبح القاتل من الخاسرين حيث باع آخـرته واستجلب لدنيـاه الحسرة والندم فرجع بـالصفقة الخاسرة، وخسر

الدنيا والآخرة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ في الأرض لِيُرِيَهُ كيف يُوَارِي سَوْءَةَ أخيه، قال يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أنْ أكونَ مثل هذا الغراب فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أخي فَأَصْبَحَ من النَّادِمِينَ﴾ أي فأثار الله عز وجل غرابا يحفر في الأرض فيثير ترابها ليدفن فيها غرابا آخر ميتا وابن آدم القاتل ينظر إلى الغراب الذي حفر الأرض حتى وارى ودفن جيفة الغراب الميت، فقال ياحسرتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأدفن أخي كما دفن هذا الغراب أخاه، فحفر لأخيه القتيل ودفنه، وظاهر هذا السياق الكريم يشعر بأن الدفن كان غير معروف، وأن هذا القتيل هو أول مدفون في الأرض من بني آدم، وأن القاتل كان يجهل دفن جيفة أخيه حتى أرشده إلى ذلك ما رآه من فعل الغراب بأخيه. وقد ذكر الله تبارك وتعالى في سياق تعداد نعمه على الإنسان جعله بعد موته في قبر حيث يقول عز وجل: ﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أَكْفَرَهُ * من أيِّ شيء خَلَقَهُ * من نطفة خلقه فَقَدَّرَهُ * ثم السبيلَ يَسَّرَهُ * ثم أماتَهُ فأقْبَرَهُ﴾ وفي بعث الغراب لتعليم ابن آدم دفن الميت آية من آيات الله عز وجل وإرشاد إلى ما أودعه الله في الحيوانات والطيور من ألوان الهداية كما قال عز وجل: ﴿قال فمن ربكما ياموسى * قال ربُّنَا الذي أعطى كل شيء خَلْقَهُ ثم هَدَى﴾ وكما أشار الله عز وجل إلى ذلك في سورة النمل عن قصة النملة وقصة الهدهد. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ أي فصار من المتحسرين حيث ارتكب جريمة من أكبر الكبائر دون أن يحصد لنفسه نفعا من ورائها بل جمع بسببها الخسران والحسرة. نسأل الله عز وجل أن يعصمنا من السوء، وأن يحفظنا من كل أسباب الخسران والحسرة والندامة إنه رءوف رحيم.

قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

بعد أن أشار الله عز وجل إلى أن عداوة أهل الشر لأهل الخير قديمة، وندد باليهود الحاسدين رسول الله ﷺ على ما أنعم الله عز وجل عليه به من النعم العظام، وضرب مثلا للحسد الذي حمل صاحبه على قتل أخيه وسفك دمه ظلما وعدوانا، وما ترتب على ذلك من الخسران والحسرة والندامة للذي قتل أخاه بغير حق، بيَّن عز وجل هنا أنه عهد إلى عباده بتحريم قتل النفس بغير حق وأنه وصى بذلك تحذيرا من الوقوع فيه، ولما كان بنو إسرائيل هم أشد الناس سفكا للدماء حتى استباحوا دماء أنبيائهم وأزهقوا أرواح الكثير من رسلهم كتب الله عز وجل في وصاياه لأنبياء بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا. قال القاضي أبو بكر ابن العربي في كتابه أحكام القرآن في تفسير هذه الآية: لم يخل زمان آدم ولا زمن من بعده من شرع، وأهم قواعد الشرع حماية الدماء عن الاعتداء، وحياطته بالقصاص كفاً وردعاً للظالمين والجائرين، وهذا من القواعد التي لا تخلو عنها الشرائع، والأصول التي لا تختلف فيها الملل، وإنما خص الله بني إسرائيل بالذكر للكتاب فيه عليهم، لأنه ما كان ينزل قبل ذلك من الملل والشرائع كان قولا مطلقا غير مكتوب، بعث الله إبراهيم فكتب له الصحف، وشرع له دين الإسلام وقسم ولديه بين الحجاز والشام، فوضع الله إسماعيل بالحجاز مقدمة لمحمد ﷺ، وأخلاها عن الجبابرة تمهيدا له، وأقر إسحاق بالشام، وجاء منه يعقوب،

وكثرت الإسرائيلية ، فامتلأت الأرض بالباطل في كل فجٍّ ، وبغوا ، فبعث الله سبحانه موسى وكلمه وأيده بالآيات الباهرة ، وخط له التوراة بيده ، وأمره بالقتال ، ووعده النصر ، ووفى له بها وعده ، وتفرقت بنو إسرائيل بعقائدها ، وكتب الله جل جلاله في التوراة القصاص محددًا مؤكدًا مشروعا في سائر أنواع الحدود ، إلى سائر الشرائع من العبادات وأحكام المعاملات ، وقد أخبر الله في كتابنا بكثير من ذلك اهـ ومعنى قوله عز وجل : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كتبنا على بني إسرائيل أنه مَنْ قتل نفسا بغير نَفْسٍ أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومَنْ أَحْيَاها فكأنما أَحْيَا النَاسَ جَمِيعًا﴾ أي لأجل حماية الدماء عن الاعتداء شرعنا وجوب صيانة الأنفس ، وأغلظنا على من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض ففرضنا في ذلك القصاص ، وجعلناه على بني إسرائيل في كتاب مكتوب محرر حتى لا يغفلوا عن ذلك لما علمناه ممايكون منهم من الجرأة على إزهاق الأنفس ظلما وعدوانا ، وأعلمناهم أن من قتل نفسا لا تستحق القتل حيث لم تكن اعتدت على نفس وأزهقتها بغير حق ، أو لم تكن النفس المقتولة قد أفسدت في الأرض بما يجعل قتلها مشروعا كالزنا بعد إحصان أو الارتداد عن دين الإسلام ، أو محاربة الله ورسوله و إخافة السبيل وقطع الطريق ، فمن قتل نفسا واحدةً مصونةً فكأنما قتل الناس جميعا فأما بالنسبة إلى المقتول فكأنما انتهت الحياة كلها على الأرض ، وأما بالنسبة للقاتل فالمنتهك لحرمة نفس واحدة كالمنتهك لحرمة كل النفوس وقد ضرب ابن عطية رحمه الله لذلك مثلا برجلين حلفا على شجرتين ألا يطعما من ثمرهما شيئا فطعم أحدهما واحدة من ثمر شجرته وطعم الآخر ثمر شجرته كلها ، فقد استويا في الحنث ، ولاشك أن سياق التحذير من قتل النفس بهذا الأسلوب البلاغي يدفع من به مسكة عقل أن يرتدع عن إزهاق النفوس المصونة ، على أن الله تبارك وتعالى قد جعل جزاء من قتل النفس المؤمنة متعمدا جهنم

خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما، وهذا العذاب الأليم قد بلغ حدًّا لو قتل الناس جميعا لكان وفاءً له، كما أن من أحيا نفسا بإنقاذها من الهلاك قد أعد الله عز وجل له من الجزاء الجميل ما يعادل من أحيا الناس جميعا، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء. كما روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لن يزال المؤمن في فسحة من دينه مالم يصب دما حراما. كما روى البخاري من طريق إسحاق بن سعيد سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن عمر قال: إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد جاءتهم رُسُلُنَا بالبينات ثم إنَّ كثيرا منهم بعد ذٰلك في الأرض لمسرفون﴾ أي ولقد أرسلنا إلى بني إسرائيل رسلنا بالبراهين والحجج والدلائل الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم، وتحذيرهم من إزهاق الأنفس التي حرم الله قتلها، ووجوب المحافظة على سلامة الأرواح وإحياء الأنفس والعمل على استنقاذها من الهلاك، وأن المرسلين قد بلغوا بني إسرائيل بذلك وأوصلوا إليهم رسالة ربهم، وبعد ذلك كله وتجديد العهد إليهم مرة بعد مرة حيث جاءتهم الرسل تترى فإنهم مسرفون في القتل، وإزهاق الأرواح بلا حق، كما قال عز وجل: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تُخْرِجُونَ أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون * ثم أنتم هٰؤلاء تقتلون أنفسكم وتُخْرِجُون فريقا منكم من ديارهم تَظَاهَرُونَ عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتُوكم أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وهو مُحَرَّمٌ عليكم إخْرَاجُهُم، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلك منكم إلا خِـزْيٌ في الحياة

الدنيا ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشد العذاب، وما اللهُ بغافل عما تعملون * أولَئك الذين اشْتَرَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرة فلا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ ولا هم يُنْصَرُون * ولقد آتينا موسى الكتاب وقَفَّيْنَا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القُدُسِ، أفَكُلَّمَا جاءكم رسولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُم اسْتَكْبَرتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿ولقد جاءتهم رسُلُنَا بالبينات ثم إنَّ كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾ قال أبو جعفر: وهذا قسم من الله جل ثناؤه أقسم به: أن رسله صلوات الله عليهم قد أتت بني إسرائيل الذين قص الله قصصهم، وذكر نبأهم في الآيات التي تقدمت، من قوله: ﴿ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذْ هَمَّ قَوْمٌ أن يَبْسُطُوا إليكم أَيْدِيَهُمْ﴾ إلى هذا الموضع «بالبينات» يعني بالآيات الواضحة، والحجج البينة على حقيقة ما أرسلوا به إليهم، وصحة ما دعوهم إليه من الإيمان بهم، وأداء فرائض الله عليهم، يقول الله عز ذكره: ﴿ثم إنَّ كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لَمُسْرِفُون﴾ يعني: أن كثيرا من بني إسرائيل، والهاء والميم في قوله: ﴿ثم إن كثيرا منهم﴾ من ذكر بني إسرائيل، وكذلك في قوله: ﴿ولقد جاءتهم﴾.
﴿بعد ذلك﴾ يعني: بعد مجيئ رسل الله بالبينات، ﴿في الأرض لمسرفون﴾ يعني: أنهم في الأرض لعاملون بمعاصي الله، ومخالفون أمر الله ونهيه، ومحادُّو الله ورسوله، باتباعهم أهواءهم، وخلافهم على أنبيائهم، وذلك كان إسرافهم في الأرض اهـ وإذا كان الإسراف قبيحا في باب الأموال فإنه أشد قبحا وأعظم إثما في باب إزهاق الأرواح البريئة وقتل الأنفس بغير حق، وأصل الإسراف في اللغة هو الإفراط في الشيء يقال: أسرف فلان في هذا الأمر إذا تجاوز مقداره فأفرط فيه وفي التنزيل الكريم: ﴿ومن قُتِلَ مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يُسْرِفْ في القتل إنه كان منصورا﴾ قال ابن منظور

في لسان العرب: قال الزجاج: اختلف في الإسراف في القتل فقيل: هو أن يقتل غير قاتل صاحبه، وقيل: هو أن يقتل هو القاتل دون السلطان، وقيل: هو أن لا يرضى بقتل واحد حتى يقتل جماعة لشرف المقتول وخساسة القاتل، أو أن يقتل أشرف من القاتل، قال المفسرون: لا يقتل غير قاتله، وإذا قتل غير قاتله فقد أسرف، والسَّرف تجاوز ما حُدَّ لك اهـ وقد أخبر الله عز وجل أنه لا يحب المسرفين حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكُلُوا واشربوا ولا تُسْرِفُوا، إنه لا يحب المسرفين﴾.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُاْ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُم مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إلا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بعد أن بيَّن الله عز وجل أنه عهد إلى عباده بتحريم قتل النفس بغير حق، وأنه وصى بذلك تحذيرا من الوقوع فيه وأنه كتب من أجل ذلك على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا وأن رسل الله صلى الله عليهم وسلم قد جاءوا بني إسرائيل وأكدوا عليهم بذلك وأقاموا لهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ومع ذلك فإن بني إسرائيل لم يرتدعوا ولم ينزجروا عن سفك الدماء المحرمة المصونة زاد هنا من تأكيد وجوب صيانة الأنفس والأموال والابتعاد عن الفساد في الأرض، وتجنب كل ما يُروِّع أمن الأمة ويثير الذعر والرعب بين أبنائها من قطع الطريق وإخافة السبيل والتعدي على الأعراض أو الخروج على إمام المسلمين وجماعتهم وشق عصا الطاعة وإشهار السلاح، وأعلم عز وجل عباده بما يستحقه المفسد في الأرض من العقوبة والنكال حيث يقول عز وجل: ﴿إنما جَزاءُ الذين يحاربون اللهَ ورسولَهُ ويَسْعَوْنَ في الأرض فسادا أن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أيدِيهم وأَرْجُلُهُمْ من خلاف أو يُنْفَوْا من الأرض، ذٰلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل أن تَقْدِرُوا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا في قصة العرنيين والعكليين وقد أورد البخاري رحمه الله في التفسير من صحيحه في باب ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن

يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُـوا﴾ إلى قوله : ﴿أو يُنْفَـوْا من الأرض﴾ من حديث أنس رضي الله عنـه قال : قـدم قوم على النبي ﷺ فكلمـوه فقالـوا : قد استـوخمنا هـذه الأرض ، فقـال : هذه نَعم لنـا تخرج ، فاخـرجـوا فيها ، فـاشربوا من ألبـانها وأبوالها ، فخرجـوا فيها ، فشربوا من أبوالها وألبانها ، واستصحـوا ، ومالوا على الراعي فقتلـوه ، واطَّردوا النَّعم . الحديث ، وأخـرج في المغازي في بـاب قصة عُكْل وعرينة من حديث أنس رضي الله عنه أن نـاسا من عكل وعرينة قدموا المدينـة على النبي ﷺ ، وتكلموا بـالإسلام ، فقـالوا : يـانبي الله إنا كنـا أهل ضرع ، ولم نكن أهل ريف ، واستوخموا المدينة ، فأمـر لهم رسول الله ﷺ بذود وراع ، وأمرهم أن يخرجـوا فيه ، فيشربوا مـن ألبانها وأبوالها فـانطلقوا حتى إذا كـانوا نـاحيـة الحرة كفروا بعـد إسـلامهم وقتلـوا راعي النبي ﷺ ، واستاقـوا الـذود ، فبلغ النبي ﷺ ، فبعث الطلب في آثـارهم ، فأمـر بهم ، فسمـروا أعينهم ، وقطعوا أيديهم ، وتـركوا في ناحية الحرة حتى ماتـوا على حالهم ، وقد ساقه البخـاري أيضا في كتاب المحاربين وقول الله تعـالى : ﴿إنما جزاءُ الذين يحاربون الله ورسـوله ويَسْعَـوْنَ في الأرض فسادا أَن يُقَتَّلُـوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأرجلُهم من خِلافٍ أو يُنْفَـوْا من الأرض﴾ من حديث أنس رضي الله عنه قال : قدم على النبي ﷺ نفر من عكل فأسلموا ، فاجتووا المدينة فأمرهم أن يأتـوا إبل الصـدقـة ، فيشربـوا من أبـوالها وألبـانها ، ففعلـوا ، فصحـوا ، فـارتدوا ، وقتلـوا رعاتها واستـاقـوا الإبل فبعث في آثارهم ، فـأُتي بهم ، فقطع أيـديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ثم لم يحسمهم حتى ماتـوا . ثم ساقـه في باب : لم يُسق المرتدون المحاربون حتى مـاتوا ، من حديث أنس رضي الله عنه قال : قـدم رهط من عكل على النبي ﷺ كانـوا في الصفة ، فاجتـووا المدينة ، فقالـوا : يارسـول الله أبغنا رِسـلاً ، فقال : مـا أجد لكم إلا أن تلحقـوا بإبل رسـول الله ﷺ ، فأتوهـا ، فشربوا مـن ألبانها وأبـوالها حتى صحوا وسمنـوا ،

فقتلوا الـراعي واستاقوا الـذود، فأتى النبيَّ ﷺ الصريخ، فبعث الطلب في آثـارهم، فما ترجل النهـار حتى أُتي بهم، فأمر بمسـامير فأحميت، فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم، ومـا حسمهم، ثم ألقوا في الحرة يستسقـون فما سقوا حتى مـاتوا. وسـاقه البخـاري في كتاب الـديات في بـاب القسامـة ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن نفرا من عكل ثمانية قدموا على رسـول الله ﷺ فبـايعـوه على الإسـلام، فـاستـوخموا المدينـة، فسقمت أجسامهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، قـال: أفلا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبـون من ألبانها وأبـوالها؟ قالوا: بلى، فخـرجوا، فشربـوا من ألبانها وأبـوالها، فصحـوا فقتلـوا راعي رسـول الله ﷺ، وأطـردوا النعم، فبلغ ذلك رسـول الله ﷺ، فأرسل في آثارهم، فـأُدركوا فجيء بهم، فأمـر بهم فقطعت أيـديهم وأرجلهم، وسمر أعينهم، ثم نبـذهم في الشمس حتى ماتـوا. وفي لفظ لمسلم من حـديـث أنس رضي الله عنـه قـال: إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الـرعاء. وسمل الأعين وسمرها بمعنى واحـد وهو فقؤها و إذهاب نورها بأي شيء كان، وقد تقدم في لفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنــه قــال: فأمــر بمسـامير فأحميـت فكحلهم، أي أدخل المسامير المحماة في أعينهـم فأعماهم بها جزاء وفـاقا لما صنعـوه بالـرعاء. وفي وصف من يقطع السبيل ويثير الرعب بين النـاس ويعمل على عدم استتباب الأمن والاستقرار بأنه محارب لله ورسـوله وساعٍ في الأرض فسادا تهديـد شديد بأن من فعل ذلك يعرض نفســه لحرب الله له ولحرب رسوله ﷺ لـه، وكذلك لحرب إمام المسلمين وجماعتـه الملتزمين بشرع الله، ولاشك أن من حـاربه الله محروب، ومن غالبه الله مغلوب، وأن الله عز وجل يمكن رسوله ﷺ ويمكن عباده الصالحين من قطع دابره والقضـاء على إفساده. وهذا شبيه بما هدد الله عز وجل به المستحلين للربا حيث قال: ﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما

بقى من الـربا إن كنتم مـؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنـوا بحرب من الله ورسـوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿أَنْ يُقَتَّلُـوا أو يُصَلَّبُـوا أو تُقطَّعَ أَيْـدِيهِم وأَرْجُلُهُـمْ من خِـلافٍ أَوْ يُنْفَـوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ هذا هو الذي سماه الفقهاء حد الحرابـة أو حد قطاع الطريق . وهو تقتيلهم أو تصليبهم ، أو تقطيع أيـديهم وأرجلهـم من خـلاف أو نفيهم من الأرض إذا قدر عليهم قبل أن يتـوبوا ، وقاطع الطريق لا يخلـو عن حال من أحوال خمس : الأولى : أن يكـون قد قَتل وأخـذ المال فإنه يتحتم قتلـه وصلبه ولا يدخلـه عفو، قال ابن المنذر: أجمع على هـذا كل من نحفظ عنه من أهل العلم . وظـاهر سيـاق الآيـة الكريمـة يـدل على أنه يصلب بعـد أن يقتل ، والمقصـود من صلبه أن يشتهـر أمره ، ويـرتـدع غيره ، أما الحالـة الثانيـة من أحوال قاطع الطريق : أن يَقتل لكنه لم يأخذ مالا فإنه يُقتل لكنه لا يصلب ، وإن رأى الإمام صلبه تعزيرا صلب . أما الحالة الثالثة : أن يأخذ المال لكنه لم يقتل أحـدا ، فإنه تقطع يـده اليمنى ورجلـه اليسرى ، وهذا معنى قـوله عـز وجل : ﴿من خلافٍ﴾ وتقطـع يده ورجله في وقت واحـد ولا ينتظر انـدمال اليد في قطع الرجل بل يقطعان معـا . والحال الرابعة : أن يخيف السبيل لكنه لم يقتل ولم يأخـذ مالا فإنه ينفـى من الأرض . أما الحال الخامسة مـن أحوال قاطع الطريق فهي أن يتوب قبل أن يُقـدر عليه ، فإن تاب قبل أن يقدر عليه سقطت عنه حـدود الله وأُخذ بحقـوق الآدميين من الأنفس والجراح والأموال إلا أن يُعفى لـه عنهـا . قال ابن قـدامـة رحمه الله في المغني : لا نعلم في هـذا خلافـا بين أهل العلم اهـ . ومعنى قـوله تبارك وتعـالى : ﴿ذٰلك لهم خِزْيٌ في الدنيـا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ أي هذا الـذي ذكرته من عقوبـة الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا من قتلهم أو من صلبهم أو من قطع أيديهم وأرجلهـم من خلاف أومن نفيهم من الأرض هـو لهم في عاجل

حياتهم خزي وذل وفضيحة وهَوَانٌ مع ما ادخره الله عز وجل لهم من العذاب العظيم في نار جهنم يوم القيامة قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿ذٰلك لهم خِزْيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ذٰلك﴾ هذا الجزاء الذي جازيت به الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فسادا في الدنيا من قتل أو صلب أو قطع يد ورجل من خلاف ﴿لهم﴾ يعني: لهؤلاء المحاربين ﴿خِزْيٌ في الدنيا﴾ يقول: هو لهم شر وعار، وذلة ونكال وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة، يقال: أخزيت فلانا فخزى هو خزياً. وقوله: ﴿ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم.﴾ يقول عز ذكره: لهؤلاء الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فسادًا، فلم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا ﴿في الآخرة﴾ مع الخزي الذي جازيتهم به في الدنيا والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها ﴿عذابٌ عظيمٌ﴾ يعني: عذاب جهنم اهـ ولا معارضة بين جمع الله عز وجل العقوبة في الدنيا والآخرة لمن حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فسادا وبين ما ثبت في صحيحي البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتبايعونني على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا. الحديث. وفيه، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له» لأنه ليس من هذه الذنوب المذكورة في هذا الحديث محاربة الله ورسوله والسعي في الأرض بالفساد وهو يدل على أن المحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض بالفساد قد ارتكبوا جرما لا يغفره الله إلا بتوبة صاحبه منه، ولذلك قال بعدها ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أَنَّ الله غفور رحيم﴾ وهذا يدل على شناعة المحاربة وعظيم ضررها لأن نعمة أمن الشعوب واستقرارها في الذروة من النعم، وإشاعة

الخوف و إفساد الأمن قتل لـلأمم و إهلاك للشعوب، ولـذلك امتن الله تبارك وتعالى على عبـاده بنعمة الأمن حيث قـال: ﴿أَوَ لم يَرَوْا أنا جعلنـا حرمـا آمنا ويتخطف الناس من حـولهم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وضرب الله مثلا قـرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقهـا رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ .

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْـوسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مـافى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَـهُ لِيَفْتَدُوا بِـهِ مِنْ عَـذَابِ يَوْمِ الْقِيَـامَـةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ. يُرِيدُونَ أَن يَخْرجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

بعد أن أشـار الله تبارك وتعالى في قصة ابني آدم إلى أن تقـوى الله عز وجل هي سبب الفـلاح والنجـاح والفوز في الـدنيـا والآخـرة وتقبل الأعمال حيث قال: ﴿إنما يَتَقَبَّـلُ الله من المتقين﴾ وأشار عـز وجل إلى أنه فـرض على عباده صيانـة النفوس وحض على إحيائهـا وأنه كتب ذلك على بني إسرائيل وأرسل إليهم الرسل بالبينات وعرفهم أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل النـاس جميعـا ومن أحياهـا فكأنما أحيـا النـاس جميعا، أكـد على المؤمنين هنـا ملازمـة تقوى الله عـز وجل وحضهم على الالتجـاء إليه وحـده والتوكل عليه وطلب جميع حوائجهم منه جل جلاله، ومجاهدة أعدائه الذين يحاربون الله ورسـوله ويسعـون في الأرض فسادا، حيـث يقول هنـا: ﴿يَاأَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وابْتَغُوا إليه الوسيلة وجَاهِدُوا في سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقد تضمنت هذه الآيـة الكريمة ثلاثة أوامـر، الأول: أمر المؤمنين بتقوى الله عز وجل، والثاني: أمر المؤمنين بأن يبتغـوا إلى الله وحده الوسيلة، والثالث: أمر المؤمنين بأن يجاهـدوا في سبيل الله، وقد نبـه عز وجل المؤمنين إلى أنهم إذا اتقوا ربهم وطلبـوا الوسيلـة إليه وحـده، وجاهـدوا في سبيله أفلحـوا وفازوا، ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿وابْتَغُوا إِلَيْـهِ الْوَسِيلَـةَ﴾ أي واطلبوا إلى الله وحـده حوائجكم ولا تطلبوها من أحـد سواه، ولو كـان ملَكا مقربـا أو نبيا مرسلا، فإن لله وحـده ما في السموات ومـا في الأرض، ولو اجتمع مـس ي السموات ومن في الأرض على أن ينفعوا أحدا بشيء ما نفعـوه إلا بشيء كتبه الله له، ولو

اجتمعوا على أن يضروه بشيء ما ضروه إلا بشيء كتبه الله عليه، وما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن، ولذلك أرشد رسول الله ﷺ المسلمين إذا سألوا أن يسألوا الله وحده و إذا استعانوا أن يستعينوا بالله وحده فقد روى الترمذي من طريق قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوما، فقال: ياغلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، و إذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح اهـ وأصل الوسيلةفي اللغة: الحاجة وتطلق على القربة وما يتوصل به إلى تحصيل المقصود وهي كذلك عَلَم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، والمراد بالوسيلة في قوله تعالى: ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ هو المعنى الأول والثاني من معاني الوسيلة، أي واطلبوا منه عز وجل وحده حوائجكم ولا تطلبوها من غيره وأديموا التقرب إليه، ومن استعمال الوسيلة بمعنى الحاجة قول عنترة العبسي لامرأته لما لامته في فرس كان يؤثره على سائر خيله ويسقيه من لبن إبله:

لا تذكري مُهري وما أطعمته ... فيكون جلدك مثل جلد الأجرب
إن الغبوق له وأنت مسوءة ... فتأوهي ما شئت ثم تَحَوَّبي
كذب العتيق وماء شن بارد ... إن كنت سائلتي غبوقا فاذهبي
إن الرجال لهم إليك وسيلة ... إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

فهو ينذرها بالطلاق إن هي ألحت عليه بالملامة في فرسه لأنه حصنه ويقول لها: أنت إن وقعت في الأسر أسرعت فتكحلت وتخضبت لمن أسرك،

ويقـول : إن أخـذوك تكحلت وتخضبت لهم ، فقد استعمل عنترة الـوسيلـة بمعنى الحاجة ، أي إن الـرجال يحتـاجون لمثلك أمـا أنا فإني محتـاج إلى فرسي لأقـاتل عليه أعـدائي . أما اتخاذ الأشخـاص وسائط بين الله عـز وجل وبين عبـاده فإنه من سمات المشركين الـذين عبـدوا غير الله واتخذوا أولياء وسـائط وشفعاء ، وقد أخبر الله عز وجل أنه سيحكم بينهم يوم القيامة فيجزيهم على كذبهم على الله وكفرهم حيث يقول تبـارك وتعالى : ﴿أَلا للهِ الدينُ الخالصُ ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا لِيُقَرِّبُونَا إلى الله زُلْفَى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيـه يختلفون ، إنَّ الله لا يهدي من هـو كاذب كَفَّـارٌ﴾ فلا يحل لمسلم أن يتوسل إلى الله بذوات الأشخاص ولا بمن فـارق الدنيا منهم مطلقا أما سؤال الصالحين من الأحياء أن يسألوا الله عز وجل ويضرعوا إليه لكشف الضر أو جلب الخير فإنـه مشروع ولـذلـك روى البخـاري في صحيحـه من حـديث أنس رضي الله عنه أن عمـر رضي الله عنـه كان إذا قحطـوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب وقال : اللهـم إنا كنا نستسقي إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتـوسل إليك بعم نبينا فـاسقنا ، فيسقون . ولـو كان التـوسل بمن فارق الدنيـا جائزا لتوسل عمر بـرسول الله ﷺ ولم يتوسل بالعبـاس رضي الله عنه ، ومن التـوسل المشروع أن تقـدم بين يـدي حـاجتك ودعـائك الثنـاء على الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى كما أرشدت إلى ذلك سورة الفاتحة ، ومن أنواع الوسيلة الشرعية أن تدعو الله تعالى بعد أن تذكر أرضى عمل تقربت به لله عز وجل وعملته لوجهه الكريم كما في حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فـانطبقت عليهم الصخرة فتضرع كل واحـد منهم إلى الله تعـالى وذكر عمـلاً صالحا وقال : اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغـاء وجهك فافرُج عنا مـا نحن فيه ، فـانفـرجت عنهم الصخـرة ، وخرجـوا يمشـون كما روى ذلك البخاري ومسلم من حـديث عبد الله بن عمـر رضي الله عنهما . أما الـوسيلة

التي يطلبها المسلم لرسول الله ﷺ حيث يقول : اللهم آت محمدا الوسيلة . فهي دار رسول الله ﷺ وهي أعلى منزلة في الجنة ، وقد حض رسول الله ﷺ المسلمين على أن يسألوا الله الوسيلة لرسول الله ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة ، كما روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول : إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليَّ ، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة . وقد ندد الله تبارك وتعالى بالمشركين الذين كانوا يعبدون الجن ويتوسلون بهم فأسلم الجن وأخلصوا التوحيد لله عز وجل واستمر هؤلاء المشركون في التوسل بالجن حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿قل ادْعُوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولَئك الذين يَدْعُونَ يبتغون إلى ربهم الوسيلة أَيُّهُمْ أقربُ ويرجون رحمته ويخافون عَذَابَهُ ، إن عَذابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ والمراد أن المشركين الذين يعبدون غير الله كالذين عبدوا المسيح والعزير والملائكة والجن يجهلون أن عيسى والعزير والملائكة والجن الذين أسلموا لا يطلبون حوائجهم إلا من الله وحده ويتبرأون ممن اتخذهم وسائل أو جعلهم شفعاء ليقربوهم إلى الله زلفى فأيهم أقرب إلى الله؟ الذين أخلصوا له التوحيد أم الذين أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا؟ وقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود ﴿إلى ربهم الوسيلة﴾ قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم اهـ

وأسعد خلق الله بالله من أرجع أمره كله لله ولم يتعلق بأحد سواه، وما أحسن قول الشاعر:

وقائلةٍ مات الكرام فمن لنا	إذا عضنا الدهر الشديد بنابه
فقلت لها من كان غاية همه	سُؤالاً لمخلوق فليس بنا به
لئن مات مَن يُرجى فمعطيهم الذي	يُرجُّونه باق فلوذوا ببابه

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنَّ الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثلَه معه لِيَفْتَدُوا به من عذابِ يومِ القيامة ما تُقُبِّلَ منهم ولهم عذابٌ أليم. يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم﴾ هذا تأكيد لوجوب امتثال المؤمنين للأوامر الثلاثة القاضية بوجوب اتقاء الله وابتغاء الوسيلة إليه والجهاد في سبيله، وحض للمؤمنين على المسارعة والمسابقة إلى تحصيل أسباب مرضاة الله عز وجل قبل الارتحال من هذه الدنيا لأنها مزرعة الآخرة، فإن من مات على الكفر لو توسل إلى الله عز وجل ببذل ملء الأرض ذهبا أو ببذل جميع ما في الأرض ومثله معه لو كان يملك ذلك ليدفع الله عنه العذاب يوم القيامة ما تقبل الله منه قربانه، وما أخرجه من النار، كما قال عز وجل: ﴿إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ من أحدهم مِلْءُ الأرض ذهبا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ، أولَئك لهم عذاب أليمٌ وَمَالَهُمْ من ناصرين.﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له: ياابن آدم، كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع، فيقال: هل تفتدي بقراب الأرض ذهبا؟ قال: فيقول: نعم يارب، فيقول الله تعالى: كذبت، قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل، فيؤمر به إلى النار. وقد أكد الله تبارك وتعالى تيئيس من مات على الكفر من رحمة الله وأنهم مهما صرخوا واستغاثوا ليخرجوا من النار فإن الله عز وجل لا يخرجهم منها ولهم فيها عذاب دائم مستمر كما

قال عز وجل : ﴿كلما أرادوا أَن يَخْرُجُوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾ وكما قال عز وجل : ﴿تَلْفَحُ وجُـوهَهُمُ النارُ وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتي تُتْلَى عليكم فكنتم بها تكَذِّبُونَ . قالوا ربَّنَا غَلَبَتْ علينا شِقْوَتُنَا وكُنَّا قوما ضالين * ربَّنَا أَخْرِجْنَا منها فإن عُدْنا فإنَّا ظالمون * قال اخْسَئُوا فِيهَا ولا تُكَلِّمُونِ﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿إن الذين كفروا بآياتنـا سوف نُصْلِيهِمْ نارًا كلما نَضِجتْ جُلُودُهـم بدلناهم جلـودا غيرها ليـذقوا العـذاب ، إن الله كان عزيزا حكيما﴾ .

قال تعالى: ﴿والسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بما كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللهِ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رحيمٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ، واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

بعد أن بشَّع الله تبارك وتعالى جريمة الاعتداء على النفس، وشدد النكير على من يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فسادا وشرع للزجر عن ذلك حد المحاربة وقطاع الطريق بأن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض، وحض المسلمين على تقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه وحده والجهاد في سبيله ليفلحوا ويفوزوا، مما يقتضي صيانة الأنفس والأموال شرع هنا يبين حد السرقة ردعًا لمن يعتدي على الأموال المحروزة المصونة فيأخذها على طريق الخفية عقب بيان حكم من يعتدي على أموال المسلمين فيأخذها على طريق المحاربة وقطع الطريق، وأصل السرقة في اللغة هي: الأخذ خفية، وشرعا هي أخذ مال محروز قيمته ربع دينار فصاعدا على وجه الخفية وليس للآخِذ حق فيه ولا شبهة، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: ويقال لسارق الإبل الخارب بخاء معجمة، وللسارق في المكيال مطفف، وللسارق في الميزان مخسر، في أشياء أخرى ذكرها ابن خالويه في كتاب (ليس) قال المازري ومن تبعه: صان الله الأموال بإيجاب قطع سارقها، وخص السرقة لقلة ما عداها بالنسبة إليها من الانتهاب والغصب، ولسهولة إقامة البينة على ما عدا السرقة بخلافها، وشدد العقوبة فيها ليكون أبلغ في الزجر، ولم يجعل دية الجناية على العضو المقطوع منها بقدر ما يقطع به حماية لليد، ثم لما خانت هانت، وفي ذلك إشارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبي العلاء المعري في قوله:

يـدٌ بخمـس مئينٍ عسـجدٍ وُديـت ... ما بالهــا قطــعت في ربــع دينـار

فأجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله :

صيانة العضو أغلاها، وأرخصها ... صيانة المال فافهـم حكـمة الباري

وشرح ذلك أن الدية لـو كانت ربع دينار لكثرت الجنـايات على الأيدي، ولو كان نصاب القطع خمسمائة دينار لكثرت الجنايات على الأموال، فظهرت الحكمـة في الجانبين، وكان في ذلك صيـانة مـن الطرفين اهــ هذا وفي روايـة أخــرى لبيت القـاضي عبــد الــوهـاب المالكي، وقيل هــو لعلَم الــدين السخاوي :

عز الأمــانة أغــلاها، وأرخصــها ... ذل الخيــانة فافهم حكــمة الباري

ومن قول القـاضي عبد الـوهاب في الـرد على شبهة أبي العـلاء المعري : لما كـانت أمينـة كـانت ثمينة، ولما خـانت هـانت. ومعنى قـولـه عـز وجل : ﴿والسارق والسارقـة فاقطعوا أيديهما﴾ أي والرجل الذي يسرق فـاقطعوا يده والمرأة التي تسرق فـاقطعوا يـدها، والتنصيص على السـارقة مع أن الشريعـة جرت على إدراج النسـاء في الأحكام الـواردة في شأن الرجـال بطريق الـدلالة لمزيد الاعتنـاء بالبيان والمبـالغة في الزجـر، وتقديم الـرجال في الذكـر في باب السرقة لأن السرقة في الغالب تحتاج إلى الجرأة والرجال عليها أقدر، وقدم ذكر النساء في باب الـزنا على ذكر الرجـال حيث قال عز وجل : ﴿الـزانية والزاني فاجلـدوا كلَّ واحد منهما مـائة جلدة﴾ لأن الغـالب أن المرأة هي الأساس في باب الـزنا ولـو امتنعت ما وقعت الجريمـة غالبا. وجمع الأيـدي في قولـه عز وجل : ﴿فاقطعوا أيـديهما﴾ لأن العرب كانوا إذا ذكروا شيئـا مُوَحدًا من خَلق الإنسان مضافا إلى اثنين فصاعدا جمعوه فيقـولون : قد هشمنا رءوسهما وملأنا ظهورهما وبطـونهما ضربا وكما قـال عز وجل : ﴿فقـد صغت قلـوبكما﴾ وقد بينت السنة اليد التي تقطع كما بينت محل القطع، وقد أطبق علماء أهل السنة

والجماعة على أن يد السارق التي تقطع هي اليمنى وأن موضع القطع يكون من مفصل الكف من الساعد أي من الرسغ، كما بينت السنة النبوية النصاب الذي تقطع اليد بسرقته، فقد أخرج البخاري من طريق ابن شهاب عن عمرة عن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: تقطع اليد في ربع دينار فصاعدا. ثم رواه من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير وعمرة عن عائشة عن النبي ﷺ قال: تقطع يد السارق في ربع دينار. ثم أخرجه من طريق محمد بن عبد الرحمن الأنصاري عن عمرة بنت عبد الرحمن حدثته أن عائشة رضي الله عنها حدثتهم عن النبي ﷺ قال: يُقطع في ربع دينار، أما مسلم رحمه الله فقد أورده من طريق ابن شهاب عن عروة وعمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدا. وساقه كذلك من طريق الزهري عن عمرة عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع السارق في ربع دينار فصاعدا. وساقه من طريق سليمان بن يسار عن عمرة أنها سمعت عائشة تحدث أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تقطع اليد إلا في ربع دينار فما فوقه. وساقه من طريق أبي بكر بن محمد عن عمرة عن عائشة أنها سمعت النبي ﷺ يقول: لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدا. ولا معارضة بين حديث عائشة هذا وبين ما رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قطع في مِجَنٍّ ثمنه ثلاثة دراهم. لأن ربع الدينار صرفه ثلاثة دراهم على أساس أن الدينار اثنا عشر درهما، هذا وإذا سقط القطع عمن سرق أقل من ربع دينار فإنه لا يسقط عنه التعزير الرادع له عن المعاودة. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿جزاءً بما كَسَبَا نَكَالا من الله والله عزيز حكيم.﴾ أي مجازاةً على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك وهو اليد التي سرقت تنكيلا من الله

عز وجل بهما على ارتكاب جريمتهما والله غالب قاهر قادر على الانتقام ممن يخالف أمره ويعتدي على أموال الآخرين كما أنه جل جلاله حكيم في أمره ونهيه وشرعه وقدره فله الحمد وله الشكر. وفي تذييل الآية بقوله عز وجل ﴿والله عزيز حكيم﴾ إشارة إلى كمال تشريعه الذي يصون العباد والبلاد ويحفظ النفوس والأموال، وأن من اعتدى على شرع الله لن يفلت من العزيز الحكيم. ومن الأسرار البلاغية التي اشتمل عليها هذا التذييل ما حكى الأصمعي، قال: قرأت هذه الآية، وإلى جنبي أعرابي، فقلت والله غفور رحيم سهوا، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله، قال: أعد، فأعدت: والله غفور رحيم، فقال: ليس هذا كلام الله، فتنبهت، فقلت: ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال: أصبت، هذا كلام الله، فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: ياهذا، عز، فحكم، فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن تَابَ من بعد ظُلْمِهِ وأَصْلَحَ فَإِنَّ الله يتوبُ عليه، إنَّ الله غفور رحيم﴾ أي فمن ندم من السُّرَّاق من بعد ما سرق وعزم على ألا يعود، واستقام على المحافظة على حدود الله وحقوق عباده فإن الله عز وجل يقبل توبته لأنه عز وجل غفور رحيم، أما حد السرقة فإنه لا يسقط عن السارق إذا تاب مادام قد رفع إلى السلطان. قال ابن تيمية رحمه الله: فلا يجوز تعطيل الحد لا بعفو ولا بشفاعة ولا بهبة ولا غير ذلك، ولهذا اتفق العلماء ــ فيما أعلم ــ على أن قاطع الطريق واللص ونحوهما إذا رُفعوا إلى ولي الأمر ثم تابوا بعد ذلك لم يسقط الحد عنهم، بل تجب إقامته، فإن كانوا صادقين في التوبة كان الحد كفارة لهم، وكان تمكينهم من ذلك من تمام التوبة بمنزلة رد الحقوق إلى أهلها اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ألم تَعْلَمْ أنَّ الله له مُلْكُ السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء، والله على كل شيء قدير﴾ الاستفهام فيه للتقرير

والمخاطب به النبي ﷺ وكل من يصلح له الخطاب، والمعنى: قد علمت أن الله له ملك السموات والأرض وهو الذي يقضي بين خلقه بحكمه وهو العليم القدير وفيه ردع لليهود والنصارى الذين قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وتأكيد لفت انتباه الناس إلى كمال تشريع الله عز وجل لهم، وأنه تبارك وتعالى أعلم من خلقه بمصالحهم، وأنه يضع لهم من الأنظمة ويبين لهم من التشريعات ما يحمي به أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم، وأنه يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد عدلا ورحمة، ومن ذلك تفريقه عز وجل في الحكم بين من يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا وبين من يسرق أموال الناس، كما أنه لعلمه بصالحي عباده وطالحيهم يتقبل من المتقين، ويبطل أعمال الكافرين الجاحدين، وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ألم يعلم هؤلاء يعني القائلين: ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودةً﴾ الزاعمين أنهم أبناء الله وأحباؤه، أن الله مدبر ما في السموات وما في الأرض ومُصرِّفه وخالقه، لا يمتنع شيء مما في واحدة منهما مما أراده، لأن كل ذلك ملكه، وإليه أمره، ولا نسب بينه وبين شيء مما فيهما ولا مما في واحدة منهما، فيحابيه بسبب قرابته منه، فينجيه من عذابه وهُوَ بِهِ كافر، ولأمره ونهيه مخالف، أو يدخله النار وهو له مطيع لبعد قرابته منه، ولكنه يعذب من يشاء من خلقه في الدنيا على معصيته بالقتل والخسف والمسخ وغير ذلك من صنوف عذابه، ويغفر لمن يشاء منهم في الدنيا بالتوبة عليه من كفره ومعصيته، فينقذه من الهلكة وينجيه من العقوبة ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يقول: والله جل وعز على تعذيب من أراد تعذيبَه من خلقه على معصيته، وغفران ما أراد غفرانه منهم باستنقاذه من الهلكة بالتوبة عليه وغير ذلك من الأمور كلها قادر، لأن الخلق خلقه، والملك ملكه، والعباد عباده اهـ.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ومِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يأتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وإِن لم تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا، وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزي ولهم فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْت، فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ.﴾

بعد البيانات الكثيرة المتقدمة المتضمنة مواساة رسول الله ﷺ فيما يلقاه من تعنت اليهود، وأشباههم من أعداء المرسلين، وبعد تقرير الأحكام الرادعة لمن يحارب الله ورسوله ويسعى في الأض فسادا، أو يسرق الأموال المصونة المحروزة، وبعد الترغيب في التوبة إلى الله عز وجل الذي له ملك السموات والأرض القادر على كل شيء الفعال لما يريد، نهى هنا رسوله وسيد خلقه محمدا ﷺ عن التأثر والاكتئاب والحزن والمبالاة بسبب ما يلقاه من أعداء الله المسارعين في الكفر وبخاصة المنافقين واليهود حيث يقول عز وجل هنا: ﴿يـاأيها الرسول لا يَحْزُنْكَ الذين يُسَارِعُونَ في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا﴾ وفي خطاب الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ بعنوان الرسالة تشريف عظيم له ﷺ ومواساة شافية وإشعار بما يوجب عدم الحزن، وتقريع للمنافقين واليهود وغيرهم من المسارعين في الكفر الذين يكذبون رسول الله ﷺ، ولم يخاطب الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ بوصف الرسالة في القرآن العظيم إلا في موضعين اثنين فقط أحدهما هنا والثاني في قوله تبارك وتعالى في نفس هذه السورة: ﴿يا أيها الرسولُ

بَلِّغْ مَـا أُنْــزِلَ إليك من رَبِّكَ﴾ ومعنى: ﴿لا يَحْزُنْكَ الـذيـن يُسَـارِعُـونَ في الكُفْــرِ﴾ أي لا تهتم ولا تبــال بتهــافتهم في الكفــر وسرعــة انغماسهم في الضــلال، قال أبـو السعـود العمادي في تفسير هـذه الآية: وهـذا وإن كـان بحسب الظاهر نهيـا للكفرة عن أن يحزنوه عليه الصـلاة والسلام بمسارعتهم في الكفر لكنـه في الحقيقة نهي له عليـه الصلاة والسلام عـن التأثر من ذلك والمبـالاة بهم على أبلغ وجـه وآكده، فإن النهـي عن أسباب الشيء ومبـاديـه المؤدية إليه نهي عنه بالطريق البرهـاني وقلع له من أصله، وقد يوجه النهي إلى المسبب ويـراد به النهي عـن السبب كما في قولـه: لاأرينك ههنـا يريـد نهي مخاطبه عن الحضور بين يديه اهـ. وأصل المسارعة في الشيء الوقوع فيه بسرعة ورغبـة، والتعبير بفي في قولـه عـز وجل: ﴿يسـارعون في الكفـر﴾ ولم يقل: يسارعـون إلى الكفر لـلإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفـر منغمسون فيـه وإنما يتقلبون في أبوابه، ويتحولون من ضـلال إلى ضلال، وقوله عز وجل: ﴿من الـذين قـالـوا آمنـا بأفـواههم ولم تـؤمن قُلُـوبُهُم ومن الـذين هـادوا﴾ بيـان للمسارعين في الكفـر. والمراد بالذين قالـوا آمنا بأفواههم ولم تـؤمن قلوبهم: المنافقون، والمراد بالذين هادوا: اليهود. وقوله عز وجل: ﴿سَمَّاعُون لِلْكَذِبِ سماعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لم يَأْتُوكَ﴾ زيـادة في تقرير مواساة رسول الله ﷺ وتثبيت فؤاده، بزيادة بيان صفات أعدائه التي تدل على أنهم منحطو التفكير، سيئو السلوك، مما يدعو إلى عدم المبالاة بهم، فبعد أن بيَّن عز وجل أنهم يسارعون في الكفر وأنهم إما ضعـاف الشخصية منافقون، وإما يهود واليهـود معروفون بـالانغماس في تكــذيب الأنبيــاء، والجرأة في الافتراء على الله وعلى رسلـه، وصفهم كذلك بأنهم مفتونون قـد صرفت قلوبهم عن سماع الحق والاستجابة لـه، وأنهم يبالغـون في الاستجابـة والانقياد للبـاطل وقبول الكـذب، وأنهم خاضعون منقادون لقوم بعيدين لا يَجْرُءُونَ على مواجهتك، متأثرون بما يدسه

لهم هؤلاء البعداء من أحبار السوء، وبما يزودونهم به من الأباطيل والشبهات والشهوات مما يظنون أنه يحزن رسول الله ﷺ ويرهقه ويحمله ما لا يطيقه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِه﴾ بيان لصفة أخرى قبيحة من صفات القوم الآخرين الجبناء عن مقارعة الحجة المكتفين بالدس وتحريف كلام الله الذي وضعه الله عز وجل مواضعه وأثبت ما أحله وما حرمه وما وضعه وبينه من الحدود والحقوق فاجترأ هؤلاء على الله عز وجل وحرفوا كلامه بتغيير حروف منه لا توافق شهواتهم، أو بتأويل كلام الله على غير المراد منه إمعانا في التضليل، وانغماسا في الشهوات، وإثارة للشبهات، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَقُولُونَ إنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوه وإن لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا.﴾ هذه صورة من صور دس البعداء من أحبار السوء لرعاعهم وبيان لقبيحة من قبائح تحريفهم للكلم من بعد مواضعه، حيث كانوا قد غيروا حكم رجم الزانيين وبدلوه واصطلحوا فيما بينهم على جلد كل واحد منهما مائة جلدة والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين فظن أحبار السوء هؤلاء أنهم ربما يتمكنون من الحصول على فتوى من محمد ﷺ بتقرير ما حرفوه من شريعة الله وما غيروه من حدود الله، آملين أنهم إن تمكنوا من ذلك أصابوا هدفين برمية واحدة حيث روجوا باطلهم وأشاعوا السوء على رسول الله ﷺ، وجهلوا أن الله تبارك وتعالى قد عصمه من الناس، وحفظه من شر كل دساس، وقد حدث أن زنى رجل يهودي بامرأة يهودية فدس أحبار السوء إلى أتباعهم أن يحكِّموا محمدا ﷺ في شأن الزانيين، وقالوا لهم: إن حكم بالجلد والتحميم فاقبلوا حكمه، وإن حكم بالرجم فلا تقبلوا حكمه لأنه يكون مناقضا لحكم الله فاحذروا منه ولا تستمعوا له بعد ذلك، فكشف الله سترهم وأخزاهم وفضحهم فقد قال البخاري في المناقب من صحيحه: باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كما يَعْرِفُونَ أبناءهم وإنَّ فريقا منهم ليَكْتُمُونَ الحَقَّ وهم

يعلمون. ﴾ حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك بن أنس عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة، فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا، صدق يامحمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال عبد الله: فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة.

وأخرجه مسلم من طريق نافع أن عبد الله بن عمر أخبره أن رسول الله ﷺ أُتي بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال: ما تجدون في التوراة على من زنى؟ قالوا: نسود وجوههما ونحمِّلهما ونخالف بين وجوههما، ويطاف بهما، قال: فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين، فجاءوا بها فقرأوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ: مره فليرفع يده، فرفعها، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال عبد الله بن عمر: كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه. كما روى مسلم من حديث البراء بن عازب قال: مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمماً مجلوداً، فدعاهم ﷺ فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم، فدعا رجلا من علمائهم، فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال؟ لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والضعيف، فجعلنا التحميم والجلد

مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها الرسولُ لا يَحْزُنْكَ الذين يسارعون في الكفر﴾ إلى قوله: ﴿إنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ يقول: ائتوا محمدا ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الكافرون﴾ ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الظالمون﴾ ﴿ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الفاسقون﴾ في الكفار كلها. وقد بيَّن الله تبارك وتعالى أن سبب مسارعتهم في الكفر وانغماسهم في الكذب وانقيادهم لأحبار السوء، وموقف أحبار السوء من رسول الله ﷺ هو أنهم مفتونون مخذولون نجسو القلوب حيث يقول عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدِ الله فتنته فلن تَمْلِكَ له من الله شيئا، أولَئك الذين لم يُرِدِ اللهُ أن يُطَهِّر قلوبَهم﴾ والمقصود من الإرداة هنا الإرادة الكونية القدرية، وقوله عز وجل: ﴿لهم في الدنيا خِزيٌ ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ أي لهؤلاء المنافقين واليهود فضيحة وذل وهوان في الدنيا عقوبة عاجلة، وقد أعد لهم في القيامة عذاب جهنم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿سَمَّاعُونَ للكذب أكَّالُونَ لِلسُّحْتِ، فإن جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بينهم أو أَعْرِضْ عنهم وإن تُعْرِضْ عنهم فَلَن يَضُرُّوكَ شيئا وإن حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بالقِسْطِ، إن اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ زيادة تأكيد لقبح ما عليه المنافقون واليهود من الاستجابة للكذب والانقياد له مع ردهم للحق الذي جاء به رسول الله ﷺ ومع ذلك فهم أكالون للسحت وهو الربا والرشوة وكل حرام خبيث يسحت آكله ويجلب له العار والخزي في الدنيا والآخرة، فقد جمع هؤلاء بين الغذاء الخبيث للقلب وهو الكذب والانقياد له وبين الغذاء الخبيث للجسم وهو استغراقهم في أكل السحت والمبالغة في تحصيله. وفي قوله عز وجل: ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ تخيير لرسول الله ﷺ إذا

ترافعوا إليه، فإن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم ثم طمأنه عز وجل بأنه إن أعرض عنهم فلن يتمكنوا من إلحاق أي ضرر به ﷺ، ولا معارضة بين هذا التخيير وبين قوله عز وجل: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ لأنه ﷺ إذا اختار أن يحكم فلن يحكم بينهم إلا بما أنزل الله ولذلك قال هنا: ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقسطين﴾ وقد أخبر الله عز وجل هنا أنه يحب المقسطين كما بشر رسول الله ﷺ المقسطين بأنهم على منابر من نور فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماوُلُّوا.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ. إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فيها هُدًى ونُورٌ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِين هَادُوا والرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بما اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكانوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ، فلا تَخْشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِأَيَاتى ثَمَنًا قَلِيلا، وَمن لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هم الْكَافِرُونَ. وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ والْعَيْنَ بالْعَيْنِ والأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ والسِّنَّ بالسن وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ، فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ له، وَمَن لم يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل جملة من قبائح أفعال اليهود وأقوالهم، وأخزاهم وفضحهم، عَجَّبَ هنا حبيبه ورسوله وسيد خلقه محمدا ﷺ من تناقضاتهم وسوء مكرهم حيث دس أحبار السوء إلى رعاعهم أن يحكموا رسول الله محمدا ﷺ في شأن الزاني والزانية من اليهود لعلهم يتمكنون من الحصول على فتوى منه ﷺ بتقرير ما حرفوه من شريعة الله وما غيروه من حدود الله، ففضحهم الله عز وجل وأخزاهم وكشف سترهم وصاروا كعنز السوء التي بحثت بظلفها عن حتفها، وبيّن الله عز وجل أن حكم الله عز وجل في الزناة من رجمهم موجود في التوراة التي بأيديهم، حيث يقول عز وجل: ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ فقد شاعت فضيحتهم وانكشف تناقضهم، وأعز الله رسوله ﷺ، وأظهره عليهم، وقامت الحجة على المنافقين واليهود بأن محمدا ﷺ على صراط مستقيم. وقوله عز وجل: ﴿وعندهم التوراةُ فيها حُكْمُ الله﴾ أي وبأيديهم التوراة المشتملة على حكم الله في القضية التي حكموك فيها وهي أن حد الزاني الرجم، وهذا يقرر أنهم لم يتمكنوا من تحريف التوراة تحريفا كليا، وإنما وقع التحريف في بعض ألفاظها، وأن

بعض الأحكام التي شرعها الله عز وجل لبني إسرائيل في التوراة لم تتبدل كرجم الزناة والقصاص، وإن كان أحبار السوء قد انحرفوا عن العمل بها فبدلوا الرجم بتسويد وجه الزاني وتشهيره وجلده، كما أن بعض صفات رسول الله ﷺ قد بقيت في التوراة وإن حاول اليهود كتمان كل صفة تدل عليه ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿ثم يَتَوَلَّوْنَ من بعد ذٰلك، وما أولٓئك بالمؤمنين﴾ تقريع لهؤلاء اليهود الذين علموا أن رسول الله ﷺ إنما يحكم بحكم الله، ومع ذلك لا يسارعون إلى الإيمان به والاستجابة له وإنما يزدادون إعراضا عن الحق، وبعداً عن الإيمان، ولذلك قال: ﴿وما أولٓئك بالمؤمنين﴾ قال ابن جرير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وما أولٓئك بالمؤمنين﴾ يقول: ليس من فعل هذا الفعل أي من تولى عن حكم الله الذي حكم به في كتابه الذي أنزله على نبيه في خلقه بالذي صدق الله ورسوله فأقر بتوحيده ونبوة نبيه ﷺ لأن ذلك ليس من فعل أهل الإيمان اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التوراة فيها هُدًى ونورٌ﴾ ثناء من الله عز وجل على التوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام وأنها نزلت مشتملة على الهدى والنور، فهي تدل على الطريق المستقيم وتهدي إلى الرشد وتنير للسالكين منهج سعادتهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا تنديد باليهود الذين انحرفوا عنها وحرفوا كلمها من بعد مواضعه، وسلكوا طرقا معوجة دعاهم إليها أحبار السوء وأصحاب التلمود. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يحكم بها النَّبِيُّونَ الذين أسلموا للذين هَادُوا﴾ أي يقضي بها أنبياء الله ورسله المنقادون لأمر الله الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وينفذون أحكامها في بني إسرائيل الذين تهودوا، لا يفرقون في ذلك بين شريف وضعيف. وقوله عز وجل: ﴿والربانيون والأحبار بما اسْتُحْفِظُوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ أي ويقضي بالتوراة أيضا فقهاء بني إسرائيل العارفون بالله وعلماؤهم بسبب انقيادهم لأمر الله الذي عهد إليهم أن

يحفظوا كتابه من التحريف والتبديل ولا يبدلوه ولا يضيعوه، وكانوا عليه رقباء يحمونه من التغيير والتبديل ويشهدون أنه حق، وقوله عز وجل: ﴿فلا تَخْشَوُاْ الناسَ واخشونِ ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثمنا قليلا﴾ تثبيت لأفئدة المسلمين وتحذير لهم من تضييع كتاب الله وحدوده لسبب من رهبة أو رغبة وتنديدٌ بأحبار السوء من اليهود الذين ضيعوا حدود الله وحرفوا الكلم من بعد مواضعه قال الفخر الرازي رحمه الله: واعلم أنه تعالى لما قرر أن النبيين والربانيين والأحبار كانوا قائمين بإمضاء أحكام التوراة من غير مبالاة خاطب اليهود الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ ومنعهم من التحريف والتغيير، واعلم أن إقدام القوم على التحريف لابد وأن يكون لخوف ورهبة، أو لطمع ورغبة، ولما كان الخوف أقوى تأثيرا من الطمع قدم تعالى ذكره فقال: ﴿فلا تخشوُا الناسَ واخْشوَنِ﴾ والمعنى: إياكم وأن تحرفوا كتابي للخوف من الناس والملوك والأشراف فتسقطوا عنهم الحدود الواجبة عليهم وتستخرجوا الحيل في سقوط تكاليف الله تعالى عنهم، فلا تكونوا خائفين من الناس، بل كونوا خائفين مني ومن عقابي. ولما ذكر أمر الرهبة أتبعه بأمر الرغبة فقال: ﴿ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثمنا قليلا﴾ أي كما نهيتكم عن تغيير أحكامي لأجل الخوف والرهبة فكذلك أنهاكم عن التغيير والتبديل لأجل الطمع في المال والجاه وأخذ الرشوة، فإن كل متاع الدنيا قليل، والرشوة التي تأخذونها منهم في غاية القلة. والرشوة لكونها سحتا تكون قليلة البركة والبقاء والمنفعة، فكذلك المال الذي تكتسبونه قليل من قليل، ثم أنتم تضيعون بسببه الدين والثواب المؤبد والسعادات التي لا نهاية لها اهـ ومن المقرر عند أهل العلم أن خوف السر من غير الله شرك أكبر ومعنى خوف السر: أن يخاف العبد من غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته وإن لم يباشره، لأنه اعتقاد للنفع والضر في غير الله تعالى ولذلك حذر تبارك وتعالى من ذلك في غير موضع من

القرآن العظيم كما قال تعالى: ﴿فَإِيَّايَ فارهبونِ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بضُرٍّ فلا كَاشِفَ له إلا هو وإن يردك بخير فلا رادَّ لفضله، يصيب به من يشاء من عباده، وهو الغفور الرحيم.﴾ وقال هنا: ﴿فلا تَخْشَوُا الناسَ واخْشَوْنِ﴾. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولٰئك هم الكافرون﴾ أي ومن لم يرض بحكم الله وشرعه وحَكَم بغير ما أنزل الله معتقدا أن حكم غير الله أحسن من حكم الله فهو الكافر المارق من دين الله، وقد وصف الله عز وجل في هذا المقام من حكَم بغير ما أنزل بأنه كافر كما ذكر في هذه الآية، ووصفه بأنه الظالم كما ذكر في تذييل الآية التي تليها حيث قال عز وجل: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولٰئك هم الظالمون﴾ ووصفه بأنه الفاسق حيث يقول عز وجل: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولٰئك هم الفاسقون﴾ وفي هذا وعيد عظيم لمن عدل عن حكم الله عز وجل وحكم بالطاغوت، وسياق الآيات وإن كان في اليهود والنصارى فإن عموم اللفظ ووجوب تحكيم شرع الله والرضا به يقتضي شمول هذا الوعيد لكل من لم يحكم بما أنزل الله سواء كان من الأمم السابقة أو من أمة محمد ﷺ، وهو شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يُحْمَى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هٰذا ما كَنَزْتُم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ فإن السياق وإن كان في الأحبار والرهبان لكنه ورد بلفظ العموم الذي يشمل كل من فعل ذلك. وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به﴾ أن التعبير بقوله: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ إشعار بأن مجرد الرغبة في التحاكم إلى الطاغوت كفر، فما بالك بمن حكم به أو تحاكم إليه فعلا؟ فذلك لا شك أقبح وأبشع وأعظم جرما وأشد كفرا. كما قلت في تفسير قوله

عز وجل: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ هذا قسَم من الله عز وجل بأجل مقسم به وهو نفسه المقدسة وبوصف وعنوان ربوبيته لأفضل خلقه محمد ﷺ على أنه لا يثبت لأحد ــ مهما كان ــ إيمان بالله ورسوله إلا إذا كان احتكامه في جميع ما يحتكم فيه من نزاع مهما كان إلى شريعة رسول الله ﷺ، ولابد كذلك أن ينشرح صدره لأحكام شريعة الإسلام بحيث لا يجد في نفسه حرجا من أي حكم من أحكامها، بل يكون تلقيه له بالقبول والرضى وانشراح الصدر وأن يسلم بذلك تسليما وينقاد انقيادا، وأن يعلم أن في تطبيق شريعة الإسلام في كل ما يحدث بين الناس من نزاع وشجار فلاحا وسعادة وعدلا وإنصافا وحقا. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ إلى آخر الآية أي وفرضنا على بني إسرائيل في التوراة أن من قتل نفسا عدوانا وظلما قتل بها ومن فقأ عينا بغير حق تفقأ عينه وأن الأنف يجدع بالأنف وأن الأذن تقطع بالأذن وأن السن تقلع بالسن وكذلك كل ما يمكن فيه التماثل إذا حصل ذلك عدوانا وظلما. ومعنى ﴿والجروحَ قصاص﴾ أي وسائر الجراحات التي يمكن القصاص فيها والمماثلة ففيها القصاص كالشفتين واللسان والأنثيين والقدمين واليدين وغيرهما، فأما ما لا يمكن القصاص فيه من رض في لحم أو كسر في عظم أو جراحة في بطن يخاف منه التلف إن اقتص منه ففيه أرش وحكومة، وفي قوله عز وجل ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ الآية توبيخ آخر شديد لليهود، فبعد أن وبخهم على تركهم ما كتبه عليهم من رجم الزاني، حيث بدلوه بالجلد والتحميم والتشهير وبخهم في هذه الآية أيضا بتعديهم على ما كتبه الله عليهم في التوراة من قصاص النفس بالنفس حيث لم يرض بنو النضير بذلك ظلما وعدوانا وجعلوا النفس من بني النضير بنفسين من بني قريظة ولا

يقتلون النضري إذا قتل القـرظي، ومعنى قولـه عز وجل: ﴿فمن تصـدق به فهو كفـارة له﴾ أي فمن عفـا عن القصاص ممـن تعدى عليه وتجاوز لـه عن القود أو الأرش فإن الله تبـارك وتعالى يكفـر ذنوب هذا الـذي عفا، لأنـه عز وجل يحب العفو، ولذلك قال تبـارك وتعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الظالمون﴾ أي ومن أعرض عن التحـاكم إلى شريعة الله ولم يـرض بقضاء الله فأولئك هم المبالغون في الظلم المتعدون لحدود الله الواضعون للشيء في غير موضعه.

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا على آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ من التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ. وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بما أَنزَلَ اللهُ فِيهِ، وَمَن لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

بعد أن وبخ الله عز وجل اليهود على انحرافهم عن كتاب الله واستغراقهم في الكذب مع المنافقين، وتحريفهم لكلام الله من بعد مواضعه، وتغييرهم لما شرعه الله عز وجل وكتبه عليهم في التوراة من رجم الزاني والقصاص في القتلى والجروح، وبيَّن أنهم لم يهتدوا بهدَى التوراة ولم يستنيروا بنورها وحكم عليهم بأنهم كافرون ظالمون شرع هنا في الحديث عن عيسى ابن مريم الذي جاء عقب أنبياء إسرائيل الذين حكموا بالتوراة وأن عيسى عليه السلام جاء مصدقا للتوراة وأن الله عز وجل أعطاه الإنجيل المشتمل على الهدى والنور وأن الإنجيل موافق لما في التوراة من أصول قواعد الدين وحفظ الكليات الخمس وهي الدين والنفس والعقل والعرض والمال وما يصونها من الحدود، وإن اقتضت حكمة الله عز وجل أن يبيح لعيسى عليه السلام وأمته بعض ما كان محرماً على بني إسرائيل حيث يقول عز وجل هنا: ﴿وقَفَّيْنَا على آثارهم بعيسى ابنِ مريمَ مُصَدِّقًا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيلَ فيه هُدًى ونُورٌ﴾ الآيتين. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وقفَّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾ أي وبعثنا

عيسى ابن مريم وأرسلناه إلى بني إسرائيل عقيب أنبيائهم ورسلهم الذين حكموا بالتوراة، وجاء عيسى عليه السلام مصدقا لكتابنا الذي أنزلناه من قبله على موسى عليه السلام مؤمنا بأنه كلام الله وأنه حق وأنه هدى ونور، وأعطينا عيسى عليه السلام الإنجيل المشتمل على الهدى والنور فهو هدًى يهدي إلى الحق وهو نور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات ويخرج من اتبعه من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والمعرفة وكمال البصيرة، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَمُصَدِّقًا لما بين يديه من التوراة وهُدًى وموعظةً للمتقين﴾ أي وآتينا عيسى الإنجيل المشتمل على الهدى والنور حالة كون هذا الإنجيل مصدقا وموافقا لما في التوراة من أصول قواعد الدين وحفظ الكليات الخمس التي لا سعادة للبشرية في دينها ودنياها إلا بصيانتها وحالة كون هذا الإنجيل هدى وكونه زاجرًا عن المعاصي لمن يخافون الله عز وجل إذ هم الذين يستفيدون من شريعة الله ويستضيئون بأنوارها ومعارفها، وقد وصف الله تبارك وتعالى الإنجيل في هذا المقام بهذه الصفات الخمس وهي كونه مشتملا على الهدى ومشتملا على النور وكونه مصدقا لما بين يديه من التوراة وكونه في نفسه هدى وكونه موعظةً أي مشتملا على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة. وقوله عز وجل: ﴿ولْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَٰئك هم الفاسقون﴾ أي وأمرنا أتباع الإنجيل بأن يلتزموا بأحكامه وأن يقفوا عند حدوده، وأن يحلوا حلاله وأن يحرموا حرامه، وأن يؤمنوا بكل ما أوجب عليهم الإيمان به، مما يحتم عليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ الذي لم يكتف مَنْ أنزل الله عليه الإنجيل أن يشير إليه إشارة بل حدد لهم اسمه بأفصح عبارة ولم يخبرهم بذلك سرًّا بل خطب بذلك في بني إسرائيل علانية وجهرا فقال: ﴿يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ فمن استجاب

لمحمد ﷺ من معاصريه وممن جاء بعدهم إلى يوم القيامة من النصارى فقد ارتضى حكم الإنجيل ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالإنجيل وفسق عن أمر الله. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ولَكن ليبلوكم فيما آتاكم فَاسْتَبِقُوا الخيرات﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه، ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه كما تقدم بيانه شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم فقال تعالى ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقا لما بين يديه من الكتاب﴾ أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقا عند حامليها من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله كما قال تعالى: ﴿إنَّ الذين أُوتُوا الْعِلْمَ من قبله إذَا يُتْلَى عليهم يَخِرُّون للأذقانِ سُجَّدًا ويقولون سبحان ربنا إنْ كان وعدُ رَبِّنَا لمفعولا﴾ أي إن كان ما وعدنا الله على ألسنة رسله المتقدمة من مجيئ محمد عليه السلام لمفعولا أي لكائنا لا محالة ولابد اهـ ويلاحظ أن الله تبارك وتعالى سمى في هذا المقام كتابه الذي أنزله على موسى باسم التوارة وسمى كتابه الذي أنزله على عيسى باسم الإنجيل وأطلق على كتابه الذي أنزله على محمد عليه السلام اسم الكتاب إشارة إلى أن القرآن العظيم هو الفرد الكامل الحقيق بأن يسمى كتاباً على الإطلاق لتفوقه على سائر الكتب السماوية، فهو أفضل الكتب وقد أنزله الله عز وجل على أفضل الرسل عليهم الصلاة

والسلام، وقد خصه الله عز وجل بمزايا لا توجد في غيره، من العموم والشمول والدوام والبقاء والصلاح لكل عصر ومصر وجيل وقبيل فلا ينسخ حتى ينسخ الليل والنهار والشمس والقمر وإذا نزل عيسى عليه السلام في آخر الزمان حكم به ولا يحكم بكتاب سواه. ومعنى قوله: ﴿ومُهَيْمِنًا عليه﴾ أي ورقيبا على سائر النصوص السماوية المحفوظة عن التغيير حيث يشهد لها بالصحة ويقرر أنها حق من عند الله، وهو أمين عليها باقٍ في الإشادة بها لأنه محفوظ عن التغيير والتبديل والتحريف كما قال عز وجل: ﴿إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب يقال إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه. ومعنى قوله عز وجل: ﴿فَاحْكُمْ بينهم بما أنزل اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُم عما جَاءَكَ من الحقِّ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وهذا أمر من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهل الملل بكتابه الذي أنزله إليه وهو القرآن الذي خصه بشريعته، يقول تعالى ذكره: احكم يامحمد بين أهل الكتاب والمشركين بما أنزل إليك من كتابي وأحكامي في كل ما احتكموا فيه إليك من الحدود والجروح، والقود والنفوس، فارجم الزاني المحصن واقتل النفس القاتلة بالنفس المقتولة ظلما، وافقأ العين بالعين، واجدع الأنف بالأنف، فإني أنزلت إليك القرآن مصدقًا في ذلك ما بين يديه من الكتاب، ومهمينا عليه، رقيبا يقضي على ما قبله من سائر الكتب قبله، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود ـ الذين يقولون: إن أوتيتم الجلد في الزاني المحصن دون الرجم، وقتل الوضيع بالشريف إذا قتله، وترك قتل الشريف بالوضيع إذا قتله فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا ـ عن الذي جاءك من عند الله من الحق وهو كتاب الله الذي أنزله إليك، يقول له: اعمل بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاخترت الحكم عليهم، ولا تتركن العمل بذلك اتباعاً منك

أهواءهم، وإيثارا لها على الحق الذي أنزلته إليك اهـ وقوله عز وجل: ﴿لِكُلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجا﴾ أي اقتضت حكمتنا أن نبعث لكل أمة رسولا منهم وخصصناه بشريعة ومنهاج ونظام ملائم لهم، يتناسب مع جيلهم وقبيلهم وحالهم، ولا معارضة بين قوله عز وجل هنا: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ وبين قوله عز وجل: ﴿شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تَتَفَرَّقُوا فيه﴾ وقوله تبارك وتعالى بعد ذكر جماعة من المرسلين: ﴿أولَئك الذين هَدَى اللهُفبهداهم اقْتَدِه﴾ إذ أن جميع الأنبياء متفقون في أصول الدين وقواعد السلوك وتحريم الفواحش والمحافظة على النفس والدين والعقل والعرض والمال، أما في الفروع فقد اقتضت حكمة العليم الحكيم أن يبعث كل رسول بشريعة تلائم قومه، ولما كان محمد ﷺ خاتم النبيين جعل الله عز وجل شريعته وافية بجميع حاجات البشر في سائر الأعصار والأمصار صالحة لكل زمان ومكان وجيل وقبيل، لا تنسخ حتى ينسخ الليل والنهار والشمس والقمر وتفنى الدنيا، وتنتهي الحياة على الأرض، والشريعة والشرعة هي الطريقة الظاهرة الواضحة التي يتوصل بها إلى النجاة. وأصل الشرعة والشريعة في كلام العرب: مشرعة الماء وهي مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون، والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عِدًّا لا انقطاع له ويكون ظاهرا مَعينا لا يسقى بالرِّشاء، والمنهاج هو الطريق الواضح البيِّن المستقيم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدةً ولَكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات﴾ الآية. أي ولو أراد الله تبارك وتعالى جعلكم أمة واحدة على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ منها شيء لفعل ذلك ولجعلكم أمة واحدة ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده حتى

نسخ الجميع بشريعة عبده ورسوله وأكمل خلقه محمد ﷺ الذي بعثه إلى أهل الأرض قـاطبـة وختم به النبيين ، وقـد شرع عـز وجل الشرائع مختلفـة ليختبر عباده فيما شرع لهم ويثيبهم على طاعته ويعـذبهم على معصيته ، وقد اقتضت حكمته ذلك حيث شرع لكل أمة ما يـلائمهم ، فسارعوا إلى الخيرات وبادروا إلى اكتساب المبرات بطاعـة الله عز وجل وطاعة رسولـه محمد ﷺ فإن مردكم ومصيركم إلى الله عز وجل وسيحاسبكم على ما قدمتم وما أخرتم .

قال تعالى: ﴿وأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بما أَنزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ واحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ. أَفَحكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

بعد أن أثنى الله عز وجل على كتابه الكريم المنزل على نبيه العظيم سيد الخلق وأفضل الرسل ووصَف هذا الكتاب العظيم بأنه مصدق للكتب السماوية ومهيمن عليها حيث اشتمل على ما فيها من الحق الثابت وبيَّن ما ألحقه أحبار السوء بها من التحريف والتغيير والتأويل الفاسد، واحتوى القرآن على جميع ما يحتاجه الناس لمعاشهم ومعادهم إلى يوم القيامة، وأشار إلى علوم الدنيا والآخرة التي لم تذكر في كتاب سماوي سواه كما أقر بذلك المنصفون من غير أتباعه، وقد نقلت الصحف السعودية الصادرة في يوم الجمعة الموافق للثامن من شهر صفر سنة عشر وأربعمائة وألف من الهجرة عن رئيس ألمانيا الغربية أنه ذكر أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي فسر علم الأجنة حيث قالت هذه الصحف: اعترف رئيس جمهورية ألمانيا الغربية «ريتشارد فايتسكر» أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الذي استطاع أن يفسر علم الأجنة، وقال الرئيس الألماني الذي كان يتحدث في ندوة عقدها مع طلبة وطالبات الجامعات الألمانية: إن هذا العلم عجز عن تفسيره العلماء حيث لم يشر إليه غير الكتاب الكريم وهو كتاب الله عز وجل اهـ وبعد ثناء الله عز وجل على هذا القرآن العظيم وأمر نبيه ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهل الملل بهذا الكتاب العظيم وتحذيره ﷺ من اتباع أهوائهم المنحرفة عن الهدى والعدل المائلة إلى الشهوات والشبهات بعد ذلك كله أعاد التأكيد على رسوله سيد البشر محمد ﷺ أن

يلتزم بأحكام هـذا القرآن وأن يحذر من اتباع أهواء أعـداء الله الذين يحرصون على فتنته ﷺ ولـو عن بعض ما أنزل الله، حيث يقول عـز وجل هنا: ﴿وَأَنِ احكُمْ بينهم بما أنزل اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُمْ واحْـذَرْهُمْ أن يَفْتِنُوكَ عن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ أي وأن اقض بينهم بـالقرآن الذي أنزلـه الله عز وجل عليك واتبع تعـاليمـه، ولا تنقـد لآراء وشهـوات الـذين لم ينقـادوا للحق من أهل الكتاب وغيرهم، وكـن على حذر منهم فإنهم يحرصـون على أن يصرفوك عن أحكـام الله وحدوده التي أنـزلت إليك أو عن بعضها إن عجـزوا عن صرفك عن جميعها، وأن في قـوله عـز وجل: ﴿وأن احكم بينهم﴾ مفسرة بمعنى أي كقوله عز وجل: ﴿فأوحينـا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ ومجيء أن في هـذا المقام لتأكيـد وجـوب الحكم بما أنـزل الله حيث اشتمل قـوله تبـارك وتعالى: ﴿وأن احكم بينهم بما أنـزل الله﴾ بعد قولـه تعالى في الآية السـابقة: ﴿فَاحْكُمْ بينهم بما أنـزل الله﴾ على مزيد من تأكيد الحكم بما أنـزل الله، وهو يلفت الانتباه إلى أنه يتحتـم على كل من يريد العدل والإحسـان ألا يحيد قيد أنملة عـن الحكم بكتاب الله، وأن الذيـن في قلوبهم مرض لا يحبـون الحكم بشريعة الله ويحملهم انقيادهم لأهوائهم على محاولة صرف قضاة الشريعة عن التحاكم إليها، والاحتكام بها، وأنهم إن عجزوا عن صرف الناس عن جميعها فسيحـاولـون صرفهم عن بعضهـا، ولـذلك لفت الله عـز وجل الانتبـاه إلى وجـوب مـلازمـة الحكم بما أنــزل الله حيث أورد ذلك بأمـر ونهي وتحذيـر متتـابعـات حيث قـال عـز وجـل: ﴿وأن احكم بينهم بما أنـزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعـض ما أنزل الله إليك﴾ مع ما اشتملت عليه الآية السابقة من لفت الانتبـاه إلى ذلك. وقد نبه الله تبارك وتعالى عباده إلى أن الحكم بغير ما أنزل الله يجلب لمن فعل ذلك أو انقاد له مصائب عاجلة وبلايا ورزايا تنزل بساحتهم حيث يقول عز وجل هنا: ﴿فإن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما

يريدُ اللهُ أن يُصِيبَهُم ببعض ذنوبهم﴾ أي فإن أعرضوا عن الحكم بشريعة الله المنزلة على أفضل خلقه محمد ﷺ فأيقن أن الله عز وجل سيصيبهم بمصائب عقوبـة لهم على بعض ذنوبهم مع ما يـدخره لهم من عـذاب جهنم في الآخرة وفيه إشارة إلى أن بعض الذنوب يعجل الله عقـوبة أهلها مع ما يدخره لهم في الآخرة كالحكم بغير ما أنزل الله ، لأن ذلك يشتمل على البغي على شريعة الله وهـو أفحش البغي ، وقـد روى أبـو داود والترمـذي وقـال : حـديث حسن صحيح من حـديث أبي بكـرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال : مـا من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الـرحم . وقد أشار الله تبارك وتعـالى إلى ذلك حيث يقول : ﴿ياأيها النـاس إنما بَغْيُكُمْ على أنفسكم متـاعَ الحياة الدنيـا ثم إلينا مـرجعكم فَنُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تعملون . ﴾ وقد أشار الله عـز وجل في غير موضع من كتابه إلى أن الحكم بغير ما أنزل الله يجلب على أهله مصائب وبـلايا عاجلة إشعارا بفداحـة جرم تحكيم أهـواء الناس وشهـواتهم والإعراض عن تحكيـم شريعته حيث يقول : ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين يزعمـون أنهم آمنوا بما أُنزِلَ إليك وما أُنزِلَ من قبلك يـريدون أن يتحـاكَمُوا إلى الطـاغـوت وقد أُمِـرُوا أن يكفروا بـه ويريـد الشيطانُ أن يضلهم ضلالا بعيدا * وإذا قيل لهم تَعَـالَوْا إلى ما أنزل الله وإلى الرسـول رأيتَ المنافقين يَصُدُّونَ عنك صدودا * فكيف إذا أصـابتهم مُصِيبَةٌ بما قَدَّمَتْ أَيدِيهِمْ ثم جَاءُوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا * أولَئك الذين يَعْلَمُ اللهُ ما في قلوبهم فأعْرِضْ عنهم وَعِظْهُم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا * وَمَا أرسلنا من رسـول إلا ليطاع بإذن الله ، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جَـاءُوكَ فاسْتَغْفَـرُوا اللهَ واستغفر لهم الـرسولُ لَـوَجَدُوا اللهَ تـوابا رحيما * فـلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجًا ممـا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُـوا تَسْلِيماً﴾ والإرادة في قـولـه عـز وجل : ﴿يـريـدُ اللهُ أن

يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ هي الإرادة الكونيـة القدرية، وفي ذلك لفت انتباه إلى عدله وأنه لا يظلم أحدا، والتعبير بـالبعض في قوله: ﴿ببعض ذنوبهم﴾ إشعار بفـداحة جـرم من يعرض عن تحكيم شريعـة الله، والإشارة إلى أن لهم ذنـوبا كثيرة ولـو يؤاخـذهم الله بجميع ذنوبهم مـا ترك على ظهـرها من دابـة منهم، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿وإنَّ كثيرا من النـاس لَفَاسِقُـونَ﴾ هذه جملـة اعتراضية تذييلية لتقرير مضمون مـا قبلها مشتملة على مواساة رسول الله ﷺ ممـا يـلاقيه من عنت اليهـود وغيرهم، أي وإن كثيرا من النـاس لمتمـردون في الكفر مصرون عليه، خارجـون عن الحدود التي شرعها الله عز وجل لعباده، منحـرفـون عن الحق إلى الضـلال، وعـن النـور إلى الظلمات، نـاكبـون عن الهدى، كما قال عـز وجل: ﴿وما أَكْثَرُ النـاسِ وَلَوْ حَـرَصْتَ بمؤمنين﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿وإن تُطِعْ أَكْثَـرَ مَن في الأرض يضلـوك عن سبيل الله، إن يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلا يَخْرُصُونَ﴾ والكيِّس من الناس من اتبع الحق ولو كان مع رجل واحد، واجتنب الباطل ولـو كان عليه الكثير من الناس، وكما أشار إلى ذلك العليم الحكيم حيث قال: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ وكما قال دواد عليه السلام فيما حكى الله عز وجـل عنه: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصـالحات وقليل مـا هم﴾. ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿أَفَحُكْمَ الجاهليـة يبغون﴾ أي أيريدون التحاكم بأحكام أهل الجاهلية الذين لا يؤمنون بكتاب ولا ينقادون لـرسول، وإنما يبنـون أحكامهم على الهوى والجهـل، والمداهنة، والاستفهام للإنكار عليهم والتعجيب من حالهم، والتوبيخ لهم، فإن التولي عن حكم رسـول الله ﷺ منكـر فظيع عجيب، وطلب حكم الجاهليـة أقبح وأعجب وأغـرب وأعظم كفـرا وأشـد فسقـا وظلما. قـال ابن كثير رحمه الله: وقـولـه تعالى: ﴿أفحكم الجاهليـة يبغـون، ومَنْ أَحْسَنُ من الله حُكْمًا لقـوم يُـوقِنُونَ﴾ ينكـر تعالى على من خـرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل

خير، النـــاهي عن كل شر، وعَـــدَل إلى مـــا ســـواه من الآراء والأهـــواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهليـة يحكمـون بـه من الضـلالات والجهـالات مما يضعـونها بـآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم بـه التتار من السيـاسات الملكيـة المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم (الياسق) وهـو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانيـة والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكـام أخذها من مجرد نظـره وهواه، فصارت في بنيـه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كـافر يجب قتـاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسـوله، فـلا يُحكِّم سواه في قليل ولا كثير، قال تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يَبْغُونَ﴾ أي يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلـون ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ من الله حُكْمًا لقوم يـوقِنُونَ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعـه وآمن به، وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الـوالدة بـولدها، فإنـه تعالى هـو العالم بكل شيء، القـادر على كل شيء، العـــادل في كل شيء اهــــ ولاشك أن الجاهلية لا يـرضى عاقل أن ينقاد لأحكـامها سواء كـانت جاهلية عـربية أو كانت جـاهلية أعجميـة، وسواء كـانت جاهليـة قديمـة أو كانت جـاهلية حديثة، إذ كلها تدور في فلك الهوى والجهل مبتعدة عن المنهج الذي وضعه الحكيم العليم الخبير بطبـائع خلقـه، ومصـالح عبـاده، ومن الـــمُجرَّبات المسلَّمات أن جميع القوانين الوضعية لا بقاء لها ولا دوام ولا شمول ولا تربي في نفوس الناس مـا تربيه شريعة الله في نفـوسهم من النفور من الجرائم في السر والعلن، والغيب والشهـادة، ولـذلك عــد رسـول الله ﷺ فيمن هم أبغض النـاس إلى الله من ابتغى في الإسـلام سنـة الجاهلية، فقـد روى البخـاري في صحيحـه من حـديث ابـن عبـاس رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قـال:

أبغض النـــاس إلى الله ثـلاثـة : ملحـــد في الحرم، ومبتغ في الإســـلام سنـة الجاهلية، ومُطَّلِبُ دم امرئ بغير حق ليهريق دمه .

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، إنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ، فَعَسَى اللهُ أن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ* وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

بعد أن أوضح الله عز وجل انحراف اليهود عن التوراة، وانحراف النصارى عن الإنجيل، وحذر رسوله ﷺ عن اتباع أهوائهم، وشدد النكير على من حكم بغير ما أنزل الله، ووصف من ينحرف عن الحكم بما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ بأنه راغب في حكم أهل الجور والضلال من الجاهليين، معرض عن حكم الله الذي هو أحسن الأحكام وأتقنها وأعدلها وأرحمها وأشملها وأدقها وأبقاها وأنقاها وأوفاها بمصالح العباد والبلاد مما يقر به أهل اليقين والبصيرة، وجه الخطاب هنا للمؤمنين كافة ونهاهم عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وندد بالمنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا وهم يتخذون اليهود والنصارى أولياء حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ أي يامعشر من آمن بالله ورسوله محمد ﷺ وانقاد لأحكام الله وشريعة الإسلام لا تتخذوا اليهود والنصارى بطانة لكم وأحبابا وأنصارا وحلفاء على أهل الإيمان، لأنهم لا يألونكم خبالا ويتمنون عنتكم ومشقتكم، ويحرصون على إلحاق الأذى بكم وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ مسوق لتعليل النهي وتأكيد إيجاب الاجتناب عن المنهى عنه، والمراد أن اليهود مطبقون على عداوتكم لا تجدون يهوديا واحدا يواليكم وأن النصارى مطبقون على عداوتكم لا تجدون نصرانيا

واحدا يواليكم، ومع أن النصارى يعادون اليهود كما أن اليهود يعادون النصارى لكنهم قد اتفقت كلمتهم على عداوتكم ومضارتكم يبذلون كل ما يطيقون في إلحاق الأذى والعنت والغوائل بكم فكيف يليق بمن آمن بالله ورسوله محمد ﷺ أن يوالي من يعادي الله ورسوله ﷺ، وليس المراد أن اليهود أولياء للنصارى ولا أن النصارى أولياء لليهود، وإنما سيق الكلام على سبيل الإجمال تعويلا على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين اليهود والنصارى وأن ذلك من البدهيات المسلمات، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ تحذير شديد من موالاة اليهود والنصارى، وزجر أكيد للمؤمنين عن إظهار صورة الموالاة لهم وإن لم تكن موالاة في الحقيقة، فإن من والاهم صار حريا أن يعد منهم، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن من خالطت قلبه بشاشة الإيمان لا يتأتى منه أن يوالي أعداء الله مهما كان، حيث يقول عز وجل: ﴿لا تَجِدُ قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ولو كانوا آباءَهُمْ أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عَشِيرَتَهُمْ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً، ويُحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسَهُ، وإلى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي إن الله عز وجل اقتضت حكمته وعدله ألا يعين القوم المعتدين على الخير وألا يسددهم وألا يوفقهم إلى الرشد، والمراد بالهداية هنا هي هداية التوفيق والتسديد والإعانة قال أبو السعود العمادي: وقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ لا يهدي القوم الظالمين﴾ تعليل لكون من يتولاهم منهم، أي لا يهديهم إلى الإيمان بل يخليهم وشأنهم فيقعون في الكفر والضلالة، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تنبيها على أن توليهم ظلم، لما أنه تعريض لأنفسهم للعذاب الخالد، ووضع للشيء في غير موضعه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فترى الذين

في قلوبهم مَرَضٌ يُسَارِعُون فيهم يقولـون نَخْشَى أن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ، فَعَسى اللهُ أن يَأْتِيَ بِـالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِن عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا على مـا أَسَرُّوا في أنفُسِهِمْ نادِمِينَ﴾ مـزيـد تشنيع على من يتـولى أعـداء الله وينحـرف عن رسـول الله ﷺ وعن المؤمنين، وبيـان لذبـذبة هـؤلاء الـذين لا يميلون للحق ولا يتبعـون الهدى، وإنما يـوالون اليهـود والنصارى وينـدفعـون في الالتصاق بهم تـوهما منهم أن الدولة ستكون لهم، وأن المال والغنى بأيديهم، وقد خابوا وخسروا، فنصر الله عـز وجل رسولـه والمؤمنين، وأذل اليهود والنصـارى والمنافقين، والمخـاطب بقوله عز وجل: ﴿فتَرَى الذين في قلـوبهم مرض يسارعون فيهم﴾ هو رسول الله ﷺ وكل من يتأتى منه أن يخاطب بهذا الخطاب، والذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، فالمراد بالمرض النفـاق الذي يصيب القلب فيكون أخطر عليه من جميع الأمراض الحسية التي تصيـب القلب اللحمي الصنوبري الشكل، ومعنى: ﴿يسارعون فيهم﴾ أي يندفعون في موالاتهم والالتصاق بهم والتودد إليهم وإظهار محبتهم، وقوله عـز وجل: ﴿يقولون نَخْشَى أن تُصِيبَنَا دائرةٌ﴾ أي يقول هـؤلاء المنافقون في تعليل انـدفاعهم في موالاة اليهـود، والنصارى: إننـا نتولاهـم ونتـودد إليهم مخافة أن تـدور علينـا الدوائر وأن يصيبنـا الدهـر بمكروه وأن يجور علينا الزمان لأنه إذا أصابنا شيء من ذلك كانت لنا يد عند اليهود والنصارى فيدفعون الشر عنا ويمدون يـد العون والمساعدة لنا، وهذا ولا شك بسبب مرض قلـوب هؤلاء المنافقين وعدم يقينهم بنصرة الله لـرسوله ﷺ وللمـؤمنين، ولـذلك عجل الله مسـاءة هـؤلاء المنـافقين ببيـان أن الفتح قريب وأن الغلبـة والعزة لله ولـرسولـه وللمؤمنين، وأن المنافقين لـن يفروا من عقوبة الله حيث يقـول تبارك وتعالى: ﴿فَعَسَى اللهُ أن يَأْتِيَ بـالفتح أو أمرٍ من عنـده فَيُصْبِحُـوا على مـا أَسَرُّوا في أنفسهم نـادمين﴾ أي فلعل الله أن يجيء لرسـوله ﷺ وللمؤمنين بـالنصر من عنده أو عقوبـة تنزل باليهـود والنصارى

وتخزي المنافقين حتى يصيروا مفعمين حسرة وندما بعد زوال ما تعلقوا به، وتُنَبِّهُ الغافلين إلى أن حزب الله هم الغالبون، وأن وعد الله حق حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولقد سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لعبادنا المرسلين * إنهم لَهُمُ المنصورون * وإن جُنْدَنا لَهُمُ الغالبون﴾ وقد صدق الله وعده، ونصر رسوله وجاء بالفتح لعباده المؤمنين، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وارتفعت راية الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، في وقت قصير من ظهور الإسلام، حتى قال هارون الرشيد وقد رأى سحابة تمر من فوق رأسه: سيرى أينما شئت، وامطري أينما شئت فسيأتيني خراجك، ولا يزال اسم الإسلام عزيزا ولله الحمد والمنة، وسيستمر عزيزا كما أخبر بذلك الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى حبيب الله ورسوله وسيد خلقه وأفضل رسله محمد ﷺ فيما رواه البخاري في صحيحه من حديث معاوية رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله. وفي لفظ للبخاري من حديث معاوية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون. وفي لفظ للبخاري من حديث معاوية رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك. وفي لفظ للبخاري من حديث المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون. كما روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك. وفي لفظ لمسلم من حديث المغيرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم

أمر الله وهم ظاهـرون. وفي لفـظ لمسـلم من حديث معاويـة رضـي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لاتزال طـائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خـالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهـرون على الناس، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿وَيَقُـولُ الذين آمنوا أَهـٰؤُلاءِ الذين أَقْسَمُوا بـالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فأَصْبَحُوا خَـاسِرِينَ﴾ استئناف لبيان ما صار إليـه المؤمنون من العزة والثبات على الحق، ومـا صار إليه المنـافقون من الحسرة والنـدامـة والخسران، وتعجب المؤمنين من جـرأة المنـافقين في الحلف بالله كذبـا بأنهم مؤمنون وأنهم مع المسلمين وتأكيد أيمانهم الفـاجرة بألوان من التأكيد إمعانا في إخفاء نفاقهم، ففضحهم الله، وأخبر عز وجل أن المنافقين قد خسروا صفقتي الدنيا والآخرة إذ أبطل الله عـز وجل ما بذلوه من صلاة أو زكـاة أو أعمال برٍّ، لأنها لم تكن لله عـز وجل وإنما كـانت ريـاء ونفـاقا، وقـد قضى الله عز وجل أنـه لا يقبل من أحد عملا إلا إذا كـان خالصا لـوجه الله وصـوابا على منهـج رسول الله ﷺ. والمشـار إليـه في قولـه: ﴿أهـٰؤلاء﴾ هم المنافقون، ومعنـى: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي غاية اجتهادهم فيهـا حيث حلفوا بأغلظ الأيمان وأكدوها بأنواع التأكيد، قـال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تبـارك وتعـالى: ﴿حَبِطَتْ أعمالُهم فأصبحـوا خـاسرين﴾: يقـول الله تعـالى ذكـره، مخبرًا عن حالهم عنـده بنفـاقهم وخبث أعمالهم: ﴿حَبِطَتْ أعمالهم﴾ يقـول: ذهبت أعمالهم التي عملوهـا في الدنيـا باطـلا لا ثواب لها ولا أجـر، لأنهم عملـوهــا على غير يقين منهم بأنها عليهم لله فـرض واجبٌ، ولا على صحـة إيمان بـالله ورسولـه، وإنما كـانـوا يعملونها ليـدفعـوا المؤمنين بها عن أنفسهم وأمـوالهم وذراريهم، فأحبط الله أجرهـا، إذ لم تكن له، ﴿فَـأَصْبَحُوا خاسرين﴾ يقـول: فأصبح هؤلاء المنـافقون عند مجيء أمـر الله بإدالة المؤمنين على أهل الكفـر، قد وكسوا في شرائهـم الدنيا بـالآخرة، وخـابت صفقتهـم، وهلكوا. اهـ.

قال تعالى: ﴿ياأيها الذين آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ على المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هم الْغَالِبُونَ. يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا من الذين أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ والْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ، وَاتَّقُوا اللهَ إن كُنتُم مُؤْمِنِينَ. وإذا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾.

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى وحذرهم أشد التحذير من ذلك، وندَّد بالمنافقين الذين يوالون أعداء الله وينحرفون عن رسول الله ﷺ وعن المؤمنين ويندفعون في الالتصاق باليهود والنصارى توهماً منهم أن الدولة ستكون لأعداء الله ورسوله، وقطع عز وجل أطماع أعدائه ووعد رسوله ﷺ والمؤمنين بالفتح والنصر، وأشار إلى أن موالاة أعداء الله سبب من أسباب الارتداد عن الإسلام، شرع في بيان حال المرتدين على الإطلاق، تنبيها منه عز وجل لعباده بأن من يرتد عن دين الإسلام لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا، وتربيةً لملَكَة الطمأنينة في نفوس المؤمنين عندما يواجهون ردة فردية أو جماعية فيستيقنون أن هذه الردة كسحابة صيف لا تلبث أن تزول، وذلك لما سبق في علم الله عز وجل أنه سيرتد فئام من الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا من يَرْتَدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لَوْمَةَ لائِمٍ.﴾ وهذا شبيه بقوله عز وجل: ﴿وإن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.﴾ قال ابن

جـرير رحمه الله في تفسير هـذه الآية : وكـان هـذا الوعيـد من الله لمن سبق في علمه أنه سيرتد بعد وفاة نبيـه محمد ﷺ، وكذلك وعده من وعد من المؤمنين ما وعـده في هذه الآية لمن سبق في علمـه أنه لا يبدل ولا يغير دينه ولا يـرتد، فلما قبض الله نبيه ﷺ ارتد أقوام من أهل الوبر وبعض أهل المدر، فأبدل الله المؤمنين بخير منهم كما قال تعالى ذكره، ووفى للمـؤمنين بوعده، وأنفذ فيمن ارتد منهم وعيده اهـ وقد أشار الله تبـارك وتعالى إلى أن مصادقة أهل الكتاب قد تؤدي إلى الردة عن دين الإسلام حيث يقول عز وجل : ﴿ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقـا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كـافرين﴾ قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم : وفي هذه الآيـة الإشارة إلى التحـذير عن مصـادقة أهـل الكتاب إذ لا يُـؤْمَنُون أن يفتنـوا من صادقهم عن دينـه اهـ والردة الخروج من الإسـلام، والكفرُ بعـد الإيمان بارتكـاب ما ينقض الإسـلام كالشرك بـالله أو السجود لـلأصنام، أو الذبح لغير الله، أو كمن جحد الربوبيـة أو الألوهية أو اعتقد أن لله صاحبة أو ولدا، أو أن الله حل في أحد من خلقـه أو اتحد به، أو ادعى أن العبد رب أو أن الرب عبدٌ كأهل وحدة الوجود أو كذب بكتب الله أو ملائكته أو رسله أو اليوم الآخـر أو القدر خيره وشره أو ادعى النبوة أو صدق من ادعـاها، أو استهزأ بـالله أو رسوله أو كتـابه، أو كـان مبغضاً لرسـول الله ﷺ أو أنكر أن يكون أبو بكر صـاحبا لرسول الله ﷺ أو رمى الصديقة بنت الصـديق عائشة أم المؤمنين وقد برأهـا الله عز وجل في كتابه، أو أنكر شيئـاً يُعلم بالضرورة أنه من دين الإسلام أو اعتقد أن الأحكام الوضعية أحسن من الأحكام الشرعية، وقوله تبـارك وتعالى : ﴿فَسَوْفَ يأتي الله بقوم يُحِبُّهُمْ ويحبـونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبل الله ولا يخافون لَوْمَةَ لائـم﴾ تقرير وتأكيد لبيان أن من ارتد عن الإسلام لا يضر الإسلام شيئا ولايضر إلا نفسه بحرمانها

من السعادة وسيظهر الله عز وجل للإسلام من يجاهد في سبيل إعلائه ويقيم الله عز وجل من يؤمن بما جاء به رسول الله ﷺ وينصر دينه، وأن هذا الأمر سيستمر إلى قيام الساعة كما قال عز وجل: ﴿فإن يَكْفُرْ بها هـٰؤلاء فقد وكَّلْنَا بها قوما ليسوا بها بكافرين.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إلا تنفروا يُعَذِّبْكُمْ عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا،﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين﴾ أي أرقاء رحماء متواضعين بينهم أشداء على الكفار لا يذلون لهم ولا يستكينون أمامهم، كما قال عز وجل: ﴿محمد رسول الله، والذين معه أَشِدَّاءُ على الكفار رُحَمَاءُ بينهم﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ أي يبذلون جهدهم لإعلاء كلمة الله ونصرة دين الإسلام ويقولون الحق ولو كان مُرًّا، ولا يمنعهم من طاعة الله وإقامة حدوده عَذْلُ عاذلٍ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقومون بالقسط استجابة لأمر الله عز وجل حيث يقول: ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامينَ بالقسط شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين.﴾ وكما قال عز جل: ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أَلا تَعْدِلُوا،﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذٰلِكَ فَضْلُ الله يؤتيه مَنْ يشاء، والله واسع عليم﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله: ﴿ذٰلك فَضْلُ الله﴾ فإنه يعني هذا النعت الذي نعتهم به تعالى ذكره، من أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون في الله لومة لائم، فضل الله الذي تفضل به عليهم، والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه منة عليه وتطولا، ﴿والله واسع﴾ يقول: والله جواد بفضله على من جاد به عليه، لا يخاف نفاد خزائنه فتتلف في عطائه، ﴿عَلِيمٌ﴾ بموضع جوده وعطائه، فلا يبذله إلا لمن استحقه، ولا يبذل لمن استحقه إلا على قدر المصلحة، لعلمه بموضع صلاحه له من

موضع ضره اهـ، وقـوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُـهُ والذين آمنوا الـذين يقيمون الصـلاة ويـؤتون الـزكاة وهم راكعـون﴾ تأكيـد آخر في تنبيـه المؤمنين وتعريفهم بمـن يتولونـه، وتحذير لهم من ولايـة أعداء الله، قـال أبو السعـود العمادي في تفسير هـذه الآيـة: لما نهاهـم الله عـز وجل عن مـوالاة الكفرة، وعلله بأن بعضهم أوليـاء بعض لا يتصور ولايتهم للمؤمنين، وبيَّن أن من يتولاهـم يكون من جملتهم، بيَّن ههنا من هو وليهم بطريق قصر الولاية عليـه، كأنـه قيل: لا تتخذوهـم أولياء لأن بعضهم أوليـاء بعض، وليسـوا بأوليـائكم، إنما أوليـاؤكم الله ورسولـه والمؤمنـون فاختصـوهم بـالموالاة، ولا تتخطوهم إلى غيرهم، وإنما أفرد الولي مع تعدده للإيذان بأن الولاية أصالة لله تعـالى، وولايته عليـه السلام وكـذا ولاية المؤمنين بطـريق التبعية لـولايته عـز وجل، ﴿الذين يقيمون الصـلاة ويُؤْتُونَ الزكاةَ﴾ صفة للذيـن آمنوا، لجريانه مجرى الاسم أو بدل منه أو نصب على المدح أو رفع عليه، ﴿وهم راكعون.﴾ حال من فاعل الفعلين، أي يعملـون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتـاء الزكاة وهم خاشعـون ومتواضعـون لله تعالى اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وقـولـه تعـالى: ﴿إنما وليكم الله ورسـولـه والـذين آمنـوا﴾ أي ليس اليهـود بأوليائكم بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين وقوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة ويـؤتون الـزكاة﴾ أي المؤمنـون المتصفون بهذه الصفـات، من إقـامة الصـلاة التي هي أكبر أركان الإسـلام وهي عبـادة الله وحده لا شريك لـه، وإيتاء الـزكاة التي هـي حق المخلوقين ومسـاعدة للمحتاجين مـن الضعفاء والمسـاكين، وأما قـوله: ﴿وهم راكعـون﴾ فقد تـوهم بعض الناس أن هـذه الجملة في مـوضع الحال من قوله: ﴿ويـؤتون الزكاة﴾ أي في حـال ركوعهم، ولو كـان هذا كـذلك لكان دفع الـزكاة في حـال الركوع أفضـل من غيره لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحـد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى

اهـ وما ذكره بعض المفسرين من أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ مر به سائل وهو راكع فتصدق عليه فنزلت هذه الآية فهو غير سديد، إذ لم يثبت ذلك بخبر صحيح، والعلم عند الله عز وجل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ زيادة حض على ولاية الله ورسوله والمؤمنين بتأكيد أن من تولى الله ورسوله والذين آمنوا كان من حزب الله، وقد قضى الله عز وجل أن يكون حزبه هو الغالب، وفي ذلك تحذير عظيم من موالاة أعداء الله، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿ومن يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ قال أبو جعفر: وهذا إعلام من الله تعالى ذكره عباده جميعا: الذين تبرأوا من حلف اليهود وخلعوهم رِضًى بولاية الله ورسوله والمؤمنين، والذين تمسكوا بحلفهم وخافوا دوائر السوء تدور عليهم، فسارعوا إلى موالاتهم: أن من وثق بالله وتولى الله ورسوله والمؤمنين ومن كان على مثل حاله من أولياء الله من المؤمنين لهم الغلبة والدوائر والدولة على من عاداهم وحادهم، لأنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون دون حزب الشيطان اهـ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يتولَّ اللهَ ورسوله والذين آمنوا فإنَّ حزب الله هم الغالبون﴾ ألوان من البيان وأساليب الفصاحة والبلاغة والبرهان العقلي ما تتطامن أمامه رءوس الفصحاء ويعترف بالعجز عن مجاراته أئمة البلغاء، وشيوخ العقلاء، وأرباب البراهين، فمقتضى السياق أن يقال: ومن يتوهم لأنه تقدم ذكرهم في الآية السابقة، لكن مقتضى الحال اقتضى وضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى أن ولاية الله هي الأصل وولاية رسول الله ﷺ وولاية المؤمنين هي تبع لولاية الله عز وجل، ولذلك جعل الله رسوله والمؤمنين حزبا، وأضافه إليه تبارك وتعالى حيث قال: ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾ وكان مقتضى السياق أيضا أن يقال: فإنهم الغالبون

لكن مقتضى الحال اقتضى المجيء بـالاسم الظـاهـر مـوضع الضمير للتنصيص على أنهم حزب الله تعظيما لهم، وإثباتاً لغلبتهم بالطريق البرهاني كأنه قيل: ومن يتول هـؤلاء فهو معهم وهم جميعا حزب الله، فلهم الغلبة والنصر على أعدائهم لأن حزب الله هم الغالبون. فقد اشتمل الكلام على دليل برهاني حذف من مقدماته ما دل عليه المقام. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتُوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياءَ﴾ الآيتين. تنفير من موالاة أعداء الإسلام سواء كانوا كتابيين أو مشركين غير كتابيين الذين يستهزئون بشرائع الإسلام عموما وبالصلاة والأذان خصوصا ويعدون هذه الشرائع لعباً لأن بصائرهم منطمسة، وعقولهم فاسدة ولذلك ذيل الله تبارك وتعالى هذا المقام بقوله: ﴿ذٰلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقمـونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنـزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ. قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ، مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ، أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ. وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ. وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمِ السُّحْتَ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

بعد أن حكى الله عز وجل عن أهل الكتاب أنهم اتخذوا دين الإسلام هُزوًا ولعباً مما ينفر من ولايتهم أشد التنفير. أمر نبيه محمدا ﷺ أن يوجه الخطاب إلى أهل الكتاب يسألهم: ماذا تعيبون من دين الإسلام؟ وما الذي يحملكم على اتخاذه هزوا ولعبا؟ ولماذا تحقدون علينا؟ هل في سلوكنا ما يدعوكم إلى أن تكرهونا وتسخطوا علينا؟ نحن لا نعلم شيئا حملكم على بغضنا إلا أننا آمنا بالله وكتبه ورسله وأن أكثركم قد فسق عن الإيمان بالله وكتبه ورسله، فأي الفريقين يستحق أن يبغض ويكره؟ الفريق المؤمن بالله وكتبه ورسله المنقاد لشرعه، أم الفريق الفاسق عن أمر الله، المكذب لرسل الله وكتب الله، الذين لعنهم الله وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وقد عبدوا الطاغوت الذي أمروا أن يكفروا به؟ هذه صورتنا، وهذه صورتكم فأي الفريقين يستحق أن ينقم منه وأن يكره ويحقد عليه؟ وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿قُلْ ياأَهْلَ الكتاب هل تَنقِمُونَ منا إلا أَنْ آمنا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزل من قَبْلُ وَأَنْ أكثركم فَاسِقُونَ﴾ أي قل يا محمد للمنتسبين للتوراة وللمنتسبين للإنجيل المصرين على الفسق والكفر والعداوة لرسول الله ﷺ وللمسلمين: هل تعيبون علينا شيئا سوى استمساكنا بالإيمان بالله وكتابه المنزل على محمد ﷺ

وسائر الكتب السماوية السابقة، وأننا لم نتبعكم على فسقكم ولم نسلك سبيلكم المنحرف المعوج حيث تؤمنون ببعض وتكفرون ببعض، وإيراد السؤال على هذا الأسلوب هو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم وهو أسلوب من أساليب البديع كقوله عز وجل: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. ﴾ ومن أمثلة تأكيد المدح بما يشبه الذم قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وكقول الشاعر:

ولا عيب فيه غير أني قصدته ... فأنستني الأيام أهلا وموطنا

وكقول الشاعر:

فتى كملت أوصافه غير أنه ... جواد فما يبقى من المال باقيا

وكقول الشاعر:

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم ... تعاب بنسيان الأحبة والوطن

وكقول الشاعر:

ولا عيب في معروفهم غير أنه ... يبين عجز الشاكرين عن الشكر

وكقول الشاعر:

ليس به عيب سوى أنه ... لا تقع العين على شبهه

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل هل أُنبِّئُكم بِشَرٍّ من ذَٰلِكَ مَثُوبةً عند الله، من لَعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عَلَيْه وجَعَل مِنْهُم الْقِرَدَةَ والْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ، أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السبيل﴾ شرح لبيان ألوان فسقهم، وما استوجبوه من لعنة الله لهم، وغضبه عليهم وقد مسخ بعضهم قردة وخنازير، وخذلهم حتى عبدوا الطاغوت، فهل في الناس من هو شر من هؤلاء؟ وهل يليق بعاقل أن يتولاهم وأن يتودد إليهم وأن يرضى بأن يعد منهم؟ ومعنى قوله عز وجل: ﴿قل هل أُنبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ، من لَعَنَهُ الله وَغَضِبَ

عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوتَ، أولَئك شَرٌّ مَكَانًا وأَضَلُّ عن سَوَاءِ السبيل﴾ أي قل يامحمد معلنا لأوليائك الذين لا يوالون إلا الله ورسوله والمؤمنين ولأعدائك الذين ينحرفون بولايتهم عن الله ورسوله والمؤمنين: هل أخبركم بشر الناس جزاء عند الله يوم القيامة؟ وكأن سائلا سأل: من هم شر الناس جزاء عند الله يوم القيامة؟ فكان الجواب هم من أبعدهم الله عن رحمته، وسخط عليهم، وعاقبهم عقوبة عاجلة لم يعاقب أحدا ممن سبق من الناس بمثلها حيث مسخهم قردة وخنازير، وخذلهم فعبدوا الطاغوت وقد علموا أنه يجب الكفر بالطاغوت، فهؤلاء هم شر خلق الله من بني آدم وهم أبعد خلق الله عن الصراط المستقيم، وهذه هي صفات اليهود المعلومة بالضرورة، فهي كناية عنهم، ولم يصرح بذكر اليهود لكبتهم عن تهييج لجاجهم، وقد أشار الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه الكريم إلى أنه مسخ بعض اليهود قردة وخنازير أي جعل بعضهم قردة وبعضهم خنازير حيث قال عز وجل في سورة البقرة: ﴿ولقد عَلِمْتُمُ الذين اعْتَدَوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قِردَةً خاسئين * فجعلناها نكَالا لما بين يَدَيْهَا وما خَلْفَهَا ومَوْعِظَةً للمتقين﴾ وقال عز وجل في سورة الأعراف: ﴿فلما عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عنه قُلْنَا لهم كونوا قِرَدَةً خاسئين﴾ وذكر عز وجل في هذا المقام من سورة المائدة أنه جعل منهم القردة والخنازير، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل يارسول الله: القردة والخنازير هي مما مسخ؟ فقال النبي ﷺ: إن الله عز وجل لم يهلك قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك. وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن الله تبارك وتعالى سيمسخ قوما قردة وخنازير قبل يوم القيامة عقوبة عاجلة لهم في الدنيا لاستحلالهم كبائر الفواحش فقد روى البخاري في صحيحه من طريق عبد الرحمن بن

غنم الأشعري قال: حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري والله ما كذبني: سمع النبي ﷺ يقول: ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ولينزلن أقوام إلى جنب علَم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم يعني الفقير لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غدًا، فيبيتهم الله، ويضع العلَم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا جَاءُوكُمْ قالوا آمَنَّا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به، واللهُ أَعْلَمُ بما كانوا يكتمون﴾ بيان لقبيحة أخرى من قبائحهم، وتقرير لذبذبتهم وترددهم وعدم ثباتهم على ما قد يتلفظون به في مجلس رسول الله ﷺ أو في مجالس المسلمين من دعواهم أنهم مؤمنون قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به، واللهُ أعلم بما كانوا يكتمون﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا جاءكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون من اليهود قالوا لكم: ﴿آمَنَّا﴾ أي صدقنا بما جاء به نبيكم محمد ﷺ واتبعناه على دينه، وهم مقيمون على كفرهم وضلالتهم، قد دخلوا عليكم بكفرهم الذي يعتقدونه بقلوبهم، ويضمرونه في صدورهم، وهم يُبدُون كذبا التصديق لكم بألسنتهم: ﴿وهم قد خرجوا به﴾ يقول: وقد خرجوا بالكفر من عندكم كما دخلوا به عليكم، لم يرجعوا بمجيئهم إليكم عن كفرهم وضلالتهم، يظنون أن ذلك من فعلهم يخفى على الله، جهلا منهم بالله، ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ يقول: والله أعلم بما كانوا - عند قولهم لكم بألسنتهم -: آمنا بالله وبمحمد وصدقنا بما جاء به، يكتمون منهم بما يضمرونه من الكفر، من أنفسهم اهـ يعني رحمه الله: والله أعلم منهم بأنفسهم فلا يخفى عليه ما يضمرونه من كفرهم. وقال ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ وهذه صفة المنافقين منهم، أنهم يصانعون المؤمنين في الظاهر، وقلوبهم

منطوية على الكفر، ولهذا قال: ﴿وقد دخلوا﴾ أي عندك يامحمد ﴿بالكفر﴾ أي مستصحبين الكفر في قلوبهم، ثـم خرجوا وهو كامـن فيها، لم ينتفعوا بما قـد سمعـوا منك من العلم، ولا نجعـت فيهم المواعظ ولا الـزواجـر، ولهذا قال: ﴿وهم قـد خرجوا بـه﴾ فخصهم به دون غيرهم، وقولـه تعالى: ﴿واللهُ أعلمُ بما كانـوا يكتمون﴾ أي عالم بسرائرهم وما تنطـوي عليه ضمائرهم، وإن أظهروا لخلقـه خلاف ذلك وتزينوا بما ليس فيهم، فإن عـالم الغيب والشهدة أعلم بهم منهم، وسيجـزيهم على ذلك أتم الجزاء اهـ وقـولـه تبارك وتعـالى: ﴿وَتَرَى كثيرا منهم يُسَـارِعُونَ في الإثم والعُـدْوَانِ وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِئْسَ ما كانـوا يَعْمَلُونَ﴾ بيـان لقبائح أخـرى من قبائح اليهـود لتقريـر اندفـاعهم في المعاصي، واستغـراقهم في الآثام، وأكل السحت من الـربا والـرشوة وغيرهما من الأمـوال المحـرمـة، والخطـاب لـرسـول الله ﷺ أو لكل من يتأتى لـه أن يخاطب بهذا الخطاب، والتعبير بقـوله: ﴿وترى﴾ للإشـارة إلى ظهور حالهم وانكشـاف سوء سلـوكهم حتى يستطيع المخـاطب أن يعـاين منهم بسهولـة اندفـاعهم في المعاصي واستغـراقهم في الآثام، وحـرصهم على أكل السحت الذي تأكل النار الأجساد التي نبتت منـه، ولاشك أن من كانت هذه حاله، وتلك خصاله فإنه بعيد عن قبول الخير، قريب من كل شر، ولذلك أقسم الله عز وجل على سـوء عملهم حيث ذيل هذه الآيـة الكريمـة بقولـه عز وجل: ﴿لبئس ما كـانوا يعملـون﴾ قال ابن جريـر رحمه الله: يقول الله تعـالى ذكره: ﴿لبئس ما كـانوا يعملون﴾ يقـول: أقسم لبئس العمل ما كان هـؤلاء اليهود يعملـون في مسارعتهم في الإثم والعـدوان، وأكلهم السحت اهــ وقد أشـار رسـول الله ﷺ إلى أن اليهـود كـانـوا يحتـالـون للحصـول على الحرام بكل مـا يستطيعون من الوسائل وطرق الاحتيال، فإنهم لما حرمت عليهم شحوم البقر والغنم عمدوا إلى إذابتها وبيعها وأكل ثمنها، فقد روى البخاري ومسلم من

حـديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قـال : قاتل الله اليهـود ، حرمت عليهم الشحـوم ، فجملوها ، فبـاعوهـا . وفي لفظ للبخاري ومسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال : قاتل الله يهود ، حرمت عليهم الشحوم ، فباعوها وأكلوا ثمنها .

قـال تعالى: ﴿لَـوْلا يَنْهَاهُمُ الـرَّبَّانِيُّـونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَـوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِئْسَ مَـاكَانُـوا يَصْنَعُـونَ. وَقَالَتِ الْيَهُـودُ يَـدُ اللهِ مَغْلُولَـةٌ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَـالُوا، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَـاءُ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْـكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا، وَأَلْقَيْنَـا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلى يَوْمِ القِيَـامَةِ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَـارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَـا اللهُ، وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا، واللهُ لا يُحِبُّ المفسدين﴾.

بعد أن أوضح عـز وجل الفرق بين سلوك المؤمنين المستجيبين لـرسول الله ﷺ وسلوك أهل الكتاب وبخاصـة اليهود منهم وبيّن انحرافهم عن الصراط المستقيم وأن أكثـرهم فاسقـون، وأن الله لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم قردة وخنازيـر وأنهم عبدوا الطاغوت وأنهم قـد شاع فيهم الانغماس في الإثم والعدوان وأكل السحت وجه هنا عتـابا لفقهائهم وعلمائهم على تقصيرهم في نهيهم عن قـولهم الإثم وأكلهم السحت مشيرا إلى أن هؤلاء اليهـود قد مَـرَدُوا على قول الإثم وأكل السحت، وأن هذا صار صناعة لهم ثم أضاف إلى ذلك أنهم قـد قالـوا على الله عز وجل قـولا قـد بلغ في الدلالـة على سوء سلـوكهم وخبث نفوسهـم وسفاهة عقـولهم مبلغا لم يعرف في أهل الجاهلية نظيره حيث قالوا: يد الله مغلولة، وقد قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، ثم أشار إلى أنهم يعملون على إشعـال نار الحروب والسعي في الأرض بالفسـاد وفي ذلك يقول تبـارك وتعالى: ﴿لـولا ينهاهم الـربانيـون والأحبار عن قـولهم الإثم وأكلهم السحت، لبئس ما كـانوا يصنعـون﴾ إلى قوله تبـارك وتعالى: ﴿والله لا يُحِبُّ المفسديـن﴾ وقد صـدَّر الله تبارك وتعالى هـذا المقام بحـض الفقهاء والعلماء على الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه إشـارة إلى تحمل الفقهاء والعلماء مسئـولية تـوجيـه أممهم وشعوبهم إلى الخير عنـدمـا يـرون منهم انحرافًـا عن

الصراط المستقيم، وأن عليهم أن يحذروهم من الوقوع في المعاصي التي تجلب عليهم سخط الله وعقوبته، وفي قوله عز وجل: ﴿لَبِئْسَ ما كانوا يَصْنَعُونَ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء اليهود قبحهم الله قد مردوا على قول الإثم وأكل السحت حتى صار صناعة لهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ولُعِنوا بِمَا قَالُوا، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ شروع في بيان قبائح أخرى من قبائح اليهود البشعة التي لم يشاركهم فيها حتى أهل الجاهلية إذ قال هؤلاء اليهود لعنهم الله: ﴿يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة بأنهم وصفوه ـ تعالى عن قولهم علوّاً كبيرا ـ بأنه بخيل، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء، وعبروا عن البخل بأن قالوا: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ اهـ وقد استعمل القرآن العظيم التعبير باليد المغلولة كناية عن البخل والشح كما استعمل اليد المبسوطة في الكناية عن البذل والإنفاق، والجود والعطاء، فإذا كان المنفق قد بلغ حد الإسراف والتبذير قيل: بسط يده كل البسط، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَل يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ وقد رد الله تبارك وتعالى على هؤلاء المجرمين مقالتهم، وقابلهم فيما اختلقوه وتفوهوا به فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بما قالوا، بل يَدَاه مَبْسوطتان يُنفِق كَيْفَ يشاء﴾ قال ابن كثير رحمه الله: وقد رد الله عز وجل عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه، فقال: ﴿غُلَّتَ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمراً عظيماً كما قال تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذًا لا يُؤْتُونَ النَاسَ نَقِيرًا * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّةُ﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿بل يداه مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء،

الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، وهو الذي ما يخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه، في ليلنا ونهارنا، وحضرنا وسفرنا، وفي جميع أحوالنا، كما قال: ﴿وآتاكُمْ مِن كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ، وإن تَعُدُّوا نِعْمَتَ الله لا تُحْصُوهَا، إنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ والآيات فيها كثيرة، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحَّاءُ الليلَ والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض مافي يمينه، قال: وعرشه على الماء، وفي يده الأخرى الفيض يرفع ويخفض، وقال: يقول الله تعالى: أَنفِق أُنْفِقْ عليك. أخرجاه في الصحيحين: البخاري في التوحيد عن علي بن المديني، ومسلم فيه عن محمد بن رافع كلاهما عن عبد الرزاق به اهـ والذي في البخاري في التوحيد من طريق علي بن المديني بدل قوله: «فإنه لم يغِضْ ما في يمينه» فإنه لم يَنْقُصْ مافي يمينه. وقد أورده البخاري أيضا في التوحيد عن أبي اليمان أخبرنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة: وفيه: فإنه لم يغض ما في يده، وقال: عرشه على الماء، وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع. وأما زيادة: يقول الله تعالى: أنفق أنفق عليك. فليست عند البخاري في التوحيد وإنما أوردها في تفسير سورة هود من طريق أبي اليمان. ورواية مسلم من طريق محمد بن رافع إنما أوردها مسلم في كتاب الزكاة بلفظ: وقال رسول الله ﷺ: إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك، وقال رسول الله ﷺ: يمين الله ملأى، لا يغيضها، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغض مافي يمينه، قال: وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض يرفع ويخفض. وفي بعض نسخ مسلم: وبيده الأخرى القبض، كما أن في رواية البخاري عن علي بن المديني: وبيده الأخرى

الفيض أو القبض. والمراد بالفيض: الإحسان والإعطاء الواسع والمراد بالقبض التقدير، كما قال عز وجل: ﴿يَبْسُطُ الرزقَ لمن يشاء ويَقْدِرُ﴾. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ دليل قطعي يستدل به أهل السنة والجماعة على إثبات اليدين لله عز وجل من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل ولا تأويل. فإنه عز وجل ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ قال الإمام محيي السنة الحسين بن مسعود الفراء أبو محمد البغوي في تفسير قوله عز وجل: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾: ويد الله صفة من صفات ذاته كالسمع والبصر والوجه. وقال جل ذكره: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وقال النبي ﷺ: كلتا يديه يمين. والله أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كثيرًا منهم مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن ربِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ بيان لقبيحة أخرى من قبائحهم لعنهم الله، وبرهان على انتكاس فطرتهم، وانقلاب الموازين عندهم، فبدل أن يسارعوا إلى الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وأن يستضيئوا بنوره ويهتدوا بهداه صاروا كلما أنزلت آية كفروا بها فازدادوا بذلك كفرا وطغيانا قال ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كثيرا مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ من ربك طغيانا وكُفْرًا﴾ أي يكون ما آتاك الله يامحمد من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقا، وعملا صالحا، وعلماً نافعاً، يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك طغياناً وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء، وكفراً أي تكذيبا، كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هُدًى وَشِفَاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِم عَمًى، أولَئك ينادون من مكان بعيد﴾ وقال تعالى: ﴿ونُنَزِّلُ من القرآن مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمؤمنين وَلا يَزِيدُ الظالِمِينَ إلا خَسَارًا.﴾ اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى سبب انتكاس القلوب حتى تكره الإيمان وتحب الكفر وبيَّن أن سبب ذلك هو التكبر في

الأرض بغير الحق حيث يقول عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عن آيَاتِيَ الذين يَتَكَبَّرُون في الأرض بغير الحق وإن يَرَوْا كُلَّ آيَـةٍ لا يُؤْمِنُـوا بِهَا وإن يروْا سَبِيلا الـرُّشْدِ لا يتخذوه سبيلا، وإن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً، ذُلك بأنهم كَذَّبوا بآياتنا وكانوا عنا غافلين﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وأَلْقَيْنَا بينهم العَدَاوَةَ والبَغْضَـاءَ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بيان آخر لقبيحـة أخرى من قبائحهم وتأكيد على فساد قلوبهم وأنها مليئـة بالحقـد والحسد والضغينـة ليس ذلك على المسلمين وحـدهم بل إنهم يبغض بعضهم بعضا ويحسد بعضهـم بعضا ويحقد بعضهم على بعض كما ذكـر ذلك تبارك وتعـالى في حق النصـارى حيث قـال: ﴿فأغرينـا بينهم العداوة والبغضـاء إلى يوم القيـامة﴾ وقـال هنا في حق اليهـود ﴿وألقينا بينهم العـداوة والبغضاء إلى يـوم القيـامـة﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿بـأْسُهُمْ بينهم شدِيدٌ، تَحْسَبُهُمْ جميعا وقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا للحرب أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ هذا بيان آخر لقبيحة أخرى من قبائحهم حيث إنهم لا ينفكـون عن محاولة إشعـال الحروب وإثـارة الفتن بين الأمم والشعوب، ولـو تمكنوا من تنفيذ مخططاتهم الإجـرامية لأهلكوا الحرث والنسل ولكن الله تبارك وتعـالى يحبط كيدهم، ويحول بينهم وبين مـا يشتهـون وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ في الأرض فَسَادًا﴾ بيانٌ آخر لقبيحة أخرى من قبائحهم وتأكيد لما انطوت عليه نفوسهم الشريرة من حـرصهم الشديد وسعيهم الحثيث للفساد في الأرض، وحرمان أهلها من أسباب الأمن والاستقرار، ولذلك نجد أصابع الـدول في عصرنا تشير إليهم في أمـريكا الجنـوبيـة وهم يدربـون العصابـات لتجار المخدرات، كما تشير إليهم في جنوب أفريقيـا وسائر أنحاء العالم وهم يمدون المنحرفين البغاة بأسبـاب استشراء شرورهم، ولذلك استحقوا غضب الله عليهم وبغضه لهم، لأنه عز وجل يكـره المفسدين في الأرض ولذلك ذيل هذا المقام بقوله الكريم: ﴿والله لا يحب المفسدين﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. ولو أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ والْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِن رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ. يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبك وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

بعد أن وصف الله تبارك وتعالى اليهود بقبائح الصفات التي يتصفون بها، مما يقتضي أنهم يستحقون كل أنواع الذم، وما بيَّنه عز وجل من تهجين طريقتهم الداعية إلى تنفير كل ذي عقل من ولايتهم، بيَّن في هذا المقام أنهم لو تابوا إلى الله لتاب الله عليهم، لأنه عز وجل جواد كريم واسع المغفرة، وأن الإيمان يجُبُّ ما كان قبله، فلو آمن أهل الكتاب وخافوا ربهم لجمع لهم سعادتي الدنيا والآخرة، فكفر عنهم سيئاتهم التي اقترفوا ولو كانت مثل زبد البحر وأسكنهم جنات النعيم، كما أنه عز وجل يفيض عليهم من بركات السماء والأرض حتى يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وفي هذا لفت انتباه للدعاة إلى الله عز وجل ألا تحملهم معاصي الناس وعظائم جرائمهم على ترك دعوتهم، وأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، وقد سلك الله عز وجل في دعوتهم إليه طريق الترهيب والترغيب ليتأسى بذلك الدعاة إلى الله. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولو أَنَّ أهل الكتاب آمنوا واتَّقَوْا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم * ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ لِحَثِّ أهل الكتاب على الإيمان والتقوى وإقامة شرع الله بوعدهم بسعادة الدارين وزجرهم عن الإخلال بذلك لأن الإخلال بذلك يفضي إلى حرمانهم من نعيم

العاجلة والآجلة، وفي ذلك تنبيه على أن ما يصيبهم من الضنك والضيق إنما هو من شؤم جناياتهم ومعاصيهم لا لقصور في فيض الكريم الجواد الذي لا تنفد خزائنه، إذ يداه مبسوطتان سحَّاء الليل والنهار، ينفق كيف يشاء، والمراد بالكتاب في هذا المقام: هو الجنس المنتظم للتوراة والإنجيل، قال أبو السعود العمادي: وإنما ذُكِروا بذلك العنوان تأكيداً للتشنيع، فإن أهلية الكتاب توجب إيمانهم به، وإقامتهم له لا محالة، فكفرهم به، وعدم إقامتهم له، وهم أهله، أقبح من كل قبيح، وأشنع من كل شنيع اهـ والترغيب في الإيمان والتقوى بالوعد على ذلك بسعادة الدارين هو منهج رشيد في الدعوة إلى الله عز وجل، وهو الوعد الحق، الملائم لسنن الفطرة، الصالح لجميع أهل الأعصار وسائر الأمصار، لا يشذ عن ذلك إلا شاذ مختل الفكر والفطرة. وقد ذكر الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه الكريم أن الإيمان والتقوى والاستقامة على الطريقة الشرعية يجلب رغد العيش والأمن والاستقرار في الدنيا ويئول بصاحبه إلى جنات الفردوس في الدار الآخرة، حيث يقول عز وجل هنا: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمَنُوا واتَّقَوْا لكَفَّرْنَا عنهم سيئاتِهِم ولأدخلناهم جنات النعيم * ولو أنهم أَقَامُوا التوراة والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليهم من ربهم لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم.﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عليهم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا على الطريقة لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ وقوله عز وجل: ﴿لأَكَلُوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ هو كناية عن كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض والذي يأتيهم من كل مكان حتى يصير عيشهم رغدًا، وحياتهم هنيئة طيبة كما قال عز وجل: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاة طَيِّبَةً ولنجزينهم أجرهم بأَحْسَنِ ما كانوا يعملون﴾ وقال عز وجل: ﴿وَضَرَبَ اللهُ

مثلا قريةً كـانت آمِنةً مُطْمَئِنَّة يأتيها رزقُهَا رَغَدًا من كـل مكان فَكَفَرَتْ بِأَنعُم الله فأذاقهـا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ والْخَوْفِ بما كـانوا يَصْنَعُونَ﴾ وقـوله عـز وجل: ﴿منهم أُمَّـة مقتصـدة وكثير منهم ساء مـا يعملـون﴾ أي من أهل الكتـاب جماعة مقتصدة أي سـالكة سواء السبيل، ملتزمة بالحق، مـؤمنة بما أنزل الله من كتاب مبتعدة عن منهج الغلو والإفراط كما أنها مبتعدة عن منهج التفريط والتقصير، فـلا تقـول على الله إلا الحق ولا تفـرق بين الله ورسلـه ولا تـؤمن ببعض كتب الله وتكفـر ببعضهـا، وعلى رأس هؤلاء الصـالحين عبـد الله بن سلام رضي الله عنـه، وقوله عـز وجل: ﴿وكثير منهم ساء مـا يعملون﴾ أي وكثير من أهل الكتاب سيئـة أعمالهم قبيح سلوكهم فهم إما غالـون مُفْرِطون كمن يـدَّعي أن العـزيـر ابـن الله، ومن يـدعي أن المسيح ابـن الله، وإمـا مقصرون مُفرِّطون كمن يدعي أن المسيح لغير رِشْدَةٍ، ويقول على مريم بهتانا عظيما. وقوله عـز وجل: ﴿ياأيها الرسولُ بَلِّغْ مـا أُنزِلَ إلَيْكَ من ربك وإن لم تفعل فما بَلَّغْت رِسَالَتَهُ، والله يَعْصِمُكَ من النَّـاسِ﴾ هذا تثبيت لفؤاد رسول الله ﷺ، وأن أعـداءه مهما كثروا، ومهما أعلـن من معايبهم وسـوء سلـوكهم الذي أمره الله عز وجل بإعلانـه فإنهم لن يتمكنوا منه ﷺ، لأن الله عز وجل يعصمه منهم ويكفيه شرهم، ويرد كيدهم إلى نحورهم، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿ياأيها الرسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إلَيْكَ من ربك وإن لم تفعل فما بلَّغْتَ رسـالتـه، والله يعصمك من النـاس، إنَّ الله لا يهدي القـوم الكافرين﴾ قال أبو جعفر: وهذا أمر من الله تعالى ذكره نبيَّه محمدا ﷺ بإبلاغ هؤلاء اليهود والنصارى من أهل الكتابين الذين قص تعالى ذكره قصصهم في هذه السـورة، وذكر فيها معـايبهم، وخبث أديانهم، واجتراءهم على ربهم، وتوثبهم على أنبيـائهم، وتبديلهم كتابه، وتحريفهم إيـاه، ورداءة مطاعمهم ومآكلهم، وسـائر المشركين غيرهم ما أنزل عليـه فيهم من معايبهم، والإزراء

عليهم، والتقصير بهم، والتهجين لهم، ومـا أمرهـم به، ونهاهم عنـه، وألا يشعر نفسه حذرًا منهم أن يصيبوه في نفسه بمكروه ما قام فيهم بأمر الله، ولا جزعاً من كثرة عددهم وقلة عدد من معه، وألا يتقي أحدًا في ذات الله، فإن الله تعـالى ذكره كـافيه كل أحـد من خلقـه، ودافع عنه مكـروه كل من يبغى مكروهـه، وأعلمه تعالى ذكره أنـه إن قصَّر عن إبلاغ شيء مما أنـزل إليه إليهم فهـو في تركه تبلـيغ ذلك ــ وإن قـلَّ مـالم يبـلِّغ منه ــ فهو في عظيم ما ركب بذلك من الذنب بمنـزلته لو لم يبلِّغ من تنزيله شيئاً. اهــ ولاشك أن صيانة الله تبارك وتعالى نبيـه محمدا ﷺ من أعدائه ودفع شرورهم عنه معجـزة ظاهرة وآية باهرة قـاهرة، فقد كانوا يتعاهدون ويتعـاقدون في مكة على قتله ﷺ فإذا مـرَّ بهم طأطأوا رءوسهم كأن عليهـا الطير، فقـد قـال محمـد بن إسحـاق: حدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال: قلت له: ما أكثرُ ما رأيت قريشا أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يُظهـرون من عداوته؟ قال: حضرتهم وقـد اجتمع أشرافهم يوما في الحِجْر، فذكـروا رسول الله ﷺ، فقالوا: مـا رأينا مثل ما صبرْنا عليـه من أمر هذا الرجل قط، سفَّـه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننـا، وفرَّق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ــ أو كما قالوا ــ فبينا هم في ذلك إذ طلع رسـول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مـر بهم طائفـا بالبيت فلما مر بهم غمـزوه ببعض القول، قال: فعرفت ذلـك في وجه رسول الله ﷺ. قال: ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجـه رسول الله ﷺ، ثم مـر بهم الثـالثة فغمـزوه بمثلهـا، فوقف ثم قـال: أتسمعـون يامعشر قـريش، أما والـذي نفسي بيده، لقـد جئتكم بالـذَّبح، قـال: فأخـذت القومَ كلمتُـه حتى مـا منهم رجل إلا كأنما على رأسـه طـائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاةً قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول،

حتى إنه ليقول : انصرف ياأبا القاسم ، فوالله ما كنتَ جهولا. قال : فانصرف رسـول الله ﷺ، حتى إذا كـان الغـد اجتمعوا في الحِجـر وأنـا معهم ، فقـال بعضهم لبعض : ذكرتم مـا بلغ منكم ، وما بلغكم عنـه ، حتى إذا باداكم بما تكرهون تـركتموه ، فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ ، فـوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحـاطوا به ، يقولون : أنت الذي تقـول كذا وكذا؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقـول رسول الله ﷺ : نعم ، أنا الـذي أقول ذلك ، قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخـذ بمجمع ردائه ، قال : فقام أبوبكر رضي الله عنـه دونه وهـو يبكي ويقول : أتقتلـون رجلا أن يقـول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنـه ، فإن ذلك لأشدُّ مـا رأيت قريشـا نالـوا منه قط اهـ وقولـه عز وجل : ﴿إنَّ الله لا يهدي القوم الكافـرين﴾ أي إن الله عز وجل لا يسدد ولا يؤيد ولا يـوفق إلى الرشد من حاد عن طـريق الحق ، وجار عن قصد السبيل وجحد ما أنزل الله من كتاب أو ما أرسـل من رسول . وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿ياأيها الـرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسـالته﴾ دليل ظاهر على مروق من ادعى أن محمـدا ﷺ كتم شيئا من القرآن ، وأن من ادعى ذلك فقـد افترى الكـذب على رسول الله ﷺ ، وقـد روى البخـاري في التفسير من طريق مسروق عن عـائشة رضي الله عنها قـالت : من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئـا مما أنزل عليه فقـد كذب ، والله يقول : ﴿ياأيها الـرسول بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليك من ربك﴾ الآية . وأخرجـه في كتاب التوحيد من صحيحه عن مسروق عن عائشة قالت : من حدثك أن النبي ﷺ كتم شيئا من الوحي فلا تصدقه ، إن الله تعالى يقول : ﴿يـاأيها الرسولُ بَلِّغْ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بَلَّغْت رسالتَهُ﴾ وأورده مسلـم في كتاب الإيمان من صحيحه من طريق مسروق عن عـائشة رضي الله عنها قـالت : ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئا من كتـاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقـول : ﴿ياأيها

الرسولُ بلغ مـا أنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بَلَّغْتَ رسالَتَـهُ﴾ اهـ وقد شهدت له أمته بـإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة في أعظم المحـافل عند خطبته في حجة الـوداع عندمـا قال : أيها الناس إنكم مسئـولون عني فما أنتم قـائلون؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت .

قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوراةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئُونَ والنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وفَرِيقًا يَقْتُلُونَ. وَحَسِبُوا أَلا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

بعد أن حث الله تبارك وتعالى أهل الكتاب على الإيمان والتقوى ووعدهم إن استجابوا لذلك بتكفير سيئاتهم مهما عظمت، وإدخالهم جنات النعيم مع ما يعجله لهم من طيبات الحياة الدنيا، وأثنى عز وجل على الذين سارعوا إلى الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ من أهل الكتاب، وأمر رسوله محمدا ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه لأهل الكتاب وغيرهم وألا يخشى في الله لومة لائم، وطمأنه بأنه عز وجل يعصمه من الناس ويكلؤه برعايته، ويصونه من كيد أعدائه، وفي هذا من تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ أمام أعدائه من كل لون وجنس ومذهب ما ينطبق عليه قول الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

بعد ذلك كله أمر نبيه ﷺ أن يوجه الخطاب إلى أهل الكتاب معلناً لهم أنهم لن يكونوا على خير أبدا حتى يدينوا بكل كتاب أنزله الله عز وجل، ولن ينفعهم أبدا دعواهم أنهم يؤمنون ببعض كتب الله ماداموا قد كفروا ببعضها، علما بأنها جميعا تدعو إلى كلمة سواء وهي إخلاص العبادة لله وحده والبراءة من الشرك، وألا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، وأن يؤمنوا بما أنزل

الله من كتاب وبما أرسل من رسول، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزِلَ إليكم من ربكم﴾، ولاشك أن هذا القول لأهل الكتاب يشق عليهم جدا لكن رسول الله ﷺ لن يتوانى في إبلاغهم ما أمره الله عز وجل أن يبلغهم إياه، وقد نفى الله عز وجل عن أهل الكتاب في هذا الخطاب كل شيء يمكن لأحد أن يعتد به من الدين، والعرب تقول: هذا ليس بشيء إذا أرادت تحقيره وتصغير شأنه وعدم الاعتداد به حتى صار لا يليق بأن يسمى شيئا لظهور بطلانه، ووضوح فساده، ففي هذا التعبير من التحقير والتصغير ما قد بلغ الغاية من ذلك. وقوله عز وجل هنا: ﴿ولَيَزِيدَنَّ كثيرًا منهم ما أُنزِلَ إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ تأكيد لما تقدم قبل هذه الآية بثلاث آيات، وقد كرره عز وجل بلفظه لبيان شدة غلوهم في العناد والمكابرة، وللفت الانتباه إلى انتكاس فطرتهم، وانقلاب الموازين عندهم مما يؤكد لمن عنده أدنى مسكة من عقل أنهم ليسوا على شيء وقوله تبارك وتعالى: ﴿فلا تَأْسَ على القوم الكافرين﴾ أي فلا تحزن يامحمد ولا تتأسف بسبب استمرار هؤلاء المتنكسين على كفرهم وجحودهم، فإن غائلة كفرهم إنما تعود عليهم، وليس عليك إلا البلاغ المبين، وقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنَّ الذين آمَنُوا والذين هَادُوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوفٌ عليهم ولاهُمْ يحزنون﴾ هو لتحقيق وتأكيد أن أهل الكتاب ليسوا على شيء حتى يؤمنوا بجميع كتب الله ورسله، وأن سائر أهل الملل والنحل ليسوا على شيء حتى يؤمنوا بجميع كتب الله ورسله وعلى رأسهم شيخ المرسلين محمد ﷺ الذي أتم الله به الدين وأكمل به النعمة والرسالة. وقد تقدم شبيهه في قوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله

واليوم الآخـر وعمل صالحا فلهم أجـرهـم عند ربهم ولا خـوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ وقـد ذكرت في تفسيرها أن هـذه قاعـدة قضى الله عز وجل بها وهي تشمل جميع أجناس المكلفين في جميع الأعصار والأمصار وهي أنه لا يستحق أجر الله وحسن مثوبته والنعيم المقيم في جنات النعيم إلا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل الصـالحات، فآمن بجميع النبيين وصـدق جميع المرسلين وعلى رأسهم شيخهم وإمامهم وسيدهم محمـد بن عبد الله ﷺ الذي قضي الله بأنه بعد بعثتـه لن يدخل الجنة أحد إلا مـن طريقه واتباع منهجـه وسنته والعمل بشريعته، وذكرت أن قولـه عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا﴾ يعني المسلمين من أمة محمـد ﷺ وأن معنى ﴿الذين هادوا﴾ أي صـاروا يهودا وأن النصارى هم المدعون أنهم على دين المسيح منسـوبون إلى نصرانة قرية المسيـح عليه السلام فإنها يقـال لها النـاصرة ويقال لها: نصرانـة، والصـابئون هـم عبدة النجـوم والكواكب والملائكـة، وقد كـان العرب يطلقـون اسم الصابئ على المائل عن دين إلى دين آخـر، حتى كـانوا يلقبـون أفضل الخلق بعـد الأنبياء أصحـاب محمـد ﷺ بـالصبـاة، ويسمون خـاتم المرسلين: الصـابئ لأنـه ﷺ خـالف دينهم. وقوله تبارك وتعالى في هذه الآية: ﴿والصابئون﴾ بالرفع وقد كان نسق الكلام أن يقـال: والصابئين بالنصب عطفا على اسم إن، لأن عـادة العرب إذا أرادوا لفت الانتبـاه إلى شيء غيروا إعرابه ولم يجعلـوه على نسق مـا قبله أو بعـده، ونظير ذلك قـوله تبـارك وتعـالى: ﴿والموفـون بعهدهم إذا عـاهـدوا والصابـرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ وقوله تبـارك وتعالى: ﴿لَّكِنِ الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، والمقيمين الصـلاة، والمؤتون الـزكاة والمؤمنـون بـالله واليوم الآخـر﴾ الآية وقـد سقت الأدلـة الـواضحـة من كـلام العرب على ذلك في تفسير الآيـة الثـانيـة والستين بعـد المائة مـن سـورة النسـاء، وكما أشرت إلى ذلـك في تفسير الآيـة

السابعة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رسول بما لا تَهْوَى أَنْفُسُهُم فَرِيقًا كَذَّبُوا وفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ تشنيع على بني إسرائيل ببيان أن القاعدة عندهم مع أنبياء الله ورسله ليست اتباع الحق من حيث إنه حق، بل مدار قبولهم للحق أو رده هو شهوات أنفسهم وأهواؤها، فإذا أتاهم الرسول بخلاف ما يهوون كذبوه، وربما قتلوه، ولا يقبلون من الحق الذي يجيء به الأنبياء والمرسلون سوى ما يشتهونه وتميل إليه أنفسهم التي جبلت على حب العلو في الأرض بغير الحق واتباع الشهوات، وهذا أقصى ما توصف به النفس الإنسانية من الذم وأقبح أخلاق بني آدم، وفيه تسلية ومواساة لرسول الله ﷺ، وقد تقدم مزيد بيان لذلك في تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ وقَفَّيْنَا من بَعْدِهِ بالرسل وآتينا عيسى ابنَ مَرْيَمَ البيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاه بِرُوح الْقُدس، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُم فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وفي قوله عز وجل هنا: ﴿لقد أَخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا﴾ الآية مزيد بيان لما ندد الله عز وجل به في هذه السورة من نقض بني إسرائيل للعهود والمواثيق، وفي ذلك تحذير شديد للمؤمنين من نقض العهود والموثيق التي افتتح الله عز وجل هذه السورة الكريمة بأمر المؤمنين بالوفاء بها حيث قال في مطلع هذه السورة: ﴿يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية: اعلم أن المقصود بيان عتو بني إسرائيل وشدة تمردهم عن الوفاء بعهد الله، وهو متعلق بما افتتح الله به هذه السورة، وهو قوله: ﴿أَوْفُوا بالعقود﴾ فقال: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وحَسِبُوا أَلا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثم تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثم عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ، واللهُ بصير بما يعملون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول

تعالى: وظن هؤلاء الإسرائيليون ـ الذين وصف الله تعالى ذكره صفتهم: أنه أخذ ميثاقهم، وأنه أرسل إليهم رسلا، وأنهم كانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقا، وقتلوا فريقا ـ أن لا يكون من الله لهم ابتلاء واختبار بالشدائد من العقوبات بما كانوا يفعلون ﴿فعَمُوا وصَمُّوا﴾ يقول: فعموا عن الحق والوفاء بالميثاق الذي أخذته عليهم، من إخلاص عبادتي، والانتهاء إلى أمري ونهيي، والعمل بطاعتي، بحسبانهم ذلك وظنهم، ﴿وصَمُّوا﴾ عنه ـــ ثم تبت عليهم، يقول: ثم هديتهم بلطف مني لهم حتى أنابوا ورجعوا عما كانوا عليه من معاصي وخلاف أمري، والعمل بما أكرهه منهم، إلى العمل بما أحبه، والانتهاء إلى طاعتي وأمري ونهيي، ﴿ثم عَمُوا وَصَمُّوا كثير منهم﴾ يقول: ثم عموا أيضا عن الحق والوفاء بميثاقي الذي أخذته عليهم: من العمل بطاعتي، والانتهاء إلى أمري، واجتناب معاصيَّ ﴿وَصَمُّوا كثير منهم﴾ يقول: عمى كثير من هؤلاء الذين كنت أخذت ميثاقهم من بني إسرائيل باتباع رسلي والعمل بما أنزلت إليهم من كتبي ـ عن الحق وصموا بعد توبتي عليهم، واستنقاذي إياهم من الهلكة ـــ ﴿والله بصير بما يعملون﴾ يقول: ﴿بصير﴾ فيرى أعمالهم خيرها وشرها، فيجازيهم يوم القيامة بجميعها، إن خيرا فخيرا، وإن شرًّا فشرًّا. اهـ وقد قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو ﴿وحَسِبُوا ألا تكونُ فتنةٌ﴾ برفع نون تكون، وقرأ الباقون بنصب نون تكون، وفي هاتين القراءتين لفت انتباه إلى فقه الكلمات العربية وأسرارها حيث إن قراءة الرفع موجهة إلى أنَّ أنْ مخففة من الثقيلة والتقدير: أنه لا تكون فتنة، وقراءة النصب موجهة على أنها أن الناصبة للفعل، قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في تفسيره: قال أبو علي: الأفعال ثلاثة: فعل يدل على ثبات الشيء واستقراره نحو العلم والتيقن، وفعل يدل على خلاف الثبات والاستقرار، وفعل يجذب إلى هذا مرة وإلى هذا أخرى، فما كان معناه

العلم وقعت بعده أنَّ الثقيلة، لأن معناها ثبوت الشيء واستقراره كقوله: ﴿ويعلمون أن الله هو الحقُّ المبين﴾ ﴿ألم يَعْلَمْ بأن الله يَرَى﴾ وما كان على غير وجه الثبات والاستقرار نحو: أطمع وأخاف وأرجو وقعت بعده أن الخفيفة كقوله: ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾، ﴿تخافون أن يَتَخَطَّفَكُمُ الناسُ﴾ ﴿فَخشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُما﴾ ﴿أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي﴾ وما كان مترددًا بين الحالين مثل: حسبت وظننت، فإنه يجعل تارة بمنزلة العلم، وتارة بمنزلة أرجو وأطمع، وكلتا القراءتين في ﴿وحَسِبُوا ألا تكون فتنةٌ﴾ قد جاء بها التنزيل، فمثل مذهب من نصب ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نَجْعَلَهُمْ﴾ ﴿أم حَسِبَ الذين يعملون السيئاتِ أن يَسْبِقُونا﴾ ﴿أم حَسِبَ الناسُ أن يُتْرَكُوا﴾ ومثل مذهب من رفع ﴿أيحسبون أنما نُمِدُّهم﴾ ﴿أم يحسبون أنَّا لا نسمعُ سِرَّهُمْ﴾ اهـ والله أعلم بأسرار كتابه.

قال تعـالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الـذينَ قَالـوا إِنَّ اللهَ هُوَ الـمسِيحُ ابنُ مَـرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُـدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ من يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَـدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّـارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّـذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ، وَمَامِنَ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَإِن لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِين كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ ويَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ ابْـنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَـدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الـرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِـدِّيقَةٌ كَـانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ، انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . ﴾

بعد ما ذكره الله تبارك وتعالى من تـرهيب أهل الكتاب وترغيبهم ، وما أمر به نبيه ﷺ من إبلاغ ما أنزل إليـه من ربه ، وألا يخاف في الله لومة لائم مؤكدا له أنه يعصمـه من الناس ويحفظه من كيدهم وشرورهـم ، وأمره بعد ذلك أن يعلن لأهل الكتاب وغيرهم أنهم ليسوا على شيء حتى يؤمنوا بجميع كتب الله ورسله ، وبيَّن أن بني إسرائيل إنما ينقادون لهوى أنفسهم وشهـواتها ، وقد كان لليهـود النصيب الأكبر في هـذه القبائح ، شرع هنـا في تفصيل بعض قبـائح النصارى و إبطال أقوالهم الفاسدة وغلوهم في المسيح ابن مريم عليه السلام ، وقد افتتح عز وجل هذا المقام هنـا بأن أقسم تبارك وتعالى على كفر من قال : إن الله هو المسيح ابن مريم مبينا أن المسيـح عليه السلام إنما أمر بني إسرائيل أن يعبدوا الله ربه وربهم ، وأنذرهم بأن من أشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة حيث يقول عز وجل هنا : ﴿لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله هو المسيحُ ابنُ مريم وقال المسيحُ يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرَّم اللهُ عليه الجنةَ ومأواه النـارُ وما للظالمين من أنصار﴾ وقـد قلت في تفسير قوله تبارك وتعـالى : ﴿لقد كفر الذين قـالوا إن الله هو المسيح ابنُ مـريمَ﴾ في الآية السابعـة عشرة من هذه السـورة الكريمـة : أي أقسم أن من ادعى أن المسيح

عيسى ابن مريم هو الله فقد خلع ربقة الإسلام، وجحد الدين الحق وانغمس في الضلال والكفر، وقد كرر الله تبارك وتعالى في هذه الآية وهي الثانية والسبعون من سورة المائدة نفس هذا القسم بحروفه تبشيعاً لجريمة من يدعي أن الله هو المسيح ابن مريم، وتنفيراً من الوقوع فيه، وتحذيراً من ولاية مدعيه، وقد أوضحت في تفسير الآية السابعة عشرة من هذه السورة أن أول من ادعى ألوهية المسيح عليه السلام هو شاول اليهودي الذي سمى نفسه «بولس» وقد ادعت النسطورية من النصارى أن الله حل في المسيح، ويقولون: إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به كحلول الماء في الإناء ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم، كما ادعت اليعقوبية من النصارى أن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء واتحدا، ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم. ولاشك أن إعلان كفر من ادعى أن المسيح إله معجزة لرسول الله ﷺ لأن المعلوم أنه عند بعثة رسول الله ﷺ كان السائد عند النصارى القول بألوهية المسيح عليه السلام فمن أين للأمي هذا العلم الذي يُجابهُ به هذه المقالة الذائعة الشائعة ويشرح به للنصارى أساس ضلالهم وسبب انحرافهم، وأحبارهم لا يزالون يقرأون في كتب العهد القديم والجديد ما يؤيد أن رسل الله صلى الله عليهم وسلم قد جاءوا بوجوب توحيد الله عز وجل، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا اللهَ رَبِّي وربَّكُمْ إنه مَن يشرك بالله فقد حرَّمَ الله عليه الجنة ومأواه النار وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أنصار﴾ هذه جملة حالية من فاعل قالوا بتقدير قد، وهذه الجملة الحالية قد سيقت لتأكيد فساد قول من ادعى أن الله هو المسيح ابن مريم بالتنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قولهم حيث ذكر لهم المسيح أنه عبد مربوب لله سيده وسيدهم ومالكه ومالكهم ومدبر أمره ومدبر أمورهم المتفرد بالألوهية والربوبية والأسماء

الحسنى والصفات العلى، وأن من أشرك بالله فالجنة عليه حرام، وسيصلى نارا تلظى، تكون مأواه ومرجعه ومصيره ومسكنه الدائم الذي لا يخرج منه ولا يتحول عنه مادام قد مات على شركه وكفره، ولن يجد يوم القيامة شفيعا يشفع له ولا نصيرا ينصره. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ أي أقسم أن من ادعى أن الله ثالث ثلاثة فهو كافر قد خلع ربقة الدين الحق وانغمس في الضلال والكفر وألقى نفسه في الهاوية وهو قَمِنٌ بأن يوصف بأنه ليس على شيء. والمراد من قولهم: ﴿ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ أي إن الله وعيسى ومريم آلهة ثلاثة، وهذه مقالة طائفة من النصارى حيث جعلوا عيسى وأمه إلهين وأن الله عز وجل إله ثالث أي أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة، كما وبخهم عز وجل على ذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قُلْتَ للناس اتخذوني وأُمِّيَ إلَهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقولَ ما ليس لي بحق، إن كنتُ قلتُه فقد عَلِمْتَهُ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت عَلامُ الغُيُوب﴾ وقد قال بعض النصارى إن الله جوهر واحد مكون من ثلاثة أقانيم قال الفخر الرزاي: واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحدا، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فسادا وأظهر بطلانا من مقالة النصارى اهـ والعرب إذا قالوا لشيء: هو ثالث ثلاثة وأرادوا أنه واحد منهم وأنه بعض الثلاثة فلا يجعلونه إلا مضافا ويقولون: ثالث ثلاثة بدون تنوين لفظ ثالث، أما إذا أرادوا أنه ليس واحدًا منهم فإنهم حينئذ يقولون: هذا ثالث اثنين بالإضافة ويقولون: هذا ثالثٌ اثنين بالتنوين بمعنى: هذا ثلَّث اثنين أي صيرهما ثلاثة بنفسه، أو يقولون: هذا ثالثٌ ثلاثة بالتنوين ونصب ثلاثة، ولا تجوز حينئذ الإضافة لأنهم لم يريدوا أنه بعض الثلاثة، ولاشك أنه ما من شيئين في الوجود إلا والله عز وجل ثالثهما

بعلمه كما قال عز وجل: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم﴾ وعلى هذا المعنى يحمل قـول رسول الله ﷺ: قال الله تعالى أنـا ثالث الشريكين مـالم يخن أحدهما صـاحبـه، فقد قـال أبو داود في بـاب الشركة من سننه: حدثنا محمد بن سليمان المصيصي ثنا محمد بن الزبرقان عن أبي حيان التيمي عـن أبيه عن أبي هريـرة رفعه قـال: إن الله يقول: أنـا ثالث الشريكين مـالم يخن أحدهما صـاحبـه، فإذا خـانه خـرجت من بينهما. اهـ ورجـال هذا السنـد كلهم ثقات، ومحمـد بن الـزبرقـان من رجال البخـاري ومسلم وأبـو حيان التيمي هـو يحيى بن سعيـد بن حيان التيمي الكـوفي من رجال الشيخين كذلك وأبوه سعيد بـن حيان وثقه العجلي وذكره ابن حبان في الثقات. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومـا من إلَـهٍ إلا إلَـهٌ واحد﴾ هو تحقيق لحقيقة الألوهيـة بإثباتها لله وحده لا شريك لـه ونفيها عن جميع ما سـواه بأدق عبارة وأكمل بيان على طريق النفي والإثبات بأسلوب هو نص في الاستغراق حيث نفى الإلهية عما سوى الله عز وجل وساقه بنكـرة منفية مسبوقة بمِن وقد أطبق علماء أصول الفقـه على أن النكرة إذا جاءت منفية مسبـوقة بمن فهي نص في استغراق جميع أفـرادها ثم أثبت الألوهيـة لله وحده لا شريك له، وقولـه عز وجل: ﴿وإن لم يَنتَهُـوا عَمَّا يقولون لَيَمَسَّنَّ الـذين كفروا منهم عـذاب أليم﴾ تـرهيب لمن قالـوا إن الله ثالث ثـلاثة بتأكيـد أن من استمر على هـذه المقالـة يعرض نفسه لعقـاب أليم موجع، يعذبه به جبـار السموات والأرض، وكان مقتضى السياق أن يقـال: ليمسنهم عذاب أليم لكن مقتضى الحال اقتضى وضع الاسم الظاهـر موضع الضمير لتأكيـد التنصيص على كفرهم وأن الله لم يظلمهم شيئـا ولكنهم هم الظـالمون المستحقـون للعـذاب الشـديـد بسبب كفرهم، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿أفَلا يتوبون إلى الله ويستغفـرونه، والله غفور رحيم﴾ ترغيب لأصحاب هذه المقالة المدعين أن الله ثـالث ثلاثة بالرجوع إلى

الحق، والإيمان بالواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وتحريض لهم على التوبة إلى الله عز وجل وحض لهم على أن يستغفروا الله من هذه المقالة الفاجرة، و إشارة إلى أن من تاب إلى الله تاب الله عليه مهما كانت معصيته ومهما عظمت جريمته، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إنَّ الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ما المسيحُ ابنُ مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل وأُمُّهُ صِدِّيقةٌ كانا يأكلان الطعام﴾ شرح لحقيقة المسيح ابن مريم عليه السلام وبيان لمنزلة أمه، ونفيٌ لألوهية المسيح وأمه بالدليل المحسوس الملموس وأن عيسى عليه السلام إنما هو رسول من رسل الله عليهم السلام، وهو بشر مثلهم، قد أجرى الله تبارك وتعالى على يده ما شاء الله أن يجريه من الآيات حيث كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويصور من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله، كما أجرى الله عز وجل على أيدي من سبقه من المرسلين ما شاء الله أن يجريه على أيديهم من الآيات كما جعل عصا موسى حية تسعى، وفلق له البحر لما ضربه بعصاه وغير ذلك من الآيات وكناقة صالح التي أخرجها له من الصخر في آيات كثيرة مشابهة لما أجراه على يد عيسى عليه السلام، ووالدة عيسى لم تكن سوى صديقة أي تسارع إلى تصديق الله فيما يجيئها من الخبر عنه بطريق كتبه ورسله كما قال عز وجل في حق مريم: ﴿وَصَدَّقَتْ بكلمات ربها وكتبه﴾ ووجه الاستدلال على بطلان ألوهية عيسى وأمه بقوله: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ أي إنهما كانا محتاجين إلى الطعام، والإله الحق هو الذي يكون غنيا عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلها، كما أن قوله عز وجل: ﴿ وأمه صديقة ﴾ برهان على أنه ليس بإله، لأن من كان له أم، فقد حدث بعد أن لم يكن، وقد تضمنت سورة

الإخلاص بيان صفة الإله الحق حيث يقـول عز وجل : ﴿قل هو الله أحد ❁ الله الصمد ❁ لم يلد ولم يولد ❁ ولم يكن له كفوا أَحَدٌ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظـر أنى يؤفكون﴾ تعجيب من حال من لم ينـزجر عن ادعاء الألوهية لهما بعد هذا البيان الشافي الكافي .

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا، وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ولا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قد ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ. لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. تَرَى كثيرا منهم يَتَوَلَّوْنَ الذين كفروا، لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لهم أَنفُسُهُمْ أن سَخِطَ اللهُ عليهم وفي الْعَذَابِ هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولَٰكِنَّ كثيرا منهم فاسقون﴾.

بعد أن أقام عز وجل الدليل القاطع والبرهان الساطع على أن عيسى عليه السلام رسول من رسل الله كسائر المرسلين عليهم الصلاة والسلام وقد أقسم عز وجل على كفر من قال إن الله هو المسيح ابن مريم وعلى كفر من قال: إن الله ثالث ثلاثة، وبيَّن المذهب الحق في المسيح عليه السلام وأمه الصديقة مريم العذراء البتول رضي الله عنها شرع هنا في توبيخ وتبكيت من اتخذ معبودا غير الله الحي القيوم وأنكر على من فعل ذلك أشد الإنكار مشيرًا إلى أن من عبد غير الله فقد عبد من لا يملك لعابديه ضرًّا ولا نفعا وأعرض عن عبادة النافع الضار الحي القيوم السميع العليم، وأعلن عز وجل أن سبب ضلال الكثير من الناس هو الغلو في الدين، واتباع أهواء الضالين وفي ذلك يقول: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَالا يَمْلِكُ لكم ضَرًّا ولا نفعا، والله هو السميع العليم﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: وهذا أيضا احتجاج من الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ على النصارى القائلين في المسيح ما وصف من قيلهم فيه قبل، يقول تعالى ذكره لمحمد ﷺ: ﴿قل﴾ يامحمد لهؤلاء الكفرة من النصارى، الزاعمين أن المسيح ربهم، والقائلين إن الله ثالث

ثلاثة = أتعبدون سوى الله الذي يملك ضركم ونفعكم، وهو الذي خلقكم ورزقكم، وهو يحييكم ويميتكم= شيئا لا يملك لكم ضرا ولا نفعا؟ يخبرهم تعالى ذكره أن المسيح الذي زعم من زعم من النصارى أنه إله، والذي زعم من زعم منهم أنه لله ابن، لا يملك لهم ضرا يدفعه عنهم إن أحله الله بهم، ولا نفعا يجلبه إليهم إن لم يقضه الله لهم، يقول تعالى ذكره: فكيف يكون ربا وإلها من كانت هذه صفته؟ بل الرب المعبود الذي بيده كل شيء، والقادر على كل شيء، فإياه فاعبدوا، وأخلصوا له العبادة، دون غيره من العجزة الذين لا ينفعونكم ولا يضرون، وأما قوله: ﴿والله هو السميع العليم﴾ فإنه يعني تعالى ذكره بذلك: ﴿والله هو السميع﴾ لاستغفارهم لو استغفروه من قيلهم ما أخبر عنهم أنهم يقولونه في المسيح، ولغير ذلك من منطقهم ومنطق خلقه ـــ ﴿العليم﴾ بتوبتهم لو تابوا منه، وبغير ذلك من أمورهم اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ومبينًا له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية، فقال تعالى: ﴿قل﴾ أي يامحمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم: ﴿أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرًا ولا نَفْعًا﴾ أي لا يقدر على دفع ضر عنكم ولا إيصال نفع إليكم، ﴿واللهُ هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيءٍ، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد، لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئا ولا يملك ضرا ولا نفعا لغيره ولا لنفسه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا في دينكم غَيْرَ الحق ولا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قبلُ وَأَضَلُّوا كثيرا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ بيان لسبب ضلال الكثير من الناس وهو الغلو في الدين واتباع أهواء الضالين، والغلو هو مجاوزة الحد والإطراء وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿يا أَهْلَ الكتاب لا تَغْلُوا في

دينكم﴾ في الآية الواحدة والسبعين بعد المائة من سورة النساء أن المخاطب بهذا الخطاب أولا وبالذات هم النصارى الذين غلوا في المسيح وجعلوه إلها وابن إله وقالوا : الله ثالث ثلاثة ، وإنما جاء الخطاب عاما لليهود والنصارى لأن اليهود لعنهم الله قالوا على الله غير الحق فزعموا أن العزير هو ابن الله سبحانه أن يكون له ولد ، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول : لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبده . فقولوا عبد الله ورسوله . قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿قل ياأهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم غَيْرَ الحق﴾ اعلم أنه تعالى لما تكلم أولاً على أباطيل اليهود ثم تكلم ثانياً على أباطيل النصارى وأقام الدليل القاهر على بطلانها وفسادها ، فعند ذلك خاطب مجموع الفريقين بهذا الخطاب فقال : ﴿ياأهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم غَيْرَ الحق﴾ والغلو نقيض التقصير، ومعناه الخروج عن الحد ، وذلك لأن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط ، ودين الله بين الغلو والتقصير، وقوله : ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ صفة المصدر أي لا تغلوا في دينكم غلوا غير الحق ، أي غلوًّا باطلا ، لأن الغلو في الدين نوعان : غلو حق وهو أن يبالغ في تقريره وتأكيده ، وغلو باطل وهو أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الدلائل اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل : ﴿قل ياأهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم غيرَ الحق﴾ الآية أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية كما صنعتم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلها من دون الله ، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال ، الذين هم سلفكم ممن ضل قديما ﴿وَأَضَلُّوا كثيرا وَضَلُّوا عن سواء السبيل﴾ أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال اهـ وفي قوله عز

وجل: ﴿لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعـوا أهواء قوم قـد ضلوا من قبل وأَضَلُّوا كثيرا وضَلُّوا عن سواء السبيل.﴾ تحذير من الغلو في الدين ومن اتباع أهـواء الضـالين المضلين، وقد أكـد الله تبـارك وتعـالى ضلال شيـوخ هـؤلاء المنحـرفين حيث وصف مذاهبهم بأنها أهـواء وأنهم قـد انغمسوا في الضـلال قديما، وبأنهم أضلوا كثيرا من الناس وأبعدوهم عن مناهج المرسلين، وبأنهم قد انحرفـوا عن طريق الرشاد ومنهج السعادة والاستقامـة والسداد. والأهواء جمع هـوى وقـد ذكـر غير واحـد من أهل العلم أن الشرع لم يـذكـر الهوى إلا مقرونا بالذم كقـوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تتبع الهوى فَيُضِلَّكَ عن سبيل الله﴾ وكقوله عز وجل: ﴿إنَّ الساعة آتيةٌ أَكَادُ أُخْفيهَا لِتُجْزَى كلُّ نَفْسٍ بما تَسْعَى. فـلا يَصُدَّنَّـكَ عنها من لا يـؤمن بها واتَّبَعَ هَـوَاهُ فَتَـرْدَى﴾ وكقـوله تعـالى: ﴿أرأيتَ من اتخذ إلَهه هواه أفأنت تكون عليه وكيـلا﴾ وكقوله: ﴿أفرأيت من اتخذ إلَهه هواه وَأَضَلَّـهُ الله على علم وختم على سمعه وقلبـه وجعل على بصره غِشَاوَةً فمن يَهْدِيهِ من بعد الله، أفلا تَذَكَّرُونَ﴾ وكقوله عز وجل: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ وكقولـه عز وجل: ﴿وأما من خاف مَقَـامَ ربه ونَهَى النفس عن الهَوَى * فإنَّ الجنة هي المأوى﴾ وقـوله تبارك وتعالى: ﴿لُعِنَ الَّـذِينَ كَفَروا من بني إسرائيل على لسـان داود وعيسى ابن مـريم، ذٰلك بما عَصَـوْا وكـانـوا يعتدون * كانـوا لا يَتَنَاهَوْنَ عن منكر فعلـوه، لَبِئْسَ ماكانـوا يَفْعَلُون * تَرَى كثيرًا منهم يَتَوَلَّـوْنَ الذين كفـروا، لَبِئْسَ ما قَـدَّمَتْ لهم أَنفُسُهُمْ أن سَخِطَ الله عليهم وفي العذاب هم خالدون * ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي ومَا أُنزِلَ إليه ما اتخذوهـم أولياءَ ولٰكنَّ كثيرا منهم فاسقون﴾ تقـريع للمنافقين الذين يوالون أعداء الله وأعـداء المرسلين بزيـادة تأكيد سوء سلـوك الكثير من بني إسرائيل حتى استحقـوا أن يلعنـوا على لسان رسـولين كـريمين من رسل بني إسرائيل وهما داود وعيسى عليهما السلام، وبيان للسبب الـذي لعنوا من أجله، وهو

أنهم عصاة معتدون لا يتناهون عن منكر وقع بينهم، ولا يغارون إذا انتهكت حرمـات الله، ومن كان هذا سلـوكه فبئس هـذا السلوك، ومع بشاعـة هذه الجرائم الصـادرة عنهم المسببة للعنهـم فإنهم يتولـون أوليـاء الشيطان وعبـاد الأوثان مـن المشركين، ويعادون أولياء الـرحمن وأهل القرآن، فهل يحتـاج من عنده أدنى مسكـة من عقل إلى دليل على اعوجـاجهم وانحرافهم أوضح من هذا الدليل؟ وقد استحقوا بسلوكهم هذا غضب الله وسخطه ومقته، وجلبوا لأنفسهم الخلـود في نار الجحيـم، ومن كان صـادقـا في دعوى الإيمان بـالله ورسوله وكتابه لن يتخذ المشركين الوثنيين الذين لا ينتمون لكتاب ولا يؤمنون بـرسـول أوليـــاء فكيف يليق بعـاقل أن يتـولى من يـــوالي الـوثنيين ويعـادي الموحدين؟ وقـد لفت الله تبارك وتعالى انتبـاه عباده في هذا المقـام الكريم من كتـابـه العظيم إلى أمـور منهـا: أن الإنسـان بعملـه لا بنسبـه حيث إن بني إسرائيل وهم من سلالة الأنبيـاء العظام إبراهيم وإسحاق ويعقـوب قد كفر منهم من كفر، وقد أكد الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في غير موضع من كتابه الكريـم حيث يقول في حق خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا نوحـا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتـاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقـون﴾ ومنها: أنه إذا فشت المعـاصي في قوم ولم يتناهـوا عن المنكر حلت عليهم لعنـــة الله، ومنهـا: ســـوء سلـــوك الكثير من بني إسرائيل في مـاضيهم وحاضرهم ففي الماضي لعنهم داود ثم عيسى عليهما السـلام، وفي الحاضر يبصر من له بصر سوء سلوكهم حيث يتولون الوثنيين أولياء الشيطان ويعادون المسلمين عبـاد الرحمن حيث يقول عـز وجل في هذا المقـام: ﴿ترى كثيرا منهم يَتَوَلَّـوْنَ الذين كفـروا، لبئس ما قَـدَّمَتْ لهم أنفُسُهُم أن سَخِطَ اللهُ عليهم وفي العذاب هم خالدون. ولو كانـوا يؤمنون بالله والنبي وما أُنزِلَ إليه

ما اتَّخَذُوهُمْ أوليـاءَ ولكِنَّ كثيرا منهم فاسِقُـونَ . ﴾ نسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفـاته العلى أن يسلك بنا صراطـه المستقيم، وأن يختم لنـا بخاتمة السعـادة إنه جـواد كـريم رءوف رحيم. وبهذا تم تفسير الجزء السـادس من القرآن الكريم. والحمد لله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿لَتجدنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارى، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا ما أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنَا مَعَ الشاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ ونَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ. فَأَثَابَهُم اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خالِدِينَ فِيهَا، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

بعد أن وبخ الله تبارك وتعالى من اتخذ معبودا غير الله الحي القيوم وأنكر على من فعل ذلك أشد الإنكار وأشار إلى أن من عبد غير الله فقد عبد من لا يملك لعابديه ضرا ولا نفعا وأعرض عن عبادة النافع الضار الحي القيوم السميع العليم وأعلن عز وجل أن سبب ضلال الكثير من الناس هو الغلو في الدين واتباع أهواء الضالين شرع هنا في تأكيد ما انطوت عليه نفوس اليهود والمشركين والنصارى نحو المسلمين وأن أشد الناس على الإطلاق عداوة للمؤمنين هم اليهود وأن الوثنيين الذين لم يتبعوا كتابا ولم ينقادوا لرسول من رسل الله صلى الله عليهم وسلم يشاركون اليهود في نفس هذه الدرجة من العداوة للذين آمنوا، وأن النصارى هم أقرب الطوائف الثلاث ليناً وأملاً في قبول الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ وأقل تعنتاً، والمقصود من ذلك رسم الطريق للدعاة إلى الله عز وجل بتعريفهم بنفوس المدعوين حتى يكونوا على بصيرة فيما يستقبلونه في دعوة هؤلاء الطوائف، ولاشك أن معرفة الداعية بنفوس المدعوين له أثر كبير في أسباب نجاح الدعاة في دعوتهم إلى الله عز وجل، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿لَتجدنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ

آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّـذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَـوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَـالُوا إِنَّا نَصَـارى﴾ أي إن قصـدت أن تعـرف مَن أشـد النـاس عـداوة للمـؤمنين، وتتبعت أحوال الطوائف طُرًّا، وأحطت بها لديهم خبراً، واجتهدت في تعرف أحوالهم الظـاهرة والباطنـة، وسعيت في تطلب ما عندهم من الأمـور البارزة والكامنة لتجـدن أشد الناس عدواة للمؤمنين اليهود والـذين أشركوا ولتجدن النصـارى أقـرب من اليهـود والمشركين قبـولاً للحق، ولاشك أن الـذين استجابوا للإسلام من النصارى كانوا أكثر من اليهود والمشركين بكثير. وليس هذا مدحا للذين قالوا إنـا نصارى من حيث كونهم نصارى وهم يقولون: إن الله هو المسيح ابن مـريم وماداموا يقـولون: إن الله ثالث ثلاثـة، والمعلوم أن المدح في الجملة لا يقتضي كون كـل واحد من أفراد هذه الجملة ممـدوحا، بل إنما ينصرف المدح لمن يستحقـه منهم، وقـد أشار الله تبـارك وتعـالى إلى ذلك حيث يقول في بيان سبب كون النصارى أقرب مودة للذين آمنوا: ﴿ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانـا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أُنْزِلَ إلى الـرسول ترى أعينهم تَفِيضُ من الدمع ممـا عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنـا فاكتبنا مع الشاهديـن. ومالنا لا نؤمن بالله ومـا جاءنا من الحق ونطمع أن يُـدْخِلَنَا رَبُّنَا مع القوم الصـالحين﴾ وقوله عز وجل: ﴿ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسِينَ ورهبـانا﴾ ليس ثناء على كل قسيس أو راهب، وليس مدحا لهذين الوصفين، إنما الثناء على من كان قسيسا أو راهبـا ثم عرف أن دين محمد ﷺ هو الـدين الحق وأنه دين الإسلام وأن من يبتغي غير الإسلام دينا فلن يقبل منه فسارع إلى الدخول في الإسـلام واستمسك بشرائعـه، ولـذلك لا يوصف أحـد من هـؤلاء بعـد الـدخـول في الإســلام بأنـه قسيس أو راهب، كما لا يـوصف اليهـودي أو النصراني إذا دخل في الإســلام بأنــه يهودي أو نصراني، والقسيـس والقُسُّ والقَسُّ والقِسُّ هـو رئيس النصارى في العلم والـدين، وأصله في اللغـة تتبع

الشيء وطلبه، قال رؤبة بن العجاج يصف نساء عفيفات لا يتتبعن النمائم:

يصبحن عن قس الأذى غوافلا

ويقال: تقسست أصواتهم بالليل أي تسمعتها. والرهبان جمع راهب وهو من كان من النصارى يتعبد في الصوامع ولا يخالط الناس من الرهبانية والترهب وهو التعبد في الصوامع مع اعتزال النساء، وقد ابتدع النصارى الترهب، وشددوا على أنفسهم فيه كما قال عز وجل: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾ استثناء منقطع أي لم نفرضها عليهم لكنهم ابتدعوها من قبل أنفسهم اجتهادا منهم في طلب مرضاة الله، فصاروا كمن أجهد نفسه في السير وانبت، فلا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، ولذلك كان رسول الله ﷺ ينهى عن التشدد والتنطع في الدين، ويأمر بالرفق وبالتيسير.

وقد ثبت أن النجاشي لما سمع القرآن من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بكى وفاضت عينه من الدمع حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم فقد قال ابن إسحاق في السيرة النبوية: حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة بنت أبي أمية ابن المغيرة زوج رسول الله ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه. ثم سلاه

أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوافي دينك، وجاءوا بدين، ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي ثم قال: لا ها الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنا في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوا ـــ وقد دعا

النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ـ سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الـذي قد فـارقتم فيه قـومكم ولم تدخلـوا في ديني ولا في دين أحد من هـذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقـه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصـدق الحديث، وأداء الأمانـة وصلة الـرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والـدماء، ونهانـا عن الفواحش وقـول الزور وأكل مـال اليتيم وقذف المحصنـات، وأمرنـا أن نعبد الله وحـده لا نشرك به شيئـا، وأمرنـا بالصـلاة والزكاة والصيـام ـ قالـت: فعدد عليه أمور الإسـلام ـ فصدقنـاه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنـا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينـا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينـا قومنا فعذبونـا، وفتنونا عن دينـا، ليردونـا إلى عبـادة الأوثـان من عبـادة الله تعـالى، وأن نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جـوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك، قالت: فقـال له النجاشي: هل معك مما جـاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال لـه جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقـرأه عليَّ، قالت: فقرأ عليه صـدراً من: ﴿كهيعص﴾ قالت: فبكى والله النجـاشي حتى اخضلت لحيتـه، وبكت أسـاقفته حتى أخضلـوا مصـاحفهم، حين سمعـوا ما تـلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جـاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحـدة، انطلقـا فـلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكـادون. إلخ الحديث.

وبكاء النجاشي وأساقفتـه لما سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ ممـا تُفسَّر به هذه

الآيات و إن كـانت هذه الآيات مدنيـة وقصة النجاشي وأساقفتـه كانت قبل الهجرة إذ لا مانع يمنع من صدقهـا عليهم ووصفها لحالهم وحال أمثالهم ممن أشار الله عز وجل إليهم في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿إنَّ الذين أُوتُوا العلمَ من قبله إذا يُتْلَى عليهم يَخِرُّون للأذقان سُجَّدًا. ويقـولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنـا لمفعولا. ويخرون للأذقـان يبكُونَ ويزيـدُهُم خشوعا﴾ ومعنى قـوله تبارك وتعـالى: ﴿ومالنا لا نؤمن بـالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يـدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ أي وأي شيء يحول بيننـا وبين الإقرار بوحدانية الله وبما أنزل على رسوله محمد ﷺ من القرآن ونرجو أن يحشرنا ربنا يوم القيامة مع الصالحين ويلحـق منازلنا بمنـازلهم في الفردوس الأعلى، ومعنى: ﴿فـأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خـالدين فيها وذٰلك جزاء المحسنين * والذين كفـروا وكذبـوا بآيـاتنا أولَئك أصحاب الجحيـم﴾ أي فجزاهـم الله بإحسانهم في أقـوالهم وأفعالهم جنات تجري من تحتها الأنهار لا يخرجـون منها ولا يتحولـون عنها لأن هـذا هو جـزاء المحسنين. أما من كفـروا بالله وكـذبوا بـآيـاتـه فهم أصحـاب النـار المخلـدون فيهـا الملازمـون لها، جـزاء كفـرهم وتكذيبهم، وما ربك بظلام للعبيد.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وَكُلُوا مما رزَقَكُمُ اللهُ حَلالا طَيِّبًا، واتَّقُوا اللهَ الَّذي أَنتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ. لا يُؤَاخِذُكُم اللهُ بِاللَّغْوِ فى أَيْمَانِكُم ولَكِن يُؤَاخِذُكُم بِما عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّام، ذُلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إذا حَلَفْتُمْ، واحْفَظُوا أَيْمَانكُمْ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾.

بعد أن ذكر عز وجل أن من النصارى قسيسين ورهبانا استجابوا لله ولرسوله محمد ﷺ وأنهم بكوا وفاضت أعينهم من الدمع عند سماع القرآن مما عرفوا من الحق وأنهم ضرعوا إلى الله عز وجل أن يكتبهم في الصالحين وأن يحشرهم في زمرة أمة محمد ﷺ وأن الله تبارك وتعالى استجاب دعاءهم، ووعدهم جنات النعيم، وتوعد الكافرين بملازمة عذاب الجحيم، نبَّه المؤمنين في هذا المقام وحذرهم من التنطع في الدين والتشبه بالقسيسين والرهبان الذين حرموا على أنفسهم الطيبات التي أحلها الله عز وجل لهم من المطاعم والمشارب وسائر الملذات المباحة، فانحرفوا عن فطرة الله التي فطر عليها الناس، وانقطعوا وعجزوا، حيث يقول عز وجل هنا: ﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يـاأيها الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به نبيهم ﷺ أنه حق من عند الله ﴿لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُم﴾ يعني بـ «الطيبات» اللذيذات التي تشتهيها النفوس، وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إياها، كالذي فعله القسيسون والرهبان، فحرموا على أنفسهم النساء، والمطاعم الطيبة، والمشارب اللذيذة، وحبس في الصوامع بعضُهم أنفُسَهُم، وساح في

الأرض بعضهم، يقول تعالى ذكره: فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك، ولا تعتدوا حد الله الذي حد لكم فيما أحل لكم وفيما حرم عليكم فتجاوزوا حده الذي حده، فتخالفوا بذلك طاعته، فإن الله لا يحب من اعتدى حده الذي حده لخلقه، فيما أحل لهم وحرم عليهم اهـ وقد أراد بعض أصحاب رسول الله ﷺ أن يعتزلوا النساء وأكل اللحم وأن يتركوا الطيب فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك فقد روى البخاري في صحيحه من طريق حميد بن أبي حميد الطويل أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. وقد أخرجه مسلم من طريق ثابت عن أنس أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. وقد قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكني أصوم

وأفطـر، وأنام وأقـوم، وآكل اللحم، وأتزوج النسـاء، فمن رغب عن سنتي فليس مني، ثم سـاق ابن كثير رحمه الله بعض الآثـار المرسلـة ثم قـال: ولها شاهـد في الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين كما تقـدم ذلك ولله الحمد والمنة اهـ والظاهر أن نسبة حـديث الصحيحين هنا إلى عائشة رضي الله عنها وَهْمٌ لأنـه من روايـة أنس رضي الله عنـه فيهما لا من روايـة عـائشـة رضي الله عنها، والعلم عند الله عز وجل، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحب المعتدين﴾ تنفير من التشبه بالذين كفروا من بني إسرائيل الذين لعنوا على لسـان داود وعيسى ابن مريم الـذين وصف الله عـز وجل سوء أفعـالهم بقـوله تبـارك وتعـالى: ﴿لُعِنَ الذين كفـروا من بني إسرائيل على لسـان داود وعيسى ابن مـريم ذٰلك بما عَصَـوْا وكانـوا يعتـدون﴾ وبيان أن من حـرم على نفسه ما أحلـه الله له، أو حلل ما حرم الله عليـه معتد أثيم مستحق لغضب الله ومقته وسخطه. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿وَكُلُوا مما رزقكم الله حلالا طيبا، واتقوا الله الـذي أنتم به مؤمنون﴾ زيـادة تأكيد لتجنب الرهبـانية، وتحريض على التمتع بما ساقه الله عـز وجل للمسلم من الرزق الحلال الطيب، وتحذير من تنـاول الحرام الخبيث، وتذييل الآيـة بقولـه عز وجل: ﴿واتقـوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ تأكيد للوقوف عند حدود الله وتحذير من الاعتداء عليها فإن الإيمان بالله عز وجل يوجب المبالغة في التقوى والانتهاء عما نهى الله عز وجل عنه. هذا ولما كـان المسلم قد يسبق منه أن يحرم على نفسه شيئـا مما أحله الله عز وجل له لعارض من العوارض التي قـد تعتريه فيحلف أنه لن يتناول هذا الشيء الـذي حـرمـه على نفسه ولا يقصـد من ذلك تعنتـا وتنطعـا وتشـددا واعتداءعلى حدود الله كما فعل الذين كفروا من بني إسرائيل ولعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم، أعقب الله تبـارك وتعالى نهيـه عن تحريم ما أحل الله ببيان أنه عز وجل قد فرض للمسلمين تحلة أيمانهم ورفع عنهم الحرج والإصر

والأغلال التي كـانت على الأمم السابقـة، وقد ذكـرت في تفسير قولـه تبارك وتعالى: ﴿كل الطعـام كان حِلا لبني إسرائيل إلا ما حـرَّمَ إسرائيلُ على نفسه من قبل أن تُنَـزَّلَ التـوراةُ﴾ أنه في الشرائع السماويـة السـابقة كـان إذا حلف الإنسان ألا يأكل طعـاما معيناً صار هـذا الطعام محرما عليه طـول عمره ولا كفارة له، وقد تفضل الله تبـارك وتعالى فخفف على أمة محمد ﷺ حيث شرع لهم الكفارة وفرض لهم تحلة أيمانهم كما قال عز وجل: ﴿ياأيها النبي لم تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ الله لك تبتغي مَرْضَاتَ أزواجك، والله غفور رحيم * قد فَرَضَ الله لكم تَحِلَّةَ أيمانكم، واللهُ مولاكم وهو العليم الحكيم﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وما كان مبـاحا قبل اليمين إذا حلف الرجل عليـه لم يصر حراما، بل له أن يفعلـه ويكفر عن يمينه، ومـا لم يكن واجبا فعلـه إذا حلف عليه لم يصر واجبا عليـه، بل له أن يكفر يمينه ولا يفعلـه، ولو غلظ في اليمين بأي شيء غلظها، فأيمان الحالفين لا تغير شرائع الدين وليس لأحد أن يحرم بيمينه ما أحله الله، ولا يوجب بيمينه مالم يوجبه الله، هذا هو شرع محمد ﷺ، وأما شرع من قبله فكان في شرع بني إسرائيل إذا حرم الرجل شيئا حرم عليه، وإذا حلف ليفعلن شيئـا وجب عليـه، ولم يكن في شرعهم كفـارة، قـال تعـالى: ﴿كلُّ الطعام كـان حِلا لبني إسرائيلَ إلا ما حـرَّمَ إسرائيلُ على نفسه من قَبْلِ أن تُنَزَّلَ التـوراةُ﴾ فإسرائيل حرم على نفسه شيئـا فحرم عليه، وقـال الله تعالى لنبينـا: ﴿ياأيها النبـي لم تُحَرِّمُ ما أحل الله لك تبتغي مَـرْضَـاتَ أزواجك والله غفور رحيم * قـد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ وهذا الفـرض هو المذكور في قـولـه تعـالى: ﴿يا أيها الـذين آمنـوا لا تُحَرِّمُـوا طيبـاتِ مـا أحل الله لكم ولا تعتدوا، إن الله لا يُحِبُّ المعتـدين * وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبـا، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون * لا يؤاخذُكُمُ الله بِاللَّغْوِ في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقـدتم الأيمانَ فكفـارتـه إطعـامُ عَشَرَةِ مسـاكينَ من أوسط مـا تطعمـون

أهليكم أو كِسْوَتُهُم أو تحريـر رقبة فمن لم يجد فَصِيَامُ ثلاثةِ أيـام، ذٰلك كفارةُ أيمانكم إذا حَلَفْتُمْ، واحفظـوا أيمانكم، كـذٰلـك يبين اللهُ لكم آيـاتـه لعلكم تشكـرون﴾ ولهذا لما لم يكن في شرع من قبلنا كفـارة بل كانت اليمين تـوجب عليهم فعل المحلوف عليـه أمر الله أيوب أن يأخذ بيـده ضغثًا فيضرب به ولا يحنث، لأنه لم يكن في شرعه كفارة يمين، ولـو كان في شرعه كفارة يمين كان ذلك أيسر عليه من ضرب امرأته ولو بضغث. اهـ وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولٰكن يؤاخذكم بما كسبت قلـوبكم، والله غفـور حليم﴾ أن الأيمان بـالنسبـة للمحلـوف بـه تنقسم إلى قسمين: قسم لا يجوز بحال من الأحـوال فهو محظور أبـدا وهو الحلف بغير الله وذكرت أدلـة تحريمه وأنه شرك وكفـر، أما القسم الثـاني من أقسام اليمين بالنسبة للمحلـوف به فهو الحلف بالله عـز وجل بذاته المقدسـة أو باسم من أسمائه الحسنى أو بصفـة من صفاتـه العلى، وهو ينقسم إلى ثـلاثة أقسـام: الأول: يمين اللغـو والثـاني اليمين المنعقـدة والثـالث: اليمين الغمـوس، وعرفت هنـاك كل قسم من هذه الأقسام وبينت حكمـه، وذكرت أن اليمين الغموس قد تسمى اليمين الصبر، واليمين الفـاجرة واليمين الكاذبة واليمين الزور، وقـد أوضح الله تبـارك وتعالى هنا كفـارة اليمين المنعقدة حيـث قال: ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحريـر رقبة فمن لم يجد فصيـام ثلاثـة أيام، ذٰلك كفـارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ فمن حلف على يمين فـرأى أن يـرجع عنهـا وأن يكفـر عن يمينـه فليفعل، وكفارتـه أن يطعم عشرة مساكين من أوسط طعام أهلـه أو يكسوهم أو يعتق رقبة فأي واحدة من هذه الثلاث فعل أجزأه ذلك وصار مكفرا عن يمينه فإن عجز الذي لزمته الكفارة عن ذلك وجب عليه أن يصوم ثلاثة أيام، وقوله عز وجل: ﴿واحفظـوا أيمانكم﴾ أي لا تضيعوا أيمانكم، بل صـونـوها وأدوا مـا

يجب عليكم فيها ولا تتهـاونوا بها، وقـوله عز وجـل: ﴿كذلك يبين الله لكم آيـاتـه لعلكم تشكـرون﴾ أي مثل ذلك البيـان البـديع المحكم يبين الله لكم أعلام شريعتـه وأحكام دينه لتشكـروا الله عز وجل على مـا تفضل به عليكم حيث منحكم دينـا قويما غير ذي عـوج، وجعلكم على ملـة سمحة بيضـاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ. وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ. لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.﴾

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن تحريم ما أحل الله، وحذرهم من التنطع في الدين، ونهى عن مشابهة الرهبان والقسيسين الذين حرموا على أنفسهم طيبات ما أحل الله لهم، وأشعرهم أن تحريم الطيبات اعتداء على حق الله تعالى وحده الذي له أن يحلل ويحرم، وأشار إلى أنه عز وجل قد وسع على أمة محمد ﷺ إذ فرض لمن حرم على نفسه شيئا من الطيبات وحلف على ألا يقربها أن يكفر عن يمينه بخلاف ما كان على الأمم السابقة الذين كانوا إذا حرم أحدهم شيئا وحلف على ذلك صار هذا الشيء محرماً عليه طول عمره ولم يشرع لهم الكفارة ليعرف المؤمنون بمحمد ﷺ فضل الله عليهم ويشكروه على ما يسره لهم من الشريعة السمحة الكاملة الصالحة لأهل كل عصر ومصر إلى يوم القيامة، شرع هنا ينهى المؤمنين عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ويوضح لهم الآثار السيئة المترتبة على اقتراف هذه المحرمات حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصابُ والأزلام رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ وقد ذكرت في تفسير قوله عز

وجل: ﴿يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإِثْمُهُمَا أكبر من نفعهما﴾ أنه لما كان العرب في جاهليتهم قد استغرقوا في شرب الخمر وغلبتهم حتى صار بعضهم لا يكاد يصحو منها وكان تحريمها دفعة واحدة قد يؤدي إلى نفرتهم عن الإسلام كما ذكر عن الأعشى أنه لما توجه إلى المدينة ليسلم وعلم بذلك مشركو قريش خافوا أن يكون لشعره أثر في نشر دعوة الإسلام فلقيه بعضهم في الطريق فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم أنه يريد محمدا ﷺ، فقالوا: لا تصل إليه، فإنه يأمرك بالصلاة، فقال: إن خدمة الرب واجبة، فقالوا: إنه يأمرك بإعطاء المال للفقراء، فقال: إن اصطناع المعروف واجب، فقالوا له: إنه ينهى عن الزنى، فقال: هو فحش وقبيح في العقل، وقد صرت شيخا فلا أحتاج إليه، فقيل له: إنه ينهى عن شرب الخمر، فقال: أما هذا فإني لا أصبر عليه، فرجع وقال: أشرب الخمر سنة ثم أرجع إليه، فلما رجع من الطريق سقط عن البعير فانكسرت عنقه، فمات فلم يصل إلى منزله، فكان من حكمة العليم الخبير التدرج في تشريع تحريم الخمر على أربعة أطوار، حيث أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ قبل الهجرة وهو يعدد آلاءه ونعمه على خلقه، ويذكرهم بآياته وآثار قدرته، فقال في سورة النحل: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حَسَنًا﴾ ففي هذا إيماءة إلى التنديد باتخاذ المسكر من ثمر النخيل والعنب بجعله خمرا، حيث عطف عليه الرزق الحسن كأنه قال لهم: تجعلونه رزقا رديئا ورزقا حسنا، ولا شك أن هذا الأسلوب في لفت انتباه النفس إلى التوقف عن شرب الخمر في الدرجة العليا من أساليب التربية والتعليم والتحذير، قال في القاموس المحيط: والسكر محركة الخمر اهـ أما الطور الثاني فكان في هذا المقام الكريم من سورة البقرة حيث يقول: ﴿يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾

وبعد أن بيَّنت معنى الخمر والميسر ذكرت أن الطور الثالث من أطوار تشريع تحريم الخمر هو النهي عن شرب الخمر عند قربان الصلاة حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تَقْرَبُوا الصلاة وأنتم سُكَارَى حتى تعلموا ما تقولون﴾ ثم كان الطور الرابع والأخير هو الجزم والتصريح بتحريمها مطلقا حيث يقول عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطانُ أن يُوقِعَ بينكم العداوةَ والبغضاء في الخمر والميسر ويَصُدَّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم مُنْتَهُونَ﴾ فقد روى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي من طريق أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال عمر: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شفاءً فنزلت الآية التي في البقرة ﴿يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ الآية، قال: فدعي عمر فقرئت عليه، قال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شفاءً، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تَقْرَبُوا الصلاة وأنتم سُكَارَى﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة ينادي: ألا لا يَقْرَبَّن الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شفاءً، فنزلت هذه الآية: ﴿فهل أنتم مُنتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا، وقد صحح هذا الحديث علي بن المديني والترمذي. وقد قرن الله تبارك وتعالى في هذا المقام من سورة المائدة بين الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وحكم عليها جميعا بأنها رجس من عمل الشيطان للتنفير الشديد من الخمر والميسر وتفظيع تعاطيهما حيث ربطهما مع عبادة الأوثان التي هي أكبر الكبائر وأفحش الجرائم برباط واحد وقد أكد الله تبارك وتعالى تحريم الخمر والميسر في هذه الآية بألوان من فنون التأكيد حيث صدرت بنداء أهل الإيمان المقتضي للانزجار عنهما وقرنا بالأنصاب والأزلام وسماهما رجسا من عمل

الشيطـان الـذي لا يعمـل إلا الشر ولا يأمـر إلا بـالفحشـاء والمنكــر وأمـر بـاجتنـابهما المقتضي لـلابتعـاد عنهما، وأشـار إلى أن تعـاطيهما يـورث الخيبـة والخسران وأن الابتعـاد عنهما من أعظم أسبـاب الفلاح، وقـد حصر الخمـر والميسر في النجاسة وفي كونهما من عمل الشيطـان مؤكدا ذلك بإنما مما يجعلهما شرا بحتـا لا خير فيهما بوجـه من الـوجوه، ثـم أضاف إلى ذلك بيـان بعض مفاسدهما الدينية والدنيويـة حيث قال: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاءَ في الخمر والميسر ويصـدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهـون﴾ فقـد أكـد العليم الحكيم الخبير أن الخمـر والميسر يـورث كل واحـد منهما لمن يتعاطـونـه العـداوة والبغضاء ويصـدهم عن ذكـر الله وعن الصلاة. وهذا أمـر مشاهد ملموس محسـوس، فإن الخمر أم الخبائث تجعل صاحبها يلعن نفسه ويلعن أباه وأمـه وقد يُلقِي بأحب الناس إليه في التنور، وكم حدث بسببها من شجار، وكم أوصلت من يتعاطاها إلى الخزي والحسرة والنـدامة والعـار والشنار. وأمـا الميسر وهو القمار فكم خـرب من دار، وكم أجلس صـاحبه محزونـا مسلوب الأهل والمال ممتلئـا بـالحقـد والبغض لرفقـاء السوء مـن مقامـريه الأشرار، فللـه الحمد والشكـر على نعمة الإسـلام الذي أرشـد الله به العبـاد إلى سبل السلام. وفي قـولـه تبارك وتعـالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ تأكيـد للنهي عن قربان الخمر والميسر، وإيـراده بصيغة الاستفهام مرتباً على ما تقدم من أصناف الصوارف عنهما بالفاء إيذانا بأن الأمر في الزجر والتحـذيـر وكشف ما فيهما من المفـاسـد والشرور والقبـائح قد بلغ الغـايـة القصـوى وأن الأعذار قـد انقطعت بالكليـة وأصبح من له أدنى مسكـة من عقل يعـرف أنهما شر بحت ونجس صرف، وتخصيص الصلاة بعطفهـا على ذكر الله مع أنها من جملة أفراد الـذكر للتنبيه على عظيم فضلها وهي ولا شك عماد الدين. وقـوله تبارك وتعـالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسـول واحذروا،

فإن تـوليتم فاعلمـوا أنما على رسولنا البـلاغ المبين﴾ تأكيد وحـض على امتثال أوامر الله عز وجل وأوامـر رسوله ﷺ والانقياد لجميع تعـاليم الإسلام وتحذير شديد من مخالفة تعاليم الله وتعاليم رسـوله ﷺ فإن تعاليم الله وتعاليم رسوله ﷺ لا تأمـر إلا بخير ولا تنهى إلا عن شر، وتهديـد عظيم لمن أعـرض عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بأنه يعرض نفسه لعقاب الله لأن الحجة قد قامت عليه، وانتهـى عذره، وانقطعت علتـه، لأن رسول الله ﷺ قـد بلغ الرسـالة وأدى الأمانة وأقام الحجة وليس على الـرسول إلا البلاغ المبين، وليست قلوب العباد بيده ولا سيطرة له عليها. وقد صح الخبر أن ناسا لما سمعوا ما ذكر الله عز وجل هنـا عن الخمر والميسر خافوا على من كـان يشرب الخمر ويأكل من الميسر ومات أو استشهـد قبل التحريم فـأنزل الله: ﴿ليس على الذيـن آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا مـا اتَّقَوْا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتَّقَوْا وآمنوا ثم اتقَوْا وأَحْسَنُوا، والله يحب المحسنين﴾ لتأكيد رفع الحرج عنهم لأنهم لم يطعموا شيئا من ذلك بعد التحريم، وقد كانوا وقافين عند حدود الله مؤتمريـن بأمر الله وأمـر رسوله ﷺ أي لا جنـاح ولا حرج ولا إثم على مـؤمن يعمل الصـالحات إذا طعم شيئاً مـن الخمر أو الميسر أو غيرهما قبل أن ينـزل تحريمه مـادام لم يطعمه بعد التحـريم وكان مجتنبا للمحظـورات مستمرا على الإيمان وعمل الصالحات ثم خاف الله عز وجـل في اجتنابه محارمه فثبت على اتقـاء الله في ذلك والإيمان بـه ولم يغير ولم يبـدل، ثم اتقى وأحسن، أي ثم خاف الله وراقبه كأنه يراه فكـان بذلك محسنا، إذ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. والله يحب المحسنين.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ، فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ. يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ، وَمَن قَتَلَهُ مِنكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ، عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ، وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ.﴾

قد نبه الله تبارك وتعالى المؤمنين في أول آية من هذه السورة المباركة إلى تحريم الصيد على المحرمين بحج أو عمرة، حيث قال عز وجل: ﴿غير محلي الصيد وأنتم حُـرُمٌ﴾، وأذن لهم في الآيـة الثـانية منهـا أن يصيـدوا بعـد التحلل من الإحرام حيث يقول عز وجل: ﴿وإذا حَلَلْتُمْ فاصطادوا﴾ وبعد أن حذر عز وجل أشد التحـذير من الخمـر والميسر، وبيَّن أضرارهما الدينيـة والدنيـوية، وأعلن أنـه لا جنـاح على من قـارفهما قبل نـزول تحريمهما لأنـه لم يجترئ على حرمـات الله، وأثنى على المؤمنين الوقافين عنـد حدود الله عـز وجل، الذين يراقبون الله تبـارك وتعالى في أفعالهم، ووصفهم بالإحسـان، وبشرهم بأنه عز وجل يحبهم، شرع هنا في تنبيه المؤمنين وتحذيرهم من قتل الصيد وهـم محرمون بحج أو عمـرة أو حالـة كـونهم داخل حدود الحرم وأعلمهم أنـه سيختبرهم بشيء من الصيـد وهم محرمـون يقترب منهم حتى يستطيع المحـرم أن يأخـذه بيـده أو يصيبه بـرمحه فمن خاف الله عـز وجل لن يتعرض لهذا الصيـد بأذى مـادام محرما، وهـذا الامتحان والاختبـار شبيـه بما اختبر الله عز جل بـه بني إسرائيل الـذي قصه الله عز وجـل عن أصحاب القريـة التي كانـت حاضرة البحر إذ ابتـلاهم وامتحنهم، فكانت الحيتـان ترفع رءوسها فـوق الماء مقبلة على الساحل يوم السبت ويسهل على من يريد صيدها أن يصيدها ـ والصيد

محرم عليهم يوم السبت ــ فإذا ذهب يوم السبت اختفت من الماء القريب منهم فلا يرونها إلى السبت الآخر، فاحتالوا على صيدها بوسائل، كأن يحفروا حياضا كبيرة تتصل بالبحر فتدخلها الحيتان يوم السبت ولا تستطيع الرجوع إلى البحر، فيصيدونها يوم الأحد والأيام الأخرى غير السبت ثم تجاهروا بالمعصية وصاروا يصيدون يوم السبت، فجعلهم الله قردة خاسئين، أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد نجحوا في الامتحان وفازوا فيه حيث خرجوا عام الحديبية يريدون البيت الحرام وهم محرمون فجعل الصيد يسقط عليهم تناله أيديهم ورماحهم، فخافوا الله عز جل وعصمهم تبارك وتعالى من تناوله، وحماهم من معصيته ومخالفة أمره، ولاشك أن هذه التربية العملية والنجاح فيها أبرز برهان على خوف أصحاب رسول الله ﷺ من ربهم، وأنهم أهل لأن يشرفهم الله بصحبة أفضل خلقه محمد ﷺ وأن يكونوا أفضل أتباع الأنبياء على الإطلاق، كما أنه لا شك أن من احترس من اقتراف المحرم تحريما مؤقتا كان أبعد خلق الله عن اقتراف المحرمات على التأبيد ولاسيما الخمر والميسر، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يـاأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب، فمن اعتدى بعد ذلك فَلَهُ عَذَابٌ أليم﴾ أي يا معشر من استجاب لله ولرسوله محمد ﷺ ليختبرنكم الله تبارك وتعالى بشيء من الصيد أي ببعض الصيد المحرم عليكم اصطياده وأنتم محرمون يسقط عليكم ويغشاكم هذا الصيد البري في رحالكم حيث تصيرون متمكنين من صيده بواسطة أيديكم أو بواسطة رماحكم ليتميز المطيع من العاصي وليبرز في عالم الوجود ما كان معلوما لله عز وجل قبل الخلق والتكوين من طاعة المطيع ومعصية العاصي ويظهر من يخاف الله عز وجل ويراقبه في الغيب والشهادة ويتسم بالإحسان الذي يحبه الله عز وجل، وأما من اعتدى على حرمات الله بعد هذا الإعلام والبيان والإنذار فإنه

يستحق العقـاب الموجع المؤلم. ثم شرع تبـارك وتعـالى في تأكيـد تحريم قتل الصيد على من كـان محرما، وبيان الجزاء المرتب على المحـرم إذا قتل الصيد، والتحذيـر الشديد من معاودة ارتكـاب هذا المحظور حيث يقـول عز وجل: ﴿يـاأيها الذين آمنـوا لا تقتلوا الصيـد وأنتم حُـرُمٌ، ومن قتله منكم مُتَعَمِّـدًا فجزاءٌ مِثْـلُ مَا قَتَلَ من النَّعَم يحكم بـه ذَوَا عَدْلٍ منكم هَـدْيًا بَالِـغَ الكعبة أو كفارةٌ طَعَـامُ مَسَاكِينَ أو عَـدْلُ ذٰلك صيـاما لِيَـذُوقَ وَبَالَ أمـره، عفا اللهُ عما سَلَفَ، وَمَنْ عَاد فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ، واللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ ومعنى: ﴿لا تقتلوا الصيد وأنتم حُرُمٌ﴾ أي لا تقتلوا الصيـد وأنتم محرمونٌ بحج أو عمرة وكذلك وأنتم داخلون في الحرم. وقـوله عـز وجل: ﴿ومن قتله منكم متعمـدا فجزاءٌ مثلُ ما قَتَلَ من النَّعَم﴾ الآية. أي ومن قتل منكم وهو محرم أو في الحرم صيدا وقد قتله متعمدا قتله قاصدا إزهـاق روحه، فعليه جزاءٌ فإذا كان لهذا الصيد نظيرٌ من بهيمة الأنعام وهـي الإبل والبقر والغنم ألزم بتقديم قـربان مثله من بهيمـة الأنعام يـذبح في مكة ويفـرق لحمـه على مساكين الحرم، وقـد قضى أصحاب رسول الله ﷺ وحكموا في النعامة ببـدنة أي ناقة، وفي بقرة الوحش ببقـرة، وفي الغزال بعنـز، وفي الضبع بكبش وقـد روى أبـو داود وابن ماجـه والدارمي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سألت رسول الله ﷺ عن الضبع قال: هـو صيد ويجعل فيه كبش إذا صاده المحـرم اهـ أما إذا كان الصيد الذي قتله المحرم لا مثيل لـه من بهيمة الأنعام فعلى من أصابه أن يتصـدق بقيمته وسـواء في ذلك من قتل الصيـد وهـو محرم عمـدا أو ناسيـا لإحرامه، وقد فسروا قوله تعالى: ﴿فمن قتله منكم متعمدا﴾ أي قاصدا قتله يعني ولـو كان نـاسيا لإحـرامـه. قال الإمـام محيي السنة البغـوي في تفسيره المسمى «معـالم التنزيل» في تفسير قـوله تبـارك وتعالى: ﴿يحكم بـه ذَوَا عدل منكم﴾ أي يحكم بالجزاء رجلان عدلان، وينبغي أن يكونا فقيهين ينظران إلى

أشبـه الأشيـاء بـه من النعم، فيحكمان بــه، وممن ذهب إلى إيجاب المثل من النعم عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وابن عمر وابن عباس وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم حكموا في بلدان مختلفة، وأزمان شتى بالمثل من النعم، فحكم حـاكمهم في النعامـة ببدنـة وهي لا تساوي بـدنة، وفي حمار الـوحش ببقـرة وهي لا تسـاوي بقــرة، وفي الضبع بكبش وهي لا تسـاوي كبشا، فدل أنهم نظروا إلى ما يقرب من الصيد شبهاً من حيث الخلقة، وتجب في الحمام شـاة، وهي كل مــا عَبَّ وهـدر من الطير كـالفــاختـة والقُمـريّ والدُّبْسيّ، وروى عن عمر وعثمان وابـن عباس رضي الله عنهم أنهم قضوا في حمام مكـة بشاة، أخبرنـا أبـو الحسن السرخسي أخبرنـا زاهر بـن أحمد نا أبـو إسحاق الهاشمي نا أبـو مصعب عن مالك عن أبي الزبير عن جـابر بن عبد الله أن عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه قضى في الضبع بكبش، وفي الغـزال بعنز، وفي الأرنب بعناق، وفي اليربوع بجفرة. اهــ وقوله تبارك وتعالى: ﴿أو كفارة طعامُ مساكين أو عدل ذٰلك صياما﴾ بيانٌ للواجب على من قتل صيدا وهو محرم ولم يجد مثيلا لهذا الصيد فإنه يخير قاتله بين أن يشتري بقيمته طعاما فيطعمـه للمسـاكين لكل مسكين نصف صـاع أو أن يصـوم عن كل نصف صاع يـوما ليكـون عدل الطعـام، ولابد أن يكـون الحكمان اللذان يحكمان في جـزاء الصيـد من أهل الخبرة والدرايـة مع وجـوب عـدالتهما. وقولـه تبـارك وتعـالى: ﴿ليـذوق وبـال أمـره﴾ أي قضى الله تبـارك وتعـالى بهذا الجزاء أو الكفارة على من قتل الصيد وهو محرم ليحس بفداحـة جريرته وليرتدع عن أن يعود لارتكاب هذا المحظور. قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿ليذوق وَبَـالَ أمره﴾ قـال أبو جعفـر: يقول جل ثناؤه: أوجبـت على قاتل الصيد محرمًـا ما أوجبت من الجزاء والكفـارة الذي ذكرت في هـذه الآية، كي يذوق وبال أمره وعذابه، يعني بأمـره: ذنبه وفعله الذي فعله من قتله ما نهاه

الله عز وجل عن قتله في حال إحرامه، يقول: فألزمته الكفارة التي ألزمته إياها لأذيقه عقوبة ذنبه بإلزامه الغرامة والعمل ببدنه مما يتعبه ويشق عليه، وأصل الوبال: الشدة في المكروه، ومنه قول الله عز وجل: ﴿فعصى فرعونُ الرسول فأخذناه أخذًا وَبِيلاً.﴾ اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿عفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه، والله عزيز ذو انتقام.﴾ إخبار من الله عز وجل بعفوه وتجاوزه عمن قتل صيدا وهو محرم قبل نزول هذا التحريم لدفع ما قد يحوك في نفوس هؤلاء الذين فعلوا ذلك من الوسواس، كما طمأن المسلمين لما خافوا على من مات وهو يشرب الخمر قبل نزول تحريمها على نفي الجناح عليهم في قوله عز وجل: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا﴾ الآية. ثم حذر عز وجل أشد التحذير من ارتكاب جريمة قتل الصيد في حالة الإحرام وهدد من استمر على ارتكاب هذه الجريمة بعد النهي عنها بأنه يعرض نفسه لعقوبة الله العزيز ذي الانتقام ولفظ «عاد» قد يأتي بمعنى: استمر ومنه قوله عز وجل: ﴿قل للذين كفروا إن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لهم ما قد سلف وإن يَعُودُوا فقد مضت سُنَّتُ الأولين﴾ أي وإن يستمروا على كفرهم فقد عرفوا ما أوقع الله تبارك وتعالى بالأمم الماضية المكذبة الكافرة. فالعود يستعمل في الرجوع إلى الشيء كما يستعمل في الاستمرار على الشيء والمضي فيه.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البَحْرِ وطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وللسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُمًا، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الحرامَ قِيَامًا للنَاسِ والشَّهْرَ الحرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ، ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مافى السمٰوات وما فى الأرضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. مَا عَلَى الرَّسُولِ إلا الْبَلاغُ، والله يعلم ما تُبْدُونَ وَمَا تكْتُمُونَ.﴾

بعد أن نهى الله عز وجل وتعالى عن قتل الصيد لمن كان محرما وأوجب على من قتل الصيد وهو محرم جزاء المثل يحكم به اثنان ذوا عدل من أهل الخبرة من المسلمين أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره، بيَّن هنا أن الذي يحرم قتله على المحرم هو صيد البر وأن صيد البحر حلال للمحرمين وأكد تحريم صيد البر حيث يقول عز وجل: ﴿أُحلَّ لكم صيدُ البحر وطعامه متاعًا لكم وللسيارة وَحُرِّمَ عليكم صيد البر مادمتم حُرُمًا﴾ أي وأبيح لكم أن تصيدوا ما شئتم من الحيوانات البحرية وأن تأكلوا من لحومها وتتزودوا منها سواء كنتم محرمين أو محلين بلاغا ومنفعة وتوسعة من الله عزوجل عليكم مقيمين ومسافرين طريًّا وقديدا. والمراد بصيد البحر: ما لا يعيش إلا في الماء ويفرخ ويبيض فيه من السمك وسائر أنواع الحيتان، والمراد بالبحر: الماء مطلقا سواء كان عذبا فراتا أو ملحا أجاجا، وسواءكان الماء جاريا أو راكدا، والمراد بالسيارة: القافلة المسافرون، فالسيارة جمع سيار وهو الكثير السير في السفر، وهذا امتنان من الله تبارك وتعالى بما يسَّره على عباده المؤمنين حيث أباح لهم صيد البحر فلهم أن يصيدوه ولهم أن يقتلوه وأن يأكلوه بلا حرج عليهم ولا عقوبة تلحقهم، بخلاف صيد البر فإنه لا يحل لهم أن يقتلوه وأوجب على من قتله جزاء أو كفار ةوتوعد بالعقاب والانتقام

ممن يتعدى على صيد البر وهـو محرم كما تقدم في الآية السابقـة ، ولذلك أكد هنا تحريم صيد البر قتلا أو أكلا حيث يقول عز وجل : ﴿وَحُرِّمَ عليكم صيد البر مـادمتم حـرمـا﴾ بخلاف صيـد البحـر فقـد أحل لهم أن يصيـدوه وأن يأكلوه ، وقـد أذن رسول الله ﷺ للمحرم أن يأكل من صيـد البر إذا لم يصده هو ولم يكن قد أعان عليه من صاده أو دله عليه أو أشار إليه أو قد صِيد من أجلـه ، فقـد روى البخاري ومسلم مـن حديث أبي قتـادة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ خـرج حاجا، فخرجـوا معه ، فصرف طائفـة منهم ، فيهم أبو قتادة ، فقال : خذوا ساحل البحـر حتى نلتقي ، فأخذوا ساحل البحر، فلما انصرفـوا أحــرمـواكلهم إلا أبــا قتـادة لم يحرم ، فبينما هم يسيرون إذ رأوا حمر وحش ، فحمل أبـو قتادة على الحمـر، فعقر منهـا أتـانا ، فنـزلوا فأكلـوا من لحمهـا ، وقالـوا : أنأكل لحم صيد ونحن محرمـون؟ فحملنا مـا بقى من لحم الأتان ، فلما أتوا رسول الله ﷺ ، قـالوا : يارسول الله إنا كنا أحـرمنا ، وقد كان أبـو قتادة لم يحرم ، فـرأينا حمر وحش ، فحمل عليهـا أبو قتـادة ، فعقر منهـا أتانًـا ، فنزلنـا فأكلنا من لحمهـا ، ثم قلنا : أنأكل لحم صيـد ونحن محرمون؟ فحملنا ما بقى من لحمها ، قال : أمنكـم أحد أمره أن يحمل عليها؟ أو أشار إليها؟ قالـوا : لا. قال : فكلوا ما بقى من لحمها . اهـ وقـوله في هذا الحديث (خرج حاجا) أراد الحج اللغوي وهو قصد البيت والإحرام على سبيل التوسع في اللفظ لأنه لاشك أن هـذه القصة كـانت عام الحديبيـة كما جاء في بعض ألفاظ الصحيحين وكان النبي ﷺ قد خرج معتمرا فإطلاق الحج على العمرة جاء على سبيل التوسع وهو صحيح في اللغـة . وقوله عز وجل : ﴿واتقوا الله الذي إليه تُحْشَرُون .﴾ ترغيب في طاعة الله وترهيب من معصيته بتذكير عباده وتنبيههم بأن مردهم إلى الله وأنهم مجموعون بين يديه يوم القيامة ليجزي الذين أساءوا بما عملـوا ويجزي الذين أحسنـوا بالحسنـى قال ابن جـرير رحمه الله :

القول في تأويل قوله: ﴿واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ قال أبو جعفر: وهذا تقدُّم من الله تعالى ذكره إلى خلقه بالحذر من عقابه على معاصيه، يقول تعالى ذكره: واخشوا الله أيها الناس واحذروه بطاعته فيما أمركم به من فرائضه، وفيما نهاكم عنه في هذه الآيات التي أنزلها على نبيكم ﷺ من النهي عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وعن إصابة صيد البر وقتله في حال إحرامكم، وفي غيرها، فإن لله مصيركم ومرجعكم، فيعاقبكم بمعصيتكم إياه، ويجازيكم فيثيبكم على طاعتكم له اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿جَعلَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياما للناس والشهرَ الحرامَ والهدي والقلائد، ذٰلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾ قال الفخر الرازي: اعلم أن اتصال هذه الآية بما قبلها هو أن الله تعالى حرم في الآية المتقدمة الاصطياد على المحرم، فبيَّن أن الحرم كما أنه سبب لأمن الوحش والطير، فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة اهـ وقد بين الله تبارك وتعالى في سورة النساء أنه جعل الأموال قياما للناس حيث يقول عز وجل: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما﴾ كما بين عز وجل هنا أنه جعل الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد، للإشارة إلى أن قيام الناس وصلاح معاشهم ومعادهم لابد فيه من أمرين ضروريين وهما الدين الذي يقوِّم أرواحهم، والمال الذي يقوِّم أبدانهم، ولاشك أن تعظيم البيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد من أعظم أسباب الطمأنينة والأمن لأم القرى ولقاصدي البيت الحرام من جميع جهات الأرض، وقد أكد الله تبارك وتعالى على وجوب تعظيم شعائره وحرماته، وأن ذلك يجلب الخير والسعادة لمن يعظم هذه الشعائر والحرمات حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ذٰلك ومن يُعَظِّمْ حرماتِ الله فهو خير له عند ربه﴾ ويقول:

﴿ذٰلك ومن يُعَظِّمْ شعائرَ اللهِ فإنها من تقوى القلوب﴾ وقد صدر الله سورة المائدة بتنبيه المؤمنين إلى تحريم شعائر الله وتعظيمها مما يأمن به الوحش والطير والإنسان ونص في ذلك على تحريم الصيد عل المحرمين وتحريم انتهاك شعائر الله ومناسك الحج والشهر الحرام والهدي والقلائد والآمِّين البيت الحرام حيث قال عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا أوفُوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حُرُمٌ، إن الله يحكم ما يريد. ياأيها الذين آمنوا لا تُحِلُّوا شعائر الله ولا الشهرَ الحرامَ ولا الهديَ ولا القلائد ولا آمّينَ البيتَ الحرامَ يبتغُون فضلا من ربهم ورضوانا، و إذا حللتم فاصطادوا،﴾ وقد ذكرت في تفسير الآية الثانية من هذه السورة المباركة المراد بالشهر الحرام والهدي والقلائد، وقد سقت في تفسيرها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. وقال: أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس ذا الحجة قلنا: بلى. قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس البلدة؟ قلنا: بلى، قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد فليبلغ الشاهد

الغـائب ، فـرب مبلَّغ أوعى من سـامع . وفي هـذا الحديث إشـارة إلى أن الله تبارك وتعالى جعل الكعبة البيت الحرام والشهـر الحرام والهدي والقلائد قياما للناس وصيانة لدينهم وسلامة لأبدانهم وحماية لدمائهم وأعراضهم وأموالهم ، وقد ألقى الله تبارك وتعالى في نفوس النـاس حتى أيام الجاهلية تعظيم الكعبة البيت الحرام حتى كرر الله تبـارك وتعالى في كتابـه الكريم امتنانـه بذلك على أهل مكة ومن حـولها حيث يقول : ﴿وقـالوا : إن نتبع الهدى معك نُتَخَطَّفْ منْ أرضنا ، أو لم نمكن لهم حَرَمًا آمنا يُجْبَى إليه ثمرات كلِّ شيء رزقا مِن لَدُنا ولَكنَّ أكثرهم لايعلمـون﴾ وقال عز وجل : ﴿أو لم يـروا أنا جعلنا حرمـا آمنا ويُتَخَطَّفُ الناسُ من حـولهم ،﴾ ومعنى قوله عـز وجل : ﴿ ذٰلك لتعلموا أنَّ الله يعلم مـا في السمٰوات وما في الأرض وأنَّ الله بكل شيء عليـم . اعلموا أنَّ الله شديد العقاب وأنَّ الله غفور رحيم . ما على الرسول إلا البلاغ ، والله يعلم مـا تبدون ومـا تكتمـون . ﴾ أي صيرت لكم أيها الناس الكعبـة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد كي تعلموا أن من شرع لكم هذا الشرع القـويم مما بـه قوامكم ومصـالح دينكم ودنيـاكم علما منه بمنـافعكم ومضاركم أنـه كذلك يعلم جميع ما في السموات ومـا في الأرض وأنه لا يخفى عليـه شيء من أعمالكم ، وهو محصيهـا عليكم ومجازيكم بها وأيقنـوا أنه عـز وجل شديد عقابه من عصاه وتمرد عليه ، وهو غفور لذنوب من أطاعه وأناب إليه رحيم بعبـاده المؤمنين ، وليس على الرسـول إلا البلاغ ، لا سيطـرة له على قلوب الناس ، والله عـز وجل وحده هو الذي يعلم مـا أعلنتم وما أخفيتم ، وهذا التـأكيد العظيم على علم الله تبـارك وتعالى لتربية ملكـة الخوف من الله تبارك وتعـالى في نفوس عباده ، فإن من تربت فيـه ملكة الخوف من الله وقف عند حدوده وائتمر بأوامره وانزجر عن معاصيه ، وصار من المحسنين .

قال تعـالى : ﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ والطَّيِّبُ ولـو أَعْجَبكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ، فَاتَّقُـوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَـابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . يَأَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا لا تَسْـأَلُواعَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُـوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا، وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِن قَبْلِكُمْ ثُم أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ .

بعـد أن نبه تبـارك وتعالى النـاس إلى أنـه لا قوام لهم إلا بـدين الله ، فمن استمسك بالدين طابت له الدنيا وفاز في الآخرة، ومن كفر بالدين لم تطب له الدنيا ولم يسعد في الآخرة شرع هنا في الحض على الاستمساك بشريعة الله وإن قل المستمسكون بها، والتنفير من الانحـراف عن الهدى وإن كثر المنحـرفون عنه فأمر نبيه وحبيبه وسيد خلقه محمدا ﷺ أن يلفت انتباه من قد يغتر بكثرة الطالحين وقلة الصالحين بأن الخبيث والطيب لا يستويان، فمن كان له عقل وإدراك لحقائق الأشياء أيقن أن الرشد في سلوك الصراط المستقيم وأن الغواية اتباع المنحرفين فليس المحسن كالمسيء كما قـال عز وجل : ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملـوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أمن نجعل المتقين كـالفجار﴾ وفي ذلك يقول عز وجل هنـا : ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث، فاتقوا الله ياأولي الألباب لعلكم تفلحون﴾ والكاف في قوله عز وجل : ﴿ولـو أعجبك﴾ لمن يـوجه رسـول الله ﷺ لـه الخطاب ممن قـد يغتر بكثرة المنحـرفين فيستدل بكثـرتهم على صحة مذهبهـم، وليس المخاطب بها رسول الله ﷺ لأنـه صلوات الله وسـلامه عليـه لا يعجبه كثـرة الخبيث، ومما يؤكد أن الخطـاب في قوله ﴿ولو أعجبك﴾ ليس لـرسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى قال بعدها مباشرة : ﴿فـاتقوا الله ياأولي الألباب لعلكم تفلحون﴾ أي فراقبوا ربكم في جميـع أعمالكم، واحذروا عقابه، وائتمروا بـأمره، وانتهوا عما نهاكم عنه يـاذوي العقول وتجنبوا الحرام مهما كـان واقنعوا بالحلال واكتفـوا به

لعلكم تفوزون في الدنيا والآخرة، وأيقنوا أن الله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيبا، فلو تصدق إنسان بقنطار من مال حرام فإنه ـ مهما أعجب من يراه ـ فإنه لا يساوي عند الله جناح بعوضة، ولا يعدل من تصدق بنصف تمرة من مال طيب، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يا أيها الرسل كُلُوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك. كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل. وفي رواية لمسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو قلوصه، وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه، فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو قلوصه حتى تكون مثل الجبل أو أعظم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين يُنَزَّل القرآنُ تُبْدَ لَكُمْ عفا الله عنها، والله غفور حليم. قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ تعليم للمؤمنين وتربية لهم على أحسن مناهج السلوك عند الاستفسار وطلب ما يحتاجون إلى معرفته من العلم،

وتعريف لهم بآداب السؤال، وتحذير لهم من دسائس بعض الذين في قلوبهم مرض ممن يثير أسئلة لا حاجة له فيها ولا فائدة من سؤالها، وقد يريد بها الاستهزاء بالمسئول أو إثارة الشكوك والشبهات والنزاع بين المسلمين، وترهيب من أن يكون السؤال سببا لحرمان المسلمين من خير أو جلب المشقة عليهم، أو أن يعود بالعاقبة السيئة على السائلين، والخطاب وإن كان موجها للمؤمنين فإنه ردع لغيرهم على حد قول القائل: إياك أعني واسمعي يا جارة، لأن المؤمنين لا يسألون رسول الله ﷺ استهزاء أبدا، ولايتأتى من مؤمن ذلك بحال من الأحوال، وقد صحت الأخبار التي تؤكد أن هذه الآية الكريمة تشمل هذه الصور كلها حتى قيل في كثير من هذه الصور: إن هذه الآيةَ نزلت فيها، فقد روى البخاري في التفسير في باب قوله: ﴿لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تَسُؤكُم﴾ من طريق موسى بن أنس عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، قال فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين، فقال رجل: من أبي؟ قال: فلان، فنزلت هذه الآية: ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ ثم ساق البخاري من طريق أبي الجويرية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تَسُؤكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها. وأخرج البخاري في كتاب الفتن من صحيحه في باب التعوذ من الفتن من طريق قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فصعد النبي ﷺ ذات يوم المنبر فقال: لا تسألوني عن شيء إلا بينت لكم، فجعلت أنظر يمينا وشمالا فإذا كل رجل رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان إذا لاحى

يُدعى إلى غير أبيه فقال: يانبي الله من أبي؟ فقال: أبوك حذافة، ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، نعوذ بالله من سوء الفتن، فقال النبي ﷺ: ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إنه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط، قال قتادة: يذكر هذا الحديث عند هذه الآية: ﴿يا أيا الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ وأخرج البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيحه في باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف مالا يعنيه وقوله تعالى: ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ ثم ساق من طريق عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أن النبي ﷺ قال: إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته، وقد أخرج مسلم هذا الحديث من طريق عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته. ثم ساق مسلم من طريق موسى بن أنس عن أنس بن مالك قال: بلغ رسولَ الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال: عرضت عليَّ الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً، قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه. قال: غطوا رءوسهم ولهم خنين، قال: فقام عمر فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا، قال: فقام ذاك الرجل فقال: من أبي؟ قال: أبوك فلان، فنزلت: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ ثم ساقه مسلم من طريق ابن شهاب قال: أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى لهم صلاة الظهر، فلما سلم قام على المنبر فذكر الساعة، وذكر أن قبلها أمورا عظاما. الحديث، وفيه: فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي يارسول الله؟ قال: أبوك

حذافة . ثم قال مسلم : قال ابن شهاب : أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قالت أم عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة : ما سمعت بابن قط أعق منك ، أأمنت أن تكون أمك قد قارفت بعض ما تقارف نساء أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟ قال عبد الله بن حذافة : والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وإن تسألوا عنها حين يُنَزَّلُ القرآنُ تُبْدَ لكم عفا الله عنها ، والله غفور حليم﴾ تنبيه للمسلمين إلى الاحتراز من كثرة الأسئلة بعد رسول الله ﷺ لما تحدثه من بلبلة أفكار المسلمين ، أما في حياة رسول الله ﷺ فإن من يسأل عن شيء فإن الوحي قد ينزل بجوابه وبيانه وقد يكون في هذا البيان تضييق عليكم ، لأن الله عز وجل قد فرض لكم فرائض وحدد حدودًا وحرم أشياء وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها . كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا ، فقام رجل : فقال : أكل عام يارسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا . فقال رسول الله ﷺ : لو قلت : نعم ، لوجبت ، ولما استطعتم ثم قال : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه . وقوله تبارك وتعالى : ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ تحذير مما وقع فيه بعض أمم الأنبياء السابقين حيث كانوا يسألون أنبياءهم المجيء بأشياء ، فإذا جاءتهم انتكسوا وكفروا بها .

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ ولا سَائِبَةٍ ولا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلى مَا أَنزَلَ اللهُ وإلى الرسول قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عليه آباءَنَا، أَوَ لَوْ كَانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ولا يَهْتَدُونَ. يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُم أنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، إِلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

بعد أن حذر الله تبارك وتعالى المؤمنين من دسائس بعض الذين في قلوبهم مرض ممن يسأل أسئلة لا فائدة من سؤالها وقد يريد بها الاستهزاء بالمسئول أو إثارة الشكوك والشبهات والنزاع بين المسلمين، ورهبهم من الوقوع فيما وقع فيه بعض من كفر من الأمم السابقين حيث كانوا يسألون أنبياءهم المجيء بأشياء فإذا جاءتهم كفروا بها وازدادوا ضلالا شرع هنا في توبيخ الكفار الذين يسلكون سبيل آبائهم الجاهلين حيث سلكوا في عبادتهم سبلاً لم يشرعها الله فاتخذوا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي التي لم يشرعها الله، حيث يقول عز وجل: ﴿ما جَعَلَ الله مِن بَحِيرَةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلة ولا حامٍ ولَكنَّ الذين كفروا يَفْتَرُونَ على الله الكذِبَ وأكثرهم لا يعقلون﴾ أي ما شرع الله عز وجل البحيرة ولا السائبة ولا الوصيلة ولا الحامي ولكن الجاهلين الجاحدين يختلقون على الله دينا لم يشرعه، وينسبون إلى الله مالم يقله، وأكثرهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا. ولفظ ﴿جعل﴾ يجيء في اللغة العربية لمعان كثيرة، فتأتي ﴿جعل﴾ بمعنى شرع كقوله عز وجل هنا ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ أي ما شرع الله عز وجل ذلك، وتأتي بمعنى بيَّن كقوله عز وجل: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ وتأتي بمعنى خلق كقوله عز وجل: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ وتأتي بمعنى التشريف كقوله عز

وجل : ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قيـاما للناس﴾ وتأتي لمعـان غير هذه المعاني كما نص على ذلك أئمة اللغة . قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط : قال الأزهري : قـال أبو إسحاق النحوي : أثبت مـا روينا عن أهل اللغة في البحيرة أنها النـاقة كـانت إذا نُتِجت خمسة أبطن فكـان آخرهـا ذكرا بحروا أذنها أي شقوهـا وأعفوا ظهرها من الـركوب والحمل والذبح ، ولا تُحْلأ عن مـاء ترده ، ولا تمنع من مـرعى ، وإذا لقيها المعيي المنقطَع بـه لم يركبهـا ، وجاء في الحديث : أن أول من بحـر البحائر وحمى الحامي وغير دين إسماعيل عمـرو بن لُحَيٍّ بن قَمَعَـةَ بن جُنُـدب اهـ وقـولـه : قمعـة بن جنـدب خطأ وصوابـه : قمعة بن خِنْـدَف كما في البخاري ومسلم ، فقـد روى البخاري في المناقب في باب قصة خزاعة من طريق أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة ، حدثنا أبو اليمان أخبرنـا شعيب عن الزهري قال : سمعت سعيـد بن المسيب قال : البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء قال : وقال أبو هريرة : قال النبي ﷺ : رأيت عمرو بن عـامر بن لحي الخزاعي يجر قُصْبه في النـار، وكان أول من سيب الســوائب . وأخرج البخـاري في تفسير هذه الآية مـن سورة المائدة من طريق الزهـري عن عروة أن عائشة رضي الله عنها قـالت : قال رسول الله ﷺ : رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمـراً يجر قصبه ، وهو أول من سيب الســوائب . وأخرج في صحيحـه من طريق أبي صـالح عن أبي هريـرة قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت عمـرو بن لحي بن قمعة بن خندف أخا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار. ثم أخـرج مسلم من طريق ابن شهاب قال : سمعت سعيد بن المسيب يقـول : إن البحيرة التي يمنع درها للطـواغيت فلا يحلبها أحـد من الناس ، وأمـا السائبة التي كـانوا يسيبـونها لآلهتهم فلا يحمل

عليها شيء، وقال ابن المسيب: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السيوب اهـ وعمرو بن لحي منسوب إلى جده فهو عمرو بن عامر بن لحي، وقومه خزاعة، ويقال لخزاعة بنو كعب نسبة إلى جدٍّ لهم، وقد أسند البخاري رحمه الله إلى سعيد بن المسيب رحمه الله قال: والوصيلة الناقة البكر تُبكِّر في أول نتاج الإبل ثم تُثَنِّي بعدُ بأنثى وكانوا يسيبونهم لطواغيتهم أن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر، والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه ودَعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي، وقال لي أبو اليمان: أخبرنا شعيب عن الزهري: سمعت سعيدًا اهـ والمقصود أن أهل الجاهلية كانوا يجعلون لأصنامهم هذه الأنواع من أنعامهم، وقد وبخهم الله تبارك وتعالى على ذلك وبيَّن أنهم منقادون في ذلك للشيطان حيث يقول عز وجل: ﴿إن يَدْعُونَ من دونه إلا إناثا وإن يَدْعُون إلا شيطانا مَريدًا. لَعَنَهُ اللهُ، وقال لأتخذَنَّ من عبادك نصيبا مفروضا. وَلأُضِلَّنَّهُمْ ولأُمَنِّيَنَّهُمْ ولآ مُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنعام﴾ الآية. وكما قال عز وجل: ﴿وقالوا هٰذه أنعام وحرث حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حُرِّمَتْ ظُهُورُها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه، سَيَجْزِيهم بما كانوا يفترون. وقالوا مافي بُطُونِ هٰذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومُحَرَّمٌ على أزواجنا وإن يكن مَيْتَةً فهم فيه شركاء، سَيَجْزِيهم وَصْفَهُمْ، إنه حكيم عليم﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولَكنَّ الذين كفروا يفترون على الله الكذبَ وأكثرهم لا يعقلون﴾ هذا تأكيد على أن المشركين الجاهلين الذين بحروا البحيرة وسيبوا السائبة وجعلوا الوصيلة والحامي معتدون على دين الله، يقولون الكذب على الله ويشرعون مالم يشرعه الله، فهم في ذلك كالأنعام بل هم أضل سبيلا، كل همهم تقليد آبائهم الجاهلين وعلى رأسهم عدو الله

عمرو بن لحي لعنه الله ، قال ابن كثير رحمه الله : وقوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ أي ما شرع الله هذه الأشياء ، ولا هي عنده قربة ، ولكن المشركون افتروا ذلك وجعلوه شرعًا لهم وقربة يتقربون بها إليه وليس ذلك بحاصل لهم ، بل هو وبال عليهم اهـ
وقوله : ﴿وأكثرهم لا يعقلون﴾ ينفي العقل عن أكثرهم لأن بعضهم قد عقل أن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي مفتراة على الله ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بَلْدَحٍ قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي ، فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكل منها ، ثم قال زيد : إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه ، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ، ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء ، وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله ، إنكارًا لذلك وإعظامًا له . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وإذا قيل لهم تَعَالَوْا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حَسْبُنَا ما وَجَدْنا عليه آباءنا ، أَوَ لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾ توبيخ للمشركين على انقيادهم لدين أهل الجاهلية وتسفيه لهم على عنادهم للحق واستعصائهم على من يدعوهم إلى الهدى وشريعة رب العالمين ومبالغتهم في الانقياد للجهلة الضالين الذين لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ، لأن الاقتداء إنما يكون حسنا إذا كان المقتدى به عالما مهتديا ، وآباء هؤلاء أشد جهلا من أنعامهم فكيف يقتدي هؤلاء بهم ويستعصون على سيد المرسلين ورسول رب العالمين ، ومعنى : ﴿حَسْبُنَا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ أي يكفينا الدين الذي وجدنا عليه آباءنا فلا نحل إلا ما أحلوه ولا نحرم إلا ما حرموه ، ومعنى : ﴿أوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾ أي أينقادون لآبائهم ولو كانوا أجهل من

داوبهم؟ وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتَّبِعُوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أَوَ لـو كان آباؤهـم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾ وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتَّبِعُـوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليـه آباءنا، أَوَ لو كـان الشيطان يدعوهم إلى عـذاب السعير﴾ وقوله تبـارك وتعالى: ﴿يـاأيها الـذين آمنـوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتـديتم، إلى الله مرجعكم جميعـا فينبئكم بما كنتم تعملـون﴾ إعـلام لدعـاة الهدى بأنهم لا يضرهم ضلال الضالين ماداموا قـد أمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر وقـالوا لهم تعالـوا إلى ما أنـزل الله وإلى الرسول، لأن قلـوب العباد ليست بأيدي أحـد من خلق الله، وليس على الرسول إلا البـلاغ كما أنه ليس على دعاة الهدى سـوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر، وإرشاد الخلق إلى الحق، وجزاء الجميع عند الله عـز وجل، فمن أحسن فله الحسنى ومن أساء فعليها، وسـيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقـلبون، ولذلك قـال عـز وجل هنـا: ﴿إلى الله مـرجعكم جميعـا فينبئكم بما كنتـم تعملـون﴾ ونصب ﴿أنفسكم﴾ في قـوله ﴿عليكم أنفسكـم﴾ على الإغراء أي احفظـوا أنفسكم وصونـوها من معصيـة الله وأسباب سخطه، ونـاصبها ﴿عليكم﴾ لأنـه هنا اسم فعل بمعنى الزمـوا. وقد روى أبو داود وابن ماجـه والترمذي واللفظ له وقال: هذا حديث حسن غريب من طـريق عتبة بن أبي حكيم حدثنا عمرو ابن جارية اللخمي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ قـال: أما والله لقد سألت عنها خبيرا، سألت عنهـا رسول الله ﷺ فقال: بل ائتمـروا بالمعروف وتنـاهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام، فإن من ورائكم

أيـاما الصبر فيهن مثـل القبض على الجمر، للعـامل فيهن مثل أجـر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم . الحديث .

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ منكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ، تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الآثِمِينَ. فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ. ذَٰلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ، واتَّقُوا اللهَ واسْمَعُوا، واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

بعدما أشار الله تبارك وتعالى إلى ما عليه الدعاة الهداة أتباع محمد رسول الله ﷺ من دعوة الغواة إلى ما أنزل الله وإلى اتباع سنة رسول الله ﷺ، وندد باستمساك الضالين بعادات وعقائد آبائهم الجاهلين، وطمأن نفوس المؤمنين بأنهم لا يضرهم من ضل مادام المؤمنون يسلكون سبيل الهدى، وأشار إلى أن المؤمنين والكافرين صائرون إلى الله لا محالة، منتقلون عن هذه الدنيا مجزيون بأعمالهم، ساق هنا ثلاث آيات وهي — وإن كانت للتنبيه على دقة أحكام شريعة الإسلام التي تحفظ على الناس دينهم وأموالهم — فهي كذلك لتأكيد رجوع الناس إلى الله وانتقالهم إلى الدار الآخرة، وللتنبيه على أن الموت نازل بساحتهم لا محالة. وقد أفادت حكما عزيز الوقوع حيث تقبل فيه شهادة غير المسلم على المسلم، وقد اشترط الله عز وجل في قبول هذه الشهادة ألا يوجد من يؤديها من المسلمين وأن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية، إذ الأصل عدم قبول شهادة غير المسلمين على المسلمين، وقد نزلت هذه الآيات الثلاث بسبب أن رجلاً من بني سهم خرج في تجارة إلى الشام مع تميم بن أوس الداري وعدي بن بدّاء وكانا نصرانيين، فمات السهمي بأرض ليس

فيها مسلم، وكان عندما أحس بدنو أجله دفع متاعه إلى تميم الداري وعدي ابن بداء ووصاهما بإيصال متاعه إلى أهله وكان في هذا المتاع جام من فضة مخوص من ذهب أي إناء من فضة قد نقش فيه صورة الخوص من الذهب. وبعد موته وجدا الجام فأعجبهما فأخذاه وباعاه، فلما قدما بتركته عثر أهله على وصيته، فسألوا تميما وعدياً عن الجام فأنكراه، فرفعوهما إلى النبي ﷺ فأمرهم أن يستحلفوهما، فحلفا، ثم عثر على الجام بمكة فلما سئل الذي هو بيده قال: اشتريته من تميم الداري وعدي بن بداء فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآيات فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا: لشهادتنا أحق من شهادتهما و إنَّ الجام لصاحبهم، قال البخاري رحمه الله في كتاب الوصايا من صحيحه: باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بَيْنِكُمْ إذا حضر أحَدَكُمُ الموتُ حِينَ الوصِيَّةِ اثنان ذَوَا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فَيُقْسِمَانِ بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذًا لَمِنَ الآثمين * فإن عُثِرَ على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مَقَامَهُمَا من الذين استحق عليهم الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بالله لشهادَتُنَا أَحقُّ من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذًا لمن الظالمين * ذٰلك أدنى أن يأتُوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بعد أَيْمَانِهِم، واتقوا الله واسمعوا، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ وقال لي علي بن عبد الله حدثنا يحيى بن آدم حدثنا ابن أبي زائدة عن محمد بن أبي القاسم عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي ابن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوصًا من ذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ثم وجد الجام بمكة، فقالوا ابتعناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أوليائه فحلفا: لشهادتنا أحق

من شهادتهما، وإن الجام لصاحبهم، قال: وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بينكم﴾ اهـ وقد أخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآيات المباركة أن حكمه في الشهادة على الموصي إذا حضره الموت أن تكون شهادة رجلين عدلين من المسلمين فإن كان الموت قد حضره وهو يضرب في الأرض ـ أي كان في سفر ـ ولم يكن معه أحد من المؤمنين فليُشْهِد شاهدين ممن حضره من غير المسلمين، فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة حيث يجتمع المؤمنون المصلون أنهما ما كذبا وما بدلا، وأن ما شهدا به حق، وأنهما ما كتما فيه شهادة، حكم بشهادتهما، وهذا كله إذا حصل ارتياب وشك في شهادتهما، فإن عثر واطُّلِعَ على أن الشاهدين كذبا وكتما حلف رجلان يكونان من أولى أولياء الموصي ويشهدان بالله أن صاحبهم أوصى بكذا وكذا وأن هذا الذي عثر عليه هو من تركته وأن شهادة هذين الكافرين غير صحيحة وأنهما كذبا وكتما، فإن أدى الوليان الأوليان هذه الشهادة حكم بها الحاكم وغُرِّم الشاهدان السابقان ما عثر عليه من خيانتهما، وقد حدث هذا من تميم الداري عندما كان نصرانيا، ثم أسلم رضي الله عنه وهو أبو رقية تميم بن أوس بن خارجة بن سود بن جذيمة بن دارع بن عدي بن الدار بن هانئ بن حبيب بن لخم، وقد وفد هو وأخوه نعيم ابن أوس على رسول الله ﷺ فأسلما وأقطعهما رسول الله ﷺ حبري وبيت عينون بالشام وصحب تميم رسول الله ﷺ وغزا معه، وجمع القرآن، وأم بالمسلمين في صلاة القيام في عهد عمر رضي الله عنه، وقد حدث عنه رسول الله ﷺ على المنبر بقصة الجساسة والدجال، وقد سكن تميم الشام بعد مقتل عثمان رضي الله عنهما. والظاهر أن مثل هذه الحادثة لم تتكرر في عصر رسول الله ﷺ لكنها وقعت عندما كان أبو موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه بالكوفة، فقد قال أبو داود في سننه: باب شهادة أهل الذمة وفي الوصية في

السفر، حدثنا زياد بن أيوب ثنا هشيم أخبرنا زكريا عن الشعبي أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاء هذه ولم يجد أحدا من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدما الكوفة فأتيا أبا موسى الأشعري فأخبراه وقدما بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ، فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا، ولا كذبا، ولا بدلا، ولا كتما، ولا غيرا، وإنها لوصية الرجل وتركته، فأمضى شهادتهما. وقد وصف ابن كثير رحمه الله في تفسيره سند هذا الحديث بأنه صحيح، ووصفه الحافظ ابن حجر في فتح الباري بأن رجاله ثقات. وقد اشتملت هذه الآيات المباركة على صور بلاغية وأساليب بيانية عالية، كقوله عز وجل: ﴿شهادة بينكم﴾ بإضافة الشهادة إلى البين، المشعر بأن هذه الشهادة لوصل ما انقطع، إذ البين يأتي بمعنى الوصل وبمعنى الفرقة. قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط: البين في كلام العرب جاء على وجهين: يكون البين الفرقة ويكون الوصل اهـ وقد جاء في التنزيل الكريم: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ و أو في قوله عز وجل: ﴿أو آخران من غيركم﴾ ليست للتخيير بل هي للتعقيب كأنه قيل: ليشهد اثنان ذوا عدل منكم إن وجدا، فإن لم يوجدا فآخران من غيركم أي من غير ملتكم أيها المؤمنون. ومعنى: ﴿لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى﴾ أي يقولان في يمينهما: لا نشتري بقسمنا عوضا نأخذه ولا نريد بيميننا عرضا من أعراض الحياة الدنيا. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فصل: الذي يدل عليه القرآن في سورة المائدة في آية الشهادة في قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا﴾ أي بقولنا، ولو كان ذا قربى حذف ضمير كان لظهوره أي ولو كان المشهود له، كما في قوله: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾ وكما في قوله: ﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء لله﴾ إلى قوله: ﴿إن يكن غنيا

أو فقيرا﴾ أي المشهود عليه، ونحو ذلك لأن العادة أن الشهادة المزورة يعتاض عليها، وإلا فليس أحد يشهد شهادة مزورة بلا عوض ـــ ولو مدح ـــ أو اتخاذ يدٍ. وآفة الشهادة: إما اللَّيُّ وإما الإعراض: الكذب والكتمان، فيحلفان لا نشتري بقولنا ثمنا أي لا نكذب ولانكتم شهادة الله، أو لا نشتري بعهد الله ثمنا، لأنهما كانا مؤتمنين فعليهما عهد بتسليم المال إلى مستحقه، فإن الوصية عهد من العهود. وقوله بعد ذلك: ﴿فإن عُثِرَ على أنهما استحقا إثما﴾ أعم من أن يكون في الشهادة أو الأمانة، وسبب نزول الآية يقتضي أنه كان في الأمانة فإنهما استشهدا وائتمنا، لكن ائتمانهما ليس خارجا عن القياس بل حكمه ظاهر فلم يحتج إلى تنزيل، بخلاف استشهادهما، والمعثور على استحقاق الإثم ظهور بعض الوصية عند من اشتراها منهما بعد أن وجد ذكرها في الوصية، وسئلا عنها فأنكراها. اهـ وقوله عز وجل: ﴿الأوليان﴾ أي الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: وارتفع الأوليان بتقدير: هما، كأنه قيل: من الشاهدان؟ فأجيب: الأوليان اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فيقسمان بالله لشهادتُنَا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذًا لمن الظالمين﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فيقسم الآخران اللذان يقومان مقام اللذين عثر على أنهما استحقا إثما بخيانتهما مال الميت، الأوليان باليمين والميت من الخائنين ـــ ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ من شهادتهما﴾ يقول: لأيماننا أحق من أيمان المقسمين المستحقين الإثم، وأيمانهما الكاذبة ـــ في أنهما قد خانا في كذا وكذا من مال ميتنا، وكذا في أيمانهما التي حلفا بها ـــ ﴿وما اعتدينا﴾ يقول: وما جاوزنا الحق في أيماننا اهـ وقوله عز وجل: ﴿إنا إذًا لمن الظالمين﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله أي إنا إن اعتدينا في يميننا لمن الظالمين الواضعين الشيء في غير موضعه المتجاوزين الحق، وقوله عز وجل: ﴿ذُلك أدنى أن يأتُوا

بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تُردَّ أيمان بعد أيمانهم﴾ لفت انتباه الناس إلى حكمـة التشريع، ودقة أحكـام الشريعة، ومـا تثمره في النفس البشريـة من التقويـم والردع عن البـاطل، والإشارة بقولـه ﴿ذٰلك﴾ للحكم الـذي تقدم تفصيله، أي ذلك أدنى وأقرب أن يأتوا بـالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخـرة بسبب العقوبـة على اليمين الكـاذبـة أو يخافوا الافتضـاح على رءوس الأشهاد بإبطـال أيمانهم. وقوله: ﴿واتقوا الله واسمعـوا، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي وخافوا الله أيها الناس وانقـادوا لشرعه، ولا تفسقوا عن أمره، لأن الله لا يوفق الفاسقين بل يخذلهم ولا يسددهم، وإنما يوفق لطاعته عباده الصالحين المنقادين لشرعه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ. إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فى الْمَهْدِ وَكَهْلا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنى وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنى، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمدًا ﷺ بتبليغ الرسالة والقيام بأعبائها، وبيَّن له أنه يحفظه ويصونه ويعصمه من شرور الناس، وقد قام رسول الله ﷺ بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة على أكمل وجه لا يخشى في الله لومة لائم، وأمر الله تبارك وتعالى المكلفين بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ حيث قال في الآية الثانية والتسعين من هذه السورة المباركة: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ ثم أكد ذلك في الآية الثامنة والتسعين فقال: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ وطمأن عز وجل دعاة الهدى بأنهم لا يضرهم من ضل ماداموا مستمسكين بالهدى، وأن مرجع جميع العباد إلى الله يوم القيامة ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى شرع هنا في خواتيم المسك من هذه السورة الكريمة يذكر بعض المشاهد العظيمة من مشاهد القيامة لتأكيد ما تقرر من أنه ليس على الرسل إلا البلاغ وعلى الله وحده حساب الخلائق حيث يقول عز وجل: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت عَلاَّمُ الغيوب﴾ قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فيقولُ مَاذا أجبْتُمْ قَالُوا لا

عِلْمَ لنا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: واتقوا الله أيها الناس، واسمعوا وعظه إياكم، وتذكيره لكم، واحذروا يوم يجمع الله الرسل، ثم حذف واحذروا، واكتفى بقوله: ﴿واتقوا اللهَ واسمعوا﴾ عن إظهاره، كما قال الراجز:

علفتها تبنا وماءً باردًا حتى شتت همالة عيناها

يريد: وسقيتها ماء باردا، فاستغنى بقوله: «علفتها تبنا» من إظهار «سقيتها» إذ كان السامع إذا سمعه عرف معناه، فكذلك في قوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ حذف «واحذروا» لعلم السامع معناه، اكتفاءً بقوله: ﴿واتقوا الله واسمعوا﴾ إذ كان ذلك تحذيرا من أمر الله تعالى ذكره خلقه عقابه على معاصيه، وأما قوله: ﴿ماذا أُجِبْتُمْ﴾ فإنه يعني به: ما الذي أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى توحيدي والإقرار بي، والعمل بطاعتي، والانتهاء عن معصيتي، قالوا: لا علم لنا: اهـ والمراد بقوله: لا علم لنا أي نحن لا نعلم ما غاب عنا من أحوالهم وأسرارهم ولا ندري ما فعلوه بعدنا من تحريف الدين ومخالفة المرسلين، إذ لا يعلم الغيب إلا الله وحده عز وجل ولذلك قالوا: إنك أنت علام الغيوب. وقد قال البخاري في صحيحه: حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا محمد بن مطرف حدثني أبو حازم عن سهل بن سعد قال قال النبي ﷺ: إني فرطكم على الحوض، من مر عليَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدا، ليردن عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم، قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعتَ من سهل؟ فقلت: نعم، فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها: فأقول إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا لمن غيَّر بعدي. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يعقوب (يعني ابن عبد الرحمن القاري) عن أبي حازم قال:

سمعت سهلا يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: أنا فرطكم على الحوض، من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدا، وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم، قال أبو حازم: فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث فقال: هكذا سمعت سهلا يقول؟ قال: فقلت: نعم، قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما عملوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا لمن بدَّل بعدي، وقوله في الحديث: أعرفهم أي يجعل الله عز وجل لأمة محمد ﷺ علامات يعرفون بها يوم القيامة كما جاء في لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن حوضي أبعد من أيلة من عدن، لهو أشد بياضا من الثلج، وأحلى من العسل باللبن، ولآنيته أكثر من عدد النجوم، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه. قالوا: يارسول الله أتعرفنا يومئذ؟ قال: نعم، لكم سيماء ليست لأحد من الأمم، تردون على غرًّا محجلين من أثر الوضوء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قال الله ياعيسى ابنَ مَرْيم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾ قال أبو السعود العمادي في تفسيره المعروف بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إذ قال الله ياعيسى ابن مريم﴾: شروع في بيان ما جرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين من المفاوضة على التفصيل إثر بيان ما جرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الإجمال ليكون ذلك كالأنموذج لتفاصيل أحوال الباقين، وتخصيص شأن عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلا من بين شئون سائر الرسل عليهم السلام مع دلالتها على كمال هول ذلك اليوم، ونهاية سوء حال المكذبين بالرسل لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نُعِيت عليهم في السورة الكريمة جناياتهم، فتفصيله أعظم عليهم، وأجلب لحسرتهم وندامتهم وَأَفَتُّ في أعضادهم، وأدخل في صرفهم

عن غيهم وعنادهم اهـ وقال الفخر الرازي : اعلم أنا بيَّنا أن الغرض من قوله تعالى للرسل : ﴿ماذا أُجِبْتُمْ﴾ توبيخ من تمرد من أممهم ، وأشد الأمم افتقارا إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام ، لأن طعن سائر الأمم كان مقصورا على الأنبياء ، وطعن هؤلاء الملاعين تعدى إلى جلال الله وكبريائه حيث وصفوه بما لا يليق بعاقل أن يصف الإله به ، وهو اتخاذ الزوجة والولد فلا جرم ذكر الله تعالى أنه يعدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة ، والمقصود منه توبيخ النصارى وتقريعهم على سوء مقالتهم ، فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة على عيسى تدل على أنه عبد وليس بإله ، والفائدة في هذه الحكاية تنبيه النصارى الذين كانوا في وقت نزول هذه الآية على قبح مقالتهم وركاكة مذهبهم واعتقادهم اهـ والتعبير بالماضي في قوله عز وجل : ﴿إذ قال الله ياعيسى ابن مريم﴾ للدلالة على تحقق الوقوع لا محالة وحكايته حكاية الحال الواقعة ، وهو شبيه بقوله عز وجل : ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار﴾ وكذلك قوله عز وجل : ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وَجَدْنَا ما وَعَدَنَا ربُّنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نَعَمْ ، فأذَّنَ مُؤَذِّنٌ بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ والتعبير عن المضارع بلفظ الماضي للتنبيه على تحقق وقوعه أسلوب بلاغي يُعدل فيه عن مقتضى الظاهر إلى مقتضى الحال كما هو مدون في علم المعاني من علوم البلاغة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿إذ أيَّدْتُك بروح القدس﴾ أي إذ أعنتك وقويتك بالروح المقدسة أي المطهرة والمراد جبريل عليه السلام والإضافة في روح القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وقد تقدم نظير هذا المقام في سورة البقرة حيث يقول عز جل : ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾ في الآية السابعة والثمانين ، وكذلك في الآية الثالثة والخمسين بعد المائتين من سورة

البقرة حيث يقول عـز وجل: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيـدناه بروح القدس﴾ وقوله تبارك وتعالى في هـذا المقام: ﴿تكلم الناسَ في المهد وكهلا﴾ تقدم نظيره في الآيـة السادسة والأربعين من سـورة آل عمران حيث يقـول عز وجل: ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلا﴾ وقد تقـدم تفسيره هناك، وقوله عز وجل: ﴿وإذْ علمتك الكتاب والحكمـة والتوارة والإنجيل﴾ هـو شبيه قـوله عز وجل في الآية الثامنة والأربعين من سورة آل عمران حيث يقول عز وجل: ﴿ويُعَلِّمُـهُ الكتـاب والحكمـة والتـوراة والإنجيل﴾ وقـد تقـدم تفسير ذلك هناك، وقوله عـز وجل: ﴿وإذْ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكونُ طيرا بإذني وتبرئُ الأكمـه والأبرص بإذني وإذ تُخْرِجُ الموتَى بـإذني﴾ هو شبيه قوله عز وجل في الآية التاسعة والأربعين من سورة آل عمران: ﴿ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآيـة من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيـه فيكون طيرا بإذن الله وأُبْـرِئُ الأكمه والأبـرص وأُحْيِي الموتى بإذن الله﴾ وقد تقدم تفسير ذلك هناك، وقـوله عز وجل: ﴿وإذ كَفَفْتُ بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بـالبينات فقال الـذين كفروا منهم إنْ هـذا إلا سحر مبينٌ﴾ تذييل للفت الانتباه إلى آية من آيات الله ونعمة من نعمه العظيمة على عبده ورسـوله عيسى عليه السلام بصيـانته من أعدائه اليهود الـذين امتلأت قلـوبهم بالعـداوة لعيسى عليه السـلام لما جـاءهم بالبينـات فصانـه الله من شرورهم، وعصمـه من سوء مكـرهم، وحفظه من أن تمتـد إليه أيـديهم فلم ينـالوه إلا بألسنتهم حيث وصفـوه بأنـه سـاحـر مبين، وفي هذا تثبيت لفـؤاد رسول الله ﷺ وتأكيـد لما أخبره الله به حيث قـال له في الآية السـابعة والستين من هذه السورة: ﴿ياأيها الـرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس﴾ وتسلية لرسول الله ﷺ من وصف المشركين لـه بأنه سـاحـر، وأن مـا جاء بـه سحـر مبين ببيان أن إخـوانـه من

المرسلين جوبهوا من أممهم الكافرة بمثل هـذه المقالـة الفاجـرة، كما أشار إلى ذلك تبارك وتعالى في قـوله: ﴿كذٰلك ما أتى الـذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا واشهد بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ. إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هل يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً من السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا نُرِيدُ أَن نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِن الشَّاهِدِينَ. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وآخِرِنَا وآيَةً مِنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قال اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا من الْعَالَمِينَ﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل ما أيد به عبده ورسوله عيسى عليه السلام من الآيات والبراهين المشتملة على النعم الجليلة عليه وعلى أمه المبرئة لهما من كل سوء المقررة أن عيسى ليس إلها ولا ابن إله وإنما هو عبد الله ورسوله وذيل ذلك كله بما يقرر أنه صان عيسى عليه السلام من أن تمتد إليه يد أعدائه من اليهود مما يثبت به فؤاد رسول الله ﷺ ويؤكد له أن الله عز وجل يعصمه من شرور الناس شرع هنا يذكر استجابة الحواريين لعيسى ﷺ ومسارعتهم إلى الإيمان به نبيا رسولا للتنبيه على فضل السابقين إلى الإيمان بالرسل، مما تقر به نفوس المؤمنين الأولين المستجيبين لرسول الله ﷺ، حيث يقول عز وجل: ﴿وإذْ أَوْحَيْتُ إلى الحواريين أَنْ آمِنُوا بي وبِرَسُولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ أي وإذ ألهمت الحواريين وقذفت في قلوبهم تصديق عيسى عليه السلام وتأييده ونصرته فسارعوا إلى الإيمان به نبيا رسولا وانقادوا لأمره، واتبعوا ما جاء به من عند الله، ولم يجعلوه إلها ولا ابن إله، فمعنى: ﴿أوحيت إلى الحواريين﴾ أي ألهمتهم وقذفت في قلوبهم إذ من معاني الوحي في اللغة الإلهام والقذف في القلب، والحواريون جمع حواري وهو في الأصل الوزير أو من يصلح للخلافة أو الناصر أو الخالص أو هو ناصر الأنبياء أو القَصَّار

لأنه يحور الثياب أي يبيضها، وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وسمي الحواريون لبياض ثيابهم اهـ وقيل حواري الرجل خاصته، والمتبادر من القرآن العظيم يشعر بأن الحواريين هم السابقون الأولون من أمة عيسى عليه السلام وكبار أصحابه رضي الله عنهم وخواصهم، ولاشك أن الحواريين ليسوا بأنبياء وليسوا بمعصومين من الخطأ، ولذلك ذكر الله عز وجل عنهم أنهم قالوا لعيسى عليه السلام: ﴿هل يَسْتَطِيعُ ربُّكَ أن يُنَزِّلَ علينا مائدة من السماء﴾ فخوفهم عيسى عليه السلام من مغبة هذا السؤال، وأمرهم بتقوى الله عز وجل، وأنه لا ينبغي لمسلم أن يقترح على الله الإتيان بالآيات، لأن سنة الله عز جل قد جرت أن من اقترح على الله آيةً، ولم يؤمن بها إذا جاءت أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ونبه عيسى عليه السلام الحواريين إلى أن مقتضى إيمانهم ألا يتقدموا على الله باقتراح مثل هذه الآية، وأن يعلموا أن الله لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، غير أن الحواريين ذكروا لعيسى عليه السلام أنهم إنما طلبوا إنزال مائدة من السماء لأنهم يريدون أن يأكلوا منها، وأن تطمئن قلوبهم بزيادة الإيمان واليقين إذا رأوا هذه الآية الحسية، ويزدادوا علما بأن عيسى عليه السلام قد صدَقهم، ويكونوا عليها من الشاهدين، ولا شك أن سؤال الحواريين هذا أخف من سؤال أصحاب موسى عليه السلام إذ قال بعضهم لموسى عندما رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهةٌ، وأخف من قول أصحاب موسى لموسى: أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، وقد رأى عيسى عليه السلام أن المصلحة تقتضي بأن يتضرع إلى الله عز وجل أن ينزل عليهم مائدة من السماء تكون عيدا وفرحا ومسرة للمؤمنين في عاجلتهم، وينتفع بالإيمان بها مَنْ بعدهم من المؤمنين، وتكون آية من الآيات الشاهدات على أن الله هو رب كل شيء وسيده

ومليكه، وأن أمـره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكـون، فأخبر الله عز وجل عيسى عليه السلام بأنه منزل عليهم هذه المائدة المطلوبة، وأنه من يكفر بالله بعد رؤيته لهذه الآية الباهرة والمعجزة القـاهرة فإن الله سيعذبه عذابا لم يعذب مثله في شدته أحدًا من العالمين، والمائدة هي الخوان عليه طعام، فإذا لم يكن على الخوان طعـام فإنـه لا يسمى مـائدة، والأصل في الخوان أن يتخـذ من خشب وينصب على قوائم، فإذا كان الطعـام على جلد أو فراش أو شيء بلا قوائم فإنـه يقال له سفـرة، وقد روى البخاري في صحيحـه من حديث أنس رضي الله عنه قـال: لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات، ومـا أكل خبزًا مرققـا حتى مات اهـ وإنما كـان يأكل على السفرة لأنها عـادة العرب، كما أن الخوان من عـادة العجم. وإيـراد قصـة المائدة للفت الانتبـاه إلى أن المؤمنين الذين ليسوا بأنبياء ولا مـرسلين غير معصومين من الخطأ وإبراز صبر الأنبياء والمرسلين في تعاملهـم مع أتباعهم من المؤمنين حيث يسـوسونهم بـالحكمة، ويصبرون على ما قد يبدر منهم، ويوجهونهم أحسن توجيه، ويحذرونهم من المزالق التي قـد تردى من انزلـق إليها، ولاشك أن الاعتصام بمنهـج الأنبياء والمرسلين هو سبيل النجاة للدنيـا والآخرة، وأن الإنسان مهما أوتي من العقل فلا غنى له بحـال عن دين الإسلام الذي هو صراط الله المستقيـم. هذا وقد سميت السورة كلهـا باسم المائدة، والعيـد هو يوم السرور الـذي يتكرر وكل يوم فيـه جمع، قال العـلامة ابن منظور في لسـان العرب: قـال ابن الأعرابي: سمي العيد عيدًا لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد اهـ وقد زعم بعض الناس أن المائدة لم تنزل بدعوى أن الحواريين لما سمعوا الـوعيد الشديد على من كفر بها بعد نزولها خافوا وأبوا أن تنزل عليهم، وصريح القرآن شاهد على نزولها حيث يقول عز وجل: ﴿قال الله إني مُنَزِّلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبـه أحدا من العالمين﴾ فقد أكد الله تبارك وتعـالى تنزيلها عليهم

بجملة تأكيدات، منهـا أنه قال: ﴿قال الله إني مُنَـزِّلها عليكم﴾ فأسند القول إلى نفسه المقدسة ومنها أنه أكد تنزيلها بإن حيث قال: ﴿إني مُنَزِّلها عليكم﴾ قال أبو السعود العمادي في قوله: ﴿نريد أن نأكل منها﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال أي لسنا نريد بالسـؤال إزاحة شبهتنا في قدرته سبحانه على تنزيلها أو في صحـة نبوتك حتى يقدح ذلك في الإيمان والتقوى بـل نريد أن نأكل منهـا أي أكل تبرك وقيل أكل حـاجة وتمتـع ﴿وتطمئنَّ قُلُوبُنَـا﴾ بكمال قدرتـه تعالى وإن كنا مـؤمنين به من قبل فإن انضمام علم المشـاهدة إلى العلم الاستدلالي مما يوجب ازدياد الطمأنينة وقوة اليقين ﴿وَنَعْلَمَ﴾ أي علما يقينيا لا يحوم حوله شائبة شبهةٍ أصلا اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله: ﴿وآيةً منك﴾ فإن معناه: وعـلامة وحجـة منك يارب على عبـادك في وحدانيتك، وفي صدقي على أني رسول إليهم بما أرسلتني به ﴿وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ وأعطنا من عطائك، فإنك يـارب خير من يعطي وأجود من تفضل، لأنه لا يدخل عطـاءه مَنٌّ ولا نكد. . ثم أكد ابن جريـر رحمه الله نزول المائدة حيث يقـول: وبعد فإن الله تعـالى ذكره لا يخلف وعـده، ولا يقع في خبره الخلف، وقد قال تعالى ذكره مخبرًا في كتابه عن إجابة نبيه عيسى ﷺ حين سأله ما سأله من ذلك: ﴿إني مُنَزِّلَهَا عليكم﴾ وغير جائز أن يقول تعالى ذكره: ﴿إني مُنَزِّلَهَا عليكم﴾ ثم لا ينزلها، لأن ذلك منه تعالى ذكره خبر، ولا يكون منه خلاف ما يُخبر، ولو جاز أن يقول ﴿إني منزلها عليكم﴾ ثم لا ينزلها عليهم جاز أن يقول فمن يكفر بعد منكم فإني معذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، ثم يكفر منهم بعد ذلك فلا يعـذبه، فلا يكون لوعده ولا لـوعيده حقيقة ولا صحة، وغير جائز أن يـوصف ربنا تعالى ذكـره بذلك اهـ هـذا وما نقل عن كثير من المفسرين في صفـة المائدة المنـزلة على عيسى عليـه السـلام والحواريين، وفيما احتوتـه هذه المائدة من ألوان الطعـام وأسمائه لم يثبت شيء منه بخبر صحيح

عن رسول الله ﷺ، قال ابن جرير رحمه الله: وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال: كان عليها مأكول، وجائز أن يكون كان سمكا وخبزا وجائز أن يكون ثمرًا من ثمر الجنة، وغير نافع العلم به ولا ضار الجهل به إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿فمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدًا من العالمين﴾ أي فمن يجحد آيات الله ويكفر بها بعد معاينته ما اقترح من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة القاهرة فإني أعاقبه عقوبة ما عاقبت بها غيره من عالمي زمانه، ليكون ذلك نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين، هذا وقد يستعمل العرب المائدة أو الخوان بمعنى السفرة فقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: أهدت خالتي إلى النبي ﷺ ضِبابا وأقطا ولبنا فوضع الضب على مائدته، فلو كان حراما لم يوضع، وشرب اللبن وأكل الأقط. وفي لفظ لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: أهدت خالتي أم حفيد إلى رسول الله ﷺ سمنًا وأقطًا وأضبًا فأكل من السمن والأقط وترك الضب تقذُّرا، وأكل على مائدة رسول الله ﷺ ولو كان حراما ما أكل على مائدة رسول الله ﷺ. كما روى مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ بينما هو عند ميمونة وعنده الفضل بن عباس وخالد بن الوليد وامرأة أخرى إذ قرب إليهم خوان عليه لحم، فلما أراد النبي ﷺ أن يأكل قالت له ميمونة: إنه لحم ضب، فكف يده، وقال: هذا لحم لم آكله قط، وقال لهم: كلوا، فأكل منه الفضل وخالد ابن الوليد والمرأة، وقالت ميمونة: لا آكل من شيء إلا شيء يأكل منه رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. للهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذا هو المشهد الأخير من مشاهد القيامة التي ذكرها الله عز وجل في خواتيم المسك من سورة المائدة، وفي هذا المشهد العظيم زيادة تأكيد لما تقرر في المشهد الأول من أن رسل الله صلى الله عليهم وسلم لا يعلمون ما أحدثته أممهم من بعدهم من تغيير دين الله وعبادة الأصنام والأوثان وسائر صور الشرك بالله، وأنهم برآء من كل قول أو فعل يناقض دين الإسلام، وفي سياق هذا المشهد على هذه الصورة تنديد بالنصارى الذين جعلوا عيسى وأمه إلهين من دون الله وتقريعهم وتبكيتهم على رءوس الخلائق يوم القيامة يوم الحسرة والندامة، وفي ذلك ردع وترهيب من الشرك بالله وترغيب في إخلاص التوحيد لله عز وجل، وتكذيب للمفترين على الله وعلى رسله، وفي قوله عز وجل هنا: ﴿وإذ قال الله ياعيسى ابنَ مريم﴾ بإيراده بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع كما في قوله عز وجل: ﴿إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾، والعرب قد يستعملون إذ بمعنى إذا لعلم السامع بالمراد تخفيفا وبلاغة كما في قول أبي النجم:

ثم جـزاه الله عـنا إذ جـزى　　　جنـات عـدن في العـلالي العلا

أي إذا جـزى، وكما في قـول أعشى بني نهشل الأسـود بن يعفـر بن عبـد الأسود بن جندل بن نهشل بن دارم النهشلي:

فالآن إذ هـازلتهن فإنمـا　　　يقلـن ألا لم يذهب الشيخ مذهبًا

أي إذا هازلتهن. وكما قال عز وجل: ﴿ولو تَـرَى إذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ﴾ أي إذا فـزعوا. والسـؤال في قولـه عـز وجل لعيسى عليه السـلام: ﴿أأنت قلتَ للنـاس اتخذوني وأمِّـيَ إلهَين من دون الله﴾ ليس لـلاستفهـام لأن الله عـلام الغيـوب، وهو يعلـم أن عيسى عليه السـلام لم يقل للنـاس: اتخذوني وأمِّيَ إلهين من دون الله وإنما المقصـود من السؤال هـو إعـلام عيسى عليه السـلام وتعريفه أن قـومه غيروا دينهم بعده وخالفـوا عهده، وقالوا عليـه ما لم يقله، ليكون ذلك توبيخـا لمن ادعى عليه ذلك وليكون إنكاره بعـد السؤال أبلغ في تكذيبهـم، مع ما في الجواب من تحقيق التـوحيد وبطلان الشرك وإبـراز أهم وظائف الأنبياء والمرسلين مع ما اشتمـل عليه الجواب من الأدب العالي الذي أدَّب الله تبارك وتعالى به رسله المنزِّهين له عن الند والنظير وعن كل ما لا يليق به تبـارك وتعالى ومعنـى قوله: ﴿سبحـانك ما يكـون لي أن أقول مـا ليس لي بحق﴾ أي تنـزيها لك يـارب أن أفعل ذلك أو أتكلم بـه، لأني عبـد مخلـوق فكيف أدعي ذلـك، ومعنى قـولـه: ﴿تعلم مـا في نفسي ولا أعلم مـا في نفسك، إنك أنت عـلاَّمُ الغيوب﴾ قـال ابن جريـر الطبري في تفسيره: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، مخبرا عن نبيـه عيسى ﷺ: أنه يبرأ مما قالت فيه وفي أمـه الكفرة من النصـارى أن يكـون دعاهم إليـه أو أمـرهم به، فقـال: ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قُلْتُهُ فقد عَلِمْتَهُ﴾ ثم قال: ﴿تَعْلَمُ ما في نفسي﴾ يقول: إنك يـارب لا يخفى عليك ما أضمرته نفسي مما لم أنطـق به ولم أظهره بجـوارحي، فكيف بما قـد نطقت به وأظهـرته

بجوارحي؟ يقول: لـو كنت قد قلت للناس: ﴿اتخذوني وأمِّيَ إلهين من دون الله﴾ كنت قد علمته، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به فكيف بما قد نطقت به ﴿ولا أعلم ما في نفسك﴾ يقول: ولا أعلـم أنا ما أخفيته عني فلم تطلعني عليـه لأني إنما أعـلـم من الأشـياء مـا أعلـمتنيه ﴿إنك أنت عَـلاَّمُ الغُيُـوب﴾ يقول: إنك أنـت العالم بخـفيات الأمـور التي لا يطـلع عليهـا سواك، ولا يعلمها غيرك اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبـدوا الله رَبِّي وربّكم﴾ ينفي عيسى عليه السـلام أن يكون قـد صدر هـذا القول منـه على أبلغ وجـه وآكده حيث نفى عليـه السـلام أن يكون قـد صدر منه قول مغاير لما أمـره الله عز وجل به، ويدخل في ذلك نفي أن يكون قد قـال لهم: ﴿اتخذوني وأمِّيَ إلهين من دون الله﴾ دخولا أوليًا أي مـا أمرتهم إلا بما أمرتني به، والـذي أمرتني به هو أن أطلب منهـم إخلاص العبادة لك وحدك فقلت لهم: اعبدوا الله سيدي وسيـدكم ومالكي ومالككم ومصلحي ومصلحكم ومدبـر أمري ومدبـر أموركم، وابـذلوا له أقصى غـاية الحب مع أقصى غاية الذل ولا تشركوا به شيئا. وقوله: ﴿وكنتُ عليهم شهيدا مادُمْتُ فيهم فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيبَ عليهم، وأنت على كل شيء شهيد﴾ أي وكنت على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهـم ومدة داومي بينهم شاهدا عليهم وعلى أفعـالهم وأقـوالهم فلما قبضتني إليك كنت أنت وحـدك الحفيظ عليهم دوني لأني إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهـم، وأنت تشهد على كل شيء لأنـــه لا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء فـأنت على كل شيء شهيد، وقـوله: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبـادكَ وإن تغفر لهم فإنك أنت العـزيز الحكيم﴾ أي أنـا لسـت عليهم بمسيطـر، وقلـوبهم بيـدك تضـل من تشـاء وتعذبه عدلا وتهدي من تشاء وتغفـر له فضلا فإنهم جميعا عبادك وأنت ربهم وأنت العزيـز القاهر الذي لا يفوتـه شيء الحكيم في جميع أفعاله وأقـواله قال

ابن كثير رحمه الله : وقـولـه : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبـادك وإن تغفـر لهم فإنك أنت العـزيز الحكيم﴾ هـذا الكلام يتضمن رد المشيئـة إلى الله عز وجل فإنـه الفعـال لما يشاء، الـذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألـون، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسولـه وجعلوا لله ندًا وصاحبةً وولدًا تعالى الله عما يقـولون علـواً كبيراً، وهذه الآية لها شأن عظيـم ونبأ عجيب اهـ

وليس في قـوله تعـالى هنا : ﴿وإن تغفـر لهم فإنك أنت العـزيز الحكيم﴾ مـا يُفْهِم أن من مات على الشرك قـد يغفر له، لأن الكـلام منصب على جملة من جـاءهم عيسى عليـه السلام، وفيهم من آمن بـه على أنـه عبـد الله ورسولـه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منـه ومنهم من كفر به في حياته بينهم، ومنهم من كفر به بعد رفعه إذ زعم أنه إلـه أو ابن إله، والمقصود من السياق يفيد أن عيسى عليه السلام ما قال لهم إلا ما أمره الله عز وجل به أن اعبدوا الله وحده لا شريك له وأنـه يشهد لمن أجابه مـدة حياته بينهم ويشهـد على من عصاه مدة حياته كذلك، فلما رفعه الله إليه ارتفع علمه عن أحوالهم وكان الله وحده هو الرقيب عليهم لا يعلم عيسى من أمرهم شيئا سواء في ذلك من اتبعه على الهدى أو ضل عن سـواء السبيل، فمرد الجميـع إلى الله يعذب من يشـاء من العصاة عدلا ويثيب ويغفر لمن يشاء فضلا، لأن الجميع عباده، وهو العزيز الحكيم، وقـد روى مسلم في صحيحـه من حـديث عبـد الله بن عمـرو بن العـاص أن النبي ﷺ تـلا قول الله عـز وجل في إبـراهيم ﴿رَبِّ إنهن أضللن كثيرا من النـاس فمن تَبِعَنِي فإنـه مني﴾ الآيـة، وقال عيسى عليـه السـلام : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبـادك وإن تغفر لهم فإنك أنـت العزيز الحكيم﴾ فـرفع يديـه وقال : اللهم أمتي أمتي وبكى، فقال الله عـز وجل : ياجبريل اذهب إلى محمـد ــ وربك أعـلم ـ فسـله مـا يبكـيك؟ فأتاه جبـريل عليـه الصلاة والسـلام فسأله، فأخـبره رسول الله ﷺ بما قـال ــ وهـو أعلم ــ فقـال الله :

يـاجبريل اذهب إلى محمد فقل : إنـا سنـرضيك في أمتك ولا نسوءك . وقـال البخاري في تفسير هذه الآية من صحيحه : باب : ﴿وكنتُ عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما تـوفيتنـي كنتَ أنت الـرقيب عليهـم ، وأنت على كل شيء شهيد﴾ حدثنـا أبو الوليد حدثنا شعبـة أخبرنا المغيرة بن النعمان قال سمعت سعيـد بن جبير عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال : خطب رسـول الله ﷺ فقال : ياأيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاةً عراةً غرلاً ثم قرأ : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعـدا علينا إنا كنـا فاعلين﴾ إلى آخر الآيـة ثم قال : ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يـارب أصيحابي ، فيقال : إنك لا تدري مـا أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبـد الصالح : ﴿وكنتُ عليهم شهيدا ما دمتُ فيهم فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيـب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد﴾ فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم . باب قوله : ﴿إنْ تعذبهم فإنهم عِبَادُكَ وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيـز الحكيم﴾ حدثنا محمد بن كثير حدثنا سفيان حدثنـا المغيرة بن النعمان قال : حدثني سعيد بن جبير عن ابن عبـاس عن النبي ﷺ قـال : إنكم محشـورون ، وإن نـاسًـا يـؤخـذ بهم ذات الشمال ، فأقـول كما قـال العبـد الصـالح : ﴿وكنتُ عليهم شهيـدا مـادمْتُ فيهم﴾ إلى قوله : ﴿العزيزُ الحكيمُ﴾ اهـ وقـوله تبارك وتعالى : ﴿قال الله هٰذا يومُ ينفع الصادقين صِدْقُهُم ، لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبدا ، رضي الله عنهم ورَضُـوا عنه ، ذٰلك الفـوز العظيم . لله مُلْكُ السمٰوات والأرض ومـا فيهن ، وهـو على كل شيء قـديـر﴾ بيـان للترغيب في الصـدق وعظيم منفعتـه وجليـل مـا يترتب عليـه فإن الصـدق لا يأتي إلا بخير ونفع لصاحبـه لكن نفعـه في الدنيا قـد لا يخلص من الهمـوم والغموم أمـا نفعه في الآخـرة فإنه خـال من الأحـزان والأكدار إذ يهدي صـاحبه لجنـات تجري من

تحتها الأنهار لا يريـم منها ولا يتحول عنها ولا يلحقه فيهـا هرم ولا شيب ولا مرض ولا هم مع رضـاه وفرحه بما منَّ الله به عليه ورضـوان من الله أكبر وهذه هي الغاية القصوى في الفوز والفلاح مع النجاة من النار، وذلك كله لصدقه مع الله وتجنبه افتراء الكـذب على الملك الحق الموجد لجميع الكـائنات المالك لها المتصرف فيها القادر عليها فإن جميع ما في السموات وما الأرض هي ملكه وتحت قهـره ومشيئته لا نـدَّ له ولا شريك ولا نظير ولا وزيـر ولا صاحبـة ولا والد ولا ولد، ولم يكن له كفوًا أحد لا إله غيره ولا رب سواه . وبهذا تم تفسير سورة المائدة بحمد الله .



تفسير سورة الأنعام



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمدُ للهِ الَّذي خَلَقَ السمٰواتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ والنُّورَ ثُمَّ الَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ. هُوَ الَّذي خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلا وأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.

المناسبة بين أول آية من سورة الأنعام وهي مكية وآخر آية من سورة المائدة وهي مدنية ظاهرة فإن الله تبارك وتعالى أخبر في الآية الخاتمة لسورة المائدة المباركة بأن له ملك السموات والأرض وما فيهن وقد افتتح سورة الأنعام بأنه الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وهذا أحد البراهين الظاهرة على تمام التناسق والتناسب بين آيات القرآن العظيم، وأن كل آية من آياته مرتبطة تمام الارتباط بالآية التي قبلها والآية التي بعدها كما أن كل سورة من سوره مرتبطة تمام الارتباط بالسورة التي قبلها والسورة التي بعدها وهذه إحدى صور الإعجاز القرآني، فقد ذكر في سورة المائدة صوراً من افتراءات اليهود والنصارى والمشركين على الله عز وجل وعلى رسله كما اشتملت سورة الأنعام على صور كثيرة من افتراءات المشركين على الله وعلى رسله، وقد قال عز وجل في سورة المائدة ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولٰكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون.﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿وكذٰلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قَتْلَ أولادهم شُرَكاؤُهم لِيُرْدُوهم ولِيَلْبِسُوا عليهم دينَهُمْ ولو شاء الله ما فَعَلُوهُ فذرهم وما يَفْتَرُونَ. وقالوا هٰذه أنعام وحرْثٌ حِجْرٌ لاَ يَطْعَمُهَا إلا مَن نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهورُهَا وأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ الله عليها افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجزِيهِمْ بما كانوا

يَفْتَرُون﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿قـد خَسِرَ الذينَ قَتَلُوا أولادهم سَفَهًا بغير علم وحَرَّمُوا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضَلُّوا وما كانوا مهتدينَ﴾ وقد افتتح الله تبـارك وتعالى سـورة الأنعام بحمـده كما افتتح بـالحمد سـورة الفاتحة وسـورة الكهف وسورة سبأ وسورة فاطر، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل في سورة الفاتحة: ﴿الحمد لله رب العـالمين﴾ أنه في حَيِّز الحمد من هـذه السُّور يلفت الله انتباه الخلق إلى موجبات حمده وشكره ومدحه والرضا بما يصدر عنه، ففي سـورة الفاتحة لَفَتَ الانتبـاه إلى أنـه رب العالمين. الـرحمن الـرحيم مالك يـوم الدين، وأنه وحده هو المستحق للعبادة فلا يجوز أَنْ يُصْرَفَ شيء منها لغيره، وأنه هو وحده المستعان، وأنه الهادي إلى الصراط المستقيم. وفي سورة الأنعام لفت الانتبـاه إلى أنه وحـده هـو خالـق السموات والأرض وجـاعلُ الظلمات والنور، وفي سـورة الكهف يلفت الانتباه إلى نعمتـه العظمى وحجته البـالغة حيث أنزل القرآن العظيم والذكر الحكيم على خير خلقه وأفضل رسله وخاتم أنبيـائه عبـده محمد ﷺ ليرسم لـلإنسـانيـة طـريقَ سعادتها ومنهجَ رُشْـدِهـا وعـزهـا، وفي سورة سبـأ يلفت الانتباه إلى أن جميـع ما في السمـوات ومـا في الأرض لله عز وجل مِلكًـا ومُلكًا، فهو المستحـق للحمد في الدنيـا والآخرة، وفي سورة فاطر يلفت الانتباه إلى أنـه وحده هو الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة رسـلاً وأنه على كل شيء قـدير، مـا يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ومـا يمسك فلا مرسل لـه من بعده وهو العزيـز الحكيم، وقد ذكرت أن الحمـد هو الثنـاء على الله رب العالمين بـالجميل على ما أسـدى من النعم، وعلى مـا اتصف بـه من الأسماء الحسنى والصفـات العلى، والـرضـا بقضائه وقدره، فهو المحمود قبل حمد الحامـدين وشكر الشاكرين، والشكر هو الاعتراف والإقـرار للمنعم بنعمته، وضـده الكفر، والمدح نقيـض الذم، والـرضـا ضـد السخط، وكل من الشكـر والمدح والـرضـا داخل في حقيقـة

الحمد، فحمد الله عز وجل يقتضي من العبد الثناء على الله والإقرار بآلائه ونعمه التي لا تعد ولا تحصى، ووصف الله عز وجل بجميع صفات الكمال التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ، وتنزيهه عن كل نقص، وخضوع القلب والجوارح واللسان لله عز وجل، لأن جميع ما يصدر عن الله عز وجل يستحق الحمد عليه سواء كان مما يعده العبد ضرًّا أو نفعا كالعافية والبلوى، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والحياة والموت، وغير ذلك، فالله عز وجل محمود على كل حال، لما أسبغ من نعم ظاهرة وغير ظاهرة، وقد وهم من زعم أن الحمد هو الثناء باللسان وحده، وأن الشكر يكون باللسان وبالقلب وبالجوارح مستدلاً بقول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

فإن الحمد يشمل الشكر والمدح والرضا. ومعنى ﴿الحمد لله﴾ أي مجامع الحمد والثناء والشكر والمدح والرضا إنما يستحقها الله المعبود بالحق وحده. وقوله تبارك وتعالى: ﴿الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ تنبيه على استحقاقه وحده عز وجل للحمد بأنه هو وحده الخالق لجميع الكائنات ذواتها وصفاتها، وأحوالها وأعراضها وعلويها وسفليها لا شريك له في شيء من ذلك قال القرطبي رحمه الله في الجامع لأحكام القرآن: قوله تعالى: ﴿الذي خلق السمٰوات والأرض﴾ أخبر عن قدرته وعلمه وإرادته فقال: ﴿الذي خلق﴾ أي اخترع وأوجد وأنشأ وابتدع، والخلق يكون بمعنى الاختراع ويكون بمعنى التقدير وقد تقدم وكلاهما مراد هنا، وذلك دليل على حدوثهما، فرفع السماء بغير عمد، وجعلها مستوية من غير أودٍ، وجعل فيها الشمس والقمر آيتين، وزينها بالنجوم وأودعها السحاب والغيوم علامتين، وبسط الأرض وأودعها الأرزاق والنبات، وبث فيها من كل دابة آيات، وجعل فيها الجبال أوتادًا، وسبلاً فجاجًا، وأجرى فيها

الأنهار والبحار، وفجر فيها العيون من الأحجار، دلالات على وحدانيته، وعظيم قدرته، وأنه هو الله الواحد القهار، وبيَّن بخلقه السموات والأرض أنه خالق كل شيء. اهـ ولاشك أن السموات والأرض آيتان باهرتان من آيات الله، قد جعلهما الله تبارك وتعالى ونصبهما لتذكير عباده بأنه لا إله غيره ولا رب سواه، وقد تفضل الله تبارك وتعالى فأقام لعباده من الشواهد ما هو ثابت وما هو متغير، حيث جعل السموات والأرض آيتين ثابتتين طول الدهر، وجعل للعباد آيات متجددةً لتنبيههم، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث يقول: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزَيَّناها ومالها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسِيَ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ وقال تبارك وتعالى في هذا المقام من سورة الأنعام: ﴿الحمد لله الذي خلق السمٰوات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ قال القرطبي رحمه الله: واختلف العلماء في المعنى المراد بالظلمات والنور فقال السدي وقتادة وجمهور المفسرين: المراد سواد الليل وضياء النهار، وقال الحسن: الكفر والإيمان، قال ابن عطية: وهذا خروج عن الظاهر، قلت: اللفظ يعمه، وفي التنزيل: ﴿أَوَ من كان مَيْتًا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثَلُهُ في الظلمات﴾ والأرض هنا اسم للجنس فإفرادها في اللفظ بمعنى جمعها وكذلك: ﴿والنور﴾ ومثله: ﴿ثم يُخْرِجُكم طِفْلا﴾

وقال الشاعر: كلوا في بعض بطنكموا تعِفوا

وقد تقدم، وجعل هنا بمعنى خلق، لا يجوز غيره، قاله ابن عطية، قلت: وعليه يتفق اللفظ والمعنى في النسق، فيكون الجمع معطوفا على الجمع والمفرد معطوفا على المفرد فيتجانس اللفظ وتظهر الفصاحة. والله أعلم اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَروا بربهم يعدلون﴾ أي ومع

ظهور أدلة التوحيد وما نصبه الله عز وجل من البراهين الثابتة والمتجددة أمام أعين عباده فلا يزال الذين كفروا متمادين في ضلالهم مستمرين في غيهم مستغرقين في شركهم حيث يعدلون به بعض خلقه ويشركون معه غيره مع اعترافهم بأن الله هو ربهم وأنه هو الذي خلق السموات والأرض كما قال عز وجل: ﴿قل لمن الأرضُ ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله، قل أفلا تَذَكرون * قل مَنْ رَبُّ السمٰواتِ السبع وربُّ العرشِ العظيمِ * سيقولون لله، قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوتُ كلِّ شيء وهو يُجِيرُ ولا يُجَارُ عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله، قل فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولئن سألتهم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فأنى يُؤْفَكُونَ﴾ والتعبير بقوله: ﴿ثم﴾ لتبشيع عمل الكافرين واستغراقهم في الشرك وتراخيهم في الضلال، واستمرارهم على غيهم وطول انغماسهم في كفرهم مع معاينتهم الآيات الدالة على توحيده فلو عطف في هذا المقام بالواو ونحوها لم تفد في توبيخهم وتسفيههم ما تفيده ﴿ثم﴾ ومعنى ﴿بربهم يعدلون﴾ أي يشركون معه غيره ويساوون به سواه يقال: عدل كذا بكذا أي سوَّى بينهما، وقوله تبارك وتعالى: ﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قَضَى أَجَلا وأَجَلٌ مُسَمًّى عنده ثم أنتم تمترون.﴾ يلفت عز وجل انتباه الإنسان إلى النظر في نفسه بعد أن لفت انتباهه إلى النظر فيما يحيط به من العوالم العلوية والسفلية، لتكون براهين قدرته محيطة به من كل جانب قريبة من كل ناظر كما قال بعض أهل العلم:

فانظر إلى نفسك ثم انتقل ... للعالم العلوي ثم السفلي
تجد به صنعا بديع الحكم ... لكن به قام دليل العدم
وكلما جاز عليه العدم ... عليه قطعا يستحيل القدم

قال الفخر الرازي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ والمشهور أن المراد منه أنه تعالى خلقهم من آدم وآدم كان مخلوقا من طين، فلهذا السبب قال: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ وعندي فيه وجه آخر

وهو أن الإنســان مخلوق من المني ومن دم الطمث، وهما يتولـدان من الدم، والدم إنما يتـولد من الأغذيـة، والأغذية إمـا حيوانيـة و إما نباتيـة فإن كانت حيوانية كان الحال في كيفية تولد ذلـك الحيوان كالحال في كيفية تولد الإنسان فبقى أن تكون نباتية فثبت أن الإنسان مخلوق من الأغذية النباتية ولاشك أنها متولدة من الطين فثبت أن كل إنسـان متولد من الطين، وهذا الـوجه عندي أقرب إلى الصواب، إذا عرفت هذا فنقول: هنـا الطين قد تولدت النطفة منه بهذا الطريق المذكـور ثم تولـد من النطفة أنـواع الأعضاء المختلفـة في الصفة والصورة واللون والشكل مثل القلب والدماغ والكبد وأنواع الأعضاء البسيطة كالعظام والغضاريف والرباطـات والأوتار وغيرها، وتولد الصفات المختلفة في المادة المتشابهة لا يمكن إلا بتقدير مقدرٍ حكيم، ومدبرٍ رحيم، وذلك هو المطلوب. اهــ ومعنى قولـه تعالى: ﴿ثم قضى أجـلا﴾ أي حكم وقدر لكل واحـد منكم أجـلا لا يتعـداه ولا يتجاوزه بحـال وقهـره على ذلك فإذا جـاء أجلهم لا يستأخرون سـاعة ولا يستقدمـون، وقد ذهب غير واحـد من أئمة أهل العلم بالتفسير إلى أن الأجل المسمى عنده هو من وقت وفاة الإنسان إلى وقت بعثه يـوم القيامـة أي مدة مقامـه في البرزخ، ومعنى ﴿ثم أنتم تمترون﴾ أي ثم بعـد طول معاينتكـم لحجج الله الباهـرة الدالة على أنـه على كل شيء قـديـر تشكون في وقـوع البعث بعـد الموت مع مشـاهـدتكم في أنفسكم من الشواهد مـا يقطع أسباب الشك والامتراء لأن من قدر على إفاضـة الحياة وما يتفرع عليها من العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدة لشيء منها أصلاً كـان أهون عليه وأقدر على إفاضتها على مـادة قد استعدت لها وقـارنتها مـدة الأجل الأول، وقـد لـوحظ أن السور المكيـة تـدور في فلك حقائق ثـلاث وهي تقرير توحيـد الله عز وجل ووجوب الإيمان باليـوم الآخر ووجوب الإيمان بالمرسلين.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللهُ فى السَّمَـٰوَاتِ وَفى الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ. وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِهِمْ إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَـٰؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِن قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فى الْأَرْضِ مَالَمْ نُمَكِّن لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

بعد أن بيَّن تبارك وتعالى كمال قدرته على كل شيء مما يزيل كل ارتياب في قدرته عل البعث والنشور شرع هنا يقرر كمال علمه وأنه لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وقد لوحظ أن الله تبارك وتعالى يبرهن كثيرا على البعث والنشور بذكر كمال قدرته وعلمه حيث قال هنا بعد توبيخ من يمتري في إحياء الموتى بعد أجل برزخهم: ﴿وهو الله في السمٰوات وفي الأرض يعلم سِرَّكُمْ وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل يُحْيِيهَا الذي أنشأها أَوَّلَ مرة وهو بكل خَلْق عليم﴾ وقال عز وجل: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هٰذا شيء عجيب * أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رَجْعٌ بعيد * قد علمنا ما تَنْقُصُ الأرضُ منهم وعندنا كتابٌ حَفِيظٌ﴾ الآيات، إلى قوله عز وجل: ﴿كذٰلك الخُرُوجُ﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وهو الله في السمٰوات وفي الأرض يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي وهو أي المستحق لجميع المحامد، الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، الذي خلقكم من طين وقدر لكل واحد منكم أجله، وقهره عليه، لا يتأخر عن أجله إذا جاء لحظة واحدة ولا يتقدم لحظة، ذلك هو الله أي المألوه المعبود بالحق في السموات والمعبود بالحق في الأرض، المحيط بما تنطوي عليه صدور خلقه، وما توسوس به نفوسهم، وما تتلفظ به

ألسنتهم، أو تبديه جوارحهم، الذي يعلم السر وأخفى، ﴿سواء منكم من أَسَرَّ القولَ ومَن جَهَرَ به ومن هو مُسْتَخْفٍ بالليل وسَارِبٌ بالنهار﴾ ويعلم كل ما تجترحونه، ويحيط بكل ما تعملونه من خير أو شر فيحصيه عليكم ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى، ففروا إليه وحده ولا تعدلوا به أحدًا من خلقه، ولا تشكوا في قدرته على البعث والنشور، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وهو الذي في السماء إِلَهٌ وفي الأرض إِلَهٌ، وهو الحكيم العليم﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَأْتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها مُعْرِضِينَ. فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنبَاء ما كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ﴾ شروع في تقرير الحقيقة الثالثة من الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها السور المكية، فبعد أن قرر الحقيقة الأولى وهي إثبات أنه لا إله إلا الله في الآية الأولى من هذه السورة ثم قرر الحقيقة الثانية وهي إثبات البعث بعد الموت في الآية الثانية وأكد هاتين الحقيقتين في الآية الثالثة شرع في تقرير الحقيقة الثالثة وهي إثبات النبوة والرسالة، فقال عز وجل: ﴿وَمَا تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين * فقد كذَّبُوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أَنباء ما كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي وما تجيء هؤلاء الكافرين معجزةٌ وخارقةٌ من خوارق العادات على يديك يؤيدك بها رب الناس، تكون حجةً وعلامةً ودلالةً من حجج ربهم وأعلامه ودلالاته على أنك رسول رب العالمين إلا أعرضوا عنها وصدوا عن قبولها، وكذبوا بها، ولم يستفيدوا منها، وتركوا النظر فيها، وانصرفوا عنها مستهزئين بها، كما قال عز وجل: ﴿اقتربت الساعةُ وانشق القمر * وإن يَرَوْا آيةً يُعْرِضُوا ويقولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ * وكذبوا واتَّبَعُوا أهواءهم، وكلُّ أمر مُسْتَقِرٌ * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزْدَجَرٌ * حكمةٌ بَالِغَةٌ فما تُغْنِ النُّذُرُ﴾ فلا تعجب أيها النبي الكريم من إعراضهم. ولا تبتئس بما يصدر من سفاهتهم، فإنهم لو كانت

لهم عقول لسارعوا إلى تصديقك والإيمان بك لأنك إنما جئتهم بالحق الأبلج، فانغمسوا في الباطل اللجلج، وكذبوا بما لا يجوز أن يكذَّب، وردوه دون أن يتدبروا ما يجره عليهم تكذيبهم وسوء فعلهم، فسيحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة ما يكون كفاءً لإعراضهم وتكذيبهم واستهزائهم، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿فقد كذَّبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فقد كـذَّب هؤلاء العادلون بالله، الحقَّ لما جاءهم وذلك الحق هو محمد ﷺ، كذبوا به، وجحدوا نبوته لما جاءهم، قال الله متوعدا على تكذيبهم إياه، وجحودهم نبوته: سوف يأتي المكذبين بك يامحمد من قومك وغيرهم ﴿أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ يقول: سوف يأتيهم أخبار استهزائهم بما كانوا به يستهزئون من آياتي وأدلتي التي آتيتهم، ثم وفى لهم بوعيده لما تمادوا في غيهم، وعتوا على ربهم فقتلهم يوم بدر بالسيف اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا من قبلهم من قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ في الْأَرْضِ مَالَمْ نُمَكِّن لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجعَلْنَاالْأَنْهَارَ تجري من تحتهم فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ تقرير لما توعد الله عز وجل به الكفار الذين كذبوا رسوله محمدا ﷺ في قوله: ﴿فَسَوْفَ يأتيهم أنباء مَا كَانُوا به يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بتذكيرهم بما يعرفونه بمعاينة الآثار وسماع الأخبار عن الأمم الماضية التي كذبت رسلها فأنزل الله بهم بأسه الشديد وعقابه المبيد، وقد كانت هذه الأمم أشد من قريش قوة وأعظم منهم بأسًا وأكثر أموالا وأولادا، كما قال عز وجل: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ * إِرَمَ ذاتِ العِمَادِ * التي لم يُخْلَقْ مِثْلُهَا في البلاد * وثمودَ الذين جَابُوا الصَّخْرَ بالوادِ * وفرعَوْن ذي الأوتاد * الذين طَغَوْا في البلاد * فأكْثَرُوا فيها الفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ ربُّكَ سَوْطَ عذابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وقد أكد الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في

مقامات كثيرة من كتابه الكريم فذكر إبادته لأمم كثيرة ماضية كانوا أشد قوةً من كفار مكة ومن حولها من المكذبين برسوله محمد ﷺ وأن تلك الأمم الغابرة لما نزل بهم بأس الله لم تك تدفع عنهم قوتهم من عذاب الله شيئا حيث يقول عز وجل: ﴿أفلم يَهْدِ لَهُم كم أهلكنا قبلَهم من القرون يَمْشُونَ في مساكنهم، إن في ذٰلك لآيات لأُولي النُّهَي﴾ وقال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم، إن في ذٰلك لآيات أفلا يسمعون﴾ وقال عز وجل: ﴿كالذين من قبلكم كانوا أَشَدَّ منكم قوةً وأكثر أموالا وأولادًا فاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فاستمتعتم بخَلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخُضْتُمْ كالذي خَاضُوا، أولٰئك حَبِطَتْ أعمالُهم في الدنيا والآخرة وأولٰئك هم الخاسرون * ألم يأتهم نَبَأُ الذين من قبلهم قوم نوح وعادٍ وثمودَ وقومِ إبراهيم وأصحابِ مَدْيَنَ والمؤتفكات، أَتَتْهُمْ رسُلُهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولٰكن كانوا أَنفُسَهُمْ يظلمون﴾ وقال عز وجل: ﴿فأخذتهم الصيحةُ مُشْرِقِينَ * فجعلنا عَالِيهَا سَافِلَهَا وأمطرنا عليهم حجارةً من سِجِّيل * إنَّ في ذٰلك لآيَاتٍ للمتوسمين * وإنها لَبِسَبِيلٍ مُقِيم * إن في ذٰلك لآيَةً للمؤمنين * وإن كان أصحابُ الْأَيْكَةِ لظالمين * فانتقمنا منهم وإنهما لبِإمَامٍ مبين * ولقد كذَّبَ أصحابُ الحِجْرِ المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا يَنحتُونَ من الجبال بيوتا آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ وقال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أَشَدَّ منهم قوة وأَثَارُوا الأرضَ وعمروها أَكْثَرَ مِمَّا عَمروهَا وجاءتهم رسلُهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولٰكنْ كانوا أَنفُسَهُم يظلمون﴾ وقال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين كانوا من قبلهم، كَانُوا هُمْ أشدَّ منهم قوةً وآثارًا في الأرض فأخذهم اللهُ بذنوبهم وما كان لهم من الله من

وَاقٍ . ذٰلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب﴾ وقال عز وجل ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارًا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * فلما رَأَوْا بَأْسَنَا قالوا آمنا بالله وَحْدَهُ وكفرنا بما كُنَّا به مشركين * فلم يك يَنفَعُهُمْ إيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بأسنا سُنَّتَ اللهِ التي قد خَلَتْ في عبادِهِ وخَسِرَ هنالك الكافرون﴾ والضمير في قوله ﴿من قبلهم﴾ للمشركين المكذبين المعاندين لمحمد رسول الله ﷺ المذكورين في قوله عز وجل: ﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ والمراد بالقرن: الأمة والجماعة والجِيل من الناس على حد قول الشاعر:

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهمُ وخُلِّفت في قرن فأنت غريب

وضمير الغائبين في قوله: ﴿مكناهم﴾ راجع إلى القرن، وجُمع الضمير باعتبار كون القرن جمعا في المعنى. وضمير المخاطبين في قوله: ﴿مالم نمكن لكم﴾ للمشركين المعاندين الذين كذبوا بالحق لما جاءهم، وكان مقتضى السياق أن يقال: مالم نمكن لهم، لكن مقتضى الحال اقتضى الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لدفع الاشتباه من أول الأمر عن مرجعي الضميرين، ومعنى قوله: ﴿مكناهم في الأرض مالم نمكن لكم﴾ أي أعطيناهم من أسباب القوة ما جعلهم متمكنين في أرضهم مالم نعطكم مثله يامعشر قريش ومن معكم من المكذبين بالحق لما جاءهم، ومكنه في الأرض ومكن له فيها لغتان بمعنى واحد فهو يتعدى بنفسه تارة وبالحرف تارة أخرى نظير: نصحته ونصحت له وقد أورده القرآن الكريم باللغتين هنا وكما قال عز وجل: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ وقال عز وجل: ﴿إنا مَكَّنَّا له في الأرض﴾ وقال عز وجل: ﴿أو لم نمكن لهم حرما آمنا﴾ وقال عز وجل:

﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ ومعنى: ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدرارا﴾ أي وأنزلنا عليهم الغيث والمطر الغزير المتتابع النافع، والمدرار هو الكثير الدر المغزار، ومعنى: ﴿وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم﴾ أي وسخرنا لهم الأنهار المستمرة على الجريان بين مزارعهم وبساتينهم، فكانوا في بسطة ورغد من العيش والقدرة على التقلب في الأرض، وقوله: ﴿فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾ أي فلما كذبوا رسلهم وعصوا أمر ربهم دمرناهم بسبب كفرهم وسيئاتهم ولم يستطيعوا دفع عقوبة الله لما نزلت بهم واستبدلنا قوما غيرهم كما قال عز وجل: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْك كِتَابًا فى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ هَـٰذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ولَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِىَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُون. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلا ولَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ. وَلَقَدَ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ. قُلْ سِيرُوا فى الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ.﴾

بعد أن وبخ الله تبارك وتعالى الذين كفروا وكذبوا برسوله محمد ﷺ لما جاءهم، وتوعدهم بعقوبة من الله عز وجل تنزل بهم إن استمروا على كفرهم وتكذيبهم للحق الذي جاءهم، وذكرهم بما حل بالأمم المكذبة قبلهم من العذاب الشديد والعقاب المبيد وهم يعرفون ذلك بمعاينة الآثار وسماع الأخبار شرع هنا في مواساة حبيبه ورسوله وسيد خلقه محمد ﷺ بإعلان أن هؤلاء المكذبين لم يكذبوك لشبهة فيك، وإنما يكذبونك جحودًا للحق، ولو جئتهم بكل آية لردوها، وقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون، وقد ساق الله تبارك وتعالى في هذا المقام الكريم صورتين من صور تعنتهم، فذكر عز وجل أنه لو نزل عليك كتابا محررا مكتوبا في صحيفة واحدة غير متفرقة فشاهدوه بأعينهم ولمسوه بأيديهم لطعنوا فيه وقالوا إنه سحر، كما ذكر عز وجل أنهم يطعنون في نبوة محمد ﷺ لكونه بشرا، وهم لا يؤمنون بالرسول البشرى ولا يرضون إلا بالرسول الملكي مشتركا مع البشري أو مستقلاً وحده، وهم بهذا يسلكون منهج جميع الأمم الكافرة التي كذبت رسلها لأنهم بشر، بل كانت هذه أول شبهة رد بها قوم نوح رسالة نوح عليه السلام كما ذكر عز وجل: ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرًا مِثْلَنَا﴾ وهذا أمر عجيب وفساد في الرأي ظاهر فقد جهلوا أن إرسال الرسول من البشر هو من أعظم نعم الله على خلقه لأنه هو الذي يتكلم بلسانهم، ويتمكنون من

مجالسته والاستفادة منه، ولو أرسل الله لهم ملكًا لأرسله في صورة البشر، وقد وصف الله تبارك وتعالى سائر المكذبين للرسل بأنهم ردوا دعوة الحق التي جاء بها المرسلون بدعوى أن الرسل بشر حيث يقول عز وجل في سورة إبراهيم: ﴿قالت رُسُلُهُمْ أفي الله شكٌّ فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم وَيُؤَخِّرَكُمْ إلى أجل مُسَمًّى قالوا إنْ أنتم إلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تريدون أن تصدونا عما كان يَعْبُدُ آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نَحْنُ إلا بشرٌ مِثْلُكُمْ ولَكنَّ الله يَمُنُّ على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وهذه الشبهة في غاية الضعف قد ردها الله تبارك وتعالى في مقامات كثيرة من كتابه الكريم حيث يقول في سورة الإسراء: ﴿وما منع الناسَ أن يؤمنوا إذْ جاءهم الهُدَى إلا أن قالوا أَبَعَثَ اللهُ بشرا رسولاً * قل لو كان في الأرض ملائكةٌ يَمْشُونَ مطمئنين لَنَزَّلْنَا عليهم من السماء ملكا رسولا﴾ وقد بين عز وجل أنه لو أرسل رسولا غير بشر وجعله من الملائكة ما أطاقه الناس، ولا يتمكنون من معايشته ولذلك قال في هذا المقام من سورة الأنعام: ﴿ولو جعلناه مَلَكا لجعلناه رجلا ولَلَبَسْنَا عليهم ما يَلْبِسُونَ﴾ فالذي يفرون منه لابد وأن يقعوا فيه، ولا طاقة للبشر على مصاحبة الملائكة في دار الدنيا فإن جبريل عليه السلام عندما تبدى لرسول الله ﷺ وهو المهيأ لاستقبال الوحي ورأى ﷺ جبريل جالسًا على كرسي بين السماء والأرض، له ستمائة جناح، يملأ الأفق، خاف رسول الله ﷺ ورعب منه ورجع إلى أهله وقال: زملوني، وذلك من شدة الخوف. فلو أن جبريل عليه السلام جاء للبشر غير المهيئين للرسالة والوحي ما تمكنوا من الاستفادة منه، ولذلك يتوعد الله عز وجل المكذبين المعاندين الذين يردون رسالة الرسل بدعوى أنهم بشر وأنهم لا يؤمنون إلا إذا جاءهم رسول ملكي حيث يقول عز وجل في سورة الفرقان: ﴿وقال الذين لا يَرْجُونَ لقاءنا

لولا أُنزِلَ علينا الملائكةُ أو نَرَى ربَّنَا لقد استكبروا في أنفسهم وعَتَوْا عُتُوًّا كبيرا * يوم يَرَوْنَ الملائكةَ لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ وفي قوله عز وجل هنا: ﴿ولو نَزَّلْنا عليك كتابا في قرطاس فَلَمَسُوهُ بأيديهم﴾ إعلان بأن هؤلاء المكذبين بالحق قد بلغوا الدرجة القصوى في العناد والمكابرة والسفسطة حتى أصبحوا لا يخجلون من رد حقائق الأشياء وينكرون وجودها مهما بلغت في الظهور والوضوح والقوة وأنهم مهما عاينوا من آيات الله التي يؤيد بها رسوله محمدا ﷺ فإنهم يكذبون بها، وقد أكد الله تبارك وتعالى ذلك بمؤكدات حيث قيد الكتاب بكونه في قرطاس وقيد اللمس بكونه بالأيدي وهذه درجة عليا في إفادة اليقين، ومع ذلك فإن هؤلاء الجاحدين لا يزالون شاكين مكذبين بعد معاينتهم للحجة المحسوسة الملموسة التي يرونها بأعينهم ويمسونها بأيديهم، ويقولون: هذا سحر ظاهر قوي، وكان مقتضى السياق أن يقال: لقالوا إن هذا إلا سحر مبين لكن مقتضى الحال والمقام اقتضى وضع الاسم الموصول موضع الضمير لتسجيل وصفهم بالكفر الذي تفيده صلة الموصول ومعنى: ﴿إنْ هٰذا إلا سحر مبينٌ﴾ أي ما هذا الكتاب المنزل من السماء الذي شاهدناه بأعيننا ولمسناه بأيدينا إلا سحر ظاهر قوي سَحَرَنَا به محمد. وهذا القول من الكافرين هو دأب المفحَم المحجوج وديدن المكابر اللجوج، وهو مسلك جميع الأمم الكافرة في سائر الأزمان الغابرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه مَلَكٌ ولو أنزلنا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمرُ ثم لا يُنْظَرون * ولو جعلناه مَلَكًا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يَلْبِسُونَ﴾ تسجيل لبعض مقترحات هؤلاء الجاحدين الكافرين وتشنيع عليهم بها حيث ادعوا أنهم لايصدقون إلا الرسول الملكي الذي ينزل من السماء ولا يؤمنون بالرسول البشري إلا إذا أنزل عليه ملك ليكون معه نذيرا، كما حكى الله عز وجل عنهم ذلك حيث يقول: ﴿وقالوا مَالِ هٰذا الرسولِ

يأكل الطعامَ ويمشي في الأسواق لولا أُنزِلَ إليـه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيرا﴾ وقد أدحض الله عز وجـل شبهتهم وأخزاهم في مقالتهـم وبيَّن أن تلبيسهم مردود عليهم، وأن طلبهم هذا شاهد على جهالاتهم وسخافة عقولهم، لأن الرسول الملكي الذي يطلبون إمـا أن يأتيهم وينزل عليهم بصورتـه الملكية أو أن ينزل عليهم بصورة بشرية، فلـو جاءهم الملك بصورته الملكيـة لانخلعت قلوبهم من الـرعب، وهلكـوا من شـدة الخوف لأن النفـوس البشريـة غير مهيأة للتعـايش في الدنيـا مع الملائكـة بصـورهم الحقيقية، ولـو جـاءهم الملك في صورة بشرية لوقعوا فيما فروا منه لأن الناس حينئذ يظنون أنه بشر مع أنه ليس كذلـك فيزدادون في شبهاتهم ومشكـلاتهم وضلالتهم ويخذلهم الله عـز وجل فيقعـون في خلط فـوق خلطهم واشتبـاه مع اشتبـاههم، والتبـاس زائد على التباسهم، ومعنى: ﴿لـولا أُنزِلَ عليه مَلَك﴾ أي هلا أنـزل على محمد ملك من ملائكة السماء يكون معه نذيرا، ومعنى قوله ﴿ولو أنزلنا ملكا لَقُضِيَ الأمر ثم لا يُنظَـرُون﴾ أي ولو أجبنـا اقتراحهم وأنـزلنا عليهم ملكـا من السماء على صورته الملكية لانخلعت قلوبهم عند رؤيتـه وهلكوا، ولم يؤخَّروا طرفة عين، كما أن من دأب الله في الكافـرين أنه إنما ينزل الملائكة على المجـرمين بإبادتهم كما قال عز وجل: ﴿وقالـوا يا أيها الذي نُزِّلَ عليه الذكـرُ إنك لمجنون * لَوْمَا تَأتينا بالملائكة إن كنتَ من الصادقين * ما نُنَـزِّلُ الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذًا مُنظَـرِينَ﴾ ومعنى قولـه عـز وجل: ﴿ولو جعلنـاه مَلَكـا لجعلناه رجـلا ولَلَبَسْنَا عَلَيْهم ما يَلْبِسُونَ﴾ أي ولو أجبنا اقتراحهم ولكننا لم ننزل عليهم الملك في صورته الملكية وأنزلناه في صورة بشرية لوقعوا فيما فروا منه، قال محيي السنة أبو محمد البغوي في قوله عز وجل: ﴿وَلَلَبَسْنَا عليهم ما يَلْبِسُونَ﴾ أي خلطنا عليهم ما يخلطـون وشبهنا عليهم فلا يـدرون: أملك هو أو آدمي اهـ وقـوله تعالى: ﴿ولقد اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ من قَبْلِكَ فَحَاقَ بِـالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانوا

به يَسْتَهْزِئُونَ. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ هو مواساة لرسول الله محمد ﷺ بأن ما يلاقيه من المشركين من التكذيب والاستهزاء به قد لقيه إخوانه المرسلون من مشركي أممهم وأن العاقبة الحسنى كانت لرسل الله ومن آمن بهم وأن المستهزئين الذي سخروا من المرسلين قد نزل بهم بأس الله وحاقت بهم عقوبته، وقد أكد الله تبارك وتعالى تحذيره للذين كذبوا رسوله ﷺ بعدة تأكيدات حيث قال في الآية الخامسة من هذه السورة الكريمة: ﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أَنبَاء ما كانوا به يستهزئون﴾ ثم أكد لهم ذلك بلفت انتباههم إلى أنهم يعرفون ما حل بالأمم المكذبة بما يشاهدونه من الآثار وبما يسمعونه من الأخبار حيث يقول عز وجل في الآية السادسة: ﴿ألم يَرَوْا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾ ثم أكد ذلك في الآية العاشرة حيث يقول: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سَخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ ثم يزيد الأمر تأكيدا فيقول في الآية الحادية عشرة: ﴿قل سِيرُوا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبةُ المكذبين﴾ ومعنى ﴿حاق﴾ أي أحاط بهم وشملهم ولزمهم وقضى عليهم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي قل يامحمد لمن كذبوك وجحدوا الحق الذي جئت به: اضربوا في الأرض وجولوا في مشارقها ومغاربها ثم اعتبروا بما تشاهدونه من آثار المكذبين الجاحدين المستهزئين بالمرسلين، هذا وقد حاق بالمستهزئين برسول الله ﷺ ما توعدهم الله به فأنزل بهم عقوبته وكفاه شرهم، وقتل باقي صناديدهم يوم بدر، كما قال عز وجل: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾.

قــال تعالى: ﴿قُل لمن مَـا في السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ قُل للهِ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِـهِ الرَّحْمَةَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَـةِ لا رَيْبَ فيه، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

بعد أن ساق عز وجل أدلة التوحيد والبعث والرسالة وهي الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها السور المكية، شرع هنا في تأكيد هذه الحقائق الثلاث في صورة بلاغية حيث أمر رسوله ﷺ بتوجيه السؤال للمشركين المكذبين بالبعث الجاحدين برسالـة محمد ﷺ قائلا لهم على سبيل التبكيت والإلجاء: ﴿لمن ما في السمٰوات والأرض﴾ أي لمن الكـائنات جميعـا خلقًا وملكـا وتصرفا، قـال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿قل لمن ما في السمٰوات والأرض قل لله، كَتَبَ على نفسه الرحمةَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يـوم القيامة لا ريب فيـه، الـذين خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فهم لا يـؤمنـون﴾: في الآيـة مسـائل «المسألـة الأولى» اعلم أن المقصود من تقريـر هذه الآية تقرير إثبات الصـانع، وتقرير المعاد وتقرير النبوة، وبيانه أن أحوال العالم العلوي والسفلي يدل على أن جميع هـذه الأجسـام موصـوفـة بصفـات كـان يجوز عليهـا اتصافهـا بأضـدادهـا ومقابـلاتها، ومتى كان كـذلك فاختصـاص كل جزء من الأجـزاء الجسمانية بصفته المعينة لابـد وأن يكون لأجل أن الصانع الحكيم القـادر المختار خصه بتلك الصفة المعينة، فهـذا يدل على أن العالَم مع كل ما فيـه مملوك لله تعالى، وإذا ثبت هـذا، ثبت كـونـه قـادرا على الإعـادة والحشر والنشر لأن التركيب الأول إنما حصل لكونه تعالى قادرًا على كل الممكنات، عالما بكل المعلومات، وهذه القدرة والعلم يمتنـع زوالهما، فوجب صحة الإعادة ثانيـا، وأيضا ثبت أنه تعـالى ملك مطاع، والملك المطاع مـن له الأمر والنهي على عبيـده، ولابد من مبلِّغ، وذلك يـدل على أن بعثة الأنبيـاء والرسل من الله تعـالى إلى الخلق

غير ممتنع، فثبت أن هذه الآيـة وافية بإثبـات هذه المطالب الثـلاثة، ولَـمَّـا سبق ذكر هذه المسائل الثلاث ذكر الله بعـدها هذه الآية لتكون مقررة لمجموع تلك المطالب من الـوجه الـذي شرحناه، والله أعلم. «المسألة الثـانية» قـوله تعـالى: ﴿قل لمن مـا في السمٰوات والأرض﴾ سؤال، وقـولـه: ﴿قل لله﴾ جواب، فقد أمـره الله تعالى بالسؤال أولا ثم بالجواب ثـانيًا، وهذا إنما يحسن في الموضع الـذي يكـون الجواب قـد بلغ في الظهـور إلى حيث لا يقـدر على إنكاره منكـرٌ، ولا يقدر على دفعـه دافع، ولما بيَّنا أن آثـار الحدوث والإمكان ظاهرة في ذوات جميع الأجسام وفي جميـع صفاتها، لا جرم كان الاعتراف بأنها بأسرها مِلْك لله تعـالى ومُلْك له ومحل تصرفـه وقدرته، لا جـرم أمره بـالسؤال أولاً ثم بالجواب ثـانيًا، ليدل ذلك على أن الإقـرار بهذا المعنى مما لا سبيل إلى دفعه ألبتة، وأيضا فالقوم كانوا معترفين بأن كل العالم ملك لله، وملكه وتحت تصرفـه وقهـره وقـدرتـه بهذا المعنـى، كما قـال: ﴿ولئن سـألتهم مَنْ خَلَقَ السمٰواتِ والأرَض ليقـولُنَّ الله﴾ ثم إنـه تعالى لما بيَّن بهذا الطريـق كمال إلٰهيته وقدرته ونفاذ تصرفه في عالم المخلوقـات بالكلية، أردفه بكمال رحمته و إحسانه إلى الخلق فقال: ﴿كَتَبَ على نفسه الرحمة﴾ فكأنه تعالى قال: إنه لم يرض من نفسه بأن لا ينعم، بل أبدًا ينعم، وأبدًا يعد في المستقبل بالإنعام، ومع ذلك فقد كتب على نفسه ذلـك وأوجبه إيجاب الفضل والكرم اهـ وقال ابـن جرير الطبري رحمه الله: وقوله: ﴿كتب على نفسه الـرحمة﴾ يقول: قضى أنه بعباده رحيم، لا يعجل عليهم بالعقـوبة، ويقبل منهم الإنـابة والتوبـة، وهذا من الله تعالى ذكره استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليـه بالتوبة، يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء العـادلين بي الجاحدين نبوتك يامحمد، إن تابـوا وأنابوا قبلت توبتهم، و إني قد قضيت في خلقي أن رحمتي وسعت كل شيء اهـ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش

أن رحمته تغلب غضبه، فقد روى البخاري ذلك في كتاب التوحيد من صحيحه في أبواب حيث أورده في باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: لما خلق الله الخلق كتب في كتابه هو يكتب على نفسه، وهو وضع عنده على العرش: إن رحمتي تغلب غضبي. وأورده في باب: وكان عرشه على الماء من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي. وأورده في باب قوله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي. وأورده في باب قول الله تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ من طريق قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لما قضى الله الخلق كتب كتابًا عنده: غلبت ـــ أو قال: سبقت رحمتي غضبي، فهو عنده فوق العرش. وأورده في كتاب بدء الخلق في باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعِيدُه﴾ من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي. وقد أورده مسلم في صحيحه من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي. وفي لفظ لمسلم من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال الله عز وجل: سبقت رحمتي غضبي. وفي لفظ لمسلم من طريق الحارث بن عبد الرحمن عن عطاء بن ميناء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده: إن رحمتي تغلب

غضبي. ومعنى كون رحمة الله تغلب غضبه أو تسبق غضبـه عز وجل هو أنه عز وجل يثيب على الأعمال الصالحة من المحسنين ويقبل التوبة عن المسيئين ويعفو عن السيئات كما قـال عز وجل: ﴿وهو الذي يقبل التـوبة عن عباده ويعفُو عن السيئـات﴾ وقد أشـار الله تبارك وتعـالى إلى ذلك في الآية الـرابعة والخمسين من هذه السورة المباركة حيث يقـول: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بـآياتنـا فقل سـلام عليكم كتب ربكم على نفسـه الرحمة أنـه مَنْ عَمِلَ منكم سوءًا بِجَهَـالَةٍ ثم تاب من بعـده وأصلح فأنه غفـور رحيم.﴾ وكما كتب عز وجل على نفسه الـرحمة تفضلا وإحسانا فقـد حرم على نفسه المقـدسة الظلم فقد روى مسلم في صحيحـه من حديث أبي ذر رضي الله عنـه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرمًا فلا تظالموا. الحديث. قـال شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليـم بن عبد السـلام بن تيمية رحمه الله: فـالله سبحانه قـد كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم فهو لا يفعل خلاف ما كتب ولا يفعل ما حـرم ثم قال: إن الظلـم الذي حـرمـه الله على نفسه مثل أن يترك حسنـات المحسن فـلا يجزيـه بها، ويعـاقـب البريء على مـا لم يفعل من السيئـات، ويعاقب هذا بذنب هـذا، أو يحكم بين الناس بغير القسط، ونحو ذلك من الأفعال التي ينزه الـرب عنها لقسطه وعدله وهـو قادر عليها، وإنما استحق الحمـد لأنه تـرك هذا الظلم وهـو قادر عليـه، وكما أن الله منزه عن صفـات النقص والعيب فهو أيضا منزه عن أفعال النقص والعيب. ثم قال رحمه الله: ليس المراد بـذلك مجرد كتابتـه أنه يفعل وهـو كتابـة التقدير، كما قـد ثبت في الصحيح «أنه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكـان عرشـه على الماء» فإنه قـال: ﴿كتب على نفسه الـرحمة﴾ ولو أريـد كتابـة التقديـر لكان قـد كتب على نفسه الغضب كما كتب على نفسـه الرحمة، إذ كـان المراد مجرد الخبر عما سيكون، ولكـان قد حـرم على نفسه كل

مالم يفعله من الإحسان كما حرم الظلم. ثم قال رحمه الله: ونظير ما ذكره من كتابته على نفسه كما تقدم قوله تعالى: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: يامعاذ أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقهم عليه ألا يعذبهم. ومنه قوله في غير حديث: كان حقا على الله أن يفعل به كذا. فهذا الحق الذي عليه هو أَحَقَّهُ على نفسه بقوله ونظير تحريمه على نفسه وإيجابه على نفسه ما أخبر به من قسمه ليفعلن، وكلمته السابقة كقوله: ﴿ولولا كلمةٌ سبقت من ربك﴾ وقوله: ﴿لأَملأنَّ جهنم﴾ و﴿لَنُهْلِكَنَّ الظالمين﴾ ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتِلُوا لأكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتِهِم ولأُدْخِلَنَّهُمْ جنات تجري من تحتها الأنهار﴾. ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إليهم﴾ ونحو ذلك من صيغ القسم المتضمنة معنى الإيجاب. ثم قال رحمه الله: وكتابته على نفسه ذلك تستلزم إرادته لذلك ومحبته له ورضاه بذلك، وتحريمه الظلم على نفسه يستلزم بغضه لذلك وكراهته له، وإرادته ومحبته للفعل توجب وقوعه منه، وبغضه له وكراهته لأن يفعله يمنع وقوعه منه، فأما ما يحبه ويبغضه من أفعال عباده فذلك نوع آخر اهـ وقوله عز وجل: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ قال ابن كثير رحمه الله: هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده ﴿إلى ميقات يوم معلوم﴾ وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه أي لا شك عند عباده المؤمنين فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون اهـ وقوله عز وجل: ﴿الذين خَسِرُوا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ أي الذين ضيعوا أنفسهم حيث غبنوها حظها وأوبقوها وأتلفوا أغلى رأس مالهم فهؤلاء بسبب انتكاس فطرتهم وانطماس بصيرتهم لا يؤمنون بالله ولا يصدقون برسوله محمد ﷺ ولا يقرون بالبعث والنشور.

قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وهو يُطْعِمُ ولا يطعَم، قُلْ إِنِّى أُمِرتُ أَنْ أَكُونَ أول مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

بعد أن بين الله تبارك وتعالى أن جميع ما في السموات وما في الأرض ملك لله عز وجل وحده لا شريك له وأشار إلى أن هذه الحقيقة يُقِرُّ بها المشركون الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى ونبَّه العباد إلى أن مَرَدَّهُمْ جميعا إلى الله عز وجل وأنه من رحمته أرسل الرسل وأنزل الكتب ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة أَكَّدَ عز وجل هنا أنَّ لله وحده ما سكن في الليل والنهار، وأنه لا تخفى عليه خافيةٌ مهما كانت في السماء أو في الأرض، ثم أَمَر نبيه وسيد رسله وخاتم أنبيائه أن يوبخ المشركين وأن يَقْطَعَ كل أمل لهم فيما يحاولونه ويَودُّونَه من أن يميل رسول الله ﷺ إلى آلهتهم وأن يُعْلِمَهم ويُعْلِنَ لهم أنه أُمِرَ أن يكون أول من أسلم من أمته، وأنه يخاف إن عصى ربَّه عذابَ يوم القيامة وفي هذا كله تقريرٌ لحقيقة التوحيد وحقيقة الرسالة وحقيقة البعث بعد الموت وفي هذا شَبَهٌ بقوله تبارك وتعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين﴾ وهو شبيه أيضا بقوله تبارك وتعالى: ﴿قل أَفَغَيْرَ اللهِ تأْمُروني أعبد أيها الجَاهِلُونَ * ولقد أُوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أَشْرَكْتَ ليَحْبَطَنَّ عملُكَ ولتَكُونَنَّ من الخاسرين * بل الله فاعبد وكُن من الشاكرين﴾ وفيه شَبَهٌ بقوله تعالى: ﴿قل إنَّ صلاتي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أُمِرتُ وأنا أَوَّلُ

المسلمين * قلْ أَغَيْرَ الله أَبْغِي رَبًّا وهـو ربُّ كلِّ شيء، ولا تَكْسِبُ كلُّ نَفْسٍ إلا عليهـا، ولا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخـرى، ثـم إلى ربكم مَـرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بما كُنْتُمْ فيه تَخْتَلِفُـونَ﴾ والعرب يستعملون «سكن» بمعنى استقـر وحَلَّ فيكون من السُّكْنَى فيشمل المتحرك والساكن ويستعملونـه أيضا من السكون الذي هو ضدُّ التحرك وعلى هذا يكون فيه اكتفـاءٌ بأحد الضدين لدلالته على الآخر كما قـال عـز وجل: ﴿سَرَابيلَ تَقِيكُم الحرَّ﴾ أي والبرد فـاكتفي بـذكـر أحـد الضـدين عن ذكر الآخـر لأن السـامع يعرف المراد قطعـا. ولا شك أن جميع الكائنات متحركهـا وساكنها مملوك لله عز وجل وحـده لا شريك له ولذلك قدم الجار والمجرور لإفـادة الحَصْر المقرر أنَّ كلَّ الكائنات المتحركـة والساكنة لطيفةً كانت أو كثيفة في أي زمان أو مكـان هي لله تبارك وتعالى وحده، فهو عـز وجل الـذي يُسْكِنُ الـريح أو يحركهـا كما يُسْكِنُ الحر والبرد وعمـوم مـا يَسْكُنُ أو يتحرك، قـال العلامة ابن منظـور في لسان العرب المحيط: وقـوله تعالى: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ قـال ابن الأعرابي: معناه وله ما حلَّ في الليل والنهار، وقال الزجاج: هذا احتجاج على المشركين لأنهم لم يُنْكِرُوا أن ما اسْتَقَرَّ في الليل والنهـار لله أي هو خالقه ومُـدَبِّرُهُ فالذي هـو كذلك قادرٌ على إحياء الموتى، وقال أبـو العباس في قوله تعـالى: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ قـال: إنما الساكن من الناس والبهـائم خاصة قـال: وَسَكَنَ: هَدَأَ بعد تَحرُّكٍ وإنما معناه والله أعلم: الخَلْقُ اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قـوله تعـالى: ﴿ولـه مـا سكن في الليل والنهار﴾ أي كـل دابة في السمـوات والأرض الجميعُ عِبَـادُهُ وخَلْقُـهُ وتحت قهـره وتصرفه وتـدبيره لا إلـه إلا هـو، ﴿وهـو السميـع العليم﴾ أي السميع لأقـوال عبـاده، العليم بحـركـاتهم وضمائرهم وسرائرهم، ثم قـال تعـالى لعبده ورسـولـه محمـد ﷺ الذي بعثـه بـالتـوحيـد العظيم وبـالشرع القويـم وأمره أن يـدعـو النـاس إلى صراط الله

المستقيم ﴿قل أغير الله أتخذ وليـا فاطـرِ السمٰـوات والأرض﴾ كقولـه : ﴿قل أَفَغَيْرَ اللهِ تأمرونّي أعبـدُ أيها الجاهلون .﴾ والمعنى : لا أتخذ وليًّـا إلا الله وحده لا شريك له ، فإنـه فاطـر السمٰوات والأرض أي خـالقهما ومبدعهما على غير مثال سـابق ﴿وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ﴾ أي وهو الرزاق لخلقـه من غير احتياج إليهم كما قال تعـالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدونِ﴾ الآيـة ، وقرأ بعضهم ههنا ﴿وهـو يُطْعِمُ ولا يَطْعَمُ﴾ أي لا يأكل ، وفي حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيـه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : دعـا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ على طعام فـانطلقنا معه ، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يـديه قـال : الحمـد لله الذي يُطعِم ولا يَطْعَم ، ومنَّ علينـا فهـدانا وأطعمنـا وسقانا من الشراب ، وكسـانا من العرى ، وكل بلاء حسن أبـلانا ، الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه ، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام ، وسقانا من الشراب ، وكسانـا من العرى ، وهدانا من الضلال ، وبصَّرنـا من العمى ، وفضلنـا على كثير ممـن خلق تفضيـلا ، الحمـد لله رب العالمين اهـ والاستفهـام في قوله عز وجل : ﴿أفغير الله أتخذ وليـا﴾؟ للإنكار أي لا أتخذ غير الله وليًّـا لا بطـــريق الاستقـلال ولا بطـــريق الاشتراك ، والاستفهـام الإنكـاري مسلط على المفعول الأول لا على الفعل لـلإعـلام بأن المنكر هو اتخاذ غير الله وليا لا اتخاذ الولي مطلقا كما في قوله تعالى : ﴿أغيرَ الله أبغى ربا﴾ وكما في قوله تعالى : ﴿أفغيرَ الله تأمرونيِّ أعبدُ أيها الجاهلون﴾ والمراد بالولي هنا المعبود ، كما في قوله تعالى : ﴿ألا لله الدينُ الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياءَ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدي مَنْ هو كاذبٌ كَفَّارٌ﴾ والعجيب الغريب أن تجد أن بعض المنتسبين للإسلام يتخذون من دون الله أولياء ويسمونهم بهذا الاسم ويجعلون على قبـورهم قبابًـا ، وينادونهم ويستغيثـون بهم طالبين منهم جلب

النفع أو دفع الضر كما كان يفعل أهل الجاهلية قبل الإسلام، وفي ذلك يقول الشيخ محمد بن علي الشوكاني في رسالته المسماة: شرح الصدور في تحريم رفع القبور:

أعادوا بها معنى سُوَاعَ ومثله ... يغوث وودٌّ ليس ذلك من ودي
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم نحروا في سوحها من بحيرة ... أهلت لغير الله جهلا على عمد اهـ

وقد ندد الله تبارك وتعالى في مواضع كثيرة من كتابه الكريم بمن يتخذ غير الله وليا أي معبودًا كما في هذا المقام وكما قال عز وجل: ﴿قل من رب السمٰوات والأرض قل اللهُ، قل أفاتخذتم من دونه أولياءَ لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضَرًّا، قل هل يستوي الأعمى والبصيرُ أم هل تستوي الظلماتُ والنورُ، أم جعلوا لله شركاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فتشابه الخلقُ عليهم، قل اللهُ خالقُ كلِّ شيء وهو الواحدُ القهارُ.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ويومَ يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقولُ أأنتم أضللتم عبادي هٰؤلاء أم هم ضَلُّوا السبيل. قالوا سبحانك ما كانَ ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولٰكن مَتَّعْتَهُمْ وآباءَهُمْ حتى نَسُوا الذكر وكانوا قوما بُورًا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أم اتخذوا من دونه أولياءَ فاللهُ هو الوليُّ وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قديرٌ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿قل إني أُمِرْتُ أن أكونَ أولَ مَنْ أَسْلَمَ ولا تَكُونَنَّ من المشركين﴾ أي قل إن الله تبارك وتعالى أمرني أن أكون أول من يخلص له التوحيد من هذه الأمة وأول المنقادين لأمره المصدقين بما أنزل عليَّ من الكتاب وأنه نهاني أشد النهي وأوكده أن أشرك بالله شيئا، وفي هذا قطعٌ لطمع المشركين الذين يودون أن يزحزحوا رسول الله ﷺ عن جادة توحيد الله عز وجل وإخلاص العبادة له والدعوة إلى صراط الله المستقيم، وفي هذا تقرير

للتوحيد والرسالة على أكمل وجه، ولاشك أن كل نبي هو أول المؤمنين من أمته، كما قال عز وجل عن موسى عليه السلام: ﴿قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ وقوله تعالى: ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم. من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه، وذٰلك الفوز المبين﴾ تقرير للبعث بعد الموت وتأكيد في تربية النفوس على الإيمان بذلك حتى يصير الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ملكة مستولية على مشاعر المؤمنين مركوزة أمام بصائرهم ليفعلوا الخير ويجتنبوا الشر ويفوزوا بجنات النعيم، ومعنى: ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم. من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه، وذٰلك الفوز المبين﴾ أي أنذر يامحمد أمتك وحذرهم من عذاب يوم القيامة لمن عصى الله عز جل وبخاصة من ارتكب أكبر الكبائر وهو الشرك بالله، وأعلمهم أن عذاب يوم القيامة عذاب شديد وأن يوم القيامة عظيم الهول فظيع الشأن لأنه يوم يجعل الولدان شيبًا، فالسعيد من صرف الله عز وجل عنه عذاب يوم القيامة، ومن يصرف الله عنه عذاب يوم القيامة فقد نجاه وأنعم عليه وأحسن إليه وشمله برحمته، ومن شمله الله عز وجل برحمته فقد فاز فوزًا عظيمًا ظاهرًا كما قال عز وجل: ﴿فمن زُحْزِحَ عن النار وأُدْخِلَ الجنة فقد فاز، وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور﴾ فالفوز المبين الحق هو في دخول الجنة والنجاة من النار، وقد اشتمل قوله تبارك وتعالى: ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * من يُصْرَفْ عنه يومئذ فقد رحمه، وذٰلك الفوز المبين.﴾ على صور بلاغية حيث أكد الخوف بإن في قوله: ﴿إني أخاف﴾ وهو أفضل خلق الله أجمعين ثم فصل بين الفعل ومفعوله بالجملة الشرطية وهي قوله: ﴿إن عَصَيْتُ ربي﴾ وحذف جواب الشرط لدلالة قوله: إني أخاف عذاب يوم عظيم على هذا المحذوف. وفي قوله تعالى هنا: ﴿وذٰلك الفوز المبين﴾ مع قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿فأما الذين آمنوا

وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته، ذٰلك هو الفوز المبين﴾ بالمجيء بالواو في الأولى وحذفها من الثانية، والمجيء بالضمير في الثانية وحذفه من الأولى، وليس في القرآن بهذا اللفظ غيرهما فهما من المتشـابه المثـاني، مع بعد موقعيهما في الكتاب الكريم.

قال تعالى: ﴿وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلاَ كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ وإن يَمْسَسْكَ بخَيْرٍ فَهوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ. قُلْ أَيُّ شيءٍ أكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيد بَيْنِـي وبَيْنَكُمْ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآن لأُنذِرَكُمْ به وَمَن بَلَغَ، أَئنَكُمْ لَتَشْهَـدونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلهة أُخرى، قُلْ لا أَشْهَدُ، قل إنَّما هُوَ إلَهٌ وَحِدٌ وَإنني بَرِيءٌ ممَّا تشرِكُونَ﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أن لـه ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم وأمر نبيه وحبيبـه محمدًا ﷺ أن يوبخ المشركين وأن يقطع كلَّ أمل لهم فيما يحاولـونـه وَيَـوَدُّونـهُ من أن يميل رسـول الله ﷺ إلى آلهتهم، وأن يُعْلِمهُم ويُعلنَ لهم أنه أُمِـر أن يكون أول من أسلم من أمته وأنـه يخاف إن عصى ربَّهُ عذاب يوم القيامة، ضرب هنا مثـلا للحض على إخلاص التوحيد لله وحده والبراءةِ من كل معبود سـواه بِبَيَانِ أنه إن مسَّ الإنسـان ضُرٌّ لا يكشفه إلا الله وحده، وإن مسَّه خير فهو من الله وحده ولا يحفظه له أحد سواه تبارك وتعالى لأنه عـز وجل هو وحده القـادر على كل شيء النافعُ الضار الـذي لا يعجزه شيء ولا يكون في الكون شيء إلا بقضائه وقدره وحكمته وعلمه، حيث يقول هنا: ﴿وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كاشِفَ له إلا هو وإن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ على كل شيء قَدِيرٌ. وَهُـوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَـادِهِ، وهو الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ وقد روى الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنـتُ خَلْفَ النبي ﷺ يومـا فقال: يا غـلام إني أُعَلِّمُكَ كلماتٍ احفظ الله يَحْفَظكَ، احفظ الله تَجِدْهُ تِجاهَكَ، إذا سأَلْتَ فـاسْأَلِ الله، وإذا اسْتَعنْتَ فاسْتَعِنْ بـالله، واعلم أن الأمة لو اجْتَمَعَتْ على أن ينفعـوك بشيء لم ينفعوك إلا بِشَيْءٍ قـد كَتَبَهُ اللهُ لكَ، وإنِ اجْتَمَعُـوا على أن يَضُرُّوكَ بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّـتِ الصُّحُفُ. قال ابن جرير

الطبريُّ رحمه الله: القولُ في تأويل قوله: ﴿وإن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فلا كاشف له إلا هو وإن يَمْسَسْكَ بخير فهو على كل شيء قدير﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: يا محمد، إن يُصِبْكَ اللهُ ﴿بِضُرٍّ﴾ يقول: بِشِدَّةٍ في دنياك، وشَظَفٍ في عيشك وضِيقٍ فيه، فلن يَكْشِفَ ذلك عنك إلا الله الذي أَمَرَكَ أن تكون أولَ من أَسْلَمَ لأمره ونهيه، وأَذْعَنَ له من أهل زمانك، دونَ ما يدعوك العادلون به إلى عبادته من الأوثان والأصنام ودُونَ كلِّ شيء سواها من خَلْقِهِ ﴿وإن يَمْسَسْكَ بخير﴾ يقول: وإن يُصِبْكَ بخير، أي برخاءٍ في عيش، وسَعَةٍ في الرزق وكثرةٍ في المال فتقرّ أنه أصابك بذلك «فهو على كل شي قدير» هو القادرُ على نفعك وضرِّك وهو على كل شيء يريده قادرٌ، لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه، ليس كالآلهة الذليلة المهينة، التي لا تقدر على اجتلاب نفع على أنفسها ولا غيرها، ولا دفع ضر عنها ولا غيرها، يقول تعالى ذكره: فكيف تعبد من كان هكذا؟ أم كيف لا تخلص العبادة وتُقِرُّ لمن كان بيده الضرُّ والنفع والثوابُ والعقابُ، وله القدرة الكاملة والعزَّةُ الظاهرة اهـ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ إثبات لصفة الفوقية والعُلوِّ لله عز وجل على جميع خلقه، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة المثبتين لله تعالى ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العُلى، النافين عن الله عز وجل ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ مع إيمانهم ويقينهم بأن الله عز وجل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وعُلوُّ الله عز وجل على خلقه مركوز في الفطر السليمة ثابت بالكتاب والسنة في مواضع كثيرة فقد وصف الله تبارك وتعالى نفسه المقدسة بأنه استوى على العرش في سورة الأعراف وفي سورة يونس وفي سورة الرعد وفي سورة طه وفي سورة الفرقان وفي سورة السجدة وفي سورة الحديد، وقد وصف عز وجل كرسيه

بأنـه وسع السمٰوات والأرض وقـال عـز وجل: ﴿إليه يصعـد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ وقال هنا: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ وقال في سورة النحل في وصف ملائكته: ﴿يخافون ربهم مـن فوقهم﴾ وقال في عيسى عليه السلام: ﴿إني متوفيك ورافعك إليَّ﴾ وقال: ﴿بل رفعـه الله إليه﴾ ويقول عز وجل: ﴿تعرج الملائكـة والروح إليه في يـوم كان مقـداره خمسين ألفَ سَنَةٍ﴾ وقال عز وجل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ من ربك بالحق﴾ وقد روى البخاري في كتاب التـوحيد من صحيحه من حـديث أنس رضي الله عنه قـال: كانت زينب تَفْخَرُ على أزواج النبي ﷺ تقول: زَوَّجَكُنَّ أَهالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي الله تعالى من فـوق سبع سماوات. كما روى البخـاري من حديـث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: فإذا سألتم الله فَسَلُـوهُ الفِرْدَوْسَ فإنه أوسَطُ الجنة وأَعْلَى الجنة وفوقَه عَرشُ الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة، وقد ذكر الشيخ عليُّ ابن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي في شرحـه للعقيدة الطحاوية على قول الطحـاوي رحمه الله: وهـو مستغن عن العـرش ومـا دونـه محيطٌ بكل شيء وفوقهُ، وقـد أَعْجَزَ عن الإحاطة خلقـه قال ابن أبي العز رحمه الله: وأمـا كونه فوق المخلوقـات فقال تعالى: ﴿وهو القاهر فـوق عباده﴾ ﴿يخافون ربَّهم من فوقهم﴾ ثم قال رحمه الله: وإنما يثبت هذا المعنـى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقيـة المُطْلَقَةِ من كل وجه فلـه سبحانـه وتعالى فوقيـةُ القَهْر وفوقيـةُ القَدْرِ وفـوقيةُ الـذات، ومن أثبت البعض ونَفَى البعضَ فقـد تَنَقَّصَ وعُلُوُّهُ تعـالى مُطْلَقٌ من كل الوجوه اهـ وقـوله تبارك وتعالى ﴿قُلْ أي شيءٍ أكبرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وأُوحِيَ إليَّ هٰذَا القـرآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ، أَئنَّكُمْ لَتَشْهَدونَ أَنَّ مَـعَ الله آلِهَةً أُخرَى، قُلْ لاَ أَشْهَدُ، قُـلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰه وَاحِـدٌ وإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ تقريع للمشركين بالله المكـذبين بالرسالة المنكرين للبعث وتـوبيخ لهم على ردهم مـا دعـاهم إليـه محمـد ﷺ من وجـوب الإيمان بـالله

ورسولـه واليوم الآخر مع أنـه قد بَرْهَـنَ على دعواه بأعظم شهادة في الـوجود وأكبر بينة وهي شهادة الله الملك الحق المبين الذي أيـده بالقرآن الذي تحداهم بأقصر سورة منـه ، المقرر لعموم رسـالة محمد ﷺ وشمـولها لمن تصل إليه من الإنس والجن من لدن بعثتـه ﷺ إلى يوم القيـامة ، قال ابن جـرير رحمه الله : القــول في تأويل قــولـه : ﴿قل أي شيء أكبر شهــادةً قل الله شهيــد بيني وبينكم﴾ قال أبو جعفر: يقول تعـالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الـذين يكذبون ويجحدون نبـوتك من قومك : أيُّ شيءٍ أعظم شهادةً وأكبر؟ ثم أخبرهم بأن أكبر الأشيـاء شهادةً ﴿الله﴾ الذي لا يجوز أن يقع في شهـادتـه مـا يجوز أن يقـع في شهـادة غيره من خلقـه من السهـو والخطأ والغلط والكـذب ، ثم قل لهم : إن الـذي هـو أكبر الأشيـاء شهادةً شهيدٌ بيني وبينكم بالمُحِقِّ منا من المُبْطِلِ ، والرشيد منا في فعله وقوله من السفيه ، وقد رضِينا به حكماً بيننا . اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وكلُّ أحــد يعلم أن الله أكبر شهــادةً ، فلما قــال : «قل أي شي أكبر شهــادةً» عُلِمَ أن الله أكبر شهـادة من كل شيء ، فقيل لـه : ﴿قل الله شهيـد بيني وبينكم﴾ ولما قال : ﴿اللهُ شهيدٌ بيني وبينكم﴾ كان في هذا ما يغنى عن قولـه : إن الله أكبر شهادةً ، وذلك أنَّ كـونَ اللهِ أكبر شهادةً هـو معلوم ، ولا يثبت بمجرد قولـه « أكبر شهادةً» بخلاف كونه شهيـدا بينه وبينهم فإن هذا ممـا يُعْلَمُ بـالنص والاستـدلال ، فينظـر: هل شهد الله بصـدقـه وكـذَّبهم في تكذيبه؟ أم شهد بكذبـه وصدَّقهم في تكذيبه؟ وإذا نظر في ذلك علم أن الله شهد بصدقه وكذبهم بالنوعين من الآيـات : بكلامه الذي أنزله ، وبما بين أنه رسول صادقٌ ، ولهذا أعقبه بقولـه : ﴿وأوحي إليَّ هٰذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغَ﴾ فإنَّ هذا القـرآن فيه الإنذارُ، وهو آيـةٌ شهد بها أنه صادق ، وبـالآيات التي يُظْهِرُهـا في الآفاق وفي الأنفس حتى يتبين لهم أنـه الحق ، وقولـه في هذه

الآية: ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ وكذلك قوله: ﴿قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم﴾ وكذلك قوله: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا﴾ وكذلك قوله ﴿هو أعلم بما تُفِيضُون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم﴾ فَذَكَرَ سبحانه أنه شَهيدٌ بينه وبينهم ولم يقل: شاهدٌ علينا، ولا شاهدٌ لي، لأنه ضَمَّنَ الشهادة الحُكْمَ فهو شهيد يحكم بشهادته بيني وبينكم، والحُكْمُ قَدْرٌ زَائدٌ على مجرد الشهادة، فإن الشاهد قد يؤدي الشهادة. وأما الحاكمُ فإنه يحكم بالحق لِلْمُحقِّ على المُبْطِلِ ويأخذ حَقَّهُ مِنْه، ويعامل المحقَّ بما يستحقه والمبطلَ بما يستحقه. وهكذا شهادة الله بين الرسول ومتبعيه وبين مُكَذِّبِيهِ، فإنها تتضمن حكم الله للرسول وأتباعه، يحكم بما يظهره من الآيات الدالة على صدق الرسول على أنها الحق، وتلك الآيات أنواع متعددة ويحكم له أيضا بالنجاة والنصر والتأييد، وسعادة الدنيا والآخرة، ولمكذبيه بالهلاك والعذاب، وشقاء الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ فَيُظْهِرهُ بالدلائل والآيات العلمية التي تُبَيِّنُ أنه حق، ويُظْهرهُ أيضا بنصره وتأييده على مخالفيه، ويكون منصورًا كما قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزانَ ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ﴾ فهذه شهادةُ حُكْم كما قدَّمنا ذلك في قوله: ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ اهـ وقوله تعالى: ﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد، قل إنما هو إلَه واحد وإنني بريء مما تشركون﴾ تأكيدٌ على إيجاب التوحيد وتحذيرٌ من الشرك بأبلغ وجوه التأكيد وأعظم طرق البيان حيث أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن ينكر على المشركين ادعاءهم لله شريكا مُورِدًا ذلك بصيغة الاستفهام الإنكاري التوبيخي مفيدا أن من يدعى لله شريكا فهو شاهد زُورٍ يجب على كل عاقل أن يحذر من مثل هذه الشهادة الفاجرة وأن يجتنبها وأن يخلص التوحيد لله وحده وأن يتبرأ من الشرك والمشركين.

قال تعالى: ﴿الَّـذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتَابَ يعرفـونه كما يَعْرِفُونَ أَبْنَـاءَهُمْ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فهم لا يُؤْمِنُونَ* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبا أو كَذَّبَ بآياتهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. ويَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤكم الَّذينَ كُنْتُمْ تَـزْعُمُونَ. ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أن قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَـا مَاكُنَّا مُشْرِكِينَ. انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أنفُسِهِمْ، وضَلَّ عَنْهُمْ ما كانوا يَفْتَرُونَ﴾

بعد أن بَيَّـنَ الله تبارك وتعالى أنه شهد لرسوله ﷺ وأن شهادة الله هي أَجَلُّ شهادة وأكبرها وأعظمها أردف ذلك هنا ببيان أن أهل العلم من أهل الكتب السابقة موقنون بمحمد ﷺ وأنه رسـول الله وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم بسبب صفاته التي جاءت في الكتب السماوية السابقة حيث كانت رسلُ الله صلى الله عليهم وسلم يـوصون أممهم بـه، ويحضونهم على اتباعـه إذا بُعِثَ، وقد وَقَفَ آخـرُ أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم خطيبـا يُبَشِّرُ بمحمد ﷺ يقول لهم: «يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يَدَيَّ من التوراة ومبشرا بـرسول يأتي من بعـدى اسمـه أحمد» وقد أشـار الله تبارك وتعـالى إلى شهادة أهل العلم من أهل الكتاب الأول بتصـديق محمد ﷺ في غير موضع من القـرآن العظيم حيث يقول تبـارك وتعالى: ﴿ويقـول الذين كفـروا لست مُرْسَـلاً، قل كفى بالله شهيـدا بيني وبينكم ومن عنده عِلـمُ الكتاب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل أرأيتم إن كـان من عند الله وكفرتم به وشهـد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثلـه فآمـن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظـالمين﴾ كما أشار الله تبـارك وتعالى إلى معـرفة أهل الكتاب أن محمـدا هو رسـول الله حقا وصدقـا في مواضع من كتابـه الكريم حيث يقول: ﴿ولما جـاءهم كتاب من عنـد الله مُصَدِّقٌ لما معهم وكـانوا من قبل يستفتحـون على الذين كفـروا فلما جـاءهم ما عـرفوا كفـروا به، فَلَعْنَـةُ اللهِ على الكافـرين﴾ وكما قال عـز وجل

﴿الـذين آتيناهـم الكتاب يعـرفـونه كما يعـرفـون أبناءهـم وإن فريقـا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمـون﴾ وقال هنا : ﴿الذيـن آتيناهم الكتاب يعرفـونه كما يعرفون أبنـاءهم، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ وقـد قال محمد ابن إسحاق في السيرة النبوية : وحدثني عـاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن محمود بن لبيـد عن عبد الله بن عباس قال : حـدثني سلمانُ الفارسي من فيـه وساق الحديث إلى أن قـال : لحقت بصـاحب عمـورية فأخبرتـه خبرى فقال : أقم عنـدي ، فأقمت عند خير رجل ، على هـدى أصحابـه وأمرهم ، قال : واكتسبت حتى كانت لي بقراتٌ وغُنَيْمَةٌ ، قال : ثم نزل به أمْرُ الله ، فلما حُضرَ قلت له : يا فلان ، إني كنتُ مع فلان فأوصى بي إلى فلان ، ثم أَوصى بي فلان إلى فلان ، ثم أوصى بي فُلاَنٌ إليك ، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال : أي بُنَى واللهِ ما أَعْلَمُهُ أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمُرُكَ به أن تأتيه ، ولكنه قد أَظَلَّ زمـانُ نبي ، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مُهَاجـرهُ إلى أرض بين حَرَّتين ، بينهما نخل ، به عـلامـاتٌ لا تخْفَى ، يأكل الهديـة ، ولا يأكل الصـدقة ، وبين كتفيـه خـاتم النبـوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فـافعل ، الحديث . وقـوله عـز وجل : ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ تأكيد لتقـرير ما ذكره تبارك وتعالى في الآيـة الثانية عشرة من هذه السـورة الكريمة ببيان أن الـذين ضيعوا أنفسهم حيث غبنوها حظها وأوبقـوها وأتلفوا أغلى رأس مالهم فهؤلاء بسبب انتكاس فطـرتهم وانطماس بصيرتهم لا يؤمنون بـالله ولا يصدقون بـرسول الله ﷺ مهما جاءهـم من الآيـات ومهما تواترات على صدقـه ﷺ من الشهادات ، إذ قد شهد الله عز وجل له وعرفه أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم بأنه النبي المبعوث بدين إبراهيم الذي يهاجر إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين ، في كتفه خـاتم النبوة كزر الحَجلة ، يأكـل الهدية ولا يأكل الصدقة في عـلامات

أخرى لا تخفى، وقوله عز وجل: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّبَ بآياته، إنه لا يُفْلِحُ الظالمون﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بآياته، إنه لا يفلح الظالمون﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن أشدُّ اعتداءً وأَخْطأُ فِعْلاً وأخطلُ قولا ﴿ممن افترى على الله كذبا﴾ يعني: ممن اختلق على الله قيلاً باطلا واخترق من نفسه عليه كذبا، فَزَعَمَ أنَّ له شريكا من خلقه، وإلَها يُعْبَدُ مِن دونه، كما قاله المشركون من عَبَدَةِ الأوثان، أو ادَّعَى له ولدا أو صاحبة كما قالته النصارى ﴿أو كذَّب بآياته﴾ يقول: أو كذَّب بحججه وأعلامه وأدلته التي أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم، كذبت بها اليهود ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ يقول: إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل، ولا يدركون البقاءَ في الجنان، والمفترون عليه الكذبَ، والجاحدون بنبوة أنبيائه اهـ وقد جمع المشركون واليهود والنصارى أفحش الظلم حيث كَذَّبُوا بما جاء به رسول الله ﷺ من الحق، وضمُّوا إلى هذا التكذيب افتراءَ الكذب على الله حيث كان المشركون إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، وحيث كان اليهود والنصارى يزعمون أن شريعتهم غير قابلة للنسخ وأن الله أمرهم وعهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار، وقالت اليهود: عزيرٌ ابنُ الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله، ثم ذكر عز وجل مشهدًا من مشاهد القيامة يُعَجِّبُ فيه رسولَ الله ﷺ من أن الكذبَ والافتراء يلازم أعداء الله حتى في عرصات القيامة إذ يحلفون بالله ربهم أنهم ما كانوا مشركين حيث يقول عز وجل هنا: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ للذين أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤكم الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تكُن فِتْنَتُهُمْ إلاَّ أن قالوا واللهِ ربِّنَا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظر كَيْفَ كَذَبُوا على أنفسهم، وَضلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وفي إيراد هذا

المشهد العظيم تقرير للحشر والبعث بعد الموت الذي أنكره المشركون أشد الإنكار مع ما تضمنه هذا المشهد من توبيخ المشركين وتقريعهم على رءوس الأشهاد وبيان حيرتهم ويأسهم من شفاعة أصنامهم وأوثانهم لهم، وقد كانوا يزعمون أنهم يشفعون لهم عند الله عز وجل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ويعبدون من دونِ الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هٰؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ ولذلك يوبخهم عز وجل في هذا المقام وقد نزلت بهم الطامَّة والداهية التامة حيث يناديهم: ﴿أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ثم لم تكن فتنتهمْ إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ أي وما كان جوابهم ومعذرتهم ومقالتهم إلا أن حلفوا بالله ربهم أنهم ما كانوا مشركين، وظنوا أن كذبهم في عرصات القيامة ينفعهم، قال أبو إسحاق إبراهيم بنُ السَّرِيِّ الزجَّاج في كتاب معاني القرآن وإعرابه: وتأويلُ هذه الآية تأويلٌ حسَنٌ في اللغة لطيف، لا يفهمه إلا مَنْ عرف معاني الكلام وتَصَرُّفَ العرب في ذلك، والله جل وعز ذكر في هذه الأقاصيص التي جرت في أمر المشركين وهم مُفْتَتِنونَ بشركهم أَعلم الله أنه لم يكن افتتانهم بشركهم وإقامتهم عليه إلا أن تبرَّأوا منه وانتفوا منه، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين ومِثل ذلك في اللغة أن ترى إنسانا يُحِبُّ غاويا فإذا وقع في هلكة تبرأ منه فتقول له: ما كانت مَحَبتكَ لفلان إلا أن انْتَفَيْتَ منه اهـ وقد نقل المفسرون عبارة الزجاج هذه بألفاظ، فقال محيي السنة البغوي في معالم التنزيل: وقال الزجاج: في قوله: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ معنى لطيف، وذلك مثل الرجل يُفْتَنُ بمحبوب، ثم يصيبه فيه محنة، فيتبرأ من محبوبه، فيقال: لم تكن فتنته إلا هذا، كذلك الكفار فُتِنُوا بمحبة الأصنام، ولما رأوا العذاب تبرأوا منها، يقول الله عز وجل: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ ومحبتهم للأصنام ﴿إلا أن قالوا

والله ربنا ما كنا مشركين﴾ اهـ وقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: وقال أبـو إسحاق الـزجـاج: تأويل هـذه الآية لطيف جـدا، أخبر اللهُ عـز وجل بقصص المشركين وافتتـانهم بشركهم، ثم أخبر أن فتنتهـم لم تكن حين رأوا الحقـائق إلا أن انتفوا من الشرك، ونظير هـذا في اللغـة أن تـرى إنسانـا يُحِبُّ غاويا، فإذا وقع في هلكة تبرأ منه، فيقال: ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه اهـ وقال الفخر الرازيُّ: قال الزجاج: تأويل هذه الآية حَسَنٌ في اللغة لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام وتَصَرُّف العرب في ذلك، وذلك أن الله تعالى بيَّـنَ كونَ المشركين مفتونين بشركهم متهـالكين على حبه، فأعلم في هذه الآية أنه لم يكن افتتـانهم بشركهم وإقامتهم عليـه إلا أن تبرأوا منه وتباعـدوا عنه، فحلفوا أنهم مـا كانوا مشركين، ومثـاله: أن ترى إنسانـا يحب غاويا مـذموم الطريقة، فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه، فيقـال له: ما كانت مَحبَّتكَ لفلان إلا أن انتفيت منـه اهـ وقـد ساق ابن الجوزي في تفسيره قـول الزجـاج بعبارة أخرى، وقد أشار ابن تيميـة رحمه الله إلى أن من شأن النفس الخائنة أن تدافع وتجادل الله بالبـاطل حيث قال رحمه الله: وهذا من شأن النفس حتى إنـه يوم القيامة يريد أن يدفع عن نفسه ويجادل الله بالباطل قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون لـه كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكـاذبـون * استحـوذ عليهم الشيطـان فأنسـاهـم ذكـر الله، أولَئك حـزب الشيطـان، ألا إن حـزب الشيطـان هم الخاسرون﴾ وقـال تعـالى: ﴿ويـوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون. ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالـوا والله ربنا مـا كنا مشركين * انظر كيف كـذبُوا على أنفسهم، وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾. وقد جاءت الأحاديث بأن الإنسان يجحد أعمالـه يوم القيـامة حتى يشهـد عليه سمعُـهُ وبصرهُ وجوارحـهُ، وقال تعـالى: ﴿ومـا كنتم تستترون أن يشهـد عليكم سمعكم ولا أبصَـارُكُمْ ولا

جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون﴾ اهـ وقوله تعالى: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم، وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: ومعنى النظر في هذا الموضع النظر بالقلب لا النظر بالبصر وإنما معناه: تَبَيَّنْ فاعلم كيف كَذَبُوا في الآخرة. اهـ والمقصود تعجيب رسول الله ﷺ وغيره من كذبهم الصريح بإنكار صدور الإشراك عنهم في الدنيا، ومعنى ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي وغاب عنهم أصنامهم وأوثانهم بعد أن زَيَّل الله بين الأصنام وعابديها وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون * إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يُسْحَبونَ * في الحميم ثم في النار يُسْجَرونَ * ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله قالوا ضلوا عنَّا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا، كذلك يُضل الله الكافرين﴾

قال تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَن يَستَمِعُ إليكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أكِنَّةً أن يَفْقَهُوهُ وفى آذانِهِمْ وقرا ، وإن يَـرَوْا كُلَّ آيةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا ، حتى إذا جـاءوك يجادلونك يَقُولُ الَّـذِينَ كفرُوا إِنْ هَذَا إلا أَسـاطِيرُ الأَولِينَ* وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وينئـون عنه وإن يُهْلِكُونَ إلاَّ أَنفُسَهم وَما يَشْعـرُونَ . وَلَو تَرَى إذ وُقِفوا على النَّارِ فَقَـالوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بآيات رَبِّنَا ونكونَ من المُؤْمِنِينَ . بل بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادوا لِـمَا نُهُوا عَنْهُ وإنَّـهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ .

بعـد أن بيَّـنَ الله تبـارك وتعـالى أن أهل العلم من أهل الكتـاب موقنـون بمحمد ﷺ وأنـه رسول الله حقًـا وصدقا وأنهم يعـرفونـه كما يعرفـون أبناءهم وبيَّن تبارك وتعالى أن أشد الناس ظلما من افترى على الله كذبا أو كذب بآياته وذكر مشهـدا من مشاهـد القيامـة يُعَجِّب فيه رسـول الله ﷺ من أن الكذب والافتراء من صفات أعداء الله حتى في عـرصات القيامة ، مع مـا يفيده ذكر هذا المشهـد من تقرير النشر والحشر وتـوبيخ المشركين وتقريعهم على رءوس الأشهاد يـوم القيامة شرع هنـا في زيادة تقرير مـا تضمنه المقام المتقـدم ببيان حال المشركين عند سماع القرآن في الدنيا ، وبيان ما سيصدر عنهم يوم الحشر الأكبر، وما يلاقونـه من الحسرة والندامة يوم القيامة ، حيـث ذكر هنا مشهدا من مشاهـد الآخرة يُظْهِـرُ فيه الكافـرون حسرتهم على تكذيبهم بـآيات ربهم ويتمنـون أن يرجعـوا إلى الدنيـا ليُصَدِّقـوا رسول الله ﷺ وأعلم الله عـز وجل رسـولـه ﷺ أنهم لو رُدُّوا إلى الـدنيـا لعـادوا إلى تكذيب رسـول الله ﷺ بعـد معاينتهم نـار جهنم بأبصارهم ، وفي ذلك يقول الله تبـارك وتعالى : ﴿ومنهم من يَسْتمع إليك وجعلنا على قلـوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقـرًا﴾ قال ابن جـريـر الطبري رحمه الله : القـول في تأويل قـولـه : ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلـوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرًا﴾ قـال أبو جعفر :

يقول تعالى ذكـره: ومن هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنـام من قومك يا محمـد ﴿من يستمع إليك﴾ يقـول: مـن يستمع القـرآن منك، ويستمع مـا تدعوه إليه من توحيد ربك وأَمْرِه ونَهْيِه ولا يفقه ماتقول، ولا يُوعيه قلبه، ولا يتدبره، ولا يصغى لـه سمعه ليتفقهه فَيَفْهَمَ حُجَجَ الله عليه في تنـزيله الذي أنـزلـه عليك، إنما يَسْمَعُ صـوتك وقـراءتكَ وكـلامكَ، ولا يعقل عنك مـا تقول، لأن الله قد جَعَلَ على قلبه ﴿أَكِنَّةً﴾ وهي جمع كِنَانٍ وهو الغِطاء، مثل سِنَانٍ وأسنةٍ، يقال منه: أَكْنَنْتُ الشيءَ في نفسي، وكَنَنْتُ الشيء إذا غَطَّيته، ومن ذلك ﴿بَيْضٌ مكنون﴾ وهو الغطاء، ومنه قولُ الشاعر:

تَحـتَ عَيْـن كِنَـانُنَا ظِـلُّ بُـرْدٍ مُرَحَّـلُ

يعنى: غطاؤهم الذي يكنهم «وفي آذانهم وقـرا» يقول تعالى ذكره: وجعل في آذانهم ثِقَلاً وصَمَما عن فهم مـا تتلوه عليهم والإصغـاء لما تدعـوهم إليه، والعَرَبُ تفتح الـواو من الوَقْـر في الأذن وهو الثِّقَلُ فيهـا، وتكْسِرُها في الحمل فتقول: هو وِقرُ الدابَّة، ويقال من الحمل: أو قَرتُ الدابةَ فهي مُوقَرَةٌ، ومن السَّمْع وَقَرْتُ سمعه فهو موقور، ومنه قول الشاعر:

ولي هَامَةٌ قد وقَّرَ الضَّرْبُ سَمْعَهَا

وقـد ذُكِرَ سماعـا منهم: وُقِرَتْ أُذُنُـهُ، إذا ثقلت فهي مـوقورة، وأوقـرتِ النخلـة فهي مـوقِرٌ، كما قيل: امرأة طـامث، وحـائضٌ، لأنـه لاَحَظَّ فيـه للمذكـر، فإذا أريد أنَّ الله أوقرهـا قيل: مُوقَـرةٌ، وقال تعالى ذكـره: «وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهـوه» بمعنى: أن لا يفقهوه كما قال: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لكم أن تَضلُّوا﴾ بمعنى: أن لا تضلوا لأن الكنَّ إنما جُعِـلَ على القلب لئلا يفقهه لا ليفقهه اهــ وقولـه تبارك وتعالى: ﴿وإن يَـرَوْا كُلَّ آيةٍ لا يـؤْمِنُوا بهَا، حتى إذاجَاءوكَ يُجَادِلونك يَقُولُ الَّذيـنَ كَفَروا إن هٰذا إلا أساطيرُ الأوَّلِينَ﴾ قال ابن جريـر رحمه الله: قال أبو جعفـر: يقول تعالى ذكـره: وإن ير هؤلاء العـادلون

بربهم الأوثان والأصنام الذين جَعَلْتُ على قلوبهم أكنَّة أن يفْقهوا عنك ما يسمعون منك ﴿كلَّ آية﴾ يقول: كلَّ حجة وعلامة تدلُّ أهلَ الْحِجَى والفهم على توحيد الله وصدق قولك وحقيقة نبوتك ﴿لا يؤمنوا بها﴾ يقول: لا يصدقون بها ولا يقرون بأنها دالة على ما هي عليه دالة ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك﴾ يقول: حتى إذا صاروا إليك بعد معاينتهم الآيات الدالة على حقيقة ما جئتهم به «يجادلونك» يقول: يخاصمونك «يقول الذين كفروا» يعنى بذلك: الذين جحدوا آيات الله وأنكروا حقيقتها يقولون لنبيِّ الله ﷺ إذا سمعوا حجج الله التي احتج بها عليهم، وبَيَانَهُ الذي بَيَّنَهُ لهم «إنْ هذَا إلا أساطير الأوَّلين» أي ما هذا إلا أساطير الأولين، والأساطير: جمع إسطارة، وأُسطورة مثل: أُفكُوهة وأُضْحوكة، وجائزٌ أن يكون الواحد «أَسطارًا» مثل: أَبيات وأَبابيت وأقوال وأقاويل، من قول الله تعالى ذكره: ﴿وكتابٍ مسطور﴾ من سطر يسطر سطرا، فإذا كان من هذا فإنَّ تأويله: ما هذا إلا ما كتبه الأولون اهـ والمراد من قول الطبري رحمه الله: وجائزٌ أن يكون الواحد أسطارا هو أن تكون أساطير جمع أسطار وأسطار جمع سطر فأساطير جمع الجمع مثل أبابيت جمع أبيات وأبيات جمع بيت فأبابيت جمع الجمع وكذلك أقاويل جمع أقوال، وأقوال جمع قول، فأقاويل جمع الجمع، ومعنى قوله عز وجل ﴿وهم يَنْهونَ عَنْهُ وَيَنْئَونَ عَنْهُ﴾ أي وهؤلاء المشركون الجاهلون، المفترون على الله الكذب المكذبون بآيات الله، المجادلون بالباطل الواصفون كلام الله الذي هو أحسن الحديث وأصدقه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بأنه أساطير الأولين وخرافات المتقدمين، هؤلاء الجاهلون قد انغمسوا في الكفر والضلال إلى الغاية القصوى ومع ذلك فإنهم لم يكتفوا بجريمة وصف القرآن بأنه أساطير الأولين بل بذلوا كلَّ ما يطيقون في نهي الناس عن الاستماع إلى رسول الله ﷺ مخافة أن تجذبهم حلاوة ما يسمعون منه إلى الدخول في الإسلام

كما ضمُّوا إلى ذلك كذلك حِرْصَهُمْ على النأى والتباعد عن رسول الله ﷺ إظهارًا لغاية نفورهم منه وتأكيدا لِنَهْيهم عنه، ولقد كانت قريش تبذل قصارى جهدها في تنفير العرب عن رسول الله ﷺ ويصفونه بأنه ساحر وبأنه شاعر وبأنه مُعَلَّمٌ مجنون، ويقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلكم تغلبون، ومعنى قوله: ﴿ويَنْئَونَ عنه﴾ أي ويتباعدون عنه، وفي قوله عز وجل: ﴿وَهُمْ يَنْهَونَ عَنْهُ ويَنْئَوْنَ عَنْهُ﴾ أسلوب من أساليب البديع وهو الجناس المُعَرَّف في علم البديع من علوم البلاغة بأنه تشابه لفظين في النطق واختلافهما في المعنى، وهو أنواع منها: الجناس المضارع وهو ما يكون باختلاف ركنيه في حرفين لم يتباعدا مَخْرَجًا، إما في الأول نحو قولهم: ليل دامس وطريق طامس، وإما في الوسط نحو قوله عز وجل هنا: ﴿وَهُمْ يَنْهَونَ عَنْهُ ويَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ وإما في الآخر نحو قوله صلى الله عليه وسلم: الخيل معقود في نواصيها الخير ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وإن يُهْلِكُونَ إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ أي وما يُتْلِفُ ولا يُعْطِبُ هؤلاء المكذبون الذين يَنْهَوْنَ عنه وينأون عنه إلا أنفسهم ولا يعود وبالُ عملهم إلا عليهم وهم لا يُحِسُّون بفداحة جُرمهم وفظاعة ما يحيق بهم وما يَجُرُّهُ عليهم كفرهم بالله وصدهم عن سبيله حيث يحملون يوم القيامة أوزارهم ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم كما قال عز وجل: ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين. ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذي يضلونهم بغير علم، ألَا سَاءَ ما يَزِرُونَ﴾ وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿ولو ترى إذ وُقِفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بَدَا لهمْ ما كانوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّا لَعَادُوا لمَا نُهوا عَنْهُ وَإنهم لكاذبون﴾ هذا مشهد آخر من مشاهد القيامة يُبَيِّن اللهُ تبارك وتعالى فيه حال الذين كذبوا بالحق لما جاءهم وكانوا ينهونَ عنه وينأون عنه ويُقرر حالة من حالاتهم المفزعة في عرصات

القيـامة لتأكيـد مـا تضمنه مـا حذرهم بـه الله عـز وجل حيث قال في الآيـة السابقـة : ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعـرون﴾ والمخاطب في قولـه عز وجل : ﴿ولو ترى إذ وقفـوا على النار﴾ كلُّ من تتأتي منه الرؤيـة ، للإشارة إلى بيان نهاية سُوء أحوالهم وبلوغها الغـاية القصوى من الشناعة والفظاعة حتى أصبحت لا يختص بـاستغـرابها رَاءٍ دُونَ رَاءٍ بل كـل من تتأتى منـه الـرؤيـة يتعجب من هولها وفظاعتها وقد حُـذِفَ جواب «لو» ثقة بظهوره ، وإشارة إلى الذهـاب فيه كلَّ مـذهب يعنى : لرأيت أمـرا فظيعا ، وهَـوْلاً خطيرا ، ومنظرًا هائلا وقد أفرد علماء البـلاغة للحذف بابا في علم المعاني مـن علوم البلاغة ، واعتبروه من أعظم أساليب الفصـاحة حتى قال عبـد القاهر الجرجـاني : إنه بابٌ دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى فيه تَرْكَ الـذكر أفصح من الذكر الخ . . ومعنى قولـه : «وقِفُوا على النار» أي عرِضوا على النـار ، قال ابن جرير رحمه الله : وقيل «وقفـوا» ولم يقل : أُوقفوا ، لأن ذلك هـو الفصيح من كلام العـرب اهـ وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿فقـالوا ياليتنـا نُرَد ولا نُكَـذِّب بآيات ربنـا ونكون من المؤمنين* بل بـدَا لهم ما كـانوا يخفونَ من قبلُ ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأَوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال فعند ذلك قالـوا : ﴿يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكـذب بآيات ربنا ونكـون من المؤمنين﴾ يَتَمَنَّوْنَ أن يُرَدُّوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملا صالحا ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين قال الله تعالى : ﴿بل بَـدَا لهم ما كانوا يُخْفـون من قبل﴾ أي بل ظهر لهم حينئـذ ما كـانوا يخفـون في أنفسهم من الكفر والتكـذيب والمعانـدة وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة ، كما قال قبله بيسير: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلى أن قالـوا والله ربنا ما كنـا مشركين . انظر كيف كَذَبـوا على أنفسهم﴾ اهـ ومعنى

«بل» في قوله تعالى: ﴿بل بَدَا لهم ما كـانوا يُخْفُونَ من قبل ولو ردُّوا لعادوا لما نهوا عنه و إنهم لكاذبون﴾ للإضراب الإبطالي أي ليس الحال كما زعموا، فهي بمعنى «كلا» والمعنـى ليس الحامل لهؤلاء الكفرة على تمنيهم وطلبهم الـرجعة إلى الـدنيا هـو الـرغبـة في الإيمان بل حملهم على ذلك ما ظهـر لهم من أنَّ مـا أضمروه من الكـذب على الله وزعمهم بأنهم ما كانـوا مشركين لا ينفعهم وأنه لن ينجـو إلا من آمن في الـدنيـا ومـات على الإيمان وبين عـز وجل أنهم لـو رجعوا إلى الدنيـا لرجعوا إلى الكفر وأنهم متمرسون على الكـذب، كما قال عز وجل قبل آيتين من هذه الآيـة ﴿و إن يَرَوْا كل آية لا يؤمنـوابها﴾ وفي هذه الآية دليل قطعي على شمول علم الله عز وجل لما كان وما يكون وما هو كائن وأنه عـز وجل يعلم ما لا يكـون لو كـان كيف يكون، وهـو مذهب أهل السنـة والجماعة.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ومَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ. وَلَو تَرَى إذْ وُقِفُوا على رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالحَقِّ، قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا، قَالَ فَذُوقوا العَذَابَ بِمَا كنتُمْ تَكْفُرُونَ. قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إذَا جَاءَتْهُم السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ، أَلاَ سَاءَ ما يَزِرُونَ. وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ولَلدارُ الآخرةُ خَيْرٌ للذين يَتَّقُونَ، أفلا تَعْقِلُونَ﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى مشهدا من مشاهد القيامة بَيَّنَ فيه موقف الذين كفروا حين عرضوا على النار وما أصابهم من الحسرة والندامة وأنهم تَمَنَّوْا أن يُرَدُّوا إلى الحياة الدنيا دار العمل ليؤمنوا وبيَّنَ العليمُ الخبيرُ أنهم لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه، مما يدل على أنهم مَجْبُولون على الكذب، مطبوعون على الكفر، مُعَوَّدون لمخالفة الأمر والنَّهْي بيَّنَ عز وجل هنا: أن هؤلاء الكافرين لو رجعوا إلى الحياة الدنيا لرجعوا إلى الكفر وتكذيب المرسلين ولقالوا وردَّدوا ما كانوا يقولونه وَيُرَدِّدُونهُ قبل معاينة النار من مقالتهم: ما هي إلا هذه الحياةُ الدنيا لا مَعَادَ بعدها وما نحن بمبعوثين، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وَقَالُوا إنْ هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وما نحن بِمَبْعُوثينَ﴾ ثم ذكر عز وجل مشهدًا آخر من مشاهد القيامة يبين فيه موقف الذين كفروا حين يُعْرَضُونَ على ربهم وما يَئُولُ إليه حالهم فقال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا عَلَى ربهم، قال أَلَيْسَ هٰذا بالْحَقِّ، قالُوا بَلَى وربِّنَا، قال فَذُوقُوا العَذَابَ بما كُنتُمْ تَكْفرونَ﴾ أي ولو ترى يا من تتأتي منه الرؤية هؤلاء الكافرين المنكرين للبعث بعد الموت المكذبين بأن العباد موقوفون بين يدي ربهم مجزيون بأعمالهم لو تراهم في موقفهم عند عرضهم على الله عز وجل يوم القيامة أي لرأيتهم في منظر تقشعر منه الأبدان ويشيب منه الولْدَانُ وقد سألهم ربُّهم سؤالَ توبيخ وتقريع قائلا

لهم: أليس هذا البعثُ والنشرُ بعد الممات الذي كنتم تنكرونه في الدنيا حقا؟ فأجابـوا قائلين: بلى والله إنـه لَحَقٌّ وقد أكـدوا إقرارهم بـالقسم إظهارا لكمال يقينهم بحقيقته، وإيذانا بصدور ذلك عنهم رغبة وطَمَعًا في نفعه، فأيأسهُم عز وجل من رحمتـه وقَطَعَ أطماعهم في انتفاعهم بالإيمان في عرصـات القيامة ما داموا قد ماتوا على الكفر بالله تعالى حيث قال عز وجل: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي فَـأَحِسوا بطعم العـذاب بسبب كفركم في الـدنيا، ولا معارضة بين قـوله عز وجل هنا: ﴿قـال أليس هٰذا بالحق، قـالوا بلى وربنا، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفـرون﴾ وبين قوله تبارك وتعالى ﴿ولا يكلمهم اللهُ يـوم القيامـة﴾ لأن المنفى هـو الكلام النـافع لهم المشتملُ على رحمتهم أو تكريمهم والمُثْبَتُ هو الكلام المشتمل على توبيخهم وتقريعهم وإهانتهم قال محيي السنـة الإمام البغوي في تفسير قـوله عـز وجل: ﴿أليس هـٰذا بالحق﴾ يعني أليس هذا البعث والعـذاب بالحق؟ ﴿قالوا بلى وربنا﴾ إنه حق، قال ابن عباس: هذا في موقف، وقولهم: ﴿واللهِ ربنا ما كنا مشركين﴾ في موقف آخر، وفي يوم القيامة مواقف، ففي مـوقف يقرون وفي موقف ينكرون اهـ وقد ذكر الله تبارك وتعالى عَرْضَ العباد على الله يوم القيامة لمحاسبتهم حيث يقول تبارك وتعـالى: ﴿فإذا نُفِخَ في الصور نفخةٌ واحـدةٌ * وحُمِلَت الأرض والجبال فَدُكَّتـا دكَّةً واحـدةً * فيومئـذ وَقَعَتِ الواقِعَـةُ * وانشقت السماءُ فهي يـومئذ واهيةٌ. والمَلَكُ على أرجائهـا وَيَحْمِلُ عرشَ ربك فوقهم يومئذٍ ثمانيـةٌ * يومئذ تُعْرَضُونَ لا تخفى منكم خافيةٌ * فأما مَنْ أُوتيَ كتابهُ بيمينه فيقولُ هَاؤمُ اقرءُوا كِتَـابِيَهْ * إني ظننت أني مُـلاقٍ حسـابيَهْ * فهـو في عيشَـة راضيةٍ * في جنـة عاليةٍ* قطوفها دانية * كلـوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية * وأما من أُوتيَ كتابهُ بشِمَالِـهِ فيقول يا ليتني لم أُوتَ كتابِيَهْ * ولم أَدْرِ ما حسـابِيه * يا ليتها كـانت القاضيـة * ما أغنى عن ماليـه * هلك عن سلطانيـهْ * خذوه

فَغُلُّوهُ * ثم الجحيمَ صَلُّـوهُ * ثم في سِلْسلةٍ ذَرْعُهَا سبعون ذراعـا فاسلكُوه * إنـه كـان لا يؤمن بـالله العظيم * ولا يَحُضُّ على طعـام المسكين﴾ وقـد روى البخـاري ومسلم من حديث عـائشة أم المؤمنين رضي الله عنهـا أن النبي ﷺ قال: مَنْ نُوقِشَ الحسابَ عُـذِّبَ، فقلت: أليس يقول الله: ﴿فأما مَنْ أُوتِيَ كِتَـابَهُ بِيَمينـهِ * فَسَوفَ يُحَاسَبُ حِسَـابًا يَسِيرًا * ويَنقَلِبُ إلى أَهْلِـهِ مَسْرورًا﴾ فقال: إنما ذلك العَـرْضُ، وليس أحد يُحَاسَبُ يـوم القيامة إلا هَلَكَ: وقـولهُ تبارك وتعـالى: ﴿قدْ خَسِرَ الَّـذينَ كَذَّبوا بِلِقـاءِ الله حتى إذا جَاءَتْهُم السَّـاعَةُ بَغْتَةً قالـوا ياحَسْرَتَنَا على ما فرَّطْنَا فِيهَـا وهم يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ، ألا ساءَ مَا يَـزِرُونَ * وما الحياةُ الدنيا إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ ولَلـدَّارُ الآخرة خَيْرٌ للذِينَ يَتَّقُونَ، أفلاَ تَعْقِلُونَ﴾ مَسُوقٌ لترسيخ حَقِّيَّـةِ البعث بعد الموت، وتَرْبِيَةِ مَلَكَةِ الإيمان بالدار الآخرة في النفوس، وَعَرض مشهد مـن مشاهد القيامة يُظْهِرُ ما يلاقيـه المكذبـون من الحسرة والندامة ومـا يحملونـه على ظهورهم من الأوزار والآثام مع التأكيد على ما جلبوه لأنفسهم من الهلاك والخسران حيث ضَيَّعُوا على أنفسهم نَعِيمَ الجنات في الـدار الباقية، ورَضوا ببعض الملـذات واطمأَنُّوا بها في الدار الدنيا الفانية، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿قـد خَسِرَ الذين كذَّبوا بلقـاء الله﴾ أي قد هَلَكَ ووكِسَ من كفر بعرض العباد على الله يوم القيامـة وكذَّب بالبعث بعد الموت وبالحساب والجزاء قال ابن جـرير الطبريُّ رحمه الله: القول في تأويل قـوله: ﴿ قد خسر الذين كذَّبـوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعـةُ بَغْتَةً قالوا يـا حَسْرَتَنَا على ما فَرَّطْنَـا فيها﴾ قـال أبو جعفر: يعنى تعـالى ذكره بقـوله: ﴿قـد خَسِرَ الذين كَذَّبُـوا بِلِقَاءِ الله﴾ قد هلك وَوُكِسَ في بيعهم الإيمان بـالكفر ﴿الذين كـذبوا بلقـاء الله﴾ يعنى الذين أنكـروا البعث بعد الممات والثـواب والعقابَ والجنـة والنـار من مشركي قريش ومَنْ سَلَكَ سبيلهم في ذلك. ﴿حتى إذا جـاءتهم

الساعةُ﴾ يقول حتى إذا جاءتهم الساعةُ التي يبعث اللهُ فيها الموتى من قبورهم، وإنما أُدْخِلَتِ الألِفُ واللامُ في ﴿الساعة﴾ لأنها معروفة المعنى عند المخاطبين بها، وأنها مقصود بها قَصْدُ الساعة التي وصفت ويعني بقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ فجأةً من غير علم مَنْ تفجؤهُ بوقت مفاجأتها إياه يقال منه: بَغَتَتْهُ أبغتُه بغتة، إذا أخذته كذلك. ﴿قالوا يَاحَسْرَتَنَا على ما فرَّطْنَا فيها﴾ يقول تعالى ذكره: وُكِسَ الذين كذبوا بلقاء الله بِبَيْعِهِمْ مَنَازِلَهُمْ من الجنة بمنازل من اشتروا منازله من أهل الجنة من النار، فإذا جاءتهم الساعةُ بغتة قالوا إذا عاينوا ما باعوا وما اشتروا وتَبَيَّنوا خسارة صفقةِ بَيْعِهِمْ التي سلَفَت منهم في الدنيا تَنَدُّمًا وتَلَهُّفًا على عظيم الغَبْنِ الذي غبنوه أنفسهم وجليل الخسران الذي لا خسران أجل منه: ﴿ياحَسْرَتَنَا على ما فَرَّطْنَا فيها﴾ يقول يا نَدَامَتَنَا على ما ضَيَّعْنَا فيها، يعني صَفْقَتَهُمْ تلك. والهاءُ والألِفُ في قوله ﴿فيها﴾ من ذكر الصفقة، ولكن اكتفى بدلالة قوله: ﴿قد خَسِرَ الذين كذَّبوا بلقاء الله﴾ عليها من ذكرها إذ كان معلوما أن الخسران لا يكون إلا في صفقة بَيْعٍ قد جَرَتْ. وإنما معنى الكلام: قد وُكِسَ الذين كذَّبوا بلقاء الله ببيعهم الإيمان الذي يستوجبون به من الله رضوانه وجَنَّتَهُ بالكفر الذي يستوجبون به منه سَخَطَهُ وعقوبته، ولا يشعرون ما عليهم من الخسران في ذلك حتى تقوم الساعة فإذا جاءتهم الساعةُ بغتة فَرَأَوْا ما لحقهم من الخسران في بيعهم قالوا حينئذ تَنَدُّمًا: ﴿يَا حَسْرَتَنَا على ما فَرَّطْنَا فيها﴾، ثم قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزارَهم على ظُهُورِهِمْ، أَلَا سَاءَ مَا يَزرونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهؤلاء الذين كَذَّبوا بلقاء الله ﴿يحملون أوزارَهم على ظهورهم﴾ وقوله: ﴿وهم﴾ مَن ذكرهم ﴿يحملون أوزارهم﴾ يقول: آثامَهُمْ وذُنُوبَهُمْ، واحِدُها وِزْرٌ يقال منه: وَزَرَ الرجُلُ يَزِرُ إذا أَثِمَ قال الله: ﴿أَلَا سَاءَ ما يَزِرُونَ﴾ فإن أُرِيد أنهم أُثِّمُوا قيل قد وُزِرَ القومُ

فهم يُوزَرُونَ، وهم مُوزَرُونَ، اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدنيا إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ ولَلدَّارُ الآخرة خيرٌ للذين يَتَّقُونَ، أفلا تعقلون﴾ تحذير وترهيبٌ من الاغترار بالحياة الدنيا الفانية والانقطاع لها، وترغيب في الأعمال الصالحة المورِثة لجنات النعيم في الدار الآخرة الباقية، فإن متاع الحياة الدنيا أشبه باللهو واللعب إذا قيس بنعيم الآخرة قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وما الحياةُ الدنيا إلا لَعِبٌ ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون، أفلا تعقلون﴾ قال أبو جعفر: وهذا تكذيبٌ من الله تعالى ذكره هؤلاء الكُفَّار المنكرين البعث بعد المات في قولهم: ﴿إن هي إلا حياتُنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ يقول تعالى ذكره مكذباً لهم في قيلهمْ ذلك: ﴿ما الحياةُ الدنيا﴾ أيها الناس ﴿إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ﴾ يقول: ما باغي لذات الحياة التي أدنيت لكم وقرَّبْتُ منكم في داركم هذه ونَعيمها وسرورها فيها، والمتلذذ بها والمُنَافِسُ عليها إلا في لعب ولهو، لأنها عما قليل تزول عن المستمتع بها والمتلذذ فيها بِملاذِّها، أو تأتيه الأيام بفَجَائعها وصروفها فَتَمِرُّ عليه وتَكدُرُ، كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندمًا ويورِثه منه تَرَحا، يقول: لا تغتروا أيها الناس بها، فإن المغتر بها عما قليل يَنْدَمُ، ﴿ولَلدَّارُ الآخرة خيرٌ للذين يتقون﴾ يقول ولَلْعَمَلُ بطاعته والاستعداد للدار الآخرة بالصالح من الأعمال التي تَبْقَى منافعها لأهلها ويدوم سرورُ أهلها فيها خير من الدار التي تفنَى وشيكا، فلا يبقى لعُمالها فيها سرور ولا يدوم لهم فيها نعيم ﴿للذين يتقون﴾ يقول للذين يخشون الله فيتقونه بطاعته واجتناب معاصيه والمسارعة إلى رضاه ﴿أفلا تعقلون﴾ يقول: أفلا يعقل هؤلاء المكذبون بالبعث حقيقة ما نخبرهم به من أن الحياة الدنيا لعب ولهو وهم يرون من يُخترمُ منهم ومن يهلك فيموت ومن تَنُوبُهُ فيها النوائب وتصيبه المصائب وتفجعه الفجائع ففي ذلك لمن عقل مدّكر ومزدجَر عن الركون إليها

واستعباد النفس لها ودليلٌ واضح على أن لها مدَبِّرًا ومُصَرِّفا يلزم الخلق إخلاص العبادة له بغير إشراك شيء سواه معه اهـ وفي التزهيد في الدنيا والتحذير من أن يجعلها الإنسان كل همه وفي الترغيب في الآخرة يقول عز وجل : ﴿إنما الحياة الدنيا لَعِبٌ ولهْوٌ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ ويقول عز وجل : ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ .

قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذي يَقُولُونَ فإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبونك ولَكنَّ الظالِمِينَ بـآياتِ اللهِ يَجْحَـدُونَ. وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُـلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنـا، ولاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جاءَكَ من نَبَإِيْ المرسَلِينَ. وإِن كـان كَبُـرَ عَلَيْكَ إِعْـرَاضُهمْ فإِن استطعتَ أن تَبْتَغِي نفقـا في الأَرْضِ أو سلَّما في السماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بآيةٍ، وَلـو شاء اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى فَلاَ تكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾.

بعد أن ذكر عـز وجل مشهدا من مشاهد القيـامة بيَّـنَ فيه مـوقف الذين كفروا حينَ عُـرِضوا على النار ومـا أصابهم من الحسرة والندامـة وأنهم تَمَنَّوْا أن يُرَدُّوا إلى الدنيـا دار العمل ليؤمنوا وبيَّـنَ عـز وجل أنهم لو رُدُّوا لعَادوا لما نُهُوا عنه ثم ذكر عز وجل مشهـدًا آخر من مشاهد القيامة بيَّـنَ فيه موقف الذين كفروا عند عرضهـم على ربهم يوم القيامة وذكر فيه إقرارهـم بالحق، وما يؤول إليه حالهُم من الخسران والهلاك وسوء العـذاب والحسرة والندامة ولفت تبارك وتعـالى الانتباه إلى حقيـة البعث ورهَّبَ من الاغترار بالحيـاة الدنيـا ورغَّبَ في الأعمال الصالحة المورثة لجنـات النعيم شرع هنا في تقرير أن كفـار مكة مقِرُّونَ في قرارة قلـوبهم بأن محمدا هو رسـولُ الله حقا وصدقا لما يعـرفونه من صـدقه فإنهم ما جرَّبُوا عليه كذبا قط قبل أن يخبرهم بأنـه رسول الله وقد كانوا يلقبونه بالصادق الأمين، وأشـار عز وجل إلى أن تكذيب قريش لـرسول الله ﷺ هو من باب جحود الحق مع إقرار القلب بحقيتـه ثم وَاسَى رسوله ﷺ بأن رُسُلَ الله عليهم الصلاة والسلام صبروا على ما كُـذِّبُوا وأُوذُوا حتى أتاهم نصر الله، وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديـلا، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿قد نَعْلَمُ إنَّـهُ لَيَحْزُنُكَ الـذي يقولـون فإنهم لا يُكَـذِّبُونَكَ ولَكنَّ الظـالمين بآيـات يَجْحَـدونَ * ولقد كُـذِّبتْ رُسُلٌ مِن قبلكَ فَصَبَرُوا على مـا كُذِّبُـوا وأُوذوا حتى

أَتَاهُمْ نَصْرُنَـا ، ولا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله ، وَلَقَـدْ جَاءَكَ من نبأ المُرسَلِينَ﴾ ومعنى ﴿قد﴾ في قوله تبارك وتعالى ﴿قد نعلم﴾ هو التحقيق وتأكيد العلم بما ذكر في حيزها المفيد لتأكيد الوعيد، والأصل في قد أنها إذا دخلت على الفعل الماضي أفادت التحقيق كقوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها * وقد خَابَ من دَسَّاهَا﴾ أما إذا دخلت قَدْ على الفعل المضارع فإنها تستعمل كثيرًا في التقليل نحو: قد يَصْدُقُ الكـذوبُ، كما تستعمل في التحقيق كما في قوله عز وجل هنـا: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ وكما في قوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وجهك في السماء﴾ وكقوله تبـارك وتعالى: ﴿قد يَعْلَمُ ما أنتم عليـه﴾ وكقوله تبارك وتعالى: ﴿قـد يَعْلَمُ الله المُعَوِّقِينَ منكم﴾ ونحو قـول الشاعر الهذلي أو عبيد بن الأبرص.

قد أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُـه ... كَـأَنَّ أَثْوَابَهُ مجَّتْ بِفِرْصَاد

ولا تستعمل قد مع الفعـل المضارع للتحقيق إلا عند كـون الأمر في غـاية الوضـوح بحيث لا يخطر على البـال إرادة التقليل، ويكون التعبير بـالمضارع لنكتـة بلاغيـة كإرادة التجدد أي قـد علمنـا ما يتجـدد لك من الحزن والغم عندما يتجدد منهم ما يتجدد من سـوء قولهم لك وتكذيبهم إياك، وقد كان رسول الله ﷺ يتأسف على ما يـلاقيه من قومه من الأذى وعلى ما يقـابلون به دعوتـه من أقوالهم القبيحة كقـولهم: إنه سـاحر أو شاعـر أو كاهن أو معلم مجنون، كما يصفون القرآن بأنه سحر أو شعر أو كهانة أو أن الذي يعلمه بشر أو أنه أساطير الأولين، وقـد كان رسول الله ﷺ من شـدة حرصه على إيمانهم يكـاد يبخع نفسه من الحزن كما قـال عز وجل: ﴿فَلَعَلَّكَ بـاخِعٌ نَفْسَكَ على آثارِهِمْ إن لم يُـؤْمِنوا بهذا الحديث أَسَفًـا﴾ وكما قال عز وجـل ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونوا مُؤْمِنِينَ﴾ وقَوْلُـه تبارك وتعالى: ﴿فإنَّهم لا يُكَذِّبُونَكَ ولَكِنَّ الظَّالمين بآيات الله يَجْحَدونَ﴾ كَشْفٌ لحقيقـة ما انطوت عليه نفوس المشركين

من أهل مكة وأنهم في قرارة قلوبهم يوقنون بأن محمدًا هو رسول الله حقا وصدقا وأنَّ تكذيبهم له ﷺ هو من باب جحود الحق مع العلم بحقيته عنادًا واستكبارا، كما قال عز وجل في فرعون وقومه: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مُبْصِرَةً قالوا هٰذا سِحْرٌ مُبِينٌ. وجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وعُلُوًّا، فانظر كيف كانَ عاقِبَةُ المُفْسِدِينَ﴾ وقد أبرز أبوطالب هذه الحقيقة وأعلن أنه موقنٌ بأن محمدًا هو رسول الله وإنما يمنعه من الدخول في الإسلام ما يخشاه من مسبة آبائه الذين ماتوا في الجاهلية حيث يقول في لاميته المشهورة:

فَوَاللهِ لَوْلاَ أَنْ أَجِيءَ بِسُبَّةٍ ... تُجَرُّ عَلى أَشْيَاخِنَا في المَحَافِلِ
لكنَّا اتَّبَعْنَاهُ على كُلِّ حَالةٍ ... مِنَ الدَّهْرِ جِدًّا غَيْرَ قولِ التهَازُلِ
لقد علمُوا أنَّ ابننا لا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلاَ يُعْنَى بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ
حدِبْتُ بِنَفْسِي دُونَهُ وحميتُهُ ... وَدَافَعْتُ عنه بالذُّرَا والكلاكِلِ

وكما قال أبو طالب في نونيته المشهورة:

ودعوتني وعلمتُ أنك صادق ... ولقد صدقتَ وكنتَ قبلُ أمينا
وعرضتَ دينا قد علمتُ بأنه ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذاري سبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولَقَدْ كُذِّبَت رُسُلٌ من قَبْلِكَ فَصَبَرُوا على ما كُذِّبوا وَأُوذُوا حتى أَتَاهم نَصْرُنَا﴾ مواساةٌ لرسول الله ﷺ وتسلية من الله تبارك وتعالى له عما يناله من المساءة بتكذيب قومه إياه على ما جاءهم به من الحق ببيان أنَّ إخوانه من المرسلين قد نالهم الأذى الشديد من أممهم فكذبوهم كما كذبته قريش وألحقوا بهم من المكروه فصبروا على ما نالهم من التكذيب والأذى حتى حكم الله بينهم فنصر رسُلَهُ والذين آمنوا، وأهلك الكافرين، فاصبر كما صبروا فإن نصر الله قريب، كما قال عز وجل: ﴿حتى إذا استيأس الرسلُ وظَنُّوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نَصْرُنَا فَنُجِّي مَن نَشَاءُ ولا يُرَدُّ بأْسُنَا عَنِ القَوْمِ

المجرمين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله﴾ أي لا نَاقِضَ لما حكم الله، وقد حكم في كتابه بنصر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، كما قال عز وجل ﴿ولقد سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهادُ﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أنا وَرُسُلي، إن الله قَوِيٌّ عزيز﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولَقَدْ جَاءَكَ من نبإِ المُرْسَلِينَ﴾ أي ولقد قَصَصْنَا عليك من أخبار الرسل مع أممهم الذين كذبوهم وكيف نَصَرْنَا رسلنا على أعدائهم وأيدناهم على من كذبوهم وجعلنا العاقبة الحسنى لعبادنا الصالحين، وأخذنا أعداء الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال عز وجل: ﴿كذبت قبلهم قومُ نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنونٌ وازْدُجِرَ * فدعا ربَّه أني مغلوبٌ فانتصرْ * فَفَتَحْنَا أبواب السماء بماء منهمر * وفَجَّرْنَا الأرض عيونا فالتقى الماءُ على أمر قد قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ على ذات ألواح وَدُسُرٍ * تجرى بأَعْيُنِنَا جَزَاءً لمن كان كُفِرَ﴾ وقال عز وجل: ﴿كذَّبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذُرِ * إنا أرسلنا عليهم ريحا صَرْصَرًا في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ. تَنْزِعُ النَاسَ كأنهم أعجاز نخلٍ منقَعِرٍ * فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾ وقال عز وجل: ﴿كذبت ثمودُ بالنذر * فقالوا أبَشرا منَّا واحدًا نَتَّبِعُهُ إنا إذًا لفي ضلال وسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أَشر * سَيَعْلَمُونَ غدًا من الكذابُ الأَشرُ * إنا مُرْسِلُواْ الناقةِ فتنةً لهم فارتقبهم واصطبر﴾. إلى قوله عز وجل: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحةً واحدةً فكانوا كَهَشِيم المُحْتَظِرِ﴾ وقال عز وجل: ﴿كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بِسَحَرٍ. نِعمةً من عندنا، كذلك نجزى من شَكَرَ﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ ولقد جاءك من نبإِ المرسلين﴾ إشارة إلى أن ما قصَّ الله تبارك وتعالى من قصص الأنبياء هو قصص بعضهم لا قصص جميعهم، كما قال

عز وجل ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قَصَصْنَا عليك ومنهم من لم نَقْصُصْ عليك﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن كان كَبُرَ عليك إعراضُهم فإن استطعت أن تبْتَغِيَ نَفَقًا في الأرض أو سُلَّمًا في السماء فتأتِيَهُـمْ بآية، ولـو شاء اللهُ لجَمَعَهُمْ على الهُدى فلا تكونَنَّ من الجاهلينَ﴾ تأكيد وحض لرسول الله ﷺ على الصبر ببيان أنه أمر لا محيد عنه أصلا، وأنه ليس بيد أحد من خلق الله هداية الكافرين وأن قلوبهم بيد الله وحده، يهدي من يشاء فضلا ويضل من يشاء عدلا، وأن الجاهلين هم الذين لا يُفَوِّضونَ أمورهم إلى الله، ولا يستسلمون لأقدار الله، ومعنى قوله عز وجل ﴿وإن كان كَبُرَ عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فلا تكونن من الجاهلين﴾ أي وإن كان عَظُمَ عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين عنك، وتكذيبهم لك، وانصرافهم عن تصديقك فيما جئتهم به من الحق، وشق عليك ذلك ولم تصبر على ما يصيبك من أذاهم فلا يخطر على بالكَ إجابتهم إلى ما يقترحونه من الآيات لأنك لو صعدت إلى السماء أو هَبَطْتَ إلى أعماق الأرض لتأتيهم بآية ليؤمنوا بها فلن يؤمنوا، وهذا ليس في استطاعتك ومقدورك فما عليك إلا الصبرُ، واحتساب ما يصيبك عند الله عز وجل ولو شاء الله عز وجل هدايتهم لهداهم أجمعين فأَبعد الحزن عن نفسك ولا يشتد تحسُّركَ على تكذيبهم ولا تجزع على إعراضهم عنك لأن الجزع من صفات الجاهلين، لأنهم هم الذين إذا مسَّهُمْ الأذى جزعوا، أما المؤمنون فإنهم إن أصابتهم الضراء صبروا، وإن أصابتهم النعماء شكروا، وأنت أول المؤمنين وقد تقرر أن رسول الله ﷺ معصوم من المعاصي فإذا ورد نهيه عن شيء كقوله تعالى هنا: ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ وكقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تكونَنَّ من المشركين * ولا تَدْعُ من دون الله ما لا ينفعك ولا يَضُرُّكَ﴾ فإن ذلك لا يقتضي إمكان

الوقوع فيه لما تقرر من القاعدة الأصولية أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه، والنَّفَقُ في الأرض هو الطريق النافذ في باطن الأرض، والسُّلَّم هو المصعد والدَّرَج، وجواب الشرط في قوله عز وجل: ﴿فإن استطعت أن تبتغي نفقًا في الأرض أو سلمًا في السماء فتأتيهم بآية﴾ محذوف للعلم به تقديره: فافعل أي إنك لا تستطيع ذلك فاصبر حتى يحكم الله، وقد صبر رسول الله ﷺ كما أمره الله عز وجل وحض أصحابه على ذلك وبشرهم بأن أمر الإسلام سيتم فقد روى البخاري من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون.

قال تعالى: ﴿إنما يَسْتجِيبُ الَّذينَ يَسْمَعُونَ، والمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُم إليه يُرْجَعُونَ. وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيةٌ من رَبِّهِ، قل إنَّ اللهَ قادرٌ على أن يُنَزِّلَ آيةً ولَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ. وَمَا من دابَّةٍ فى الأَرْضِ ولاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أمم أَمثَالكُمْ، مَا فرَّطْنَا فى الكتَابِ من شيء، ثمَّ إلى رَبِّهِم يُحْشَرُونَ. والَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنَا صُمٌّ وَبُكمٌ فى الظُّلُماتِ، مَن يَشإ اللهُ يُضْلِلْهُ ومن يشأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾.

بعد أن قرر فيما مضى أن على قلوب الكفار أكنةً مانعةً من الفقه وفي آذانهم وَقرا حاجزا من السماع وَوَاسَى رسوله ﷺ بضروب من المواساة، وحذره من أن يكْبُرَ عليه إعراض هؤلاء المعرضين عنه، أكَّد ذلك هنا بأن هؤلاء الكفار من قبيل الموتى الذين لا يجيبون من يناديهم، ولو أراد الله عز وجل إحياء قلوبهم بالإيمان لأحياها فهو وحده القادر على أن يجمعهم على الهدى لو شاء، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يَسْمَعُونَ، والموتى يَبْعَثُهُمْ الله ثم إليه يُرْجَعُونَ﴾ قال ابن جرير الطبريُّ رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون، والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرْجَعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا يَكْبُرَنَّ عليك إعراضُ هؤلاء المعرضين عنك وعن الاستجابة لدعائك، إذا دعوتهم إلى توحيد ربهم والإقرار بنبوتك، فإنه لا يستجيب لدعائك إلى ما تدعوه إليه من ذلك إلا الذين فتح الله أسماعهم للإصغاء إلى الحق، وسَهَّل لهم اتِّبَاعَ الرُشد، دُونَ من ختم الله على سمعه فلا يَفْقَهُ من دعائك إياه إلى الله وإلى اتباع الحق إلا ما تفقه الأنعام من أصوات رُعاتِهَا فَهُمْ كما وصفهم به الله تعالى ذكره: ﴿صُمٌّ بكْمٌ عُميٌ فهم لا يعقلون﴾ ﴿والموتى يَبعَثُهُم الله﴾ يقول: والكفار يبعثهم مع الموتى، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا

يسمعون صوتا، ولا يعقلون دعاء، ولا يفقهون قولا، إذ كانوا لا يتدبرون حُجَجَ الله، ولا يعتبرون آياته، ولا يتذكرون فينزجرون عمّا هُمْ عليه من تكذيب رسل الله وخلافهم، ثم قال رحمه الله: وأما قوله: ثم إليه يُرْجَعُونَ. فإنه يقول تعالى ذكره: ثم إلى الله يرجع المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول، والكفار الذين يَحول اللهُ بينهم وبين أن يفقهوا عنك شيئا فيثيبُ هذا المؤمن على ما سلف من صالح عمله في الدنيا بما وعد أهل الإيمان به من الثواب، ويعاقب هذا الكافر بما أوعد أهل الكفر به من العقاب، لا يظلم أحدا منهم مثقال ذرة اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وقالوا لولا نُزِّلَ عليه آيةٌ من ربه، قل إن الله قادر على أن يُنَزِّلَ آية ولَكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ بيان لشدة عنادهم وفرط جهلهم وبلوغهم الغاية في الضلال والطغيان حيث لم يقتنعوا بما شاهدوا من المعجزات وما جاءهم من الآيات البينات التي تخر له صم الجبال، حتى اجترأوا على ادعاء أنها ليست من قبيل الآيات واقترحوا أن تمطر عليهم حجارة من السماء أو يأتيهم عذاب أليم كما ذكر ذلك تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هٰذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ كما اقترحوا أن تُنَزَّلَ عليهم الملائكة أو يكلِّمَهُم الموتى أو يَفْجُرَ لهم من الأرض ينبوعا أو يكون له بيت من ذهب أو يرقى في السماء أو يأتيهم بالله عز وجل كما ذكر الله تبارك وتعالى ذلك عنهم حيث يقول: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنةٌ من نخيل وعنب فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلاَلَهَا تفجيرا * أو تسقِطَ السماء كما زعمت علينا كِسَفًا أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تُنَزِّلَ علينا كتابا نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ وقد بين الله تبارك وتعالى أنه لا يعجزه أن ينزل آية، وأنه قادر على خرق نظام الكون إذا اقتضت حكمته ذلك، لكن

هؤلاء الجاهلين لا يعرفون أنهم لو اقترحوا آية ثم لما جاءتهم لم يؤمنوا بها أهلكهم الله عز وجل، كما قال تبارك وتعالى هنا: ﴿قل إن الله قادر على أن ينزِّل آيةً ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما مَنَعَنَا أن نرسل بالآيات إلا أن كذَّبَ بها الأولون، وآتينا ثمودَ الناقة مُبْصِرَة فظلموا بها، وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ وكما أشار إلى ذلك عز وجل في قصة المائدة حيث يقول: ﴿قال الله إن مُنَزِّلُهَا عليكم فمن يكفر بَعْدُ منكم فإني أعذبهُ عذابا لا أُعَذِّبُهُ أحدا من العالمين﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وقالوا لولا نُزِّلَ عليه آية من ربه﴾ دليل ظاهر على بطلان دعوى التفريق بين «نَزَّلَ» و«أَنْزَلَ»، حيث زعم بعض المشتغلين بعلوم أصول التفسير أن نَزَّلَ تكون فيما نَزَلَ بالتدريج وأنزل تكون فيما نزل جملة، لأن الآية لا تنزل بالتدريج وقد أشرت إلى ذلك في غير هذا الموضع أيضا ورددت على قائلي هذه المقالة بهذه الآية وبقوله تبارك وتعال: ﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآن جملة واحدةً﴾ وبينت أن نَزَّلَ وأنزل تأتي بمعنى واحد، ونحو ذلك مَهَّلَ وأمهل، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيدا﴾، و﴿لولا﴾ بمعنى هلاَّ، والمقصود من قوله تعالى ﴿وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمَمٌ أَمثَالُكم﴾ لفت انتباه الناس ولا سيما هؤلاء المعاندين الجاحدين المقترحين للآيات إلى أن الله عز وجل قد أقام الآيات في أنفس الناس وفيما يشاهدونه من دواب الأرض وطيور السماء حيث خلق من كل جنس منها زوجين اثنين ذكرا وأنثى في تركيب عجيب، وحيث فاوت بين هؤلاء الخلائق في صوَرهم ومداركهم وطبائعهم وأعطى كل شيء منها خلقهُ ثم هدى، فترى كلَّ جنس منها يألف جنسه، وكلَّ عَالَمٍ منها يتوالد ويتكاثر في عالمه، وكلُّ هذه الأمم من الإنس والطير والدواب تتشابه في أمور كثيرة كمعرفة طعامها وشرابها وسائر ما به قِوامُهَا وبقاءُ جنسها، فالناس يتفاوتون في

أشكالهم وألوانهم وطبائعهم والدواب تتفاوت في أشكالها وألوانها وطبائعها، والطيور تتفاوت في أشكالها وألوانها وطبائعها ومع تباعد المواطن التي قد توجد فيها هذه الخلائق من الناس والدواب والطيور فإنَّ الله عز وجل قد جعل لكل فرد منها أجهزة لطعامه وشرابه وبوله وبرازه فللناس والدواب والطيور قلب وكبد ورئتان وكذلك سائر أجهزة الهضم وأجهزة التنفس وأجهزة للهجوم على حاجتها وأجهزةٌ للدفاع عن أنفسها، وكلُّ جهاز من هذه الأجهزة عَالَمٌ دقيقٌ عجيبٌ عظيمٌ، وكلُّها خاضعة للنظام الذي جعله لها فاطرُ السموات والأرض الذي خلق كل شيء وأحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين. ففي هذا التماثل والتشابهِ بين العوالم البشرية والعوالم الحيوانية من الدواب والطيور آيات بيناتٌ شاهداتٌ بأن الذي صنعها هو الله الحي القيوم الإله الحق الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، الذي لا يعجزه أن يُنزِّل آية متى اقتضتها حكمته البالغة ومشيئته التامة التي لا راد لها، ولا يشك في ذلك إلا الجاهلون الذين لا يعلمون، وقد لفت القرآن الكريم الانتباه إلى بعض هذه العوالم فيما قصه من قصة النمل والنحل والهدهد وغيرها، وفي قوله ﴿بجناحيه﴾ مع أن قوله ﴿يَطِيرُ﴾ يغنى عنها، لدفع ما قد يتوهم من أن الطيران قد يقصد به السرعة على حد قول قريط بن أنيف:

قومٌ إذا الشَّر أَبْدَى نَاجِذيْهِ لهم طَارُوا إليه زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا.

قال الزجاج في كتابه معاني القرآن وإعرابه: وقال: ﴿يطير بجناحيه﴾ على جهة التوكيد، لأنك قد تقول للرجل: طِرْ في حاجتي أي أَسْرِعْ اهـ وقال ابن جرير الطبريُّ رحمه الله: فإن قال قائل: فما وجهُ قوله: ﴿ولا طائرٍ يطير بجناحيه﴾ وهل يطير الطائرُ إلا بجناحيه؟ فما في الخبر عن طيرانه بالجناحين من الفائدة؟ قيل: قد قدَّمنا القول فيما مضى أن الله تعالى ذكره أنزل هذا

الكتاب بلسان قوم وَبلُغَاتِهِم وما يتعارفونه بينهم، ويستعملونه في منطقهم خاطبهم، فإذْ كان من كلامهم إذا أرادوا المبالغة في الكلام أن يقولوا: كلمت فلانا بفمي ومشيت إليه برجلي وضربته بيدي، خاطبهم تعالى بِنَظِيرِ ما يتعارفونه في كلامهم ويستعملونه في خطابهم اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَافَرَّطْنَا في الكتاب من شيء﴾ جملة اعتراضية للفت الانتباه إلى أن القرآن الذي أنزله الله عز وجل على نبيه الأمي محمد ﷺ آيةٌ بينة وحجة كافية للدلالة على أنه رسول الله حقا وصدقا، فقد اشتمل على تبيان كل شيء ينير للإنسانية طريقها ويرشدها إلى منهج رشدها وَوَجَّهَ الناس إلى النظر في آيات الله الكونية في النفوس والدواب والطيور مما لم تكن تعرفه العرب والعجم ولا سيما أهل مكة الأميين، وكما قال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عليك الكتاب تِبْيَانًا لكل شيءٍ وهُدًى ورحمةً وبشرى للمسلمين﴾. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ثم إلى ربهم يُحْشَرُونَ﴾ أي ثم يحييهم بعد مماتهم يوم القيامة ليجزي كلَّ نفس بما كسبت ويقتص للجلحاء من القرناء، والمقصود تأكيد الحشر والنشر وأن الحياة بعد الموت والرجوع إلى الله يوم القيامة ليس قاصرا على بني آدم وكما قال عز وجل: ﴿وإذا الوحوش حُشِرَتْ﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: لَتُؤَدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجَلْحَاءِ من الشاة القرناء. قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط: وفي الحديث إن الله ليؤدِّي الحقوق إلى أهلها حتى يَقْتَصَّ للشاة الجَلْحَاءِ من الشاة القَرْنَاءِ نَطَحَتْهَا قال الأزهري: وهذا يبين أن الجلحاء من الشاة والبقر بمنزلة الجماءِ التي لا قرْنَ لها. وفي حديث الصدقة: ليس فيها عَقْصاءُ ولا جَلْحَاء، هي التي لا قرن لها اهـ وقد ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا﴾ أن ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها

بحكمه العدل الذي لا يجور حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني ترابا فتصير ترابا فعند ذلك يقول الكافر ﴿يا ليتني كنت ترابا﴾ أي كنت حيوانا فأرجع إلى التراب، وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور وورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما اهـ وقولهُ تبارك وتعالى: ﴿والذين كذَّبوا بآياتنا صم وبُكْمٌ في الظلمات﴾ تأكيدٌ لما أفاده قوله عز وجل: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ ببيان أن هؤلاء الجاحدين الكافرين قد سُلِبَتْ منهم لطائف السمع والبصر والكلام وإن بقيت معهم صور آذانهم وألسنتهم وأعينهم فهم صم بكم عمي، كما قال عز وجل: ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾ وقوله ﴿في الظلمات﴾ عبارة عن العمى ولا شك أن الأصم الأبكم إذا كان بصيرا ربما يفهم شيئًا بإشارة غيره وإن لم يفهمه بعبارته وربما يعبر عما في نفسه بإشارته لانعدام عبارته أما إذا كان مع ذلك أعمى أو كان في الظلمات فإن باب الفهم والتفهيم مُنْسَد عليه تماما، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ تأكيد لمضمون قوله عز وجل قريبا: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهُدى﴾.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إن أتاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَو أَتَتْكُم السَّاعةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ. بل إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وتَنسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ. ولَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ لَعَلهُم يَتَضَرَّعُونَ. فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ولَكن قَستْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطَانُ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ. فلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شيءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فإِذَا هم مُبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الذينَ ظَلَمُوا، والحمد للهِ ربِّ العَالَمِينَ﴾.

بعد أن بين عز وجل كمال عراقة المكذبين وتمام استغراقهم في الجهل والضلال ووصفهم بأنهم صُمٌّ وبُكْم في الظلمات شرع في تقريعهم وتوبيخهم وتبكيتهم على تكذيبهم بآيات الله وكفرهم به واتخاذهم الأوثان والأصنام شركاء له عز وجل فأمر رسوله ﷺ بأن يُبَكِّتَهُمْ ويوبخهم ويلْقِمهُم الحَجَرَ بما لا سبيل لهم إلى إنكاره فيقول لهم: أخبروني إن حلَّت بكم عقوبة من الله في دنياكم أو جاءتكم الساعة وقامت القيامة أتفزعون حينئذ إلى أصنامكم وأوثانكم وتدعونها لكشف الضر ودفع العذاب عنكم أم تفزعون إلى الله وحده وتَنْسَوْنَ أصنامكم وأوثانكم؟ ولا جدال عندهم في أنهم كانوا دائما لا يفزعون في النكبات التي تصيبهم إلا إلى الله وحده كما قال عز وجل: ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضُرَّهُ مرَّ كأن لم يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ، كذلك زُيِّنَ للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿هو الذي يُسَيِّرُكُمْ في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بهم بريح طيبة وفَرِحُوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموج من كل مكان وظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بهم دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدِّينَ لئن أنجيتنا من هٰذه لنكونَنَّ من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هُمْ يَبْغُونَ في الأرض بغير الحق﴾ الآية. وكما

قال عز وجل: ﴿وما بكم من نِعْمة فَمِنَ الله ثم إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فإليه تَجْئَرُونَ. ثم إذا كشَفَ الضُّرَّ عنكم إذَا فريقٌ منكم بربهم يشركون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فإذا رَكِبُوا في الفُلْكِ دَعوا اللهَ مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البَرِّ إذ هم يشركون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإذا مَسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعوا ربَّهُمْ منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رَحْمَةً إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعا ربَّه منيبا إليه ثم إذا خَوَّلَهُ نعمةً منه نسي ما كان يَدْعُو إليه من قبلُ وجعل لله أندادا ليُضِلَّ عن سبيله، قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار﴾ وقال عز وجل هنا: ﴿قلْ أَرأَيْتكُمْ إن أَتَاكم عذابُ الله أو أتتكم الساعةُ أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ إن كنتم صادقين. بل إياه تدعون فيكشفُ ما تدعون إليه إن شاء وتنسوْنَ ما تُشْركون﴾ والعربُ إذا أرادت الاستخبار عن شيء قالت للمخاطب: أرأيت، بمعنى أَخْبِرْني، وإذا كان المخاطَبُ اثنين أو اثنتين قالت العرب: أرأيْتُما، وإذا كان المخاطَبُ جماعة قالت العرب: أرأيتمْ فإذا أرادت تأكيد الخطاب وزيادة لفت انتباه المخاطب زادت الكاف وفتحت التاء فتقول: أرأيتَكَ وأَرأَيْتَكُمْ كما قال عز وجل: ﴿أرأيْتَكَ هٰذا الذي كرَّمتَ عَلَيَّ﴾ وكما قال هنا: ﴿قل أرأيتكم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاهلين: أخبروني ﴿إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعةُ أغيرَ الله تدعون إن كنتم صادقين﴾ أي إن أصابتكم عقوبة من الله في دنياكم أو جاءتكم الساعة وقامت القيامة أتفزعون حينئذ إلى أوثانكم وأصنامكم وتَدْعونَهَا لكشف الضُّر والعذاب عنكم إن كنتم مُحِقِّينَ في دعواكم وزعمكم أن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله تنفع أو تضر؟ وقوله عز وجل: ﴿بل إيَّاهُ تَدْعُونَ فيكشفُ ما تَدْعُونَ إليه إن شاءَ وتنسَوْنَ ما تُشرِكُونَ﴾ أي إنكم لا تدعُونَ في الشدائد أصنامكم وأوثانكم ولا تفزعون إليها لدفع الضر عنكم بل تفزعون إلى الله وحده ليكشف الضر عنكم لعلمكم أنه هو وحده

القادر على كشف الضر عن عباده، وهو سبحانه لا يكشف الضر إلا بمشيئته وحكمته، فقد يكون من الحكمة أن يكشف العذاب الدنيوي عنهم وقد يكون من الحكمة ألا يكشف العذاب الدنيوي عنهم كما أنه لا يكشف عذاب الآخرة عن المشركين أبدا، قال الزجاج «بل» استدراك، وإيجابٌ بعد نفي، تقول: ما جاء زيد بل عمرو، فَأَعْلَمَهُمُ اللهُ جل وعز أنهم لا يدْعُونَ في حال الشدائد إلا إياه، وفي ذلك أعظم الحجة عليهم، لأنهم قد عبدوا الأصنام اهـ وقال ابن جرير الطبري رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره مُكَذِّبًا لهؤلاء العادلين به الأوثان: ما أنتم أيها المشركون بالله الآلهة والأنداد، إن أتاكم عذابُ الله أوأتتكم الساعة بمستجيرين بشيء غير الله في حال شدة الهول النازل بكم من آلهة ووثن وصنم، بل تدعون هناك ربكم الذي خلقكم، وبه تستغيثون، وإليه تَفْزَعُونَ دون كل شيء غيره ﴿فيكشف ما تدعون إليه﴾ يقول: فَيُفَرِّجُ عنكم عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه عَظِيمَ البلاء النازل بكم إن شاء أن يفرج ذلك عنكم لأنه القادر على كل شيء ومالكُ كل شيء، دون ما تدعونه إلها من الأوثان والأصنام ﴿وتنسون ما تشركون﴾ يقول: وتنسون حين يأتيكم عذابُ الله أوتأتيكم الساعةُ بأهوالها ما تشركونه مع الله في عبادتكم إياه، فتجعلونه له ندًّا من وثن وصنم وغير ذلك مما تعبدونه من دونه وتدعونه إلها اهـ وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فلولا إذْ جاءَهم بأسنا تضرعوا ولكنْ قست قلوبهم وزَيَّنَ لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ تقرير للرسالة ومواساة للرسول ﷺ بِبَيَانِ أنه ﷺ ليس بدعا من الرسل وأن إخوانه المرسلين قد كذبتهم أممهم وأن الله عز وجل كان يبتليهم عند تكذيبهم بالبأساء والضراء ليتضرعوا إلى

الله عز وجل ويـرجعوا إليه، ويقلعـوا عن الشرك وتكذيب المرسلين لكنهم لم يفـزعوا إلى الله ليكشـف الضر عنهم بل كانـوا يتمادون في الضـلال والغي ولا يتأثرون بالزواجر التي تنـزل بهم بسبب قسوة قلوبهم وتحجر أفئدتهم وانطماس بصـائرهم وانقيـادهم للشيطـان الذي سـوّل لهم وأملى لهم، وزيّن لهم سُـوءَ أعمالهم فاستحسنوها، وفي هذا إماءة إلى أن كفار قريش لا يفزعون في الضراء إلا إلى الله وحده لكنهم كانوا إذا كشف الله الضر عنهم نسُوا نعمة الله عليهم وأشركوا في العبـادة أصنامهم وأوثانهم بخلاف من أشـار الله عز وجل إليهم هنا من الأمم السابقة حيث كانوا لا يفزعون إلى الله عند نزول البأساء والضراء بهم، والمراد بالبأسـاء: الأهوال والشدائد والـدواهي والحروب والمراد بالضراء الأمراض والأوجاع والآفات والأسقام والآلام، ومعنى: ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أي سلطنا عليهم هـذا العذاب من بأس الله ليتضرعـوا إلى الله ويفزعـوا إليه ليرفع العـذاب عنهم، ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿فلولا إذ جـاءهم بـأْسُنَـا تَضَرَّعوا ولكِنْ قست قلـوبهم وَزَيَّنَ لهم الشيطان ما كانـوا يعملون﴾ أي فَهَلاَّ تضرعـوا إلى الله عز وجل عنـدما جـاءهم بأس الله ونـزلت بهم عقوبتـه التي أحلهـا بهم للتـذكير والتخويف، لكنهم لم يتضرعـوا إلى الله ولم تلِنْ قلـوبهم خوفا منه عز وجل بل قست قلـوبهم وتحجرت أفئدتهم فأقاموا على تكذيبهم لـرسل الله وكفرهم بـآيـات الله وأصروا على عنادهم واستكبروا عن أمـر ربهم استهانة بعقاب الله واستخفافـا بأمره عز وجل، وحسَّنَ لهم الشيطان أعمالهم القبيحة فـاستحسنوها، واستمرؤوهـا وانغمسوا فيها وغفلوا عما ذُكِّـروا به من البأساء والضراء، ولم يتضرعوا إلى الله تبارك وتعالى ليرفع الضُّرَّ عنهم ولم ينيبوا إليه انقيـادًا للشيطان الذي سـوّل لهم وأملى لهم، وقوله تبـارك وتعالى: ﴿فلَمَّا نَسُـوا مـا ذُكِّـرُوا به فَتَحْنَـا عليهم أبـواب كل شيء حتى إذا فَـرِحُـوا بما أُوتـوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ أي فلما اشتدت غفلتهم، وتَرَكُوا ما وُعِظُوا

به، ولم ينيبوا إلى الله عز وجل ولم يتضرعوا، أَمْلَيْنَا لهم واستدرجناهم فرفعنا البأساء والضراء عنهم، وفتحنا عليهم استدراجا منَّا لهم أبواب كل ما كنا سددنا عليهم بابه عند أخذنا إياهم بالبأساء والضراء فبدلنا مكان الضيق سعة ومكان المرض صحة ومكان الشدة رخاء، فازدادوا كفرا وطغيانا، وفَرِحُوا بما أوتوا ولم يتنبهوا إلى أن ذلك استدراج من الله عز وجل وكيدٌ لهم ومكرٌ بهم فلما صاروا إلى حال حَسِبُوا فيها أن هذا النعيم لن يزول عنهم وبلغوا الغاية في المتاع واشتد تعلقهم بملاذهم وشهواتهم أخذهم الله عز وجل أخذ عزيز مقتدر فأنزل بهم عذابه فجأةً فإذا هم هالكون يائسون من رحمة الله، لا يستطيعون الإجابة ولا يتمكنون من التوبة والإنابة، وهذا المقام في كتاب الله تبارك وتعالى شبيه بقوله عز وجل: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يَضَّرَّعُونَ * ثم بَدَّلْنَا مكانَ السيئة الحسنةَ حتى عَفَوْا وقالوا قد مَسَّ آباءنا الضراءُ والسراءُ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ أي استؤصلوا عن آخرهم ولم يبق منهم أحد بسبب ظلمهم وكفرهم وتكذيبهم لرسل الله ولله عز وجل الحمد والثناء على انتصاره لأوليائه وقطعه لدابر أعدائه قال العلامة ابن منظور في لسان العرب: وقطع الله دابرهم أي آخر من بقي منهم، وفي التنزيل: ﴿فَقُطِعَ دابر القوم الذين ظلموا﴾ أي استؤصل آخرهم، ودَابِرة الشيء كدابره، وقال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أنَّ دابِرَ هؤلاء مقطوع مُصْبِحِينَ﴾ قولُهُمْ: قطع الله دابره قال الأصمعيُّ وغيرهُ: الدابرُ: الأصل أي أذهب الله أصْلَه، وأنشد لِوَعْلَةَ:

فِدى لكما رِجْلَيَّ أمي وخالتي   غَدَاةَ الكُلاَبِ إذ تُحَزُّ الدَّوَابِرُ

أي يقتل القوم فتذهب أصولهم ولا يبقى لهم أثر اهـ وقال الزجاج رحمه

الله : وقوله : ﴿فَقُطِعَ دابِر القوم الـذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ حَمِدَ اللهُ عـز وجل نفسهُ على أن قطع دابـرهم واستأصل شأفتهم، لأنه جل وعـز أرسل إليهم الـرسل، وأَنْظَرَهُـم بعد كفـرهم، وأخـذهم بالبأسـاء والضراء، فَبَالَغَ جل وعز في إنذارهم و إمْهَالِهِمْ، فحَمِـدَ نفسهُ لأنه محمود في إمهالِهِ مَن كفر به وانتظارِهِ توبته اهـ.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَـأْتِيكُمْ بِهِ، انظرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثم هُمْ يَصْـدِفُونَ * قل أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَـذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القَوْمُ الظَّـالِمُونَ. وَمَا نُرْسِلُ المُرْسلينَ إلا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَـنْ آمَنَ وأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. والذينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا يَمَسُّهُم العَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

بعد أن أمـر الله تبارك وتعـالى رسولـه ﷺ بأن يُقَرِّعَ قريشـا ومن معهم من الكفار ويوبخهم على تكذيبهم بآيات الله ويُقيمَ عليهم الحجة الدامغة بأنهم في شدائدهـم لا يفزعـون إلا إلى الله وحده وينسون أصنـامهم وأوثـانهم، مما يقطع بأن آلهتهم التي يدعونها ويعبدونها من دون الله لا تملك نفعا ولا ضرا، أمر رسوله ﷺ بتكرير تقريعهم وتبكيتهم وتوبيخهم مرة ثانية وثالثة إلزاما لهم بعد إلـزام وإقامـة للحجة بعـد الحجة وبـرهانـا بعد البرهان، لينقطعـوا عن الشرك بالله من كل وجـه ولتستبين سبيل المجرمين وينسـدَّ كلُّ طريق للشرك كليـة مع تعجيب رسـول الله ﷺ من عـدم تأثر بعـض هؤلاء بما عـاينـوا من الآيات البـاهرة والحجج القاهرة الظـاهرة، ويؤكد وظـائف المرسلين، تأكيدا للرسـالة حيث يقول عز وجل: ﴿قل أرأيتم إن أخـذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إلـه غير الله يأتيكم به، انظـر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون * قل أرأيتكم إن أتاكـم عذابُ الله بغتة أو جَهْرَةً هل يُهْلَكُ إلا القومُ الظالمون * ومـا نرسل المرسلين إلا مُبَشِّرينَ ومُنْذرينَ فمن آمنَ وأصلح فلا خَوْفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُـونَ * والذين كذَّبوا بآيـاتنا يَمَسُّهُم العذاب بما كانوا يفسقـون﴾ قال ابن جرير الطبري: القول في تـأويل قوله: ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قُلُـوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غير اللهِ يأتيكُمْ به انظر كيف نُصَرِّفُ الآياتِ ثُمَ هم يَصْدِفُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره

لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بي الأوثانَ والأصنامَ المكذبين بك: أرأيتم أيها المشركون بالله غَيْرَهُ إن أصمَّكُمُ الله فذهب بأسماعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم، وختم على قلوبكم فَطَبَعَ عليها، حتى لا تفقهوا قولا، ولا تُبْصِرُوا حجةً، ولا تَفْهَمُوا مفهومًا، أيُّ إله غيرُ الله الذي له عِبَادَةُ كلِّ عابد ﴿يأتيكم به﴾ يقول: يَرُدُّ عليكم ما ذَهَبَ اللهُ به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام، فَتَعْبُدُوه أو تشركُوهُ في عبادة ربكم الذي يقدر على ذهابه بذلك منكم، ، وعلى رَدِّهِ عليكم إذا شاء، وهذا من الله تعالى ذكره تعليمٌ نَبِيَّهُ الحجةَ على المشركين به، يقول له: قل لهم: إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا، وإنما يَسْتَحِقُّ العبادةَ عليكم من كان بيده الضر والنفع، والقَبْضُ والبَسْطُ، القادرُ على كل ما أراد، لا العاجزُ الذي لا يَقْدِرُ على شيء، ثم قال تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿انظر كيف نُصَرِّفُ الآيات﴾ يقول: انظر كيف نُتَابعُ عليهم الحُجَجَ، ونَضْرِبُ لهم الأمثالَ والعِبَرَ، ليعتبروا ويَذَّكَّرُوا فينيبوا ﴿ثم هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يقول: ثم هم مع مُتَابَعَتِنَا عليهم الحُجَجَ، وتَنْبِيهِنَا إياهم بالعبر، عن الادِّكار والاعتبار يُعْرِضُونَ. يقال منه: صَدَفَ فلانٌ عني بوجهه فهو يَصْدِفُ صُدوفا وصَدْفا أي عَدَلَ وأعرض ومنه قولُ ابنِ الرِّقاع:

إذا ذَكَرْنَ حَدِيثا قُلْنَ أَحْسَنَهُ ... وهُنَّ عن كل سُوءٍ يُتَّقَى صُدُفُ

وقال لبيد:

يُرْوى قَوَامِحَ قَبْلَ الليل صَادِفةً ... أَشْبَاهَ جِنٍّ عليها الرَّيْطُ والأُزُرُ

فإن قال قائل: وكيف قيل ﴿مَنْ إله غيرُ الله يأتيكم به﴾ فَوَحَّدَ الهاء وقد مضى الذكرُ قبلُ بالجمع فقال: ﴿أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم﴾؟ قيل: جائزٌ أن تكون الهاءُ عائدةً على السمع فتكون مُوَحَّدَةً لتوحيد السمع، وجائزٌ أن تكون مَعْنِيًّا بها: من إلهٌ غير الله يأتيكم بما

أخذ منكم من السمع والأبصار والأفئدة فتكون مُـوَحَّدة لتوحيد ما، والعربُ تفعل ذلك إذا كَنَّت عن الأفعال وحَّدَت الكنايـة، وإن كثر ما يكنى بها عنه من الأفـاعيل، كقولهم: إقبـالُكَ وَإِدْبَـارُكَ يعجبني، اهـ ولا شك أن كفـار قريش ومن كان على شاكلتهم كانـوا مقرين بأن الله عز وجل هو الذي جعل لهم السمع والأبصـار والأفئـدة، وأنـه لا يملكهـا أحدٌ سـواه، كما قـال عـز وجل: ﴿والله أخـرجكم من بطـون أمهـاتكم لا تعلمـون شيئـا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئـدة لعلكم تشكرون﴾ وقـال عز وجل: ﴿وهـو الذي أنشأ لكم السمع والأبصـار والأفئدة، قليلا مـا تشكرون﴾ وقـال عز وجل: ﴿قل مَن يرْزُقُكمْ من السماء والأرض أَمَّـن يَمْلِكُ السمع والأبصار ومن يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميت ويخرج الميت من الحي ومن يـدبر الأمـر فسيقولـون الله، فَقُلْ أفـلا تتقـون * فـذلكم الله ربُّكم الحقُّ فماذا بعـد الحق إلا الضـلال فأني تُصْرَفُـونَ﴾ وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿قل أرأَيْتَكُمْ إن أتـاكم عذابُ الله بغتـة أو جهرةً هل يُهْلَكُ إلاَّ القَوْمُ الظَّـالِمُونَ﴾ إنذار للمشركين بعد إنذار وتخويف لهم عقب تخويف وتـرهيـب إثـر تـرهيب، فبعـد أن خـوفهـم بأخـذ أسماعهم وأبصارهم والختم على قلـوبهم خَوَّفَهُمْ مرة أخـرى بعذاب عـام شامل يأتيهم بغتة أو جهرة يُبيدُ القوم الظالمين وينجو منه القوم المؤمنون، ومعنى الآية: قل لهم يا محمد: أخبروني أيها المشركون الجاهلون المكـذبون إن جاءكم عقابُ الله وحلَّ بكم عـذابه مفـاجأة دون أن تَتَقَـدَّمَهُ أمـارات أو عـلامات أو جـاءكم عذاب الله بعـد أن تَقَدَّمَتْهُ أمـارات وتحذيراتٌ وعـلاماتٌ عاينتمـوها قبل أن يحل بساحتكم العقـاب الشديـد والعذاب المبيـد الذي لا يعـاقب الله به إلا القوم الظـالمين الذين عبدوا من دون الله مـا لا ينفعهم ولا يضرهم ولم يخلصوا العبـادة للحي القيوم النـافع الضـار، فظلموا بـذلك أنفسهم حيث وضعـوا العبادة في غير مـوضعها وقـد جرت سنـة الله تبارك وتعـالى في أخذه لأعـداء

المرسلين أن يأخذ بعضهم بغتـةً وأن يأخذ بعضهم جهرة لحكمته البـالغة كما قال عـز وجل: ﴿أفَأَمِنَ الذين مَكَـرُوا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العـذابُ من حيث لا يشْعُـرُونَ. أو يـأْخُذَهـم في تَقَلُّبِهِمْ فما هم بمُعْجِـزينَ. أو يأخـذهم على تَخَوُّفٍ فإنَّ ربكم لـرءوف رحيم﴾ فـأَخْـذُهُمْ بِخَسْفِ الأرض بهم أو بمجيء العذاب من حيث لا يشعرون أو بأخذهم في تقلبهم كل هـذه الأنواع من بـاب أخذهم بغتـةً، أما الأخـذُ على تَخَوُّف وهو التنقص بتسليط الأمـراض والنكبات عليهم قبل حلـول العذاب المبيـد فهو من باب أخذهـم جَهْرَةً والاستفهام في قوله عـز وجل: ﴿هل يُهْلَكُ إلا القوم الظـالمون﴾ بمعنى النفي أي لا يُهْلَكُ بعـذاب الله المبيـد إلا القـوم المشركـون الذين عبدوا غير الله حيث وضعوا العبادة في غير موضعها وكذبوا المرسلين.
وقولـهُ تبارك وتعالى: ﴿ومـا نُرْسِلُ المرسلين إلاَّ مُبَشِّرينَ ومُنـذرينَ﴾ أي وما نرسل المرسلين إلا ليُرَغبوا عباد الله عز وجل في طاعة الله ويخوفوهم ويحذروهم من معصيته تبارك وتعالى، قال الزجاج رحمه الله: أي ليس إرسالهم بأن يأتوا الناس بما يقترحـون عليهم من الآيات، وإنما يأتون من الآيـات بما يُبَيِّنُ الله به براهينهم وإنما قَصْدُهُم التبشير والإنذار اهـ وقد أشرت في تفسير قوله تبارك وتعـالى: ﴿وبَشِّرِ الـذين آمنوا وعملـوا الصـالحات أنَّ لهم جنـات تجري من تحتها الأنهار﴾ أن البشارة هي الخبر العظيم الـذي يظهر أثره على البشرة سواء كان بالخير فتنطلـق أسارير الوجه فـرَحًا أو كان بالشر فتنكمـش بَشَرَةُ الوجه وتنقبض حـزنا قـال ابن سيده: والتبشير يكـون بالخير والشر كقـوله تعـالى: ﴿فبشرهم بعـذاب أليم﴾ اهـ فـإذا اجتمعت البشـارة مع النـذارة في سيـاق كانت البشـارة في الخير والنذارة في التخـويف والتحذيـر من الشر كما في هذا المقام من قوله تعالى: ﴿ومـا نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿رسـلا مبشرين ومنذرين لئـلا يكونَ للناس على الله حُجَّـةٌ بعد

الرسل﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا﴾ ونظائر ذلك. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون * والذين كذَّبوا بآياتنا يمسُّهم العَذَابُ بما كانوا يَفْسُقُون﴾ بيانٌ لأهم صُور التبشير والإنذار وذلك بإعلام المؤمنين الصالحين أنهم قد أَحْرَزُوا أنفسهم من الخوف والحزن عند لقاء الله مع الحياة الطيبة في الدنيا ودخول جنات النعيم في الدار الآخرة، وإعلام المكذبين بآيات الله ورسله أنهم قد خسروا أنفسهم بما جلبوه لها من الخوف والحزن عند لقاء الله حيث يذوقون سوء العذاب بسبب فسقهم عن أمر الله وتكذيبهم بآيات الله ورسل الله عليهم الصلاة والسلام وسُلُوك مسلك الترغيب والترهيب في دعوة الخلق إلى الخالق وتعريفهم بما ينفعهم وما يضرهم هو أفضل مناهج التربية والتعليم لأنه مبني على معرفة أحوال النفس الإنسانية وما يؤثر فيها، وما تتأثر به من الرجاء أو الخوف، والوعد أو الوعيد، وقد سلك القرآن العظيم هذا المسلك القويمَ وكذلك سلكه رسول الله ﷺ وقد سلكه من قبله ﷺ جميعُ الأنبياء والمرسلين إذ لا تكاد تخلو النصوص الواردة في كتاب الله أو عن رسله عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله من أسلوب الترغيب والترهيب والتبشير والتحذير ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة، ولتستبين السبيلُ أمام العباد لينهج العقلاءُ أهلُ الخير والصلاح سبيلَ الفلاح، وليعرف المنحرفون أنهم ضلوا سواء السبيل، وكما قال الشاعر:

أَمامَكَ فانظر أيَّ نَهْجَيكَ تنهجُ ... طريقان شتى مستقيم وأعوج

ومن صور التبشير والتحذير قوله تبارك وتعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة

أعدت للكافرين . وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار كلما رُزِقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هٰذا الذي رزقنا من قبل وأُتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾ وقد لُوحِظَ أن القرآن الكريم قد يقدم الترغيب على الترهيب وقد يقدم الترهيب على الترغيب بحسب مقتضيات الأحوال إذ لكل مقام ما يناسبه من المقال ، وهو لونٌ من ألوان إعجاز القرآن .

قال تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ ولاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ ولاَ أَقُول لَكُمْ إِنى مَلَكٌ إِن أَتَّبِعُ إِلا ما يُوحَى إِليَّ، قُلْ هلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى والبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ. وأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ ليس لهم مِن دُونِهِ ولِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. ولاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبهمْ بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِن شيءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شيءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ من الظَّالمِينَ. وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولوا أَهؤلآءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْننَا، أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بالشَّاكِرِينَ﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل أن المشركين قالوا: ﴿لولا نُزِّلَ عليه آية من ربه﴾ وساق عز وجل الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أنه عز وجل له القدرة الشاملة على إنزال ما يشاء من الآيات وأنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وأن إنزال الآيات إنما يكون بمشيئته وحكمته لا بحسب أهواء الجاهلين ومقترحاتهم وتَوَعَّدَهُمْ بالعقوبة إن استمروا على عنادهم وبيَّنَ عز وجل وظيفة أنبيائه ورسله وأنها مقتصرة على تبليغ الرسالة وتبشير من أطاعهم بالنعيم المقيم و إنذار من عصاهم بالعذاب الأليم وأن الرسل ليس بأيديهم أن يتصرفوا في الكون كما يشاءون وأنهم لا يستطيعون خرق نظام السموات والأرض، أمر نبيَّه وحبيبه وسيد رسله محمداً ﷺ أن يخبر الجاهلين أن التصرف في الكون وخزائنه هو لله وحده وليس مفوضا إلى أحد من خلقه وأن يخبرهم أنه ﷺ لا يعلم الغيب الذي استأثر الله عز وجل بعلمه وأن يوبخهم على ما اقترحوه عليه من بعض الآيات كأن يرقى في السماء مُبَيِّنًا هم أن ذلك إنما يطلب منه لو كان قد أخبرهم بأنه مَلَكٌ لأن الرقيَّ في السموات من شأن الملائكة، وأن يخبرهم ﷺ بأنه متبع لما جاءه من الوحي من عند الله وأن وظيفته ﷺ مقصورة على اتباع الوحي حيث يقول عز وجل هنا: ﴿قل

لا أقـول لكم عنـدي خـزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقـول لكم إني مَلَكٌ إن أتبع إلا ما يـوحَى إليَّ﴾ قال أبو اسحـاق الزجاج رحمه الله : وقـوله : ﴿قل لا أقول لكـم عندي خـزائنُ الله﴾ هذا متصل بقـوله : ﴿لولا نُـزِّلَ عليه آيـةٌ من ربه﴾ فأعلمهم النبي ﷺ أنه لا يملك خـزائن الله التي بها يَرْزُق ويُعطي وأنه لا يعلم الغيب فيخبرهم بما غاب عنه مما مضى وما سيكون إلا بوحي من الله عـز وجل : ﴿ولا أقول لكم إني مَلَكٌ﴾ أي المَلَكُ يُشـاهـد من أمور الله عـز وجل ما لا يشاهده البَشَرُ، فأَعْلَمَهُمْ أنـه يتبع الوَحْي فقال: ﴿إن أَتَّبِعُ إلا ما يوحى إليَّ﴾ أي مـا أنبأتكم به مـن غيب فيما مضى وفيما سيكون فهـو بوحي من الله ، فأمـا الإنبـاءُ بما مضى فأخبـارٌ بقصص الأمم السالفـة والأخبـار بما سيكـون كقـولـه : ﴿غُلبـت الـرومُ في أدنـى الأرض وهم من بعـد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . في بِضْعِ سنينَ﴾ فوجـد من ذلك ما أنبأ به ، ونحـو قوله : ﴿والله يعصمك من النـاس﴾ فـاجتهـدوا في قتله ، فلم يصلـوا إلى ذلك وقـولـه : ﴿ليظهره على الـدين كله﴾ وما يُـرْوَى من الأخبار عنه بما يكـون أكْثَرُ من أن يُحْصى اهـ وقال ابن جريـر الطبريُّ رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿قل لا أقول لكم عنـدي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقـول لكم إني مَلَكٌ إن أَتَّبِعُ إلا مـا يُوحَى إليَّ قل هل يستـوي الأعمى والبصيرُ، أفلا تتفكـرون﴾ قال أبـو جعفر: يقـول تعالى ذكـره : قل لهؤلاء المنكرين نُبُوَّتـكَ : لست أقول لكم إني الربُّ الذي له خزائنُ السموات والأرض فأَعْلَمُ غُيوبَ الأشياء الخفية التي لا يعلمها إلا الربُّ الـذي لا يَخْفَى عليه شيء فتكذبوني فيما أقـول من ذلك لأنه لا ينبغي أن يكـون ربًّا إلا من لـه مُلكُ كل شيء ، وبيـده كلُّ شيء ، ومَن لا يخفى عليه خافية وذلك هـو الله الذي لا إله غيره ﴿ولا أقول لكم إني مَلَكٌ﴾ لأنه لا ينبغي لِمَلَكٍ أن يكون ظاهرا بصـورته لأبصار البَشَر في الدنيا فَتَجْحَدوا ما أقـول لكم من ذلك ﴿إن أَتَّبِعُ إلا مـا يُوحَى إليَّ﴾ يقول : قـل لهم : ما أَتَّبِعُ

فيما أقول لكم وأدعوكم إليـه إلا وَحْيَ الله الذي يوحيه إليَّ وتنزيلَه الـذي يُنزله عليَّ فأَمضِي لوحيه، وأئتمر لأمره وقد أتيتكم بالحجج القاطعة من الله عُذْرَكُمْ على صحة قولي في ذلك، وليس الذي أقـول من ذلك بمنكر في عقولكم ولا مستحيل كونُه، بل ذلك مـع وجود البرهان على حقيقته هو الحكمـة البالغة فما وجه إنكـاركم ذلك؟ وذلك تنبيهٌ من الله تعـالى ذكره نَبِيَّـهُ ﷺ على موضع حجتـه على منكـري نبـوتـه من مشركي قــومـه. ﴿قل هل يستـوي الأعمى والبصير﴾ يقول تعالى ذكره: قل يـا محمد لهم: هل يستوي الأعمى عن الحق والبصيرُ به، والأعمى: هو الكافر الـذي قد عَمِيَ عن حجج الله فلا يَتَبَيَّنُهَا فَيَتَّبِعُهَـا، والبصيرُ: المؤمن الذي قـد أبصر آياتِ الله وحُجَجَـهُ، فاقتـدى بها واستضاء بضيائهـا، ﴿أفلا تتفكرون﴾ يقول لهؤلاء الذي كذبـوا بآيات الله: أفلا تتفكـرون فيما أَحْتَجُّ عليكم به أيها القومُ من هذه الحجج فتَعلَمـوا صحة مـا أقول وأدعـوكم إليه، من فسـاد ما أنتم عليـه مقيمون من إشراك الأوثـان والأنــداد بـالله ربكم وتكـذيبكم إيـاي مع ظهـور حجج صـدقي لأعينكم فَتَدَعُوا ما أنتم عليه من الكفر مقيمون إلى ما أدعوكم إليه من الإيمان الذي به تفوزون اهـ وقـوله تبارك وتعالى: ﴿وأنذر بـه الذين يخافون أن يُحْشَرُوا إلى ربهم ليس لهم من دونـه وليٌّ ولا شفيعٌ لعلهم يتقـون﴾ بيـان و إرشاد إلى أن قلـوب الناس ليست سـواء عند تلقي الإنذار فـالعُمي الصُّمُّ البُكْمُ الذين ختم الله على قلـوبهم لا ينتفعون بإنـذار المنذرين ومـن ليسوا كـذلك من الناس قـد ينتفعـون بالإنـذار ويتأثرون بـالموعظة فيـدخل في قلوبهم الخوفُ من الله عـز وجل، وينزجـرون عما يُنْهَونَ عنه، ويقفون عند حـدود الله لعلهم ينجون من عذابه يوم القيامـة الذي لا ينفع فيه وليٌّ ولا شفيع إلا بإذن الله ورضاه كما قال عز وجل: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعـة إلا من أذِنَ له الرحمنُ وَرَضِيَ له قولاً﴾ وكما قـال عز وجل:

﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وكما قال عز وجل ﴿ولا تنفع الشفاعةُ عنده إلا لمن أَذِنَ له﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يوم لا يغني مولى عن مولًى شيئًا ولا هم ينْصَرون * إلا من رحم الله، إنه هو العزيز الرحيم﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تطرد الذين يَدْعُونَ ربهم بالغداة والعَشِي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطْردَهم فتكون من الظالمين﴾ تنبيهٌ إلى أن من انتفع بالإنذار وانقاد لأمر الله واستجاب لرسوله ﷺ فإنه يكون ذا مكانة ومنزلة عالية عند الله عز وجل بغض النظر عن فقره وغناه ونسبه وحسبه، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وتنديدٌ بالجاهلين الذين يقيسون الناس بمنازلهم الدنيوية فيزدرون الفقراء ومن لا نسب لهم ولا حسب حيث كان هؤلاء الجاهلون يطلبون من رسول الله ﷺ إبْعَاد فقراء المسلمين عن مجلسه، ويسمونهم الأشرار ويسخرون منهم، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: فِيَّ نَزَلَتْ: ﴿ولا تطرد الذين يدْعُونَ ربَّهم بالغداة والعَشِيِّ﴾ قال: نَزَلَتْ في ستة: أنا وابن مسعود منهم. وكان المشركون قالوا له: تُدْنِي هؤلاء؟ ثم ساق مسلم من حديث سعد رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفرٍ فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنتُ أنا وابن مسعود ورجل من هذَيْل وبلال ورجلان لسْتُ أُسَمِّيهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدَّث نَفْسَهُ فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يجعل هؤلاء المؤمنين جُلَسَاءَهُ وأَخِصَّاءَهُ حيث قال: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتَّبَعَ هواه وكان أمره فرُطًا﴾ واحتقار الفقراء خُلُق الجاهلين من المتقدمين والمتأخرين كما قال عز وجل عن قوم نوح

عليه السلام: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بَادِيَ الرأي﴾ وطلبوا من نوح عليه السلام طردهم فردَّ عليهم فقال: ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون * ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم، أفلا تذكرون * ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني مَلَك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا اللهُ أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قالوا أنؤمن لك واتبعك الأَرْذَلُون * قال وما علمي بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أي لا تُبْعد عن مجلسك هؤلاء الفقراء الصالحين الداعين ربهم ليلا ونهارا وصباحا ومساء الذين أخلصوا قلوبهم وأسلموا وجوههم لله عز وجل لا يعبدون إلا الله ولا يدْعُونَ أحدا سواه، ومعنى قوله تبارك وتعالى ﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهُمْ فتكونَ من الظالمين﴾ أي إنما حساب عباد الله من الأغنياء والفقراء على الله وحده وليس الرسول بمسئول عن حسابهم على أعمالهم، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون﴾ كما أنه ليس على الرسول إلا البلاغ من الترغيب والترهيب، فهو مسئول عما أنيط به كما أن الأمة مسئولة عما أنيط بها فلا تزر وازرة وزر أخرى، وليس للإنسان إلا ما قدمه لنفسه من عمل صالح، ولا يتحمل إلا وزر ما اجترحه من الأعمال، وليس الغنَى أو الفقر هو المعيار الذي يقاس به الإنسان فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه، وإنما أرزاق العباد بيد الله وحده يُوسِّع على من يشاء ويضيق على من يشاء امتحانا وابتلاء فلا يدل غنى الغني على رضا الله عنه ولا يدل فقر الفقير على سخط الله عليه، ولذلك قال: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، أليس الله بأَعْلَمَ

بالشـاكرين﴾ قال ابن جـرير رحمه الله : وأما قـولهُ : ﴿ليقولـوا أهٰؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا﴾ يقول تعـالى : اختبرنا الناس بالغنى والفقـر، والعز والذل، والقوة والضعف والهدى والضـلال كي يقول من أضلـه الله وأعماه عن سبيل الحق للذين هـداهم الله ووفقهم : ﴿أهٰؤلاء مَنّ الله عليهم﴾ بالهدى والـرشد وهم فقراء ضعفاء أذلاء ﴿من بيننا﴾ ونحن أغنياء أقوياء استهزاءً بهم ومعاداة للإسلام وأهله اهـ وقـوله : ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ أي إنما يهدى الله من يعلم أنـه يشكره على نعمائه ويعترف بألـوهيتـه وربوبيتـه وأسمائه الحسنى وصفاته العلى .

قال تعـالى: ﴿وَإِذَا جاءَكَ الَّذينَ يؤْمِنُـونَ بآياتنـا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ ربكم عَلَى نَفْسِـهِ الرحمة أَنَّهُ مَنْ عَمِـلَ منكم سُوءًا بِجهـالَةٍ ثم تابَ مـن بَعْدِهِ وأَصْلَحَ فأَنَّهُ غفُورٌ رَحِيمٌ. وكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ ولِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المُجْرِمِينَ. قُلْ إِني نُهِيتُ أَنْ أَعْبُـدَ الَّـذِينَ تَـدعُـونَ مِن دونِ اللهِ قُلْ لاَ أَتَّبِعُ أَهْـواءَكُمْ قَـدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَـا أَنَا من المُهْتَـدِينَ. قُلْ إنى عَلَى بَيِّنَـةٍ مِن رَبِّي وَكَـذَّبْتُمْ بِهِ، مَـا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، إِن الحُكْمُ إِلاَّ للهِ يَقُصُّ الحَقَّ وهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ. قُلْ لَـوْ أَنَّ عِنْـدِي مـا تَسْتعْجِلُـونَ بـه لَقُضِي الأَمْـرُ بَيْني وَبَيْنَكُمْ واللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض قبائح الجاهلين حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يأتيهم بـآية يخرق بها نظام الكون، وحيث طلبـوا من رسول الله ﷺ أن يطرد الفقراء من مجلسه، وبعد أن نهى الله عز وجل حبيبه ورسوله وسيد خلقـه محمدًا ﷺ أن يطرد الذين يـدعون ربهم بالغداة والعشي يـريدون وجهه، مشيرا بـذلك إلى عظيم منزلتهم عند الله عـز وجل شرع هنا في حض رسـول الله ﷺ على زيادة تكـريم المؤمنين، وتبشيرهم بما يـدخل السرور على قلوبهم بغض النظـر عن فقرهم وغناهم وأيـأَسَ المشركين من أن يتمكنوا من استمالـة رسول الله ﷺ إلى بـاطلهم وعبـادة غير الله وأَمَـرَ رسولـه ﷺ أن يخبر المشركين المقترحين للآيات أنه ﷺ ليس بيـده شيء من الآيات التي يقترحونها لأن الآيات بيد الله وحـده، وأن يقول لهم: لو كانت الآيـات التي تقترحونها بيدي لآتيتكم بها، ولكنها بيد الله الـذي يقص الحق وهو خير الفاصلين ولا يظلم أحـدا، وهو أعلـم بالظـالمين، وفي ذلك يقـول تبارك وتعـالى: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ إلى

قـوله عـز وجل: ﴿والله أعلم بـالظـالمين﴾ قال ابـن كثير رحمه الله: وقولـه: ﴿وإذا جاءك الـذين يؤمنـون بآيـاتنا فقل سـلام عليكم﴾ أي فَأَكْـرِمْهُمْ برَد السلام عليهم، وبشرْهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم، ولهذا قال: ﴿كتب ربكم على نفسه الـرحمة﴾ أي أوجبهـا على نفسـه الكـريمـة تفضـلا منـه وإحسانـا وامتنانا ﴿أنـه من عمل منكم سوءًابجهالـة﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهـو جاهل اهـ وقال ابن جـرير رحمه الله في تفسير هـذه الآية: وإذا جـاءك يا محمد القـومُ الذين يُصَدِّقـون بتنزيلنا وأدلتنـا وحججنا فيُقِرونَ بذلك قولا وعمـلا، مُسْتَرْشِديكَ عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة؟ فلا تؤيسهم منها، وقل لهم: ﴿سلام عليكم﴾ أَمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها. ﴿كَتَبَ ربكم على نفسه الرحمة﴾ يقول قَضى ربكم الرحمة بخلقه ﴿أنه من عَمِلَ منكم سوءًا بجهـالـة ثم تاب مـن بعده وأصلح فأنـه غفـور رحيم﴾ ثم قـال رحمه الله: ومعنى قوله: ﴿أنـه من عمل منكم سوءا بجهالة﴾ أنـه من اقترف منكم ذنبا فجهل بـاقترافه إيـاه ثم تاب وأصلح ﴿فـأنه غفـور﴾ لذنبـه إذا تاب وأنـاب وَرَاجَعَ العملَ بطـاعة الله، وتـرك العَـوْدَ إلى مثله مع النـدم على مـا فرط منـه ﴿رحيم﴾ بالتائب أن يعـاقبه على ذنبه بعد تـوبته منه اهـ وقـال الزجاج رحمه الله: ومعنى يعملون السوء بجهـالة أي ليس بأنهم يجهلون أنه سـوء، لو أتى المسلم ما يجهل أنه سوء لكان كمن لم يتعمد سوءًا، ولم يوقع سوءًا، وقولك: عمل فلان كذا وكذا بجهالة يحتمل أمـرين، فأحدهما أنه عمله وهو جاهل بالمكروه فيه أي لم يعرف أن فيه مكروها، والآخر أقدم عليه على بصيرة، وعلم أن عاقبته مكروهة، فآثر العـاجل فجُعِلَ جاهلا، فإنه آثر القليل على الراحة الكثيرة والعافية الـدائمة فهذا معنى: ﴿من عمل منكم سوءا بجهـالة﴾ اهـ وقال شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله في مجيء أنَّ مرتين مـرة مع الشرط ومرة

مع الجزاء: ونظير الجمع بين تأكيد الجملة الكبرى المركبة من الشرط والجزاء وتأكيد جملة الجزاء قوله تعالى: ﴿إنه من يتق ويصبر فإنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ فلا يقال: إنها أعيدت لطول الكلام، ونظِيرُه قوله تعالى: ﴿إنه من يأت ربَّه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يَحْيى﴾ ونظيره: ﴿أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ فهما تأكيدان مقصودان لمعنيين مختلفين، ألا ترى تأكيد قوله ﴿غفور رحيم﴾ بأنَّ غيرُ تأكيد ﴿من عمل منكم سوءا بجهالة فأنه غفور رحيم﴾ له بأن؟ وهذا ظاهر لاخفاء به وهو كثير في القرآن وكلام العرب اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكذلك نُفَصِّل الآيات ولتستبين سبيلُ المجرمين﴾ أي وهكذا نُبَيِّن ونُفَصِّل ونميز للناس أعلامنا وحججنا وأدلَّتنا ليتضح الطريق المستقيم ليسلكه المؤمنون ولتستبين السبيل المعوجة التي يسلكها الكافرون المجرمون، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل المبشرين المنذرين وليرتدع المكذبون الجاهلون الذي يصفون الذكر الحكيم بأنه أساطير الأولين، مع أنه تبيان لكل شيء يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم، مما جدَّ ويجد لهم إلى يوم القيامة ويرسم أحسن المناهج، ويهدي المستقيمين إلى سواء الصراط وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله، قل لا أتبع أهواءكم قد ضَلَلْت إذا وما أنا من المهتدين﴾ تنديد بالمشركين وأصنامهم وما يعبدون من دون الله، وتحذير شديد من مسلكهم وتقريع بأنهم سلكوا الطريق المعوج تقليدا لأهوائهم وأهواء آبائهم، فهم يعبدونها على محض الهوى والتقليد الأعمى والضلال البحت لا على سبيل البينة والحجة والبرهان، فهم يعبدون ما يصنعون، ويدعون من الأحجار ما ينحتون فلو كان لهم أدنى مسكة من عقل ما عبدوها، وهم لا يضرعون إليها عند الشدائد بل يضرعون إلى الله وحده

ويقرون بأن آلهتهم التي يعبدون من دون الله مملوكة لله عز وجل حيث كانوا يقولون في تلبيتهم بالحج : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هُوَ لَكَ ، تملكه وما مَلَكَ ، وكانوا يقولون : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿قل إني نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله﴾ قطع لأطماع بعض المشركين الذين كانوا يطمعون في أن يميل رسول الله ﷺ إلى باطلهم ، وفي قوله عز وجل : ﴿قل لا أتَّبع أهواءكم قد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين﴾ تأكيد على أن عبادة غير الله هي سبيل المجرمين ، وأنها مبنية على الهوى المحض ، وأن من سلكها فهو ضال عن سواء السبيل ، وليس من المهتدين الراشدين المفلحين الفائزين ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿قل إني على بينة من ربي وكذبتم به﴾ تحقيق لما عليه رسول الله ﷺ من سبيل الهُدى والرشاد وما يسلكه من الصراط المستقيم وما يهتدي به من البرهان البَيِّنِ والحجة الواضحة التي هداه إليها ربه تبارك وتعالى كما قال عز وجل : ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيَما ملَّة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى : ﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لمَّا جَاءَني البينات من ربي وأُمرتُ أن أُسْلِمَ لرب العالمين﴾ وقوله عز وجل : ﴿وكذبتم به﴾ تأكيد لقبح طريق المشركين المكذبين بالبينات التي جاء بها رسول الله ﷺ أي وكذبتم بربي وربكم الذي جعلني على بينة منه ، ولم تكتفوا بمعجزة القرآن وهو الآية العظمى والحجة البالغة واستعجلتم نقم الله وعذابه ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ما عندي ما تستعجلون به ، إن الحكم إلا لله يَقُصُّ الحق وهو خير الفاصلين﴾ أي ليس بيدي شيء من الآيات التي تقترحونها لأن الآيات بيد الله وحده وما أخبركم به من إهلاك أعدائه الذين كذبوا رسله هو القصص الحق ، والحكم بيده وحده وهو الذي يفصل بين رسله وأعدائهم وهو خير الفاصلين ، فإنه لا يظلم

مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل لـو أن عندي ما تستعجلون بـه لقضي الأمر بيني وبينكم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين الجاهلين المقترحين للآيات: لو كانت الآيات التي تقترحـونها بيدي لآتيتكم بها ولأجبتكم فيما طلبتم مني، والمقصـود من ذلك تأكيد نفي أن تكون الآيات بيد رسـول الله ﷺ، وليس في هذا ما يدل على أنه لو كان العذاب بيـده لأنزله بقريش، لأنه لا ذكـر في هذا المقام لاستعجالهم العـذاب، وقـد عُلِمَ أن رسـول الله ﷺ كـان يحب أن يستأني بهم لعل الله يهديهم أو يخرج من أصلابهم من يعبـد الله وحده فقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخـاري من حـديـث الصـديقـة بنت الصـديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قـالت للنبي ﷺ: هل أتى عليكم يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُد؟ قال: لقد لَقِيتُ من قومِكِ ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يـوم العقبة، إذ عـرضت نفسي على ابن عبد يـاليل بن عبد كُـلاَلٍ فلم يجبني إلى مـا أردت، فانطلقت وأنـا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنـا بِقَرْنِ الثعالب، فـرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قـد أظلتني فنظرتُ فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما رَدُّوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني مَلَكُ الجبال فَسَلَّم عليَّ ثم قال: يا محمد، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبَيْنِ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يُخْرِجَ الله من أصـلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا، وفي لفظ لمسلم: فناداني مَلَكُ الجبال، وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سَمِعَ قولَ قـومك لك، وأنا مَلَكُ الجبال، وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أُطْبِق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئـا وقولـه عز وجل: ﴿والله أعلم بـالظالمين﴾ تحذيـر من الظلم،

ووعيد شديد للظـالمين، والظلم في الأصل هو وضع الشيء في غير موضعه، وأبشع الظلم هــو الشرك بـالله، وتكــذيب المرسلين، والظلم ظلمات يــوم القيامة، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون . .

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فى البَرِّ والبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقة إلاَّ يَعْلَمُهَا ولاَ حَبَّةٍ فى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ ولاَ يَابِسٍ إلاَّ فى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

بعد أن أمر الله عز وجل رسوله محمدًا ﷺ أن يخبر المشركين المقترحين للآيات بأنه ﷺ ليس عنده شيء من الآيات التي يقترحونها لأن الآيات بيد الله وحده، لأنه عز وجل هو القادر على كل شيء وهو الذي يقص الحق وهو خير الفاصلين وهو وحده الذي لا تخفى عليه خافية من أعمال عباده وهو أعلم بالظالمين، شرع هنا في تقرير كمال علمه عز وجل وبيان اختصاص المقدورات الغيبية به تبارك وتعالى وأنه عز وجل استأثر بمفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وأنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن في الأرض ولا في السماء إلا بعلمه، وأن جميع الكائنات مسجلة في كتاب عند الله عز وجل، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء كما أطلع رسوله المصطفى وحبيبه المجتبى ﷺ على أشراط الساعة وأماراتها وما يكون في بعض مواقف القيامة، وكما يعلم الإنسان حمل المرأة بانتفاخ بطنها وانقطاع طمثها ونحو ذلك، وفي ذلك يقول: ﴿وعنده مفاتحُ الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبَّةٍ في ظلمات الأرض ولا رَطْب ولاَ يابس إلا في كتاب مبين﴾ ومعنى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلَمُهَا إلا هو﴾ أي وعند الله خزائن الغيب قد استأثر سبحانه بها، وبما يتوصل به إليها، وقد فسَّر رسول الله ﷺ مفاتح الغيب التي استأثر الله عز وجل بعلمها بأنها الخَمْسُ الواردة في قوله عز وجل: ﴿إنَّ الله عنده علْمُ الساعة ويُنَزِّلُ الغيث ويَعْلَمُ ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ فقد روى البخاري في

بـاب الاستسقـاء من طريق عبـد الله بن دينـار عن ابن عمـر رضي الله عنهما قـال: قال رسـول الله ﷺ: مفاتح الغيب خمس لا يعلمهـا إلا الله، لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غـدا، وما تـدري نفس بأي أرض تموت ومـا يدري أحـد متى يجيء المطر، وأورده في تفسير سـورة الأنعام من طريق سالم بن عبـد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: مفاتح الغيب خمسٌ: ﴿إن الله عنـده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير﴾ وأورده في كتاب التوحيد من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما عـن النبي ﷺ قال: مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله: لا يعلـم ما تغيضُ الأرحام إلا الله، ولا يعلـم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم السـاعة إلا الله، أما مـا ثبت عن رسول الله ﷺ أنه أوتي مفـاتيح خزائن الأرض فإن المقصـود منه أن أمتـه ﷺ تفتح أكثر المعمـورة وتملك خزائن كسرى وقيصر كما أشـار أبـو هـريرة رضي الله عنـه إلى ذلك فقد روى البخـاري في صحيحه من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: بعثت بجـوامع الكلم، ونُصرت بالرعب، وبينـا أنا نائم رأيتُني أوتيت بمفـاتيح خزائن الأرض فوُضعت في يـدي قال أبـو هريـرة فقد ذهب رسـول الله ﷺ وأنتم تلغثونها أو تـرْغثونها أو كلمـة تشبِهُهَا، وأخـرجه مسلم من حديـث أبي هريرة رضي الله عنـه بلفظ: قال قـال رسول الله ﷺ: بعِثتُ بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب وبينـا أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فَوُضِعَتْ في يـدي. قال أبـو هـريرة: فـذهب رسـول الله ﷺ وأنتم تنتثلـونها. ومعنى تنتثلـونها: تستخـرجون مـا فيهـا، ومعنى تلغثـونها: أي تأكلـونها، ومعنى ترغثـونها: أي تـرضعونها وقـد أخرج البخـاري ومسلم في

صحيحيهما من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: إني فَرَطٌ لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلي حَوضي الآن، وإني أُعْطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تَنَافسوا فيها، هذا والمقصود من قوله ﷺ في حديث عقبة بن عامر: والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي أي والله ما أخاف على مجموعكم، فليس المراد نفي وقوع الشرك في أفراد من أمته ﷺ، وإنما المراد أنَّ تَنَافُسَهُمْ على الدنيا هو أخطر عليهم، وأشد ضررا على مجموعهم، لأنه يضر الصالحين والطالحين. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ قال ابن كثير رحمه الله: أي محيط علمه الكريم بجميع الموجودات بَرِّيِّها وبَحْرِيِّها لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما أحسن ما قال الصرصريُّ.

فلا يخفى عليه الذَّرُّ إمَّا تَرَاءَى للنواظر أو توارى اهـ

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبريُّ رحمه الله: يقول تعالى ذكره: ولا تسقط ورقةٌ في الصحاري والبراري ولا في الأمصار والقرى إلا اللهُ يعلمها ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ يقول: ولا شيء أيضا مما هو موجود أو مما سيوجد ولم يوجد بعد إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ، مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسومٌ عَدَدُهُ ومَبْلَغُهُ، والوقت الذي يوجد فيه، والحال التي يفْنَى فيها، ويعنى بقوله: ﴿مبين﴾ أنه يبين عن صحة ما هو فيه، بوجود ما رسم فيه على ما رسم اهـ والمقصود بيانُ كمال علمه وقدرته ولفتُ الانتباه إلي عجائب خلقه بِضَرْبِ أمثلة ينتفع بها من له أدنى مسكة من عقل، وقدم ذكر الورقة

لأنها تشاهد في جميع أنحاء الأرض ولا يعلم عَدَدها ووقت وجودها وفنائها وحركاتها وسكناتها إلا الله وحده ثم ذكر ما هو أضعف من الورقة وهو الحبة ثم ذكر مثالا يجمع الكل وهو الرطب واليابس وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنه قد كتب جميع حركات خلقه وسكناتهم في الكتاب المبين، وأن كل شيء يجرى بمقدار كتبه في اللوح المحفوظ، كما ذكر عز وجل أن القرآن العظيم مكتوب في اللوح المحفوظ، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلٌّ في كتاب مبين﴾ وقد سماه الله تبارك وتعالى أم الكتاب حيث يقول عز وجل: ﴿وعنده أُمُّ الكتاب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لَعَلِيٌّ حكيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ وقد أشار الله تبارك إلى أنه كتب مقادير الخلائق في هذا الكتاب بعلمه وحكمته لا لضلال أو نسيان، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾ كما روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء. وقد سمَّى رسول الله ﷺ اللوح المحفوظ الذكر فقد روى البخاري رحمه الله في كتاب بدء الخلق من صحيحه من حديث عمران بن حُصيْن رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلَّ شيء وخلق السموات والأرض. وأخرجه في كتاب التوحيد عن عمران بن حصين قال: إني عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم، فقال: اقْبَلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: بشَّرتَنا فأعطنا، فدخل ناسٌ من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قَبِلْنَا، جئناك

لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمـر ما كان، قال: كان الله ولم يكن شيء قبلـه، وكـان عـرشـه على الماء، ثم خلق السمـوات والأرض وكتب في الذكـر كلَّ شيء، ثم أتاني رجل فقـال: يا عمران أَدركْ نـاقتك فقد ذهبت، فـانطلقت أطلبهـا، فإذا السرابُ ينقطع دونها، وأَيْمُ اللهِ لـوَدِدْتُ أنها قـد ذهبت ولم أقم، وقال أبـو داود في سننه: حدثنـا جعفر بن مسافـر الهذلي ثنا يحيى بن حسان ثنـا الوليد بن ربـاح عن إبراهيم بن أبي عبلـة عن أبي حفصة قال: قال عبادة بن الصـامت لابنه: يا بُنَيَّ إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن مـا أصابك لم يكن ليخطئك، ومـا أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسـول الله ﷺ يقـول: إن أول ما خلق الله القلم، فقـال لـه: اكتب قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قـال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم السـاعة يا بُنَيَّ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس مني. كما أخرج البخـاري في كتاب النكاح من حـديث أبي هريرة رضي الله عنـه قال: قلت يا رسول الله إني رجل شاب، وأنـا أخاف على نفسي العَنتَ ولا أجد ما أتزوج به النساء، فسكت عني، ثم قلت مثلَ ذلك، فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك، فقـال النبي ﷺ: يا أبا هـريرة جَفَّ القلم بما أنت لاقٍ. الحديث. وقد أخرج مسلم عن جـابر قال: جاء سراقة بن مالك بن جُعْشُم قـال: يا رسول الله بَيِّـنْ لنا ديننـا كأنا خُلِقْنَا الآن فيما العَمَلُ اليومَ أفيما جفت به الأقلامُ وجرت به المقادير أم فيما نستقبل قال لا بل فيما جفت به الأقـلام وجرَت بـه المقادير، الحديث كما أخـرج الترمذي في سننه وقال: هذا حديث حسن صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسـول الله ﷺ يوما فقـال: يا غـلام إني أُعلِّمُكَ كلماتٍ، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهكَ إذا سألـت فـاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بـالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعـوك بشيء لم ينفعوك

إلا بشيء قـد كتبه الله لـك، ولو اجتمعـوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قـد كتبـه الله عليك، رُفِعَـت الأقـلام وجفت الصحف، ولا شك أن الإيمان باللـوح والقلم من عقائد أهل السنة والجماعـة ولذلك قال الإمـام أبو جعفر الطحاوي في عقيدته المشهورة: ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد رُقِمَ.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الموتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ، أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾

بعد أن أعلم عز وجل عباده أن مفاتح الغيب بيده وحده لم يعطها لملك مقرب ولا لنبي مرسل وأنه لا يعلمها إلا هو عز وجل، وَقَرَّرَ بذلك كمال علمه، وأنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن في الأرض ولا في السماء إلا بإذنه قد أحاط به علما وأحصاه عددا، لا يخفى عليه رطب ولا يابس، وأن ذلك قد كتبه عز وجل في كتاب مبين، شرع هنا في لفت انتباه الناس إلى بعض آيات قدرته وعلمه التي أقامها فيهم، وما يُجْرِيه عليهم من أدلة قدرته، وقهره لخلقه، وعلوهِ على عباده، وأكدَ أنَّ مردَّ جميع العباد إليه ليحاسبهم على أعمالهم ويحكم بينهم بعلمه وعدله وهو أسرع الحاسبين، لأنه القادر على حساب جميع الخلائق في وقت واحد كحساب نفس واحدة كما أن بعث جميع الخلائق في وقت واحد كبعث نفس واحدة وذلك على الله يسير وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويَعْلَمُ ما جرحتم بالنهار﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ألاَ لَهُ الحُكْمُ وهو أسرَعُ الحاسبين﴾ قال الزجاج رحمه الله: وقوله عز وجل: ﴿وهو الذي يتوفَّاكم بالليل﴾ أي يُنِيمُكُمْ فَيَتَوَفى نفوسكم التي بها تُمَيِّزون، كما قال عز وجل: ﴿الله يتوفى الأَنفسَ حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ ومعنى: ﴿يَبْعَثكُمْ فيه﴾ أي يُنَبِّهُكُمْ من نومكم فيه في النهار ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي يبعثكم من نومكم إلى أن تبلغوا آجالكم اهـ والنوم يسمى الوفاة الصغرى والموتة الصغرى

وقد جعل الله تبـارك وتعالى النوم آية من آيـاته ليكون تـذكرة للإنسان بـالموتة الكبرى كما جعل الاستيقاظ من النوم تذكـرة للبعث بعد الموت، حيث يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ومن آياته منـامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إن في ذٰلك لآيـات لقوم يسمعـون﴾ وقدنَصَبَ الله تبـارك وتعالى أمـام الأعين آيـات كثيرةً تذكـر بـالآخرة ومـا فيهـا، وإلى ذلك يشير عـز وجل في قولـه : ﴿أفرأيتم النار التي تـورُونَ * ءَأَنتُمْ أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين﴾ أي جعلنا نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة. كما جعل الله تبارك وتعـالى الروح ــ وقد يطـلق عليها لفظ النفس ــ آية من آياته واسـتأثر تبارك وتعالى بعلم حقيقتها وكيفيتهـا إعلاما بكمال قدرته وعلمه ولم يُطْلِعْ أحدا مـن خلقه إلا على قليل من آثـارها، فهي في الجسم دليل حيـاته وإذا فـارقت الجسم مات وفـارق الحياة. وقـد تُسْلَبُ بعضُ خصائصهـا من الجسم كالتمييز وهو ما يُفْقَـدُ من الإنسان ويُقْبَضُ منه عند النوم فيرفع القلم عن النائم حتى يستيقظ ولا يؤاخـذ بما يفعله أثناء نومه مع أن النـائم قد يرى حُلْما يعقله في نومه ويميزه ويذكره إذا استيقظ من نومه، كما أن الجنين عند ما يَخْرُجُ من بطن أمه حيـا يكون لا تمييز له كما قال عـز وجل : ﴿والله أخرجكم من بطـون أمهاتكم لا تعلمـون شيئـا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئـدة لعلكم تشكرون﴾. وقـد تفارق الروحُ الجسـد كالشهداء وقـد سماهم الله عز وجل أحياء، ونهى عن تسميتهم أمواتا فقال عز وجل : ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات، بل أحياءٌ ولٰكن لا تشعرون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الذيـن قُتِلُوا في سبيل الله أمواتـا، بل أحياءٌ عنـد ربهم يرْزقُـونَ﴾ وقد وصف رسول الله ﷺ الروح بأنها تُقْبَضُ عند النـوم وتُرْسَلُ عند الاستيقاظ من النوم وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله تعالى : ﴿الله يتوفى الأنفس حين مـوتها والتي لم تمت في منـامهـا فيمسك التي قضى عليهـا الموت ويـرسل

الأخرى إلى أجل مسمى﴾ قال: وهذا بيان لكون النفس تقبض وقت الموت ثم منها ما يُمْسَكُ فلا يرسل إلى بدنه وهو الذي قضى عليه الموت ومنها ما يرسل إلى أجل مسمى، وهذا إنما يكون في شيء يقوم بنفسه لا في عرض قائم بغيره فهو بيان لوجود النفس المفارقة بالموت، والأحاديث الصحيحة توافق هذا، كقول النبي ﷺ: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، فإن أمسكتَ نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين، وقال لما ناموا عن صلاة الصبح: إن الله قبض أرواحنا حيث شاء. وقال تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق، ألاَ لَهُ الحُكْمُ وهو أسرع الحاسبين﴾ فهذا تَوَفٍّ لها بالنوم إلى أجل الموت الذي ترجع فيه إلى الله، وإخبارٌ أنَّ الملائكة تتوفاها بالموت ثم يُرَدُّونَ إلى الله، والبَدَنُ وما يقوم به من الأعراض لا يُرَدُّ إنما يُرَدُّ الرُّوحُ، وهو مثل قوله في يونس: ﴿ثم رُدُّوا إلى الله﴾ وقال تعالى: ﴿إن إلي ربك الرُّجْعَى﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضيةً مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ وقال تعالى: ﴿قل يتوفاكم مَلَكُ الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾ وتوفي الملك إنما يكون لما هو موجود قائم بنفسه، وإلا فالعَرَضُ القائم بغيره لا يُتَوَفَّى فالحياة القائمة بالبدن لا تتوفى، بل تزول وتعدم كما تُعْدَمُ حركتُهُ وإدراكُهُ اهـ وقد روى البخاري في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول: اللهم باسمك أموت وأحْيَا وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور وأخرجه من حديث

أبي ذر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل قال: باسمك نموت ونحيا، وإذا استيقظ قال: الحمد الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور. وأخرجه مسلم في صحيحه من حيث البراء رضى الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قال: اللهم باسمك أحيا وباسمك أموت، وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، ويؤثر أن رسول الله ﷺ شبَّه النوم بالموت والبعثَ بالاستيقاظ من النوم عندما أمره الله بالجهر بالدعوة فقال لقريش: إن الرائد لا يَكْذِبُ أهله، فقد أثر أنه قال لهم في هذا المقام: والله لتموتُن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون، ولتُحاسَبُنَّ بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا. كما ذكر ذلك ابن الأثير في الكامل في التاريخ وكذلك صاحب السيرة الحلبية وغيرهما، ولم أقف لهذا الأثر على سند متصل. وقد أكد الله تبارك تعالى أن الروح من أمر الله، وأن الله تبارك وتعالى قد استأثر بعلم حقيقتها وكيفيتها حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث وهو متكئٌ على عسيب، إذْ مرَّ اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلُوه عن الرُّوح فقال: ما رَابَكُمْ إليه، وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا سَلُوهُ فَسأَلُوهُ عن الروح، فأمسك النبيُّ ﷺ فلم يردَّ عليهم شيئا، فعلمت أنه يوحَى إليه فقمت مَقَامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ وفي قوله: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ بعد ذكر كون الروح من أمر الله وحده لَفْتُ انتباه الناس إلى أن قوله تعالى في هذا المقام: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ بعد قوله عز وجل: ﴿وعنده مفاتح الغيب

لا يعلمها إلا هو﴾ الآية يشير إلى بعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم مع الإشارة إلى تمام الارتباط بين كل آية وما يليها، وأنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، ومعنى قوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموتُ توفته رسلنا وهم لا يُفرِّطُون﴾ أي واللهُ هو الغالب لجميع عِباده العالي فوق جميع خلقه، وقد اقتضت حكمته أن يبعث عليكم ملائكة، منهم مَن وكَّلهم بحفظ أبدانكم بسبب أمر الله لهم بذلك كما قال عز وجل ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ ومنهم ملائكة موكَّلون بحفظ أعمالكم يحصون عليكم ما تفعلونه كما قال عز وجل: ﴿وإنَّ عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ ومنهم ملائكة موكلون بقبض أرواح العباد وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن ملائكة الرحمة هم الذين يقبضون أرواح المؤمنين وأن ملائكة العذاب يقبضون أرواح الكافرين فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمَّل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحولُ بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصَّفَ الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملكٌ في صورة آدمي

فجعلـوه بينهم أي حكمًا فقال: قيسـوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كـان أدنى فهو له، فقاسوا فوجـدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة.
ولا معارضة بين قـوله تعالى هنا: ﴿تـوفته رسلنا﴾ وكذلك قـوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلُنا يتـوفونهم﴾ وبين قوله تعالى: ﴿قل يتـوفاكم ملكُ الموت الذي وُكِّل بكم﴾ إذ قد يـراد بالـواحد الجنس، ومعنى: ﴿وهم لا يُفَـرِّطُون﴾ أي وهؤلاء الحفظة لا يغفُلون ولا يتوانَونَ ولا يُضيعونَ وقوله عز وجل: ﴿ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ، ألا لـه الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾. أي ثم ردَّهم الله تبارك وتعالى بعد الموت ليقفوا بين يدي ربهم الإله الملك الحق الخالق الذي لا إله غيره الـذي له الحكمُ وحده يوم القيـامة، وله وحده القضـاءُ بين عباده، قال ابن جـرير رحمه الله في قوله: ﴿وهـو أسرع الحاسبين﴾ يقول: وهو أسرع من حسب عـددكم وأعمالكم وآجـالكم وغير ذلك من أمـوركم أيها النـاس وأحصاها وعرف مقاديرها ومبالغها لأنه لا يحسب بعقد يد ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليـه منـه خافيـة، ولا يعـزب عنـه مثقال ذرة في السمـوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين اهـ.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُم مِنْ ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ تَدْعُونَهُ تضَرُّعًا وخُفْيَةً لَئِنْ أَنجانَا مِنْ هَٰذِهِ لنكونَنَّ مِنَ الشَّاكِرينَ. قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثم أنتُمْ تُشْرِكونَ * قلْ هو القَادِرُ على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تحتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بأْسَ بَعْضٍ، انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ. وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحَقُّ قل لست عليكم بِوَكِيلٍ. لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

بعد أن لفت الله عز وجل انتباه الناس إلى بعض آيات قدرته وعلمه التي أقامها فيهم وما يُجْريه عليهم من أدلة قدرته، وقهره لخلقه، وعُلُوِّهِ على عباده وأكَّد أن مَرَدَّ جميع العباد إليه ليحاسبهم على أعمالهم، ويحكم بينهم بعلمه وعدله، شرع هنا في توبيخ المشركين من قريش ومَن على شاكلتهم مرة أخرى بلفت انتباههم إلى أنهم إذا وقعوا في ورطة في ظلمات البر والبحر توجهوا بالضراعة إلى الله وحده ونَسُوا أصنامهم وأوثانهم وأخلصوا الدعاء جهرا وسرا وتَذلُّلاً لله وحده فإذا نجاهم الله من ورطتهم وكشف عنهم ضرهم رجعوا إلى شركهم وعبادة أصنامهم وأوثانهم، ثم حذَّرهم بأنهم لن يفلتوا من عذاب الله إذا أراده بهم، وبيَّن لهم أنهم ليسوا بِمَنْجًا من عذاب الله في أية لحظة وعلى أي حال فهو القادر على أن يرسل عليهم حاصبا من السماء أو أن يخسف بهم الأرض أو أن يُسَلِّط بعضهم على بعض فيقتل بعضهم بعضا، ثم وَاسى رسوله وحبيبه وسيد خلقه محمدا ﷺ وبين له أنه على الحق وأن ما جاء به من عند الله هو الحق، وأن قلوب العباد بيد الله وحده وأن العاقبة الحسنى ستكون لرسول الله ﷺ وللمؤمنين وفي ذلك يقول: ﴿قل مَن يُنَجِّيكُمْ من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخُفْيَةً لئن أنجانا من هٰذه لَنكُونَنَّ من الشاكرين﴾ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿لكل نبإ مُسْتَقَرٌّ، وسوف تعلمون﴾

ومعنى : ﴿قل من يُنجِّيكُمْ من ظلمات البر والبحر تدعُونَه تضرعا وخُفْيَةً لئن أنجانا من هٰذه لَنَكُونَنَّ من الشاكرين . قل الله يُنَجِّيكُمْ منها ومن كل كَرْب ثم أنتم تشركون﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين واسألهم على سبيل التقريع والتوبيخ والتقرير: من تَلْجَئُونَ إليه إذا كنتم في البر أو كنتم في البحر وأحاطت بكم الظلمات ونزل بكم الضُّر وأشرفتم على الهلاك ، إنكم لن تضرعوا إلا إلى الله وحده إذ تدعونه حينئذ جهرا وسِرًّا وتتعهدون بأنكم ستعرفون نعمة الله عليكم وتقولون : لئن خَلَّصنَا الله من هذه الورطة وكَشَفَ عنا هذا الضر لنكونن من الشاكرين المؤمنين المخلصين لله وحده ، ثم أمر نبيه ﷺ بتقرير الجواب مع كونه من وظائفهم للدلالة على أن هذا هو الجواب المتعين الذي لا جواب غيره ولتوبيخهم على نقضهم للعهد وكفرانهم للنعمة فقال : ﴿قل الله يُنجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾ ثم أمر نبيه ﷺ أن يخبر قريشا ومن على شاكلتهم بأنهم لن يفلتوا من الله ، ولن يهربوا من عقابه في البر أو في البحر وأنه قادر على أن يرسل عليهم عذابا من السماء من حاصب أو حجارة أو سحاب عارض يمطرهم بعذاب الله كالذي أرسله الله عز وجل على قوم هود أو يرسل عليهم مطرا منهمرا كالذي سلطه على قوم نوح أو كسفا من السماء كعذاب يوم الظُلَّة الذي أرسله على قوم شعيب ، أو أن يخسف بهم الأرض من تحت أرجلهم أو أن يسلِّط بعضهم على بعض فيقتل بَعْضُهُمْ بعضا . وهذا المقام قد ساق الله عز وجل له نظائر كثيرة وصرَّف فيه الآيات في غير موضع من كتابه الكريم ولذلك ذيله هنا بقوله : ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ حيث يقول عز وجل : ﴿ربكم الذي يُزْجِي لكم الفُلْكَ في البحر لتبتغوا من فضله ، إنه كان بكم رحيما . و إذا مسَّكم الضُّرُّ في البحر ضلَّ من تَدْعُونَ إلا إياه فلما نجَّاكم إلى البَرِّ أعرضتم ، وكان الإنسان كفورا * أفأمنتم أن يَخْسِفَ بكم جانب البر أو يرسلَ

عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا. أم أمِنتم أن يعيدكم فيه تارةً أخرى فيرسِلَ عليكم قاصفا من الريح فيغْرقَكم بما كَفَرْتُمْ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعًا﴾ وكما قال عزل وجل: ﴿هو الذي يُسَيِّرُكُمْ في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بهم بريح طيبة وفرِحُوا بها جاءتها ريحٌ عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظَنُّوا أنهم أُحيطَ بهم دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدينَ لئن أنجيتنا من هـٰذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يَبْغونَ في الأرض بغير الحق، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم مَتَاعَ الحياةِ الدنيا ثم إلينا مرجعكم فنُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تعملون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أمَّنْ يَهْديكم في ظلمات البر والبحر ومن يُرْسِلُ الرياح بُشْرًا بين يَدَيْ رحمته، أإلَهٌ مع الله، تعالى الله يشركون﴾ وقد قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه: حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعوذ بوجهك، قال: ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ويُذيقَ بعضكم بأس بعض﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا أهون أو هذا أيسر، وقال البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيحه: حدثنا عليُّ بن عبد الله حدثنا سفيان قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: لما نَزَلَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: أعوذ بوجهك فلما نزلت: ﴿أو يَلْبِسَكُمْ شيعا ويُذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال: هاتان أَهْوَن أو أيسر وقال في كتاب التوحيد من صحيحه: حدثنا قتيبةُ بن سعيد حدثنا حماد بن زيد عن عمرو عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قل هو القادر على

أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم: أعوذ بوجهك، فقال: ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أعوذ بوجهك قال: ﴿أو يَلْبِسَكُمْ شيعا﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هذا أيسر وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن هذه العقوبات أربعة أنواع حيث عدَّ قوله عز وجل: ﴿أو يلبسكم شيعا﴾ عقوبة من هذه العقوبات كما عدَّ قوله عز وجل: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ عقوبة أخرى حيث قال رسول الله ﷺ كما جاء في رواية البخاري من طريق علي بن عبد الله هاتان أهون أو أيسر وقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث ثَوْبَانَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله زَوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنَّ أمتي سَيَبْلغُ مُلْكُها ما زُوي لي منها، وأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأحمرَ والأبيضَ، وإني سألت ربي لأمتي ألاَّ يُهْلِكَهَا بِسَنةٍ بِعَامَّةٍ، وألا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا مِنْ سِوَى أنفسهم فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وإن ربي قال: يا محمد: إني إذا قَضَيْتُ قضاءً فإنه لا يُرَدُّ وإني أعطيتك لأمتك ألا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وألا أُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا من سوى أنفسهم يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها ـ أو قال مَنْ بَيْنَ أقطارها حتى يكون بعضهم يُهْلِكُ بعضا وَيَسْبِي بعضهم بعضا. كما أخرج مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مرَّ بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصَلَّيْنَا معه، ودعا ربَّه طويلا ثم انصرف إلينا فقال صلى الله عليه وسلم: سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدةً، سألت ربي ألا يُهْلِكَ أمتي بالسَّنَةِ فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغَرَق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فَمَنَعَنيهَا ـ والمقصود أن الله تبارك وتعالى استجاب لرسوله ﷺ فلن يسلط على أمته عذاب استئصال يأتيها من فوقها أو من تحت أرجلها، وهذا لا يمنع أن

يخسف الله بـواحد أو أكثر مـن هذه الأمـة أو أن ينزل عذابـا من السماء على واحد أو أكثـر من هذه الأمة، وقولـه تعالى: ﴿وكَذَّب بِهِ قَـوْمُكَ وهو الحقُّ، قل لَسْتُ عليكم بوكيل﴾ أي وكـذبت قريش بما جاءهم بـه الصادق الأمين محمـد ﷺ من القرآن العظيم والـذكر الحكيـم الذي صرَّفنـا فيه من الآيـات لعلهم يتـذكـرون وضربنـا لهم فيـه من كل مثل لعلهم يـرتـدعـون عن غيهم وضـلالهم، وقـد بلغَ هذا الـذكـر في الحقيـة أعلى الدرجـات، لكن قلـوبهم الجاحـدة عميت عن المسـارعـة إلى قبول هـذا الحق، فأخبرهم أيها الـرسـول الكـريم أنك لست بمسئـول إلا عن تبليغهم رسـالـة ربك، وأمـا هـدايتهم فليست بيـدك، ولَسْتَ بمسيطـر على قلوبهم قـال ابن كثير رحمه الله: يقـول تعالى: ﴿وكذَّب به﴾ أي بالقـرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان ﴿قَوْمُكَ﴾ يعنى قـريشـا وهـو الحقُّ أي الـذي ليس وراءه حـقٌّ، ﴿قل لستُ عليكم بـوكيل﴾ أي لستُ عليكم بحفيظ، ولسـتُ بمـوَكَّلٍ بكم، كقـولـه: ﴿وقل الحقُّ من ربكم فمن شـاء فليـؤمن ومن شـاء فليكفـر﴾ أي إنما عليَّ البـلاغ وعليكم السمعُ والطاعةُ، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة اهـ وقـوله تعالى: ﴿لكل نبأ مستقر﴾ هذه الجملة القليلـة الحروف قـد شملت من المعـاني مـا تعجـز الأقـلام عن تسطيره من الحكمة البالغة والمعجزة الظاهـرة وأصدق الأمثال السائرة ولم يسمع نظيرها في غير القرآن الكريم، وقد اشتملت على الـوعد والوعيد والترغيب والترهيب، فكل خبر يلفت انتباه النـاس لا بد وأن يُعْرَفَ في المستقبل صدقـه أو كذبه، وقـد اشتملت أخبار القـرآن العظيم وأخبـار الرسـول الكريم ﷺ على أمـور دنيوية وأخـروية، ولم يتخلف خبر عن موعده إذا جاء أجلـه، كالإخبار عن القتال بين فـارس والروم وغلبة الـروم في قوله عـز وجل: ﴿غُلِبَتِ الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. في بضع سنينَ، لله الأمر من قبل

ومن بعد، ويـومئذ يفرح المؤمنـون * بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العـزيز الـرحيم * وعد الله لا يخلف الله وعـده ولكنَّ أكثر النـاس لا يعلمون﴾ وقـد وقعت، وكـالإخبار عما يقـع يوم بـدر، وقـد وقع، ولذلـك قال عـز وجل: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولتعلمُنَّ نبأه بعـد حين﴾ ولـذلك قـال عز وجل هنـا: ﴿وسـوف تعلمون﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا، أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

بعد الترغيب في مجالسة الصالحين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وزيادة تكريمهم بتبشيرهم بفضل الله عليهم بأنه من عمل منهم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم، شرع في الترهيب من مجالسة من يستهزئ بكتاب الله، ويكفر به أو يخوض في حديث يريد به إيذاء رسول الله ﷺ مُبيِّنًا رفع الإصر عن الذي يجلس في مثل هذا المجلس ناسيا هذه الوصية، مرشدا له بالقيام من مثل هذا المجلس عند التذكر، وأن الذين يخشون ربهم لا يتحملون شيئا من أوزار الفاسقين، حيث يقول عز وجل: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿أولَئك الذين أُبْسِلُوا بما كَسبُوا لهم شراب من حميم وعذابٌ أليم بما كانوا يكفرون﴾ والمخاطب بقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ هو كل فرد فرد من آحاد أمة محمد ﷺ ويدخل في عمومهم رسول الله ﷺ دخولا أوليا، ومعنى «يخوضون في آياتنا» أي يندفعون فيها على غير بصيرة فيستهزئون بها ويكذبونها، وأصل الخوض هو المشي في الماء

الضحل القليل على الأرض لا عُمْقَ لـه، ويستعمـل في كل منـدفع في شيء على غير بصيرة لأن الخائض لا يـرى موضع قـدمه في المخـاضة، فهـو يضع قدمـه حيث لا يدري وقد يقع في الهاوية، قال العلامة ابن منظـور في لسان العـرب المحيط: والخوض: المشي في الماء، والموضعُ مخاضـة وهي مـا جـاز الناس فيها مشاة وركبانا، وجمعهـا المخاض والمخاوض أيضا، عن أبي زيد، وأخضت في الماء دابتي وأخـاض القـومُ أي خـاضت خَيْلُهُمْ في الماء، وفي الحديث: رُبَّ متخـوض في مـال الله تعـالى؛ أصل الخوض: المشيُ في الماء وتحريكـه ثم استعمل في التلبس بـالأمـر والتصرف فيـه، أي رُبَّ متصرف في مال الله تعالى بما لا يرضاه الله، والتخوض تَفَعُّل منه، وقيل: هو التخليط في تحصيله من غير وجهه كيف أمكن، وفي حديث آخر: يتخوضون في مال الله تعـالى. والخوض: اللَّبْسُ في الأمـر، والخوضُ من الكـلام: ما فيـه الكـذبُ والباطل، وقد خاض فيه، وفي التنزيل العزيز: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنـا﴾ وخاض القـوم في الحديث وتخاوضوا أي تفـاوضوا فيـه، وأخاض القـوم خيلهم إخـاضـة إذا خـاضـوا بها الماء، والمَخَـاضُ من النهـر الكبير: الموضِعُ الذي يتخضخض ماؤه فَيُخَاضُ عند العبـور عليه: ويقال المخاضة بالهاء أيضا. اهـ ومما يدل على أن الخطـاب في قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنـا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديـث غيره﴾ هو للعموم وإن كان واردا بلفظ الواحد قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وما على الذين يتقون من حسـابهم من شيء﴾ قـال ابن كثير. رحمه الله وقـولـه: ﴿وإذا رأيت الـذين يخوضون في آياتنا﴾ أي بالتكـذيب والاستهزاء ﴿فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿وإما يُنْسِيَنَّكَ الشيطان﴾ والمراد بذلك كل فرد فرد من آحاد الأمة ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير موضعها، فإن جلس

أحد معهم ناسيا ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ بعد التذكر ﴿مع القوم الظالمين﴾ ولهذا ورد الحديث: رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، وقال السدى عن أبي مالك وسعيدُ بن جبير في قوله: ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ قال: إن نسيت فذكرت فلا تقعد معهم، وكذا قال مقاتل بن حيان، وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وقد نَزَّلَ عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آياتِ الله يُكْفَرُ بها ويُسْتَهْزَأُ بها فلا تقعدوا معهم حتي يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذًا مثْلُهُمْ﴾ الآية، أي إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم فيما هم فيه اهـ ولا شك أن قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ قد نزل بمكة قبل الهجرة، ولم يكن في مكة إلا المؤمنون والكافرون فلم يكن أحد من المؤمنين إذا جلس مع من يخوضون في آيات الله يرضى أبدا عنهم أو يوافقهم، ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أما قوله تعالى: ﴿وقد نزَّلَ عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ الآية فقد نزل بالمدينة وقد كان فيها مؤمنون وكفار ومنافقون، ولا شك أن المنافقين كانوا يفرحون بما يصدر عن الكفار من الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، لذلك شدَّدَ الله عز وجل النكير على من يجلس مع من يخوضون في آيات الله ويوافقهم بقلبه، وإن أظهر الإسلام وهو منافق فقد حكم بأنه مُسَاوٍ ومماثلٌ لهؤلاء الكافرين الخائضين حيث قال عز وجل: ﴿إنكم إذًا مِثْلُهُمْ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ ومذهب عامة أهل السنة والجماعة جواز وقوع النسيان من رسول الله ﷺ في بعض الأفعال وإن كان معصوما من نسيان ما أمر بتبليغه حتى يُبَلِّغَهُ صلى الله عليه وسلم، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إنما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أنْسَى كما تَنْسَوْنَ،

فإذا نسيتُ فذكِّروني. وإسناد التَّنْيسة إلى الشيطان في قوله تبارك وتعالى ﴿وإما يُنسِينَّك الشيطان﴾ هو ظاهر في حق غير المعصوم من الشيطان من الداخلين في عموم الخطاب مع لفت الانتباه إلى الأدب في إسناد الخير إلى الله عز وجل وإسناد الشر إلى الشيطان على حد قوله تبارك وتعالى في قصة أيوب عليه السلام: ﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نَادَى ربَّه أني مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وعذاب﴾ ومعنى قوله عز وجل ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولَكن ذِكْرَى لعلهم يتقون﴾ أي وليس على المؤمنين الذين يتقون ربهم شيء من أوزار الخائضين الظالمين لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، فلكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، وإنما نَهَيْنَا المؤمنين عن الجلوس مع الخائضين وأمرناهم بالقيام من مجلس هؤلاء حتى يَكُفُّوا عن الخوض في آيات الله، لما في ذلك من ردع هؤلاء الخائضين، ويُعْتبرُ هذا القيامُ نوعا من أنواع العقوبة والتعزير كما يدخل فيما يسمى بالحرب النفسية في هذا العصر الحديث، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وذَرِ الذين اتخذوا دينهم لَعِبًا ولَهْوًا وغرتهم الحياةُ الدنيا، وذكر به أن تُبْسَلَ نَفْسٌ بما كَسَبَتْ لَيْسَ لها من دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شفيعٌ وإن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَ يُؤْخذْ مِنْها﴾ الآية حضٌّ لرسول الله ﷺ وللمسلمين على الصبر على ما يلاقونه من تعنت الكفار وأذاهم، وترغيبٌ في الإعراض عنهم بعدم الحزن على ما يصيبهم من استهزاء المشركين بهم، وأن على المسلمين أن يُوَالُوا تذكير هؤلاء الكفار ووعظَهم وترهيبهم مما توعد الله عز وجل به أعداءه من الشراب الحميم والعذاب الأليم، وهذا المقام الكريم شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿فأعرض عنهم وَعِظْهُمْ وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا﴾ وقد وصف الله تبارك وتعالى الخائضين في آياته بأنهم اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا، وفي هذا تقبيح لمنهجهم وتنفير من سلوكهم، واللَّعِبُ ضد الجِدِّ ويقال لكل من عمل

عمـلا لا يُجْدِي عليه نفعـا إنما أنت لاعب، واللَّهْـوُ ما تشـاغلتَ به عما هـو أجـدى عليك منـه، وشرُّ اللعب واللهـو أن يَعَضَّ الإنسـان بالنـواجـذ على أسباب تهلكته في العاجلة والآجلة، وأن يجعل ذلك دِينًا له ومنهجا يحارب به من يدعوه إلى سعادة دنياه وأخـراه، وهذا العمل لا يكون إلا من مغرور، ولما كان هؤلاء الخائضـون في آيات الله المستهزئون بشريعة الله قـد اختاروا أسباب شقوتهم، ولم تتعلق آمـالهم بغير الحياة الـدنيا الزائلـة الفانيـة وصفهم الله عز وجل بأنهم اتخذوا دينهم لعبـا ولهوا وغرتهم الحيـاة الـدنيا، لأن مَنْ لَهَا بمتـاع زائل عن النعيم السرمـدى الذي لا يفنى ولا يـزول وهو مع هـذا صائر إلى أن يرتهن بعمله هذا في سجن جهنم خالدا مخلدا فهو لا شك مغرور وقد أمر الله رسوله ﷺ ودعـاة الهدى أن يُحذِّروا هؤلاء المغرورين من عـذاب الله فقال عز وجل: ﴿وذكِّـر بـه أن تُبْسَلَ نفس بما كسبـت ليس لها من دون الله وليٌّ ولا شفيعٌ و إن تَعْـدِلْ كلَّ عَـدْلٍ لا يـؤخـذ منهـا﴾ ومعنى ﴿أن تُبْسَل نفس بما كسبت﴾ أي أن تـرتهن وتحبس نفس بما اجترحت من الخوض في آيـات الله والاستهـزاء بشريعـة الله قال ابن كثير رحمه الله: يقـول تعـالى: ﴿وذر الـذين اتخذوا دينهم لعبـا ولهوا وغـرتهم الحيـاة الـدنيـا﴾ أي دَعْهمْ وأعـرض عنهم وأمهلهـم قليلا فإنهم صائرون إلى عـذاب عظيم، ولهذا قال: ﴿وذَكِّرْ به﴾ أي ذكر الناس بهذا القرآن، وحَذِّرْهُمْ نقمةَ الله وعذابَـهُ الأليم يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿أن تُبْسَلَ نفس بما كسبت﴾ أي لئلا تُبْسَـلَ، قال الضحاكُ عن ابن عباس، ومجاهدٌ وعكرمـة والحسنُ والسدى: تبسل: تُسْلم وقال الوالبي عن ابن عباس: تفتضح، وقال قتادةُ: تحبس، وقال مَـرَّةَ وابنُ زيد تُؤْخَذ، وقال الكلبي: تُجْزَى، وكُلُّ هذه الأقوال والعبارات متقـاربة في المعنى، وحاصلها الإسلام للهلكة والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلـوب كقوله: ﴿كلُّ نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين﴾ وقوله: ﴿ليس لها من دون الله

وليٌّ ولا شفيع﴾ أي لا قريب ولا أحد يشفع فيها، كقوله: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ وقوله: ﴿وإن تعدل كلَّ عَدْلٍ لا يؤخذ منها﴾ أي ولو بذلت كلَّ مبذول ما قُبِلَ منها، كقوله: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم مِلْء الأرض ذهبا﴾ الآية وكذا قال ههنا: ﴿أولَئك الذين أُبْسِلُوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرون﴾ اهـ والمراد بالحميم هنا هو الماء الذي بلغ أقصى درجات الحرارة وما يسيل من عرق أهل النار وقيحهم وصديدهم كما قال عز وجل ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ أي قد انتهى حرُّهُ، وكما قال عز وجل: ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي بلغت الغاية في حرارتها وكما قال: ﴿وسُقُوا ماءً حميا فَقَطَّعَ أمعاءهم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿كالْمُهْلِ يغلي في البطون كغلي الحميم﴾ وكما قال: ﴿وإن يستغيثوا يُغَاثوا بماء كالْمُهْل يَشوي الوُجُوهَ، بئس الشرابُ وساءت مُرْتفقا﴾ وكما قال عز وجل ﴿من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد * يتجرعه ولا يكاد يُسيغُهُ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ﴾.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَالاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضرنَا ونُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِى اسْتَهْوتْهُ الشَّياطِينُ فِى الأَرضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الهُدَى ائتِنَا، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَب العَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ واتَّقُوهُ، وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ بِالحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيكُونُ، قَوْلُهُ الحَقُّ، وَلَهُ المُلْكُ يَوْمَ ينفخ فى الصُّورِ، عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ، وَهُوَ الحكيم الخَبيرُ﴾.

بعد أن ساق الله عز وجل صورًا مشرقة مقررةً أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن البعث بعد الموت حق فالساعة آتية لا ريب فيها وهي الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها جميع السور المكية شرع هنا في توبيخ الذين يتخذون من دون الله آلهة لا تنفع ولا تضر قاطعا كلَّ طمع يُرَاوِدُ قلوبَ المشركين الذين يحرصون على ردة المسلمين عن دين الإسلام مُشَبِّهًا حيرة المشركين وانقيادهم للشياطين بحيرة من أضلته الشياطين عن الصراط المستقيم وأوقعته في المهامِهِ المهلكة وجرفته عن سواء السبيل فلا يهتدى لمسلك يدفع عنه شرا أو يجلب له خيرا، لأنه انحرف عن هدى الله عز وجل الذي يهدى به من يشاء إلى الحياة الطيبة وجنات النعيم، شارحا معالم سبيل الهدى والنجاة، بأنه الاستسلام لرب العالمين، وإقامة الصلاة وتقوى الله الذي إليه الحشر والنشر، وهو الذي لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء، عالم الغيب والشهادة الحكيم الخبير، وفي ذلك يقول: ﴿قل أَنَدْعُواْ من دُون اللهِ ما لا يَنفَعُنَا ولا يضرنا وَنُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿عالمُ الغيب والشهادة، وهو الحكيم الخبير.﴾ ومعنى قوله عز وجل ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ من دون الله ما لا ينفعنا ولا يَضُرُّنَا ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذْ هَدَانَا اللهُ﴾

أي قل يا محمد أنت ومن معك من المؤمنين لهؤلاء المشركين الذين يطمعون في ردتكم عن الإسلام ويحاولون أن تنصرفوا عن دينكم الأبلج إلى باطلهم اللجلج : أنعبد من دون الله حجرا أو خشبا أو ما شابههما من أصنام وأوثان لا تقدر على نفعنا أو ضرنا ، ولا تملك لنا أو لغيرنا أو لأنفسها جَلْبَ خير ولا دفع شر، ونترك عبادة الملك الحي القيوم الذي بيده وحده النفعُ والضرُّ والحياة والموت الذي تفزعون إليه وحده عند الشدائد وتقرون بأنه هو لا غيره الذي يُنَجِّيكم من ظلمات البر والبحر، إننا لن نفارق ديننا أبدا ولن نعبد غير الله عز وجل ولن نرتد على أعقابنا بعد أن هدانا الله عز وجل لدين الإسلام ، والمقصود من قوله عز وجل : ﴿ونُرَدُّ على أعقابنا﴾ هو الردَّة عن دين الإسلام والاستفهام للتوبيخ والإنكار أي لن ندعو غير الله الذي لا إله بحق سواه ، ولن نرتد عن ديننا أبدا ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أشد ثباتا على تمسكهم بدين الإسلام من الجبال الرواسي ، وقد سأل هرقل أبا سفيان : هل يرتد أحد عن دين محمد بعد أن يدخل فيه ، فأجابه أبو سفيان ـ وكان يومئذ مشركا ـ لا يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : أخبرني أبو سفيان أن هِرَقْلَ قال له : سألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يَتِمَّ ، وسألتك هل يرتد أحدٌ سَخْطَةً لِدينه بعد أن يدخل فيه فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القلوبَ ، لا يَسْخَطُهُ أحد . وقد ضرب الله تبارك وتعالى هنا مَثَلاً لمن أشرك بالله تبارك وتعالى تقبيحا لفعله واستهجانا لسلوكه وتنفيرا من الوقوع في مثل ما وقع فيه فقال : ﴿كالذي استهوته الشياطينُ في الأرض حيرانَ له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا﴾ كما ضرب له مثلا في سورة الحج حيث يقول : ﴿ومن يُشْرِكْ بالله فكأنما خَرَّ من السماء فَتَخْطَفُهُ الطير أو تَهْوِي به

الرِّيحُ في مكان سحيق﴾ فالمَثَلُ الأول يُشَبِّهُ المشرك بالإنسان الـذي لعبت به الشياطين وزينت له ترك سبيل الهدى، وجَرَّتْه إلى الضياع في المفاوز والمهامه، فتفرقت به السُّبُلُ وصـار لا يدري أين يتجه، وحار في أمـره، وتردَّدَ فلم يهتد إلى أي جهة يسير وازدادت حيرتـه عندما بـدأ يسمع أصواتا يعـرف أصحابها تناديه من جهـات شتى: أقبل إلينا لنهديك إلى طريق الهدى، وفي قـوله عز وجل: ﴿قل إنَّ هُدَى الله هـو الهُدَى﴾ تنبيه إلى أن بعض دعـاة الضلالـة قد يسمـون ضـلالتهم هُـدًى، مع أنهم ليســوا على شيء، فينبغي أن يعلم أن الهدى محصور في شريعـة الله ودين المرسلين، فمن دعا إلى غير ديـن الله فهو داع إلى الضلالة، ومن دعا إلى التمسك بشريعة الإسلام فهو داع إلى الهدى، أما المثل الثاني الذي ضربـه الله عز وجل للمشرك فهو تشبيهه بمن سقط من السماء فتخطفته الطير فمـزقته والتَهَمَتْـهُ فإن سلم من الطير ألقت به الـريح فسقط في الحضيض. قـال الجوهـري في الصحـاح: واستهــواه الشيطـان استهامه اهـ وقال الفيروز آبادى في القـاموس المحيط: واستهوته الشياطين: ذهبت بهواه وعقلـه أو استهامتـه وحَيَّرَتْهُ أو زينت لـه هواه اهــ وقولـه تبارك وتعالى: ﴿وأُمِرْنَـا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين * وأن أقيموا الصلاة واتقـوهُ وهو الذي إليه تُحْشَرُونَ﴾ بيانٌ لأهم معالم طريق الهُدَى والنجاة وتكذيبٌ لمن يزعم أنه من دعاة الهدى وهو يـدعو إلى غير دين الله، قال ابن جـرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿قل إن هُدَى الله هو الهدى وأُمِـرْنَا لنُسْلِمَ لرب العالمين﴾ يقول تعـالى ذكـره لنبيه محمـد ﷺ: قل يـا محمـد لهؤلاء العادلين بـربهم الأوثـان، القـائلين لأصحابك: اتَّبِعُـوا سَبِيلَنَا ولنَحْمِلْ خطـايـاكم، فإنّا على هـدى: ليس الأمـر كما زعمتم، ﴿إنَّ هُـدَى الله هــو الهدى﴾ يقـول: إنَّ طـريق الله الذي بَيَّنَـهُ لَنَا وأَوْضَحَهُ، وسبيله الـذي أمرنا بلـزومه، ودينَهُ الذي شرعـه لنا فَبَيَّنَهُ هـو الهدى والاستقامـة التي لا شك فيهـا، لا عبادة الأوثـان والأصنام

التي لا تضر ولا تنفع ، فلا نترك الحق ونتبع الباطل وأَمرنا ربنا وربُّ كل شيء تعالى وجهه لنسلم له : لنخضع له بالذلة والطاعة والعبودية ، فَنُخْلِصَ ذلك لـه دون مـا سواه من الأنـداد والآلهة ، ثم قـال ابن جـريـر رحمه الله في تأويل قـوله : ﴿وأن أقيمـوا الصـلاة واتقـوه ، وهو الـذي إليـه تحشرون﴾ : فتأويل الكلام : وأمـرنا بإقامـة الصلاة ، وذلك أداؤُهـا بحدودها التي فـرضت علينا ﴿واتَّقُـوهُ﴾ يقول : واتقـوا ربَّ العـالمين الذي أمـرنـا أن نُسْلِمَ لـه ، فَخَافُـوهُ واحـذروا سَخَطَهُ بأداء الصـلاة المفروضـة عليكم ، والإذعـان له بـالطاعـة ، وإخلاص العبادة له ﴿وهو الـذي إليه تُحْشَرُونَ﴾ يقول : وربكم رب العالمين هو الذي إليه تُحْشَرُونَ فَتُجْمعونَ يوم القيامة ، فيجازي كل عَاملٍ منكم بعمله وَتُـوَفَّى كلُّ نفس مـا كَسَبَتْ اهـ وقـولُـه تبارك وتعـالى : ﴿وهـو الـذي خلق السمٰوات والأرض بالحق ويـومَ يقولُ كُنْ فَيَكُونُ ، قَوْلُـهُ الحقُّ ، وله الملك يوم ينفَخُ في الصور ، عـالمُ الغيب والشهادة ، وهو الحكيمُ الخبير﴾ إثبـات وتأكيد على أن حشر العباد إلى الله تبـارك وتعالى يوم القيـامة حقٌّ لا ريب فيـه ، فنبَّه بقـوله : ﴿وهـو الـذي خلق السمٰـوات والأرض بالحق﴾ على أنـه لا بـد من البعث والجزاء لأنه لـو لم يكن بعثٌ ولا جزاءٌ لكـان خلقُ السموات والأرض عبثـا ولعبا وبـاطلا وخـاليـا من الحكمة لأنـه لـو لم يكن جزاء ولا حسـاب لاستوى الصالحون والفجار وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما بـاطلا ، ذٰلك ظَنُّ الـذين كفروا ، فـويلٌ للذين كفـروا من النـار . أم نجعل الـذين آمنـوا وعملوا الصـالحات كـالمفسـدين في الأرض أم نجعل المتقين كـالفُجَّار﴾ أي إن يـوم الحساب كائن لا محالـة لأنه لـو لم يكن حساب ولا بعث لكـان خلق السموات والأرض وسـائر العوالم عبثـا ولعبا ، لأنها تكون حينئذ إنما خلقت للفناء ولا يخطر هذا إلا ببال الجاحدين الأشقياء فهلاك ودمار في جهنم لهؤلاء الجاحدين المكـذبين بالبعث بعد الموت ، إنه لو

لم يكن بعث ولا حساب لاستوى الصالح والمفسد، والتقى والفاجر، ولا يمكن لعاقل أن يسوى بينهما فشتان بين من يغضُّ طرفه إن بدت له جارته وبين من ينهب النساء للخنا والفجور، وشتان بين من يَمُدُّ يد المساعدة والإنفاق للفقراء والمساكين وبين من يَمُدُّ يده لنهب أموال اليتامى والمستضعفين، وليس كلُّ من يعمل شرا يعاقب عليه في الدنيا فقد لا يقع المجرم في قبضة من يقيم العدل عليه في الدنيا، إذ قد يرتكب جرمه دون أن يطلع عليه أحد من الناس فاقتضت حكمة الحكيم الخبير أن يقيم العدل بين عباده يوم القيامة وأن يجزي كل نفس بما كسبت، والكفار مقرون بأن الله هو الذي خلق السمٰوات والأرض فإذا لم يُقِرُّوا بالبعث والجزاء كان ذلك منهم إنكارًا لحقية خلق السمٰوات والأرض، ولذلك قيَّد هنا خلق السموات والأرض بقوله: ﴿بالحق﴾ كما أشار تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله عز وجل: ﴿ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض ربنا ما خلقتَ هٰذا باطلا سبحانك فَقِنَا عذابَ النار﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ويوم يقول كن فيكون، قوله الحق، وله المُلْكُ يومَ يُنفَخُ في الصُّور، عالمُ الغيب والشهادة، وهو الحكيم الخبير. ﴾ مزيد تأكيد لحقية الحشر والنشر وأنه كائن لا محالة ببيان أنه سهل يسير على الله الذي إذا أراد شيئا إنما يقول له: كن فيكون، وهو تبارك وتعالى قد أخبر بأن البعث كائن، وقوله عز وجل حق لا مرية فيه ولا شك، وهو تبارك وتعالى مَلِكُ يوم الدين ومَالكُه، وأنه تعالى إذا أمر إسرافيل بالنفخ في الصور فنفخ فيه وَدَعَا العباد إلى ربهم خرجوا مسرعين إلى الداعي كأنهم جراد منتشر، قد أحياهم عالمُ الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن النفخ في الصور يكون مرتين مرة للإفناء ومرة للإنشاء أي نفخة للصعق ونفخة للبعث حيث يقول عز وجل: ﴿ونفخ في الصُّور فَصَعِقَ من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قِيَامٌ

ينظرون﴾ والصُّـور هو القرن والمراد به : بـوقٌ ينفخ فيه ، قال الترمذي حـدثنا سُـوَيْـدُ بن نصر أخبرنا عبـد الله بن المبـارك أخبرنـا سليمانُ التيمي عن أسلم العجلي عن بِشْر بن شَغَـاف عن عبـد الله بن عمـرو بن العاص قـال : جـاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : مـا الصُّورُ؟ قال : قَرْنٌ يُنْفَخُ فيـه . قال أبو عيسى هذا حديث حسن ، وقد روى غير واحد عن سليمان التيمي ولا نعرفه إلا من حديثه اهـ. والحمد لله رب العالمين .

الفهرس

تفسير سورة المائدة ٨١